الضّارُّ

إنه الضار "لمن فعل الأسباب التي توجب ذلكٍ"[1].

في أَسماء الله تعالى "النَّافِعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلِّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان ضد النفع والضَّرُّ المصدر والضُّرّ الاسم"[2].

الضَّرّ ضد النفع[3]، ومع أن الضر ضد النفع من حيث تقريب المعنى للقراء، إلا أن الضَّار في أسماء الله الحسنى هو النافع، فهو لا يضر لغاية الضرر ولكنه يضر لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الله سبحانه وتعالى "لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنما هو النافع الضار"[4]، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}[5].

الضار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأن المقابلة تحفظ التوازن المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، فالمقاربة التي نحاول فيها تبسيط معنى هذه الصفة من أجل توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات الإلهية، ونسبية هذه الصفة لغير الله تعالى، فمما لا شك فيه أن كثير من الناس لا يفهمون من معنى هذه الصفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكل صفاته كمال وجلال وجمال؛ وهذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها، أي الذي يُمكِّنه عقله من أن يجمع بالمعنى الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحافظة والاستنتاج والإدراك، وإلا كيف نفهم قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو

---

[1] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج ١ ، ص ٩٩.

[2] لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٤٨٢.

[3] المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٨٢.

[4] كتب العقيدة ، ج ٣ ، ص ١٥٩.

[5] الزمر ٧.

فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[6] وفي قراءة الإماميين ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ اللهِ الناسَ أي الحروب والاقتتال من أجل إعمار الأرض وهذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذا لأمر الله ومصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[7].

وعليه فإن إلحاق الضرر بالضرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجل الإصلاح في الأرض وإعمارها، حيث وضّحَ الله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبصرات، فلقد قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[8]. فالله سبحانه يوقع الضرر فيمن يريد الضرر والإفساد، لأنه سبحانه يرسل الرسل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم، فلما رفضوا دعوة الحق وكذبوا بها منكرين لدلالتها وخيرها وصلاحها، وقد وقع اليقين في قلوبهم، ولكنهم لم يذعنوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم، فكان لابد من إيقاع الضرر بهم حتى لا يتفشى في الأرض الفساد، وهذه

[6] البقرة ٢٥١

[7] البقرة ٣٠ - ٣٧.

[8] النمل ١٣، ١٤

عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضرر بالآخرين وبأنفسهم، وهذا الضرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر على هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادرا على إهلاك من هو على صفته وذلك إلى يوم القيامة فإن الله تعالى دائم الضرر للأعداء كما أن جماله وجلاله باق للأولياء والخلفاء مستمر فى كل عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك مما هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة، والإشارة فى الآية إلى أن الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين فى الدرك الأسفل من النار فانظر كيف أن الارتقاء إلى السؤدد في مرضاة الله تعالى من دفع المفاسد وجلب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدى وطريق الرشاد بمعنى أنه يحمل صفة الضار بالإضافة وهذه الصفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته.

أما الخارج عن هذا الإطار فهو من الذين يلحقهم الضرر الضار لتقويمه أو استئصاله لأنه لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فقد وصل إلى درجة من الهاوية بحيث لا يمكن أن ينتشل نفسه إلا باتباع ما يراه الخليفة من الأمر فيما هو أهل له من الأخذ على يد المارقين والسمو بهم لما يحبه الله ويرضاه لعباده، فما أقبح المرء أن يكون حسن بجسمه وشكله وغير ذلك في دينه وأخلاقه وعمله، ومثله كمثل رجل له جنة يرعاها ويعمرها ثم يضرم فيها النار، أو أن يكون اعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه كما قال الله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٩] ففضّل الإنسان بالهمم العالية اتباع الحق والتحلي بالأدب والعقل الذي يعقله عن الوقوع فى المهلكات بارتكاب المنهيات ولآثام والفواحش والمعاصي فيكون من المفسدين الذين وجب على الخليفة إلحاق الضرر بهم.

---

[٩] الجمعة ٥

وذهب كثير من العلماء إلى وجوب عدم إفراد الأسماء المقترنة كالضار والنافع والخافض والرافع ونحن نرى غير ذلك، لذلك أفردنا هذا الاسم ليتم التبيُّن والوضوح الموجب في هذه الصفة التي لا سالب فيها كما يظن البعض، ولهذا فكل ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه حق وعدل، فالضار والضرر ليس معناه من الله تعالى هو الأذى والشر، وإنما هو حكمة العدالة الإلهية في موازنة الخلق والمحافظة على استمرار الحياة عدلا، لذلك منح الله تعالى جزئية من هذه الصفة للخليفة ليقيم بها العدل في استخدام الضرر المباح الذي يعود على المجتمع بالصلاح وينهي المفاسد والانحرافات الضارة بقيم المجتمع وفضائله.

الضار: هو الذي لا يريد الضرر في الأرض، ولا يريد سفك الدماء فيها بغير حق، ولذا فهو الضار للضرر ومصدره.

الضار للضرر نافع، ولذا فالنافع هو الذي يلحق الضرر بمن يضر أو بما يضر، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[١٠]. إذن الضار جل جلاله هو الذي يبطل السحر، وذلك لأن السحر مفسدة، وفي هذا الأمر إحقاق حق.

لذلك أفردنا صفة الضار عن النافع هنا، لأننا نتكلم عن كل اسم من أسماء الله الحسنى على انفراد فنقول في معنى الضار أنه المنقص عبده لأشياء كثيرة مما يوضح بيان الحاجة إلى الخالق عز وجل كما في معنى النافع أنه يسدُّ الخلة والنقص، وقد يجوز أن يُدعى الله جل ثناؤه باسم النافع وحده وكذلك بالضار وحده حتى تظهر إيجابية الضار الذي يلحق الضرر بكل ضار ومضر، وهكذا يجوز الجمع بين الاسمين كما نجمع في الباسط والقابض وفي اجتماع هذين الاسمين وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضر من يشاء وذلك أن

---

[١٠] يونس، ٨٠ ـ ٨٢.

من لم يكن على النفع والضر قادراً لم يكن مرجوا ولا مخوفا فالنافع هو الضار وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضره حيث هو خالق الأشياء كلها خيرها وشرها ونفعها وضرها، والضر ضد النفع بمعناه اللغوي، ولكن عندما نفهم أن الضار جل جلاله يضر الضرر ومصدره، فيكون ضرره نفعا في ذاته ونفعا في الفعل المترتب عليه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا ضَرَرَ، وَلا ضِرَارَ، وَلِلرَّجُلِ أَنْ يَجْعَلَ خَشَبَةً عَلَى حَائِطِ جَارِهِ، وَإِذَا شَكَكْتُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاجْعَلُوهَا سَبْعَةَ أَذْرُعٍ"[11]. ولكل واحد من اللفظين معنى غير الآخر فمعنى قوله لا ضرر أي لا يضر الرجل أخاه وهو ضد النفع بأن يلحق به الأذى، ولا ضرار أي لا يضار كل واحد منهما صاحبه فالضرار منهما معا وهو فعل مشترك بين اثنين أو أكثر، والضرر فعل واحد يصدر من شخص بعينه، ومعنى قوله ولا ضرار أي لا يُدخل الضرر على الذي ضره ولكن يعفو عنه كقوله عز وجل: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[12] فلا يضر الرجل أخاه فينقصه شيئا من حقه، والضرار أن يجازيه على إضراره بإدخال الضرر عليه، والضر هو الهزال وسوء الحال وقوله عز وجل: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[13] فكل ما كان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضر وما كان ضدا للنفع فهو ضر، والضار هو موصل الضرر إلى من أراد من خلقه أن يفسد، إذاً فالضار هو خالق الألم الذي تقع به الموازنة في معادلة كفتي الميزان حيث لا يخلو الخلق من الضرر والشعور بالألم من هذا الضرر سواء أكان ألما ماديا في نقصان الملك والمرض الذي يأتي على الصحة والعافية وفقدان الأحبة من الذرية والقرابة أم ألما معنويا مثل الخوف والحرمان والتطلع إلى أمنيات مشروعة لا يسبب فقدانها ألما ماديا وإنما هي من باب الحرمان الذي يولد شعورا بالنقص تجاه الآخرين يكون

---

[11] المعجم الكبير للطبراني، ٩، ٤٩٨

[12] فصلت ٣٤

[13] يونس ١٢

ألمه معنويا فيدخل من هذا الجانب تحت باب الضر من حيث الظاهر ولكن من حيث الباطن فقد يبتلي الإنسان ليكون خليفة، لا لأجل أن يضل ويرتكب المفاسد، وفي هذا الأمر لا يخلو مخلوق من أن يصيبه ألمُ من هذا النوع، قال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[١٤].

أما عدم الإضرار فهو كل ما لا ألم فيه وهو الخير من فضل الله في الدارين، لذلك عندما يصيب الخليفة في الدار الدنيا من هذا النوع من الألم فهو يعلم أن الله تعالى يقول: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[١٥] فالابتلاء بالأموال والأنفس ينصب على الجانب المادي الذي يمتلكه الخلق، وأما سماع الأذى في القول وكيل التُّهم والافتراء فهو ينال من الجانب المعنوي والنفسي الذي يسبب نوعا مختلفا عن ذلك الألم، ومع هذا فإن الخليفة يدرك بحكم اختياره، وبنعمة الصفات النسبية التي أسبغها عليه الضار جل شأنه أن هذا الضرر فيه أجر عظيم، وفيه مديح لمن صبر على هذا الضرر لأن ذلك من عزم الأمور، وعزم الأمور هو من الشدائد العظيمة التي تحتاج إلى نوع خاص من الرجال من أجل احتمالها وذلك لاتصافهم بصفات تختلف كل الاختلاف عن الصفات التي يحملها الآخرون، والخليفة ليس من هؤلاء الآخرين، وإنما هو من المصطفين الذين نالوا عناية واختيارا إلهيا فميزه بذلك عن بقية الخلق، ألا ترى كيف أن الله تعالى خاطب نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}[١٦] فالله سبحانه يعلم أن

---

[١٤] النساء ٧٨، ٧٩.

[١٥] آل عمران ١٨٦

[١٦] الأحقاف ٣٥

الضرر سيلحق جميع الخلق حيث المصلح والمفسد يعيشون جنبا إلى جنب، والضرر الذي يصدر من بعض المخلوقين للبعض الآخر هو أربعة أنواع:

١- الضرر بقصد الأذى لا لفائدة وإنما لما جبلت عليه بعض النفوس من الطباع السيئة التي تتلذذ بألم الآخرين، وهذا ناتج عن كون هذه النفوس أنها لا تستطيع أن تكون علما في عالم الخيرات وتريد أن تثبت ذاتها لنفسها على الأقل، أو أنها تفشل في مجاراة الآخرين في عالم الفضيلة ولا تستطيع أن ترقى الأمور عن الدنيئة فتلجأ إلى اختيار طريق آخر تتميز به عن الآخرين حتى وإن كان في الاتجاه السلبي لذلك وجدنا (نيرون) وهو أحد القياصرة الرومان قد أحرق روما وهو حاكم لها من أجل التميز والتفرد بعمل لا مثيل له في التاريخ وهذا النوع من الضرر لا مبرر له، ولا يخرج عن الأذى المقصود لذاته من أجل إشباع رغبة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآَنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[١٧]، لذلك لما كانت هذه النفوس بهذا المستوى من السوء ولم تجد لها رادعاً يضع حدا لها فظنوا أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم مخطئون في ظنهم هذا، فمثل أعمالهم في بطلانها وعدم جدواها كمثل اللمعان الذي يحدث من سقوط أشعة الشمس وقت الظهيرة على أرض مستوية في بيداء، فيظنه العطشان ماء وهو السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا كما كان يظنه، فهؤلاء وأمثالهم إن ذُكروا فإنهم لا يذكرون إلا بسوء عملهم، وهناك نوع آخر من هؤلاء الذين يعمدون إلى الضرر لذاته حسدا للآخرين على أعمالهم الصالحة التي تكون نبراسا وقدوة يُحتذى بها، وأمثلة ذلك كثيرة، حيث نقف على هذا النوع من الضرر بقصد الحسد في قصة ابني آدم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ

---

[١٧] النور ٣٩، ٤٠

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[18] وهنا يبرز الحسد كأهم الأسباب الدافعة إلى الضرر الضار الذي يقصد منه الأذى وهو ما نهى عنه العقل والشرع لما له من مساوئ تعود على المجتمع بالخسران. قال تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[19].

٢- الضرر بالآخرين بقصد السيطرة والاستحواذ على حقوق الناس بغير وجه حق، ويحدث هذا النوع من الضرر عندما يجد البعض لديه القوة الكافية للتطاول على الحقوق دون رادع يردعه، وهو إلحاق الضرر بالزوجة المطلقة مثلا من أجل التنازل عن حقوقها أو بعض منها حيث قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[20]، فإذا طلقتم النساء فشارفن انتهاء عدتهن، فلكم أن تراجعوهن قاصدين إقامة العدل وحسن الصحبة وعدم المضارة، ولكم أن تتركوهن لتنقضي عدتهن مراعين المعاملة اللائقة عند الفراق من غير جفوة، ذلك أن بعض الرجال يلجأ إلى استخدام ما خوله الله به من القيام على المرأة لغير ما أراده الله تعالى من الإنفاق حيث أن الله تعالى أعطى

---

[18] ، المائدة ٢٧، ٣١

[19] المائدة ٣٢، ٣٣.

[20] ، البقرة ٢٣١

الرجل هذا الحق مشروطا بقوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}[٢١]، فالقيامة مشروطة بشرطين:الأول هو من تفضيل الله في تكوين الخلق والاختلاف القائم بين الذكر والأنثى من جانبين: (البيولوجي) وهو الخلق والتكوين العضوي و(السيكولوجي): وهو التركيب العقلي والنفسي، وكذلك الإنفاق من قبل الرجل على المرأة، فلا يجوز أن يكون القصد من المراجعة مضارة المرأة وتطويل عدتها من أجل التنازل عن حقها الذي فرضه الله لها، ومن يفعل ذلك فقد حرم نفسه سعادة الحياة الزوجية وثقة الناس به واستحق سخط الله عليه لما يلحقه بها من ضرر، ولا تتخذوا أحكام الله في الأسرة التي جاءت بها الآيات وجعلت زمام الأسرة بيد الرجل سببا في الأذى، ويكون الطلاق أيضا لغير سبب وجيه وإنما الغرض منه الحصول على متاع من الدنيا بغير حق مشروع فيكون ذلك، مضارة وإيذاء، إذ لا يجوز أن يكون القصد من المراجعة إلحاق الضرر بالمرأة حتى تدفع إلى التنازل عن حقها وافتداء نفسها، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه في الدنيا بإتباعه طريق الإضرار المنهي عنه، وسلوك طريق الشر وحرمان نفسه سعادة الحياة الزوجية وهو إضرار بالنفس وبالأسرة وبالتالي فهو إضرار بالمجتمع.

٣- الضرر الذي يواجه ضرر الآخرين دون فائدة وهو نوع من الانتقام والثأر، إذ أن هناك حالات من الضرر الخطأ تكون نتيجة أعمال يقصد منها المنفعة فيصدر عن ذلك ضرر خطأ نتيجة السهو أو الإهمال وهذا ما يحدث كثيرا في حياة الناس العامة كأن يسقي إنسان زرعه فيفيض الماء على بستان جاره فيلحقه ضرر غير مقصود، فيعمد ذلك الجار إلى الانتقام بضرر مماثل أو زيادة في الأذى، وكذلك حوادث السيارات التي يؤدي بعضها إلى الموت وهو قتل الخطأ مما يدفع أهل القتيل لأخذ الثأر ضررا بغير وجه حق وانتقاما لما أصابهم من ضرر عن طريق الخطأ، فهذا لا مبرر له، وإن جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}[٢٢]، فالأمر هنا ليس كذلك وما هو انتقام أذى، ولكنه انتقام عدالة

---

[٢١] النساء ٣٤.

[٢٢] الدخان ١٦

وحساب أوليّ لما قدموا من الأعمال المسيئة بحق الله تعالى وبحق نبيه عليه الصلاة والسلام فتوعدهم الله تعالى بمجازاتهم على سوء أعمالهم يوم القيامة حين تأتي السماء بدخان واضح يعم الناس ويغطيهم، فيقولون: ربنا اكشف عنا العذاب قد آمنا بدينك، فإيمانهم لن ينفعهم في ذلك اليوم، وقد جاءهم رسول الله بالرسالة الواضحة الصادقة، فكفروا به، وقالوا إنه مجنون يعلمه بعض الناس القرآن الذي يتلوه علينا، لذلك تأخذهم الأخذة الكبرى بعنف وقوة وهذا هو الانتقام الحق بسبب سوء أعمالهم فينتقم منهم في ذلك اليوم الرهيب كما انتقم من فرعون وهامان وجنودهما وقوم صالح عليه الصلاة والسلام وأصحاب الأيكة وأقوام كثيرون أهلكوا لارتكابهم المعاصي والموبقات وما كان ذلك إلا بعد الإنذار والتنبيه والدعوة إلى ترك ما هم فيه مما يوقع الضرر بأنفسهم وبالآخرين على حدٍّ سواء، فهم أنكروا واستكبروا عن الاستجابة للحق والصلاح والهدى، فاتضح بهذا أن المقصود ليس الانتقام بل هو جزاء ما اقترفوا من الذنوب والآثام والانغماس في المعاصي، وبسبب الكفر والطغيان واتخاذ آلهة غير الله تعالى وعبادة الأصنام، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده ،لأن غيره لا يملك ضرا ولا نفعا، وإفراده بها دون جميع خلقه سبحانه وتعالى، من أنبياء أو ملائكة، أو صالحين، أو جن أو غير ذلك؛ لأن الله سبحانه هو المالك الرازق القادر المحيي المميت الخالق لكل شيء، المدبر لأمور العباد، فهو المستحق لأن يعبد جل وعلا، وهو العليم بأحوالهم سبحانه وتعالى؛ فلذلك بعث الرسل لدعوة الخلق إلى توحيده والإخلاص له ولبيان أسمائه وصفاته، وأنه المستحق لأن يعبد ويعظم، لكمال علمه وكمال قدرته، وكمال أسمائه وصفاته ولأنه عز وجل النافع الضار العالم بأحوال عباده، السميع لدعائهم الكفيل بمصالحهم جل وعلا فهو المستحق لأن يعبد دون ما سواه، فإن كانوا يخشون الضرر من هذه الآلهة فهو جهل منهم، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يترك قوما إلا وأنذرهم وأرسل لهم رسلا يبينون لهم الحق وطريق الهدى، فإن أبوا فهو عناد وكبر لذلك قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}[٢٣] فالله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم ومنزه عن الإضرار، لأن ذلك من الإفساد

---

[٢٣] فاطر ٢٤

في الأرض والله تعالى أمر بإعمارها وإصلاح ما يفسده المفسدون الذين يسعون فيها فسادا وخرابا وتدميرا، لذلك فإن الضرر الموجه للضرر المقابل دون أن يعود على المجتمع بفائدة فهو من باب الإفساد وهو منهي عنه لما يترتب على ردة الفعل من ضغائن وأحقاد تنمو وتكبر كلما تكرر الفعل والفعل المضاد بغية الثأر والانتقام.

٤- الضرر من أجل الإصلاح ودفع المخاطر التي تصيب المجتمع أفرادا أو جماعات سواء كان هذا الضرر صادرا من شخص بعينه أو من قبل جماعة تواطأت قصدا على إلحاق الضرر بالآخرين، أو ما يصيب المجتمع من كوارث طبيعية من الزلازل والبراكين والأعاصير والطوفان، أو ما يلحق الناس من الضرر بسبب المعاصي، فلا يكون الضار جل شأنه ضارا بصفة فعل الضرر، وإنما ضرر عدالة لإقامة الحق، فالله سبحانه وتعالى لما كان من أسمائه الحسنى الضار فلا يمكن أن تُحمل هذه الصفة على غير الوجه الذي أراده الله تعالى من وصفها بالحسنى، فإن قيل إن الله أهلك أقواما كثيرة وهو من الضرر بهذه الأقوام، فلا نقول إلا كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[٢٤]، لذلك وجب على العباد حق الله تعالى من إيجادهم وإحيائهم ورزقهم أن يعبدوه ولا يتخذون آلهة من دون الله، لذلك قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ}[٢٥] فقد وصف آلهتهم بأقذع الأوصاف لأنها لا تملك أن تضر أو تنفع أو تقدم أي فائدة ترجى، فكيف يقبل العقل السليم هذه الأحجار أو الأخشاب بأن تكون ربًّا وهو محال، فبهذا إنما أراد الله جل ثناؤه بوصف آلهتهم بصفتها المخلوقة تنبيها على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم، فكيف يهدي إلى الرشاد من إن دُعي إلى الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادا من ضلال، وكان سواءً دعاء داعيه إلى الرشاد وسكوته عنه، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له، وهذا يعني عدم التمييز بين ما يضره مما لا يضره، وإنما الرب

---

[٢٤] الذاريات ٥٦، ٥٨

[٢٥] الأنبياء ٦٦

المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه. وكذلك من براهين أن الضار هو الله تعالى معرفة أوصاف المخلوقين وقدراتهم حتى وإن كانوا آلهة يعبدون مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكل مخلوق، وهو الرازق لكل مرزوق، المدبر للأمور كلها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كل شيء.

إن الاعتقاد والإقرار بأن الإنسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا بإرادة الله تعالى هي من متممات الإيمان، فالله رب كل شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وهو المحيي المميت النافع الضار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ليس له في ذلك شريك ولا يملك مخلوق من الأمر شيئا فقد أطلق الله تعالى العنان للخلق في ملكوته إن استطاعوا فعل شيء خارج عن إرادته فليفعلوه حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}[٢٦] فالله يعلم أن بعض النفوس طبعت على الأذى والشر فكان هذا موقف التحدي لأمثال هؤلاء إن كانوا يستطيعون الضر لفعلوه من أجل أن يعلو بعضهم على بعض، ولا يكون ذلك إلا بعلم الله وإرادته وتقديره لحجم هذا الضرر أو ذاك، فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أحفظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجتمعوا على أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"[٢٧] وهو دليل أن الضرر المطلق بيد الله تعالى وليس من أجل الضرر نفسه وإنما من أجل دفع

---

[٢٦] الرحمن ٣٣

[٢٧] مسند أحمد ، ج ٦، ص ٦٩

مفسدة أو جلب منفعة، ودفع المفاسد بالضرر كثيرة أولها وأعلاها رتبة إعلاء كلمة التوحيد فقد أرسل الله الضرر على قوم نوح عليه الصلاة والسلام من أجل دفع ضرر الكفر عن الذين آمنوا، ولا يدفع ذلك إلا ضرر مثله أو أشد منه حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٢٨]. لقد صب الله تعالى العذاب أو الضرر، سمه ما شئت على قوم نوح عليه الصلاة والسلام وخرج الماء وارتفع من الأرض وهطل من السماء، وحتى يكون هذا الضرر نافعا للمؤمنين ضارا للكافرين، فقد أمر الضار سبحانه وتعالى نوحا عليه الصلاة والسلام أن يحمل من كل ذكر وأنثى من جميع أنواع المخلوقات من كل زوجين اثنين من أجل تحقيق مصداقية فعل الضرر أنه ليس المقصود منه ذاته لذاته، وإنما هو الإصلاح بفعل الضرر، لذلك جاز الفعل وحسن موقعه وتوقيته لإقامته حجة و إبطال باطل وإحقاق حق ونصرة مظلوم من حيث أنه قرر مبدأ تحمل كل إنسان مسؤولية عمله وما جنت يداه، إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وكذلك اتقاء الضرر من الله تعالى أنه أمر واجب لأنه لا سبيل إلى صون الأرواح والنفوس من الهلاك إلا بسبب أو واسطة، وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو أمر مباح شرعا لأن الله تعالى يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٢٩] إذاً فهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه دارا يسكنها، أو يكون ذلك تعليما له ولمن بعده في كيفية اتقاء الضرر الواجب، ولا

---

[٢٨] هود ٤٠، ٤٤

[٢٩] البقرة ١٩٥

يكون ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به، فإن الله تعالى أعلم نوحاً عليه الصلاة والسلام بالضرر الذي سيقع وأعلمه طريقة اتقائه فمعنى ذلك أنه منجاة للمؤمنين وعبرة للكافرين، وإضافة إلى ما ذكرنا فإن هذه الآية دلت على صحة القول بالضرر الواجب الدافع للضرر الحاصل، لأنه تعالى أخبر بأنهم لا يؤمنون بعد ذلك، فلو حصل إيمانهم مع بقاء ضررهم وامتناع ضرر الله بهم يكون هذا الخبر من وجه النقيض، وهذا محال، ولو أنهم آمنوا وامتنع ضررهم ونزل ضرر الله بهم على تلك الصورة لكان من الظلم وهو محال على الله أيضا، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر الله في الأرض فوجب عليه أن يدفع الضرر بالضرر حال وقوعه أو استشعاره قبل وقوعه لما في ذلك مصلحة للرعية في دفع المفاسد عنها وجلب المصالح والمنافع لها في المكان والزمان الذي يراه.

وعليه فالضار جل جلاله: هو الذي يضر بالضرر والضار من دونه، لأجل النفع، ولهذا فالضار هو النافع، الذي يضر الضرر حتى النهاية، وهو الذي يقذف بالحق على الباطل فيدمغ حتى يزهقه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[٣٠].

ولأن الضار جل جلاله ضرره نفع فهو كائد كيد المكيدين وما كر بمكرهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[٣١]، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[٣٢].

الكيد فعل ضرري، والمكر كذلك فعل ضرري، والفرق بين كيد وضرر البشر، وبين كيد ومكر الله أن البشر يكيدون العمل الصالح ويمكرون به وبمن يقوم به، وهذا العمل الضرري

---

[٣٠] الأنبياء ١٦ ـ ١٨.

[٣١] الطارق ١٢٥ ـ ١٧.

[٣٢] آل عمران ٥٤.

مفسدة، ولهذا جاء ضرر الله ببطلان الكيد والمكر البشري بالآخرين، مما يجعل الضرر الأول إعاقة للحق، والضرر الثاني ترسيخا للحق، ولهذا فإن الضار هو النافع جل جلاله.

إنَّ المعتمد في إثبات أسم الضار لله سبحانه وتعالى وكون ذلك من الأسماء الحسنى وظاهر الاسم يفهم منه غير الصفة الحسنى فسنبسط فيه القول بشيء من التفصيل في هذا المكان إن شاء الله فنقول: في إثبات الصفة الحسنى للضار جل شأنه واتصاف الخليفة بنسبية هذه الصفة، أنه لو كان فعل الضرر حسنا أو قبيحا لذاته فالمفهوم من كونه قبيحا وحسنا ليس هو نفس ذات الفعل، وإلا كان من علم حقيقة الفعل علمنا بحسنه وقبحه قبل وقوعه، وليس الأمر كذلك لجواز عدم علم حقيقة الفعل، ويتوقف العلم بحسنه وقبحه على النظر والموقف كقبح الصدق الضار، مثل الذي يمشي بالنميمة وهو صادق فيما نقل عن القائل وإنما أراد بذلك الفتنة فأصبح الصدق ضارا، وحسن الكذب النافع الذي يصدر من شخص ينوي إصلاح ذات البين فيتقول على شخصين بينهما خصومة كلاما حسنا لم يقله أحدهما في حق الآخر وبذلك تزول الأضغان فيتحول مفهوم الكذب عن الضرر، وإن كان مفهوم الصفة زائدا على مفهوم الفعل الموصوف بهذه الصفة من الضرر فهي صفة معنوية تظهر وجوديتها في وجود الأشياء التي تقع تحت تأثير فعل الضرر لأمر أراده الضار التي تتجلى من خلالها صفته جل شأنه، لأن الفعل قبل وقوعه، هو لا حسن ولا قبيح، ولا يمكن أن يكون صفة للعدم المحض، لأن فعل الضرر قبل وقوعه بالإرادة هو قائم بالمشيئة ويخرج بالقدرة، فإن كان عدميا وجب انتفاء الصفة وهو محال، ذلك أن النصوص القطعية الدلالة والخبر المتواتر المنقول عن الثقة العدل الضابط والأحداث المشاهدة تبين صفة اتصاف الموصوف بالصفة، فمثال الأول ما جاء به القرآن الكريم من تلك النصوص الكثيرة في آيات التوحيد والخلق كقوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[٣٣] فهذه أدلة الخلق حيث يرى المتأمل فيها أن الله تعالى جعل في الأرض جبالا ثابتة تحفظها أن تضطرب، وجعل فيها

---

[٣٣] النحل ١٥، ١٧

أنهارا تجرى فيها المياه الصالحة للشرب والزرع، وطرقا ممهدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم، وجعل علامات ترشد الناس في أثناء سيرهم في الأرض، وهم في ذلك يسترشدون في أثناء سيرهم بالنجوم التي أودعها السماء إذا عميت عليهم السبل والتبست معالم الطرق، فهل يستوي في نظر العقل السليم التسوية بين القادر والعاجز فيجعل من يخلق هذه الأشياء كمن لا يستطيع خلق أي شيء، فهذه الآيات من خلق الله ونعمته فهو الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم وهو الذي أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون الشجر والنبات وهذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلود، إن هذا الماء ينزله الله من السماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات وتجعلونه رزقا لكم ونعمة وحجة عليكم، وإن فيما ذكر من الآيات الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى فهي لا تحتاج إلى دليل غيرها، ومن آيات الخلق التي تدخل تحت مدلول الدلالة القطعية أن جعل لكم الليل لباسا ومهيأ للراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، والشمس تمد بالدفء والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات البر والبحر، إن في كل هذه النعم والدلائل لآيات لقوم لهم عقول تدرك وتتدبر ما وراء هذه الظواهر من قدرة، ومن آيات الخلق التي لا تحصى، ما خلق الله في الأرض من أنواع الحيوان والنبات والجماد، وجعل في جوفها من المعادن المختلفة الألوان والأشكال، وجعل كل ذلك لمنافعكم، ومن هذه النعم الكبرى نعمة البحر وما فيه من أنواع الحيوان، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على الخلق بهذه الأدلة التي لا يحتاج الوقوف على دلالتها أكثر من النظر والتأمل، وأما الخبر المتواتر فما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث عن الغيبيات في العقائد الإسلامية كالجنة والنار والبعث والنشور والحوض والصراط مما جاءت به النصوص القرآنية، يؤكدها ما أخبر به أصحابه وتحققت في حصولها لهم، فقد جاء في الحديث أن عليا رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال انطلقوا حتى

تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٣٤]؛ وأما الخليفة في هذا الجانب فقد أوتي من الفراسة والعلم والكشف ورجاحة العقل وإصابة الرأي وبعد النظر في الأمور الدنيوية والأخروية بما يتناسب مع اختيار الله له ليكون خليفة.

وأما الأحداث المشاهدة فما يقع من كوارث تصيب البشر والتي يعزوها المتتبعون إلى العوامل الطبيعية من تغير أحوال البيئة والتضاريس والأنواء الجوية والتلوث والإخلال بموازين الطبيعة مما يؤدي إلى الزلازل والعواصف والأعاصير التي تفعل الأفاعيل، ولم ينتبهوا إلى ما جنت أيديهم من الآثام التي توقع الضرر بالآخرين، فكان حقيقا على الله تعالى أن يدفع الضرر بالضرر، وما إعصار تسونامي إلا من هذا القبيل، وإن كان البركان والماء والريح هو الذي أدى إلى هذه النتيجة إلا أن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}[٣٥] والضار جل شأنه يظهر في آيات ومعجزات الضرر الحاصل من المشاهدة بالبصر وانطباع صورة الضرر الواقعة على الأشياء لذلك كان الوجوب بحكم هذه الصفة أنها ضرر مخصوص أي لا يتعلق إلا بالموجود من خلال إدراك الآثار الناتجة عن الفعل، والموجودات اشتركت في قضايا واختلفت في قضايا من أسباب الفعل ونتائجه، فإرسال الضرر على شخص أو جماعة يكون الغرض منه التنبيه والتذكير لمصلحة من يقع عليه هذا الضرر، فإن أخذ منه الجانب الإيجابي وسخره فيما أراد الله به من الخير فيكون بذلك وقف على الضرر الحقيقي للصفة الحسنى من الضار وهذا ما يدركه الخليفة ويعلم أن الله تعالى ما أراد به من هذا الضرر إلا الخير سواء بالدعاء من أجل كشف هذا الضر وهو مثاب

---

[٣٤] صحيح البخاري، ج ١٠، ص ١٩٤

[٣٥] المدثر ٣١

ومأجور عليه من الله تعالى، أو برفع هذا الضرر عمن أصابهم من رعيته ويعلم أنه مكلف بذلك فهو خليفة الله في أرضه، ودفع هذا الضرر ورفعه عن الرعية يكون من واجباته، وبفعله هذا يكون قد نفذ ما هو مكلف به فهو من باب الطاعة لله تعالى وبذلك يكون قد نال رضى الله في أمره وفيما كلفه به، غير أن كثيراً من الخلق لا ينظر إلى الضرر بهذه العين الثاقبة في بعد النظر من المراد من الضار جل شأنه في إرادته فيكون كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٣٦] وإذا أصاب الإنسان ضر في نفسه أو ماله أو نحو ذلك، أحس بضعفه ودعا ربه على أي حال من حالاته، مضطجعا أو قاعدا أو قائما، أن يكشف ما نزل به من محنته، فلما استجاب الله له . فكشف عنه ضره . انصرف عن جانب الله واستمر على عصيانه، ونسى فضل الله عليه، كأنه لم يصبه ضر ولم يدع الله إلى كشفه، أي إذا أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة، والمقصود، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعا أو قائما أو قاعدا مجتهدا في ذلك الدعاء طالبا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة، فإذا كشف الله تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على اختلاف الإدراك والنهج والسلوك والتصرف بين الخليفة وما يعلمه من حكمة إنزال الضرر، وبين طبيعة الإنسان العادي من الرعية الذي تسيطر عليه شدة استيلاء الغفلة والشهوة وما إلى ذلك من أمور الدنيا، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أن هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء شاكرا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، فالخليفة يدرك تماما هذه المعاني الجليلة من وقوع الضرر ونزول البلاء فيستبشر بذلك خيرا لمعرفته بعظيم الأجر الذي سيناله للصبر على هذا الضرر ودفعه

---

[٣٦] يونس ١٢

عن الآخرين ويدرك بذلك أيضا أن الله تعالى قد اختاره من بين الخلق جميعا ليكلفه بما أراد أن ينفذ مشيئته في الأرض على علم فأسبغ عليه من صفاته النسبية ما هو أهل لها.

إن جميع ما قد ذكرناه من وقوع فعل الضرر واجب على المسلمين أولا معرفته من الوجه الذي أراده الله وكما يراه الخليفة، وثانيا الإيمان به والإذعان لله عز وجل والإقرار له بالعلم والقدرة وأنه ليس شيء كان ولا هو كائن إلا وقد علمه الله عز وجل قبل كونه ثم كان بمشيئة الله وقدرته، فالضار جل شأنه ينزل الضرر لا للفعل نفسه وإنما للفائدة والإصلاح ودفع الأذى، فالذين كفروا فإنما فعلوا ذلك باختيار عقولهم فصدوا عن سبيل الله فنزل عليهم الضرر الضار، والذين آمنوا فإنهم اتبعوا الهدى باختيار عقلهم أيضا فكان لهم الضرر منفعة بأن درأ عنهم شر من أراد بهم الضر، ولعلم الله المسبق بما سيحدث قبل حدوثه كتب على هؤلاء الضر من العذاب والانتقام لما فعلوا، وكتب على أولائك الضر الدافع عنهم ضرر الآخرين، وهنا يأتي دور القدرة التي قدرها الله تعالى على خلقه بعلمه المسبق من تمسك هؤلاء بباطلهم، وتوثق أولئك بإيمانهم فكانت مشيئته بأن كتب لخلقه أقدارهم بما سيفعلون بعد خلقهم.

إن الضار سبحانه وتعالى لم يجعل هذا الاسم من أسمائه الحسنى إلا لما فيه من الخير والرحمة الذي يعود على الخلق والبلاد والعباد فهو كما يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٣٧]، فهذا الأمر الذي فرضه الله على المسلمين وفيه شعور بالضرر مثل ما نظر البعض إلى عبادة الزكاة والتي سنأتي عليها ولم يدركوا أن في الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع من داخله، فإن القتال حماية له من أعدائه في الخارج، ولذلك فرض عليكم القتال لحماية دينكم والدفاع عن أنفسكم، وإن نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرها شديدا، ولكن ربما كرهتم ما فيه خيركم وأحببتم ما فيه شركم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون فلذلك وجب أن تستجيبوا لما فرض عليكم، ولو كان

---

[٣٧] البقرة ٢١٦

شاقا عليكم مكروهاً منكم، الكراهة نعت به للمبالغة كأن القتال في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له وهذه الكراهة من حيث نفور الطبع منه لما فيه من مؤونة المال ومشقة النفس وخطر الروح لا لأنهم كرهوا أمر الله تعالى، وكراهة الطبع لا توجب الذم بل تحقق معنى العبودية إذا فعل ذلك اتباعا للشرع مع نفرة الطبع فأما كراهة الاعتقاد فهي من صفات المنافقين وهو جميع ما كلفوه من الأمور الشاقة التي تكون بمجملها خيرا لكم لأن في الغزو والجهاد إحدى الحسنيين إما الظفر والغنيمة وإما الشهادة والجنة، ومن هنا نعلم كيف يكون الضرر مخالفا لمعناه، ويصبح الكلام في توضيح هذه الحقيقة من السهولة بمكان، إذ أن الأمثلة من الآيات في القرآن الكريم وضحت ذلك بما لا يدع مجالا للشك في أن الضرر إنما أراد الله تعالى به الخير من عدة وجوه:

أولها: ردع من قبل الخلق على بعضهم البعض لما جبلت عليه بعض نفوس البشر من الطمع والجشع وحب السيطرة واستعباد الآخرين بغير وجه حق فكان إيقاع الضرر من الضار جل شأنه بهؤلاء من حكمة وعدالة الضار حيث قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}[٣٨] إن الضرر الذي أوقعه فرعون جعله يتعاظم في نفسه حتى جاوز الحد في ظلمه، واستكبر في الأرض وألحق بأهلها الضرر البالغ، يصطفي بعضهم ويسخِّر بعضهم، ويستضعف من يشاء، فيذبح الذكور من أولادهم، ويستبقى الإناث، حتى أفسد وطغى وكان من المسرفين فكانت صفة الضار وفعله هو الحد الفاصل بين ما أباحه الله تعالى لخلقه، وبين من تجاوز على حقوق الآخرين في العيش والحياة فكان الضرر هو النفع والفائدة التي وضعت الأمور في نصابها الصحيح من المعادلة المنطقية في ترجيح كفة العدالة من استقامة الأمور ووضعها في ميزانها حفاظا على توازن الحياة بالنسبة للخلق، وحتى على مستوى الحياة العامة بما يخص الأسرة والعائلة الواحدة فإن القيّم على هذا المجتمع المصغر الأب فهو

---

[٣٨] القصص ٢ . ٥

المسؤول عن تربية الأسرة أو أفرادها حيث يوقع بأحدهم نوعا من الضرر إذا ما شذّ عن الأخلاق العامة فيمارس على ضرره الضرر الذي يؤدي إلى الاستقامة والصلاح، والخليفة هو القيم على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولذا فإنه يلجأ إلى استخدام الضرر النسبي الذي يتصف به من الضار المطلق في أكثر من اتجاه بغاية النفع المترتب عليه، فمن واجب الخليفة استخدام الضرر للتقويم لأن الخليفة يعلم معنى الضار المطلق فهو بعلمه هذا تقي ورع صالح يخشى الله فهو بذلك يأتي أوامر الله ويجتنب مناهيه، ولذلك يكون سلطان الضار الذي يمتلكه بمثابة الهيبة في الردع حتى دون اقتراف ذنب وإنما تحسبا فمن ذلك ما جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه أن الحسن البصري قال: "كان عمر رضي الله عنه جالساً ومعه الدرة والناس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي ولك أما سمعتها؟ قال: سمعتها، قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك"[٣٩]. فهذا يدل على بعد نظر الخليفة وخوفه على الرعية من الفتنة فلذلك يستخدم سلطان الضرر في تذكير الناس بأنهم معرضون للفتنة أو الخيلاء فيؤدبهم بالضرر حرصا عليهم ومحبة لهم، فهذا الضرر النفسي إنما هو يعود على المتضرر بخير لا يدركه هو، وإنما لما كان الخليفة من العلم بما لا يعلمه غيره ومن الحرص على الرعية أكثر منهم على أنفسهم لابد أن يكون كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ}[٤٠] فالخليفة هنا قام بواجبه اتجاه رعيته، وصبر الرعية على هذا الضرر النافع كان سببا لرضى الله عنهم بتحمله فكان دفع السيئة بالحسنة من كلا الجانبين، وكذلك لمعرفة الخليفة بأمور تغيب عن معظم الرعية فإنه يتخذ جانب الحيطة والحذر لما يتوقعه هو من إضرار الآخرين

---

[٣٩] إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٥٢

[٤٠] الرعد ٢٢، ٢٣

من غير رعيته لدفع الضرر عمن هو قائم بأمر ولايته، لأن الخليفة هو الولي، وهذا من جانب الحفاظ على سلطان الله الذي خوله للخليفة بدفع الضرر عن عباده بالأسباب حيث قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[٤١]، فهذا الإعداد من قبل الخليفة إنما يكون من باب الإعداد المباح لضرر متوقع فيكون لمواجهة الأعداء، ويكون الإعداد على قدر الاستطاعة من قوة حربية شاملة لجميع أنواع القتال، من القوة المادية من السلاح والعتاد ومستلزمات ذلك، وكذلك من القوة العلمية والخبرة والتدريب لتخيفوا بهذا الإعداد والرباط عدو اللَّه وعدوكم من المتربصين بكم الدوائر، وتخيفوا آخرين لا تعلمونهم الآن واللَّه يعلمهم، لأنه لا يخفى عليه شيء، فهذا الإعداد الضار إنما هو موجه إلى عدو خارجي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع.

وهناك ضرر جزئي يمارسه الخليفة موجه إلى بعض أفراد الرعية صونا للقسم الأكبر من الرعية في إقامة الحدود والقصاص، وإن كان هذا يلحق الضرر، فإنما هو دفع الضرر بمثله وذلك من باب تقوى الخليفة في إقامة الشرع حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٤٢]، فهذه الشرائع التي فرضها الله على عباده في أحكام القتل العمد فإنه من واجب الخليفة إقامة هذه الشرائع، حيث فرض الله القصاصَ بسبب القتل، فلا يأخذ الرعية إلا بما أمر الله به، ويمنع عمل وفعل أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد، والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرءوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه، ولكن الخليفة يوقع الضرر الذي أمر الله به عباده صونا للدماء، فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى

---

[٤١] الأنفال ٦٠

[٤٢] البقرة ١٧٨، ١٧٩

بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم اتباع هذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيفه، وعلى القاتل أداء الدين دون مماطلة أو بخس وهنا يبرز دور الخليفة على أكمل وجه في إيقاع الضرر ودفعه وتوجيهه، فهو يوقع الضرر بالقاتل نفسه ويدفع الضرر عن أهل القاتل ويوجه الضرر إلى فائدة تحقن من خلالها الدماء، وفى حكم القتل الذي فرضه الله على هذا الوجه وكلف الخليفة بتنفيذه، إنما هو تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى الحكم الذي يوجب القصاص من القاتل، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة، عذاب في الدنيا بما يراه الخليفة من العقوبة على من اعتدى، وعذاب الآخرة وهو الخلود في النار لمن قتل مؤمنا متعمدا، لذلك كانت رحمة الله عظيمة في فرض القصاص، فبفضل القصاص الذي هو من صلاحيات الخليفة وضرر هذا القصاص الذي ينزله بالجناة تتحقق للمجتمع حياة آمنة سليمة، وذلك أن من يهم بالقتل إذا علم أن في ذلك هلاك نفسه لم ينفذ ما هَمَّ به، وفى ذلك حياته وحياة من هَمَّ بقتله.

ومن هذا الباب أيضا من أنواع الضرر الذي يقوم به الخليفة ما يقع على بعض أفراد الرعية دون البعض الآخر وذلك بسبب درء المفاسد لجلب المصالح، فإذا أصابت آفة من الآفات أو حشرة ضارة بعض الزروع مما لا سبيل لدفع ضرره عن بقية ممتلكات الرعية ومحاصيلهم فمن حقه ممارسة نوع من الضرر يحفظ أموال الآخرين لأنه يعرف أن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، فيأمر بإحراق وإتلاف ما يمكن أن يصيب المجتمع بالضرر العام فيدفع ذلك بالضرر الخاص، أو أقل الضررين، وهكذا كما هو الحال عند مرض الدواجن بالفيروس الضار للبشر، فحرقها نافع لأنه قضاء على ضرر أو ضار.

ولهذا فالضار المطلق جل شأنه يدفع بالضرر الأصغر الضرر الأكبر ويكلف بذلك الخليفة فيصبح تنفيذ هذا النوع من الضرر طاعة وعبادة فمن ذلك قصة العبد الصالح مع موسى

عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[٤٣] فقد قال موسى للعبد الصالح: هل أسير معك على أن تعلمني مما علمك الله، فأجابه: إنك لن تستطيع الصبر على مصاحبتي لأنه لا علم لك بنتائج الأفعال التي سوف أقوم بها لذلك لا يمكنك الصبر على شيء لا خبرة لك فيه، ولكن موسى عليه الصلاة والسلام أبدى استعداده للصبر والطاعة، فطلب منه أن لا ينكر عليه أي شيء من أفعاله، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى وجدا سفينة، فركباها، فخرقها العبد الصالح في أثناء سيرها، فاعترض موسى عليه الصلاة والسلام قائلا: أخرقتها قاصدا إغراق أهلها؟ لقد ارتكبت أمرا منكرا وهو ضرر صريح دون سبب، قال العبد الصالح: إنني قلت لك: إنك لن تستطيع

---

٤٣ الكهف ٦٥ . ٨٢

الصبر على مصاحبتي، قال له موسى عليه الصلاة والسلام: لا تؤاخذني على نسيان وصيتك، ولا تكلفني مشقة في تحصيل العلم منك وتجعله عسيرا، وبعد أن خرجا من السفينة ذهبا منطلقين، فلقيا في طريقهما صبيا فقتله العبد الصالح، فقال موسى عليه الصلاة والسلام مستنكرا: أتقتل نفسا طاهرة بريئة من الذنوب بغير أن يقتل صاحبها أحدا؟ لقد أتيت فعلا مستنكرا، فأجاب العبد الصالح، إنك لن تستطيع صبرا على ما أقوم به من أفعال، قال موسى عليه الصلاة والسلام: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني، لأنك قد بلغت الغاية التي تعذر بها في فراقي، فسارا حتى أتيا قرية، فطلبا من أهلها طعاما، فأبوا ضيافتهما، فوجدا فيها جدارا مائلا يكاد يسقط، فنقضه العبد الصالح وبناه من جديد حتى أقامه، قال موسى عليه الصلاة والسلام: لو شئت طلب أجر على النقض والبناء لفعلت، قال العبد الصالح: هذا التعرض منك مرارا لما أفعل سبب الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمة هذه التصرفات التي خفي عليك أمرها، ولم تستطع صبرا على ما خفي حتى تعرف حقيقته وسره، وهي كالآتي:

. فأما السفينة التي خرقتها، فهي لضعفاء محتاجين يعملون بها في البحر لتحصيل رزقهم، فأردت أن أحدث بها عيبا يُزهد فيها، لأن خلفهم ملكا يغتصب كل سفينة صالحة. . وأما الغلام الذي قتلته فكان أبواه مؤمنين، فعلمنا – إن عاش – أنه سيصير سببا لكفرهما، فأردنا بقتله أن يعوِّضهما الله عنه ولدا خيرا منه دينا وأعظم برا وعطفا.

. وأما الجدار الذي أقمته – دون أجر – فكان لغلامين يتيمين من أهل المدينة، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما، وكان رجلا صالحا، فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا رشدهما، ويستخرجاه، رحمة بهما وتكريما لأبيهما في ذريته، وما فعلت ما فعلت باجتهادي، إنما فعلته بتوجيه من الله،فالضار هنا جل شأنه أعلم العبد الصالح بمقدار الفائدة المترتبة على نتائج أفعال الضرر التي أُمر بتنفيذها فالله سبحانه يقدر الخير لعباده من حيث لا يعلمون، لذلك وجب على العباد أن يرضوا بما كتب الله عليهم وأن يسلموا الأمر كله لله، وأن يعلموا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، فبعد أن علم الإنسان

ذلك وجب عليه أن يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا يبذل ما يسعه من جهده في فعل الأسباب النافعة.

ومن مسائل النفع والضرر التي فرضها الله تعالى على المسلمين هي عبادة الزكاة حيث قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[٤٤] فقد وجد البعض أن ضررا يلحق بهم في أموالهم من عبادة الزكاة علما أنه ورد الأمر بإيتائها ست وعشرون مرة في القرآن الكريم وقد قرنت جميعها مع إقامة الصلاة للدلالة على عظم أجرها، ومع ذلك منع البعض تأديتها شعورا بالضرر وغاب عنهم جانبين أولهما ما أعد الله للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٤٥] فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة الله ووجوه الخير ليس من الضرر في شيء، وإنما ينالون على ذلك ثواب الله المضاعف أضعافا كثيرة، كحال من يبذر حبة في الأرض طيبة فتنبت منها نبتة فيها سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل، عليم بمن يستحق وبمن لا يستحق، فالذين ينفقون أموالهم في وجوه البر المشروعة دون مَنٍّ أو تفاخر أو تطاول على المحسن إليه، لهم أجرهم العظيم الموعود به عند ربهم، ولا يصيبهم خوف من شيء ولا حزن على شيء، وإنما سيلحقهم الضرر في الآخرة بعدم إنفاقهم، وأما الجانب الآخر، هو الذي يعتبره مانعوا الزكاة ضررا في أموالهم إنما هو حق شرّعه الله للفقراء والمحتاجين ليدفع عنهم الضرر الذي يلحق أفراد المجتمع من تكدس الأموال في يد فئة قليلة تستأثر بهذه الأموال وتستخدمها في إضرار الآخرين، وهنا يبرز دور الخليفة بصفة

---

٤٤ البقرة ٤٣

٤٥ البقرة ٢٦١، ٢٦٢

الضار لهؤلاء والنافع لأولئك المعوزين، فيمارس الضرر عنوة لدفع الضرر الأعظم الذي سيصيب المجتمع من امتناع هؤلاء عن تأدية هذه الفريضة التي يدرك الخليفة آثارها ويعلم واجباته المكلف بها من إعمار الأرض والأخذ على يد المفسدين لعلمه بالمقاصد الضرورية لأحكام الشريعة والغاية من تشريعاتها حفاظا على الضروريات التي يعمر بها الأرض من الفساد، فقوة الخليفة وصفاته النسبية في عقيدته وفى بدنه وفى كل شيء يحتاج إلى العزم والعزيمة والمجالدة، وذلك من أجل المحافظة على أفراد المجتمع لتكون أنفسهم صحيحة قوية قادرة على أداء واجبات الدين والدنيا، لذلك يكون الخليفة قد أطاع الله فيما أمر به من إلحاق الضرر ببعض رعيته من أجل الحفاظ على المجتمع علميا وعقليا وغذائيا وصحيا بشكل خاص وذلك بسبب انتشار أمراض العصر التي تكلف أموالا طائلة، وإذا كان التداوي من المرض مطلوبا ليشفى المريض، ويصير عضوا نافعا في مجتمعه، وإذا كانت أمراض الحضارة قد انتشرت واستشرت، تقوض بناء الإنسان بعد أن تسري في دمائه وأوصاله، وإذا كان العلم الذي علمه الله الإنسان، قد وقف محاربا لهذه الأمراض والأوبئة في صورة معاهد ومستشفيات متخصصة في نوعيات من المرض في بعض أعضاء الإنسان، وإذا كان الكثيرون من الناس قد تعجز مواردهم عن مواجهة نفقات العلاج المتخصص، إذا كان كل ذلك حاصل فوجب على المجتمع أن يتساند ويتكافل، كما فرضه الإسلام وينفذه الخليفة، وكما تدعو إليه غريزة حب البقاء مع النقاء والتكافل والتعاون بين الناس في درء المفاسد والأمراض وإذا كانت الزكاة قد فرضها الله في أموال الأغنياء لتعود إلى الفقراء، فإنه لم يترك أمر صرفها وتوزيعها دون تحديد، وإنما بينها في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٤٦] وها نحن نجد أن أول الأصناف المستحقين للزكاة بترتيب الله سبحانه الفقراء بمعنى صاحب الحاجة التي لابد منها ولا يستطيع الحصول عليها فأصبح لزاما على الخليفة أن ينفق على علاج هؤلاء مما خوله الله بصفة الضرر النافع في تحصيل

---

[٤٦] التوبة ٣٤

تلك الأموال من أجل وضعها في الوجه الذي حدده الشرع، وفي الجملة أن صفة الضار هي من الوجه الإجمالي للذات الإلهية حكمة لإعمار الأرض والمحافظة على الإنسان وقد منح الله تعالى الخليفة صفة نسبية من الضار ليخلفه في أرضه بما أراد في خلقه من أمور فيها الخير لهم في الدنيا والآخرة، ليضر كل ما من شأنه أن يلحق الضرر بما هو نافع ومفيد.

ومما يدخل في باب الضرر من الأخلاق بصرف النظر عن أنها سامية أو متدنية وإنما هي قيمة أخلاقية، فالأخذ بالسامية منها يكون من الفضائل، والمتدنية تكون من الرذائل التي تدخل في باب الضرر، فالحق والباطل من هذا النوع من القيم الأخلاقية وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأننا نعرف الحق وننكر الباطل، وهذا من متممات صفة الضار بالإضافة التي يتصف بها الخليفة، وذلك لأغراض تتبعهما، ولواحق تلتبس بهما من المنفعة والضرر، فالخليفة يحق الحق ويزهق الباطل بالإضافة، وذلك كما قال الله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٤٧]. جاء الحق من التوحيد والدين الصحيح والعدل، وذهب الباطل والشرك والفساد، فالباطل مضمحل زائل دائما وذلك بوجود الخليفة وهو نصير الحق الذي يدفع الباطل بالضرر ومن هنا كان استخدام الضرر واجب لإزهاق الباطل الذي يحمل المفاسد والأضرار للمجتمع بأسره.

وكذلك الرشد والغي فهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام، وأما الثقة والارتياب فخلقان يغلبان وينفعان ويضران ويحمدان ويذمان ألا ترى أنه يقال: لا تثق بكل أحد، ولا ترتب بكل إنسان وهكذا الطمأنينة والتهمة، لأنهما في طيهما، وأما الخلاعة والوقار، فمن باب الضرر ودفعه، وكذلك التوقي والتهور، فهما خلقان في جميع الخلق، ويغلبان على الإنسان، لأن العقل يبطل أحدهما، والحس يغلب الآخر، وأما الصدق والكذب، فمن علائق النفس الكاملة والناقصة، وقد يكونان راسخين فيلحقان بالخلق، إلا أن الصدق ممدوح لنفعه، والكذب مذموم لضرره، هذا في الوهلة الأولى، وقد يعرض ما يوجب المصير إلى الكذب لينجو الإنسان به؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأولى وقف على الإضافة؛ وقد

---

[٤٧] الإسراء ٨١

نجد كذبا ينتفع به، وكما نجد من الصدق ما يكون ضارا، وأما الإخلاص والنفاق، فهما يلحقان بالخلق، ولكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس، وأما الإحسان والإساءة، فهما يعمان الأفعال والأقوال، فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين، وأما النصح والغش، فهما خلقان، وطرفاهما يتعلقان بالخلق، وكذلك الطمع واليأس، والحب والبغض، واللهج والسلو، وما شاكل ذلك من الشيء ونقيضه ما يكون أحدهما في النفع والآخر في الضرر، إلا أن بعض هذه القيم ما يمكن تسخيرها بعكس مفهوم التسمية، ولكن كيف يكون ذلك؟ فالإجابة على ذلك نعود بها إلى صفة الضار المطلقة لله جل شأنه وللضار بالإضافة وهو الخليفة، فالكيد والمكر من الأفعال التي تجلب الضرر ولكن استخدامها لمكر المكر وكيد الكيد تحول نتائج الفعل إلى فائدة ومنفعة ومصلحة، فالمكر من العبد هو تدبير سيء خفي، ومن الله تعالى ومن الخليفة هو إبطال هذه التدابير السيئة، فالذين عتوا ونفروا عن الحق استكبارا في الأرض وأنفة من الخضوع للحق والدين الذي جاء، فمكروا مكرا سيئا بتدبيرهم الشر والأذى وقادهم شيطانهم إلى الانصراف عن الدين الحق، وكان من سنة الله تعالى أن لا يحيط ضرر المكر السيئ إلا بمن دبروه، فهل ينتظرون إلا ما جرت به سنة الله في الذين سبقوهم، فلن تجد لطريقة الله في معاملة الأمم تغييرا يُطمِّع هؤلاء الماكرين في وضع من سبقهم من الأمم بما كانوا يصنعون، لذلك لن تجد لسنة الله تحويلا عن اتجاهها، فقد أوكل الله تعالى خليفته بإلحاق الضرر بهؤلاء دفعا لأذاهم ومكرا بمكرهم، لأنهم لم يرتدعوا ويتعظوا من الأمم التي سبقتهم وفعلت مثل أفعالهم، ولم يسيروا في الأرض فينظروا بأعينهم آثار الهلاك الذي أنزل على من سبقهم من العقاب لتكذيبهم وكان قبلهم من الأمم من هم أشد منهم قوة وبطشا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم تمنعهم قوتهم من عذاب الله، وما كان ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض، ثم إن بعد ذلك ترى بعض الخلق لا يكتفي بأن يضل ويصد عن السبيل وإنما يحاول أن يضل الآخرين في تحديه لسنة الله تعالى بإشاعة الضرر وهذا ما يحاوله البعض في كل زمان ومكان ونحن نقف على شواهد كثير من هذا النوع، فقد حاول البعض في زمن النبوة وعصر الرسالة أن يصدوا الناس عن طريق الهدى باتخاذهم مسجدا

ضرارا حيث قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٤٨]، فمن المنافقين جماعة بنوا مسجدا لا يبتغون به وجه اللّه، وإنما يبتغون به الضرار والكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، وأنهم سيحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن، واللّه يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم، لذلك فقد نهى الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عن الصلاة في ذلك المسجد مطلقا، أي لا تصلي في هذا المسجد أبدا لأن هذا البناء إنما يراد من إقامته إضرار المجتمع بتحريف العقيدة وإفساد الناس، وإن مسجداً أقيم ابتغاء وجه اللّه وطلبا لمرضاته من أول أمره كمسجد قُباء لجدير بأن تؤدى فيه شعائر اللّه، وفي هذا المسجد رجال يحبون أن يُطهروا أجسادهم وقلوبهم بأداء العبادة الصحيحة فيه، واللّه يحب ويثيب الذين يتقربون إليه بالطهارة الجسمية والنفسية لأن طهارة الإيمان إنما هي من باب الصلاح والتقى الذي يهدم الضرر ويدحضه، وفرق كبير بين من كان دأبه وعمله إصلاح الأمة وهداها وبين من يريد أن يهوي بها الإضرار، فلا يمكن أن يستوي في عقيدته ولا في عمله من أقام بنيانه على الإخلاص في تقوى اللّه وابتغاء رضائه، ومن أقام بنيانه على النفاق والكفر، فإن عمل المتقى مستقيم ثابت على أصل متين، وعمل المنافق كالبناء على حافة هاوية، فهو واهٍ ساقط، يوقع بصاحبه في نار جهنم، واللّه لا يهدي إلى طريق الرشاد من أصرَّ على ظلم نفسه بالكفر، وسيظل هذا البناء الذي بناه المنافقون المضرون مصدر اضطراب وخوف في قلوبهم لا ينتهي حتى تتقطع قلوبهم بالندم أو التوبة أو بالموت، واللّه عليم بكل شيء، حكيم في أفعاله وجزائه، ومن الضرر ما يقوم به بعض أفراد المجتمع غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلا، ثم الهم والإثم

---

[٤٨] التوبة ١٠٧ . ١٠٩

آجلا، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك الناس، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره، وإن كانت له فيها منفعة، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجل له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى من إرادة، فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجل الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فهؤلاء يتمنون وقوع الضرر في جميع أنحاء المجتمع من أجل فائدة شخصية أو مصلحة أنفسهم، وما ذلك إلا لفساد أخلاقهم فوجب على الخليفة تقويم اعوجاجهم بالضرر الذي يردعهم عن أمنياتهم حتى لا تتحول هذه الأمنية إلى حقيقة ويترجمونها إلى الواقع الذي يضر بالمجتمع.

ويدخل في هذا الباب من الضرر نوع من العلم مع أنه من الصفات الحميدة، ولكن هذا النوع من العلم فاسد الأصل واضح الضرر مذموم وبيان علة ذم العلم المذموم تأتي من الوجهة التي يتوجه بها، وهو غير العلم النافع الذي هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب كثيرة منها أن يكون مؤديا إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات، إذ شهد القرآن الكريم له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين العباد، قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[٤٩] فالشياطين من الإنس والجن يعلّمون الناس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت، مع أن هذين الملكين ما كانا يعلّمان أحدا حتى يقولا له: إنما نعلمك ما يؤدي إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره وتوق العمل به، وهو من باب العلم من أجل الحذر وعدم الوقوع به. ولكن الناس لم ينتصحوا بهذه النصيحة، فاستخدموا ما

---

[٤٩] البقرة ١٠٢

تعلموه منهما فيما يفرقون به بين المرء وزوجه، ونحن نجد من الشياطين الفجرة من الجن والإنس من حمل هذا العلم على محمل الضرر وجعله جميلا فاتخذ ذلك ذريعة لتعليم الناس السحر وبهذا يلحق الضرر بهم، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء، وأن ما يؤخذ عنهم من سحر سيضر من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيده شيئا، وهم أنفسهم يعلمون حق العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم، وهذا العلم ضار بطبيعته لأنه نوع يستفاد من العلم بخواص معينة وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص مادته ويرصد به وقتاً مخصوصاً من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور، ومعرفة هذه الأسباب من حيث أنها معرفة، ليست مذمومة، ولكن العمل بها هو المذموم فهي ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق فهي الوسيلة إلى الشر، فالعمل بهذا النوع من العلم يكون ضررا، فكان ذلك هو سبباً في كونه علما مذموما لأدائه إلى الضرر، ومنها ما يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مضر لذاته، إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، حيث قال الله عز وجل: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}[50] فهما يجريان في بروجهما بحساب وتقدير لا إخلال فيه، فهو دقيق منتظم بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب فالسنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما والشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربع يوم وفي ذلك منافع عظيمة للناس منها علم السنين والحساب واختلاف الليل والنهار وفائدة كل منهما وهو لولاه لما حصل النفع والانتفاع، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ما

---

[50] الرحمن ٤٠

تظهر نعمتهما، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء أمر الحركة والدوران على الفصول، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق، فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، فالنبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان، ولولا النبات لما عاش الحيوان؛ والنبات هو الأصل وهو قسمان: قائم على ساق كالقمح والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار ومنها ما هو غير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشائش والعشب الذي هو غذاء الحيوان فالعلم بهذه الأمور ومثيلاتها هو دافع للضرر وجلب للمنفعة، لذلك اختار الله تعالى من الآفاق آيات منها الشمس والقمر، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤوا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحق بأن الذي حركهما هو الله تعالى كما أراد، وذكر الأرض والسماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكر من الدلائل العقلية، لذلك كان الأمر من الخليفة بمعرفة هذا الجزء من العلم واجب لدرء الضرر المترتب من عدم معرفته، وكذلك معرفة الجزء النافع منه لأجل دفع الضرر المترتب من عدم معرفته أيضا لذلك فالخليفة بصفاته النسبية وبعلمه يعرف هذه الحدود ويلحق الضرر بمن يتعداها، حيث حددها الله تعالى بقوله: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[٥١] فعلم النجوم يقتصر على جانب النفع والفائدة، فكانوا يتعلمون من النجوم ما يهتدون به في البر والبحر ثم لا يقدمون على أكثر من ذلك لأنه منهي عنه، وإنما زجر عنه لأنه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أن هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها، ويرى

---

[٥١] النحل ١٦

الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها، ويذهب ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والخليفة لأنه راسخ في العلم هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه لا فائدة من أن يتعدى الإنسان في علم النجوم أكثر ما هو مباح فيه أصلاً لأنه دخول في المعصية بتناول العلم الضار وإضاعة الوقت والعمر فيما لا طائل من ورائه، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه ضرر، وإضاعة النفيس ضرر، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه، وكثير من الأمور يجهلها الناس لذلك كان لا بد من الأنبياء والخلفاء، فالأنبياء هم الذين يبلغون الرسالة إلى أجل مسمى، والخلفاء بعد ذلك يقومون برعاية الرسالة وصونها والاستمرار بها جيلا بعد جيل قولا وتنفيذا لأوامر الله جل جلاله، وذلك بإحلال ما أحل الله واجتناب ما حرمه ونهى عنه بسبب الضرر المترتب على استخدامه أو تناوله وتعاطيه، فمن ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٥٢] فالله سبحانه وتعالى من لطفه بعباده أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث الضارة، ثم أعطى الخليفة هذا السلطان الذي يقيم به حدود الله، فيأمرهم بكل خير وينهاهم عن كل شر، ويحل لهم الأشياء التي يستطيبها الطبع، ويُحرم عليهم الأشياء التي يستخبثها الطبع كالدم والميتة التي تشكل الضرر القاتل، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التي يكون الضرر فيها غير واضح، لذلك حددها الله تعالى رحمة بالعباد، ولو ترك الناس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم، وغلبة شهواتهم، وكثرة جهلهم، وشدة نزاعهم إلى ما يرديهم ويطغيهم، حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كل ما أفسدهم بقدر قواهم، وحتى يقفوا على حد الضار والنافع، ويعرفوا فصل ما بين الداء والدواء، والأغذية والسموم،

---

[٥٢] الأعراف ١٥٧

كان قد كلفهم شططا، وأسلمهم إلى عدوهم، وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم وأنفعها لهم، ومن أجلها عدل تركيب الإنسان وسوى بنيته، وأخرجه من حد الطفولة والجهل إلى البلوغ والاعتدال والصحة، وتمام الأداة والهيئة والخلق، ولو أن الناس تركهم الله تعالى والتجربة، وخلاهم في تجربة الأمور وامتحان السموم، واختبار الأغذية، وهم على ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، وتسلط الطبيعة، مع كثرة الحاجة، والجهل بالعاقبة، لأثرت عليهم السموم، ولأفناهم الخطأ ولأجهز عليهم اختلاط الأمور، ولتولدت الأدواء وترادفت الأسقام، حتى تصير منايا قاتلة، وحتوفا متلفة، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها، والجهل بحدودها ومنتهى ما يجوز منها والزيادة فيها، وقلة الاحتراس من توليدها، فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم، ولا يجوز صلاحهم إلا بتبقيتهم ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة من معنى، ولما أن كان لا بد للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين، بين عدو عاص ومطيع ولي، علمنا أن الناس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم، ومخالفة أهوائهم، إلا بالزجر الشديد، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجل، بعد التنكيل في العاجل، إذ كان لا بد من أن يكونوا منهيين بالتنكيل معجلا والجزاء الأكبر مؤجلا، وكان شأنهم إيثار الأدنى وتسويف الأقصى، وإذا كانت عقول الناس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز، إذ كان علم الدين مستنبطا من علم الدنيا. وإذا كان العلم مباشرة أو سببا للمباشرة وعلم الدنيا غامض، فلا يتخلص إلى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة، والعناية الشديدة، مع تلقين الخليفة ورعايته لهم وعنايته بهم، ولأن الناس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم كان إرسال الرسل قليل النفع، يسير الفضل، وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحبهم للبقاء، ورغبتهم في النماء، وحاجتهم إلى الكفاية، ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون لأنفسهم معرفة ذلك وإصلاحه، وعلم ذلك جليل ظاهر سببه بعضه ببعض، كدرك الحواس وما لاقته، فهم عن التعديل وتفصيل التأويل، والكلام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز، وأجدر ألا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة، لأن علم الدنيا أمران: إما شيء يلي الحواس، وإما شيء

يلي علم الحواس، وليس الدين كذلك، فلما كان ذلك علمنا أنه لا بد للناس من خليفة يعرِّفهم جميع مصالحهم، فعلى سبيل المثال: أن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنه ضرر يلحق بالأحياء من حيث يأتي على حياتهم، ويتركون خلفهم أزواجا وأطفالا بحاجة إلى من يعينهم، ناهيك عن تمسك الإنسان بالحياة والعيش، قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا}[٥٣] إن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنه ضار من جوانب عديدة ليس للميت وإنما لأسرة الميت وصغاره وأنهم أصبحوا أيتاما، وفعل الموت وقع بإرادة الضار سبحانه وتعالى، وليس الأمر كذلك، وإنما فيه من الصلاح والعبرة والرحمة ما يغيب عن كثير من الناس وأمور كثيرة لا يدركها إلا أولو الألباب وأوّلها أنها قمة العدالة الإلهية وأن البشر متساوون في هذا كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم وسيدهم ومسودهم وذكرهم وأنثاهم، ورسولهم وحكيمهم، وأجمل ذلك كله عز وجل حيث قال: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٥٤] فما من نفس إلا ويأتي الموت عليها وهي على ما نرى أعلى درجات الديمقراطية على مستوى الخلق.

الجانب الثاني: فلو ترك الإنسان دون موت وبلغ من العمر عتيا فهو محتاج إلى من يقضي له جميع حوائجه، فإذا قال قائل: أن أبناءه وأحفاده ملزمون به، فنقول له إلى متى يستطيعون القيام على خدمته ومن ثم فالجيل الرابع بعد الأحفاد وما يلي ذلك من أجيال من يتعامل معهم ويؤدي تلك الخدمات للأجيال المتراكمة، إذاً فالموت من الضار جل شأنه أصبح من باب الرحمة.

---

[٥٣] النساء ٧٨، ٧٩

[٥٤] آل عمران ٨٥

الجانب الثالث: حيث أن بعض المتوفين يتركون أبناءً قصرا وليس لهم راعٍ فهنا يأتي دور الولي للأمر أو يأتي دور الدولة بمؤسساتها العاملة، في رعاية من استخلفه الله بدفع ضرر اليتم والفقر والعوز، وفي هذا الأمر تسود الصفات الحسان بين المستخلفين فيها، من الرحمة والعدل وما إلى ذلك مما أسبغه الله عليهم وجعلهم خلفاء في أرضه، لذلك ضرر الموت إن كان ضررا فإن الخليفة المكلف يقوم بدفع هذا الضرر، وأما الذين يحاولون الفرار من الموت اتقاء ضرره فقد غابت عنهم هذه الأمور، في الوقت الذي لا مفر منه، إنه حق من الله تعالى انعم به على عباده، فلا مفر ولا خوف منه، الخوف فقط يكون إذا جاء الموت والعباد لم يكونوا على الطاعة والشهادة، فالموت الذي تفرون منه ملاقيكم أينما كنتم وهو حق، ولو كانت إقامتكم في حصون مشيدة وإن هؤلاء الخائرون لضعف إيمانهم يقولون: إن أصابهم فوز وغنيمة هي من عند الله، وإن أصابهم جدب أو هزيمة يقولون هذا من عندك وكان بشؤمك، ولكن كل ما يصيبكم مما تحبون أو تكرهون هو من تقدير الله ومن عنده اختبار وابتلاء، فما لهؤلاء الضعفاء لا يدركون النفع والفائدة من وجه الضرر، إذ أن بعض الخلق عندما تصيبهم مصيبة يقولون دفع الله ما كان أعظم، أي ما كان أعظم من المصيبة التي حلت بهم، وهو من باب دفع الضرر بضرر مثله، فما يصيبك من رخاء ونعمة وعافية وسلامة فمن فضل الله عليك، يتفضل به إحسانا منه إليك، وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك بسبب تقصير أو ذنب ارتكبته، فما أصابك من حسنة يعني من خير ونعمة فهي فمن الله و من فضل الله عليك يتفضل به إحسانا منه إليك وما أصابكم من سيئات و من شدة ومكروه ومشقة وأذى فمن نفسك يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به، فمعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك وما هو من باب الضرر في شيء، وما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب والمراد من الحسنة والسيئة في ذلك ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعله كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّـهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}[55] إن الذي أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم وجمع المشركين واقع بقضاء الله، وليظهر للناس ما علمه من إيمان المؤمن حقا، فهنا يبرز الضرر كأحد مقاييس الإيمان والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وهذا الضرر وإن ترتب عليه مقتل البعض واستشادهم، فإن خيره أكثر من ضرره، إذ أن الشهداء نالوا رضوان الله والجنة، ومن جانب آخر انكشف للخليفة وللمؤمنين أولئك المنافقون الذين هم أشد خطرا من الأعداء، فظهر نفاق الذين نافقوا، وهم الذين قيل لهم حين انصرفوا عن القتال تعالوا قاتلوا لأجل طاعة الله، أو قاتلوا دفاعا عن أنفسكم، قالوا : لو نعلم أنكم ستلقون قتالا لذهبنا معكم، وهم حين قالوا هذا القول كانوا أقرب للكفر منهم للإيمان، لأنهم ينفون وقوع الحرب مع علمهم بها مخافة الضرر، مع أنهم يعتقدون في قلوبهم أنها واقعة، والله يعلم بما يضمرون من النفاق لذلك أظهر ما يضمرون بتخليهم عن مناصرة المؤمنين، ولم يكن ذلك ضررا للذين آمنوا وإنما هو فائدة كبيرة بأن كشف الله لهم أعداء كانوا يظنوهم إخوانا لهم.

قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[56] وإن يصبك الله بسوء فلا كاشف له إلا هو، وإن يمنحك خيرا فلا راد لفضله، لأنه على كل شيء قدير فإذا أصاب اللهُ الإنسانَ بأي نوع من الألم والحزن وغيره فلا صارف يصرفه عنه إلا الله وإن يمنحه خيرا كصحة وعافية وغنى وقوة وجاه فلا راد لفضله، وهو القادر على حفظه، لأنه القدير على كل شيء، وإثبات الضرر من الله تعالى كونه الضار، أنه اثبت تعالى لنفسه كمال القدرة، كما اثبت كمال السلطان والقوة، مع كمال الحكمة والعلم والإرادة، والضرر من الله سبحانه وتعالى إنما يكون لخير يريده بعباده الصلحين، لذلك قال صلى الله عليه وسلم: "من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله"[57]

---

[55] آل عمران ١٦٦، ١٦٧

[56] الأنعام ١٧

[57] فيض القدير، ج ٦، ٢٩٦

فعلى العبد الرضى بقضائه الله وقدره، لأنه من لم يطع الله في امتثال أمره بالشكر على المصائب التي تكون وسائط في إيصال نعم الله عليه فقد أخل بشرط من شروط الإيمان، وإنما يتم الإيمان بالرضا بما قسمه الله تعالى لعبده، والله سبحانه وتعالى نفى الظلم عن نفسه وحرمه، فالإنسان لا يعلم ما هو مقدر له وما مقدر عليه، وإن لحق الضرر بالإنسان من الضار عز وجل بمفهوم قدر عقل الإنسان وعلمه، فهو ليس ضررا أراده الضار بأن يلحقه بعبده، وذلك لسبب بسيط، وهو أننا نحن بنو البشر إنما نحاول إلحاق الضرر بمن نخافه خشية على مصالحنا وما يتعلق بها من حرص على الأموال والأولاد وما يتهدد مستقبلنا وحياتنا وحياة من نقوم برعايتهم ومن هم في ولايتنا وكفالتنا، فالأمر مع الضار جل شأنه لا يستوي بهذه المقاييس، إذ لا يخشى الضار جل شأنه خلقه على ملكه، ولا أن يلحق به أحد الضرر حتى يبادره ويكون سابقا إلى إلحاق الضرر بالخلق لتلافي الضرر الناتج عن الخلق له بالمفهوم والعرف الإنساني، وهذا يعني أن المفاهيم الإنسانية قاصرة عن إدراك القضاء بالضرر على الخلق، وهنا يجب أن نوضح أن الضرر من الضار للخلق على نوعين:

النوع الأول: ضرر انتقام: وهو الضرر النافع لأهل الابتلاء، لأن الضار عز وجل يضر من يضرهم بانتقامه لهم، وشواهد هذا النوع كثيرة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}[٥٨] لقد أرسل الله تعالى رسلا إلى أقوامهم، فجاء كل رسول قومه بالحجج الواضحة الدالة على صدقه فكذَّبه قومه وظلموا الذين آمنوا بالرسل بالاعتداء والأذى، فأهلك الله الذين أذنبوا وعصوا وظلموا انتقاما لكفرهم بالله ورسله ولعدوانهم على الذين آمنوا، فقد أوجب الله على نفسه أن ينصر عباده المؤمنين،

والضرر الثاني: ضرر ابتلاء: وهو امتحان صبر المؤمنين على هذا الضرر لأن الضار تبارك وتعالى أحبهم لإيمانهم ويريد أن يزيد في أجرهم، وإذا أحب الله عبده ابتلاه، وزيادة

---

[٥٨] الروم ٤٧

الأجر لا تكون بدون سبب حيث قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[٥٩] فمن هنا كان الضار نافعا لهم في صبرهم على هذا الضرر، لذلك فإن الأجر كان على قدر المصيبة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله ابنوا لعبدي بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد"[٦٠]. فالحمد لله تعالى على الإيمان والطاعة، ولذا فإذا مات ولد العبد فإنما هو يشعر بضرر، لأن الإنسان لا يدري مغزى الحكمة من الضرر، وإنما هو يتفكر بمصيبته وبهذا البلاء الذي نزل به، حيث أن بعض الذين ينزل بهم الضرر وتصيبهم مصيبة، يبدأ يفكر بزمن ما قبل المصيبة أو البلاء الذي ينتج عنه الضرر، ويبدأ بالدخول فيما هو منهي عنه من الأماني التي يعارض فيها قضاء الله وقدره والحكمة الإلهية، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان}[٦١] وعمل الشيطان يتعارض مع المشيئة، ولا يكون الصبر على ما يشعر به أنه ضرر إلا بالحمد والاسترجاع، لذلك قال الله لملائكته الموكلين بقبض الأرواح: قبضتم ولد عبدي، أي روحه (فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده) أي أنه كالثمرة من الشجرة لأن الثمر أجمل ما في الشجر وأنفعه (فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع) أي قال إنا لله وإنا إليه راجعون. وبناء بيت الحمد هو تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد لأجل تصبره على المصائب وعدم اعتبار ذلك من الضرر، بل عدّه إياها من النعم الموجبة للشكر ثم استرجاعه وأنه هو نفسه ملك لله وإليه مصيره، وليس شيء يُضر به الإنسان أغلى عليه من الولد، لذلك فإن الله تعالى جعله فرع شجرة الإنسان، ثم ترقى إلى ثمرة فؤاده أي نقاوة خلاصته، فإن خلاصة المرء الفؤاد، فحقيق

---

[٥٩] الرعد ٢٤

[٦٠] سنن الترمذي، ج ٤، ص ١٥٤

[٦١] صحيح مسلم، ج ١٣، ص ١٤٣

لمن أصابه هذا الضرر وفقد تلك النعمة فتلقاها بالحمد، أن يكون هو محمودا وحتى المكان الذي يسكنه في الآخرة هو بيت أسمه بيت الحمد، فهذه الأضرار والأسقام والمصائب لا يثاب عليها لأنها ليست بفعل اختياري كعمل الخير والتطوع في النوافل والصدقات وما إلى ذلك من غير العبادات المكلف بها، بل هو من الصبر على الضرر، فهو إنما نال ذلك البيت بحمده واسترجاعه لا بمصيبته، وإنما ثواب المصيبة يكفر الخطايا، وظاهر ترتيب الأمر ببناء البيت على الحمد والاسترجاع معا أنه لو أتى بأحدهما دون الآخر لا يبنى له شيء وعليه فكان القياس في وجه التسمية أن يقال سموه بيت الحمد والاسترجاع، لكن الأقرب أن الخصلة التي يستحق بها ذلك إنما هي الحمد على الضرر الذي أصابه، وذلك أن "موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب، يا له من صدع لا يشعب يوهي القوي ويقوي الوهي ويوهن العظم ويعظم الوهن مر المذاق صعب لا يطاق يضيق عنه النطاق شديد على الإطلاق لا جرم أن الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ووعد عليه بالأجر الجزيل وبنى له في الجنة ذاك البناء الجليل"[٦٢] وأما تقوية الصبر على المصيبة التي تنزل بالإنسان من الضار جل شأنه فهي إطماع النفس في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا بالصبر على الضرر، وذلك بأن يكثر فكره فيما أعد الضار جل جلاله للصابرين المتبصرين في حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، لذلك فالخليفة بما أوتي من علم وما اتصف به من صفات فهو أعظم الناس صبرا وأكثرهم جلدا وأبعدهم نظرا وخيرهم روية لما يحمل من الحلم في التعامل مع الضرر لعلمه بالنفع الذي يعود عليه من هذا الضرر لأن ثواب الصبر على المصيبة أعظم مما تحدثه من الضرر في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، لذلك فإن الخليفة لا يراوده شك، ولا ينتابه قلق من أي ضرر يلحق وذلك لعلمه بأن ما ادخره الضار له في الآخرة خير مما فاته في الدنيا، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان وقوته، وقوة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي الناس من النعم هو اليقين وعزيمة الصبر على الشدائد وتحمل نزول الضرر، وأعظم الناس

---

[٦٢] فيض القدير، ج ١، ص ٥٦٤

إيمانا ومعرفة بأن الضار لا يريد بعباده إلا خيرا هم أهل اليقين، وهذا لا يتأتى إلا بالتسليم بالقضاء والقدر والطاعة التامة للضار بما يضر به من ضرر لكل ضار ومضر سبحانه جل جلاله، فهو بما يضر نافع، لذلك وصف الله تعالى هؤلاء وأولهم الخليفة ومن سار على نهجه بأنهم أصحاب حظ عظيم حيث قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[٦٣] وذلك أن الخليفة صارت الهموم عنده هما واحدا وهو الله تعالى، ثم غلب ذلك على قلبه، حتى أصبح له مجال في الفكر والتأمل بالباطن في ملكوت السماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ما ليس لغيره، ولو سؤل الخليفة ما الصبر على المصيبة؟ لأجاب على البديهة بأن لا تبث، أي لا تبث شكواك لأحد وإنما تصبر وتحتسب وهذا منتهى الصبر على الضرر النازل بك من الله تعالى، ألا ترى يعقوب عليه الصلاة والسلام عندما عوتب من أبنائه في حزنه على يوسف عليه الصلاة والسلام قال: {قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٦٤]، وهذا دليل على أن الخليفة لا يشكو لأحد، ولا يطلب من أحد تخفيف لوعه إلا لله تعالى، فهو يعلم أنه ليس له إلا اللَّه يتضرع إليه ويشكو له همومه صعبها وسهلها وصغيرها وكبيرها وعظيمها وجليلها، وما يستطيع كتمانه منها وما لا يستطيع، لأنه يدرك من حسن ضرر الله وابتلائه لعباده، سعة الرحمة والمغفرة ما لا يدركه غيره، فالثقة باللَّه تحيى الأمل وتبعث على الطمأنينة التي تحول الضرر إلى نفع والمصائب إلى نعم، ولا شيء يقوى على الضرر مثل الصبر، وهو على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: صبر على أداء الفرائض للّه تعالى.

الثاني: صبر عن محارم اللّه تعالى.

الثالث: صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، والصبر على المصيبة أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، لأن الصبر على الفرائض والمحارم من أحوال المسلمين، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين، وإنما فضل المقام في اليقين على مقام الإسلام

---

[٦٣] فصلت ٣٥

[٦٤] يوسف ٨٦

لعموم والخصوص وذلك أن أهل اليقين من عموم المسلمين، وليس جميع المسلمين من أهل اليقين الذين يصبرون على الضرر، ويدلل على ما نقول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما يحول بيني وبين معصيتك، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك، وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا"[٦٥]. فأحسن الناس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا وأكثر الناس جزعا وسخطا في المصائب أقلهم يقينا، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين الذين تمكن اليقين في قلوبهم، فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين، فالصبر على ضرر الأوجاع والمصائب وإخفاء ذلك من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى، ومن الصبر على الضرر هو ضرر الفقر وإخفاؤه وصونه وعدم التشكي لغير الله، والصبر على بلاء الله تعالى في طوارق الفاقات وهي من ضر الامتحان، وصفة القول أن الذي يبتغي أعظم الأجر من الضار عندما ينزل به الضرر يتمسك بأنواع الصبر، فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وأعظم الضرر ما جاء من مصيبة لأن كل شيء يبدو صغيرا ثم يكبر إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل أن تصغر وهي في صدمة القلب أول ما تبتغيه المصيبة، لذلك فإن الضار جل جلاله أعطى الأجر لمن صبر على الضرر.

وعليه، فالضار هو النافع جل جلاله، فهو الضار بما يضر وبمن يضر، وفي هذا نفعا لمن يريد إحقاق الحق وإزهاق الباطل، والخليفة الضار هو الذي يؤكد الحق ويعمل على إحقاقه، وهو الذي يقدِم على كل ضررا ليضره في مهده قبل أن يلحق ضرره الآخرين، ولهذا فالخليفة يصلح، والذي يريد للأضرار أن تتفشى بين الناس هو المفسد في الأرض، وهنا تكون المواجهة بين من يريد ضررا بالعباد وبين من يريد إلحاق الضرر بما يضر العباد، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا

---

[٦٥] المستدرك للحاكم، ج ٤، ص ٤٨٢

أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}[٦٦]. فالحمد لله الضار الذي أنقد الكعبة قبلة الموحدين، بضره لمن أتوا من الحبشة برئاسة أبرهة الحبشي الأشرم ليخرب قبلة المستخلفين فيها بالحق، محاولة منه وظنا بأنه سيطفئ نور الله ولكن أتم الله نوره بالرغم من كره الكافرين، قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[٦٧].

اللهم يا الضار أجعلنا بضرك ضارين لمن يريد إلحاق الضرر بالأرض والعباد، واجعلنا من مبطلي السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه، وأحفظنا وأولادنا وزوجاتنا وأخوتنا من كل ضر وكيد ومكر وحسد، وأنر عقولنا بما ينفع يا النافع يا ذا الجلال والإكرام، فأنت بضرك يا ضار لما يضر ولمن يضر تُمكّن عبادك المستخلفين فيها من الإصلاح والفلاح، اللهم اجعلنا من المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك فهب لنا القدرة والقوة التي بها نُحفظ من كل ضرر، ونتمكن من إلحاق الضر بكل مارد ضار، يا الله يا الضار يا عزيز يا غفار يا عالم الأسرار والأجهار يا خالق الليل والنهار والشجر والثمار وكل ما يعد ويحص وكل مالا يعد ولا يحصى فبرحمتك ارحمنا بالقوة والقدرة والحكمة والعلم النافع يا نافع يا لله، وأحفظنا يا الضار من كل ضرر، ومن كل

---

[٦٦] الفيل ١ ـ ٥.

[٦٧] الصف، ٨ ـ ١٤.

الشرور فـي البحار والبراري، إنك أنت النافع ولا نـافع سواك سبحانك لا إلـه إلا أنت الضَّـار جل جلالك.

النـافع

في أَسماء الله تعالى "النَّافِعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلِّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها"[٦٨].

النافع هو "الرب المعبود النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه"[٦٩].

النافع هو "الله تعالى فلا نافع إلا هو"[٧٠].

---

[٦٨] لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٤٨٢

[٦٩] تفسير الطبري ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠.

[٧٠] تفسير الألوسي ، ج ٨ ، ص ١١٣.

النافع هو "المتصرف في خلقه بما يشاء"[٧١]

من أسماء الله تعالى النافع وهو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه حيث هو خالق النفع والضر والخير والشر، والنفع ضد الضر نفعه ينفعه نفعا ومنفعة، فما من اسم من أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته جل شأنه إلا وتدخل فيه صفة النافع التي تعود بالخير والنفع على خلقه جل شأنه، إنها الصفة المطلقة في كل صفة من صفاته جل جلاله، فبعلمه وحكمته وإحسانه وفضله كان نافعا للخلق ولذا فهو النافع في كل حين وكل مكان ومتى ما شاء مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٧٢]. فالإنسان لا يملك لنفسه جلب نفع ولا دفع ضر إلا إن شاء اللّه من ذلك فيمكنه منه ويمنحه إياه، ولو كان أحد يعلم الغيب لا ستكثر من كل خير لنفسه، فلا يوجد أحد يملك جلب نفع ولا دفع ضر إلا الله النافع الذي يتفضل به على عباده، فالفضل من الله تعالى نفع تدعو إليه الحكمة وهو تعالى يفضل عباده ويتفضل عليهم بنفعه لا محالة لأن الحكيم لا يخالف ما تدعو إليه الحكمة، ولهذا وجب شكر النعم التي تقع في أصل النفع الذي هو الزيادة في الإحسان والتفضل والتخصص بالنفع الذي يوليه القادر عليه وهو الله تعالى حيث إنَّه متفضل بكل نفع يعطيه من نعمة أو صحة وعافية أو طاعة أو ثواب أو غيره مما يدخل في باب النفع، فالثواب أوجبه الله تعالى من جهة أنه جزاء على الطاعة، والشكر واجب على العبد اعترافا بجميل النعم ويدخل فيها نفع الصلاح والاستقامة على ما تدعو إليه الحكمة ويكون في الضر والنفع كالمرض يكون صلاحا للإنسان في وقت دون الصحة مما يذكر بنعمة الله تعالى من العافية النافعة للبدن، مما يدفع إلى التوبة والاستغفار الذي يكون سببا في الأجر وزيادة الحسنات وذلك أنه يؤدي إلى النفع في باب الدين وليس في أمور الدنيا، ومن هنا فإن المرض يؤدي إلى الصلاح والنفع واستقامة الحال، والصالح هو المتغير إلى استقامة الحال،

---

[٧١] تفسير البحر المحيط ، ج ٧ ، ص ٣٧٤.

[٧٢] ، النساء ١٨٨

ولهذا لا يقال لله تعالى صالح، وإنما الصالح من علم مكمن الصلاح واستخرجه وعمل به حتى ينتفع به وينفع الآخرين وهذا لا يأتي إلا بالعمل الدؤوب الصالح والهمة العالية والطلب المستمر في تحصيل أشرف الأشياء النافعة بالنسبة للبشر ألا وهو العلم النافع على كثرة اتجاهاته ومعانيه لما جعل الله له من فضيلة، ذلك أن العقل وحده لا يكفي لأن يرشد إلى الخير والمنفعة إلا إذا اتصف بصفة العلم النافع. وأما العلم فمنافعه لا تحصى ولا تعد ولذلك كان العليم من الأسماء الحسنى لله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[٧٣] فقد ظهر للملائكة عجزهم وعدم إدراكهم لحكمة الله فيما يشاء من خلقه وما يريد من هذا الخلق من خلافته في الأرض، وما هذه الخلافة إلا لنفع كان الملائكة عنه جاهلون، لذلك استدركوا بقولهم: إننا ننزهك يا ربَّنا التنزيه اللائق بك، ونقر بعجزنا وعدم اعتراضنا، فلا علم عندنا إلا ما وهبتنا إياه، وأنت العالم بكل شيء، الحكيم فى كل أمر تفعلهن ولذلك فإن الله تبارك وتعالى أعلم الخلق بفضل العلم حيث قال: {هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}[٧٤] أي من هو خاشع لله أثناء الليل يقضيه ساجدا وقائما، يخشى الآخرة ويرجو رحمة ربه، كمن يدعو ربه فى الضراء وينساه فى السراء فلا يستوي الذين يعلمون حقوق الله فيوحدونه، والذين لا يعلمون، لإهمالهم النظر فى الأدلة، إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة، وربما ينسب من لا يدرك حقيقة العلم النافع إلى العلماء الجهلَ والغفلةَ والسهوَ فيوجب له حب نفسه وحب ظهورها إحسان ظنه بها وإساءة ظنه بغيره، وأهل العلم النافع على ضد هذا يسيؤون الظن بأنفسهم ويحسنون الظن بغيرهم من العلماء ويقرون بقلوبهم وأنفسهم بفضل العلماء لأنهم بلغوا مراتبهم في الوصول إليها بالجد والجهد والتقى والورع، ومن علمه غير النافع إذا رأى لنفسه فضلا على من تقدمه في المقال وتشقق الكلام ظن لنفسه عليهم فضلا في العلوم أو الدرجة عند الله لفضل خص به عمن سبق فاحتقر غيره واجترأ عليه بقلة العلم ولا يعلم أن قلة كلام هؤلاء إنما كان ورعا وخشية لله ولو

---

[٧٣] البقرة ٣٢

[٧٤] الزمر ٩

أراد الكلام وإطالته لما عجز عن ذلك وأنهم العلماء والفصحاء والطلقاء والنبلاء العلماء بأيام الله غير أنهم إذا تذكروا عظمة الله طاشت عقولهم وانكسرت قلوبهم وانقطعت ألسنتهم حتى إذا استفاقوا من ذلك يسارعون إلى الله بالأعمال الزاكية التي تعود بالنفع على غيرهم وذلك لفرط علمهم بأنهم يعلمون ويعملون فكان عملهم ترجمة لعلمهم، ولذلك فإن الخليفة من باب العلم النافع كان عمله أكثر من قوله لعلمه فهو القدوة الحسنة المحتذى، لهذا فإن الله تعالى شهد لنفسه بأنه نافع، وشهد له من خصهم بالنفع أنه قائم بالقسط والعدل الذي يعود على خلقه بالخير حيث قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٧٥] فقد شهد الله أولا أنه المتفرد بالألوهية وبيَّن ذلك بما بث فى الكون من دلائل وآيات لا ينكرها ذو عقل، وأنه واحد لا شريك له، قائم على شئون خلقه بالعدل، وأقرَّ بذلك ملائكته الأطهار، وَعَلِمَهُ أهل العلم موقنين به، وأنه جل شأنه المتفرد بالألوهية الذي لا يغلبه أحد على أمره، وشملت حكمته كل شيء فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز العلم في مقام المدح وهو العلم النافع حيث قال: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}[٧٦] وما كان أمر الله تعالى بطلب زيادة العلم لعبده إلا لما فيه من المنافع والفوائد فهو أنفس بضاعة، وطلبه أفضل تجارة، ولزوم العلماء ومصاحبتهم من أفضل الأعمال، ولما كانت صفات الله تعالى المطلقة كلها تحمل معنى النفع لأن الله سبحانه لا يريد لعباده إلا الخير، وأن الخليفة يتصف بها نسبيا فهو أدرك بما حباه الله من فضل نعمه من هذه الصفات قيمة العلم ونفعه فقد ألزم نفسه في جمعه، وشغل ذهنه بحفظه، وحوى خطيره ونال رفيعه وروى جليله وعرف دقيقه وعلم غامضه، ووعى واضحه، ثم صانه بالكتمان عمن لا يعرف مقداره، ونزهه عن الإذاعة عند من يجهل مكانه وجعل غرضه أن يودعه من يستحقه، ويبديه لمن يعلم فضله، ويؤتيه إلى من يعرف محله، وينشره عند من يشرفه، ويودعه أفضل مكان لأن العلم النافع يذكر بالرجاحة طالبه، وينعت بالنباهة صاحبه ويستحق الحمد عند كل العقلاء حاويه،

---

[٧٥] آل عمران ١٨

[٧٦] طه ١١٤

ويستوجب الثناء من جميع الفضلاء واعيه، ويفيد أسنى الشرف مشرفه ويكتسب أبقى الفخر وما يمتلك هذه الصفات إلا الخليفة الفاضل العادل، حيث يعلم أين يضع علمه ويحدد الجهة التي يوجهها إليه ليعود بالنفع على من يقتدي به أولا: في تعليمه العلم النافع، وثانيا: في استثمار هذا العلم ليكون لهم عونا في الحياة الدنيا ومنجاة لهم في الآخرة، ومن هذا الفهم العميق للمسؤولية إن صح التعبير كان العلماء والخلفاء في الأرض ورثة الأنبياء، ولذا فالخليفة هو أعظم رهبة وأشد خشية من الله تعالى لما علم مما لا يعلمه غيره بوضع علمه في مجالات النفع والفائدة التي تعود على الآخرين بخير الدارين خشية من الله تعالى ورحمة، لذلك قال الله تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[٧٧] وهذه الخشية هي التي يكمن فيها النفع ويكون بها ويتصف الخليفة بنسبية النافع وليس كل العلماء يخشون الله، وإن كانوا جميعهم يخشونه فإنما بدرجات متفاوتة حسب مراتب النفع، فمراتب الإنسان في النفع ثلاث تظهر في ثلاثة أشخاص، فأحدهم نافع مُلهم ويعمل، ويصير مبدأ للمقتبسين منه، المقتدين به والآخذين عنه، السائرين على خطاه، المارين على غراره، القافين على آثاره، والآخر نافع ولا يُلهم فهو يماثل الأول في الدرجة الثانية، ونعني ينفع نفسه فقط، وواحد نافع ويلهم بنفع الآخرين وهذا في أعلى درجة حيث تجتمع له تلك الخلتان، فيصير بقليل ما يملك من وسائل النفع مكثر للعمل به وينفع بقوة ما يلهم من النصيحة والمشورة والعمل ويعود بكثرة ما يلهم من النفع على الآخرين وهذه صفة الخليفة، ولهذه الصفة قال موسى عليه الصلاة والسلام للعبد الصالح: {قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا}[٧٨] فهذا هو أحد أبواب النفع إن لم نقل أعظمها وهو العلم النافع الذي نفع حامله بعلمه وعمله، ونفع موسى عليه الصلاة والسلام بما تعلمه من حامل العلم، ونفع من انعكست عليه نتائج العمل بذلك العلم، لذلك نرى الخليفة الحامل للعلم، لا يحمله للعلم ذاته، ولا لنفسه، وإنما يحمل علمه لما يعود بالنفع على الجميع، بمعنى نقل ما يحمل من العلم أو جزء منه إلى

---

[٧٧] فاطر ٢٨

[٧٨] الكهف ٦٦

الآخرين على قدر ما يستطيعون وعيه، وعودة نفع هذا العلم على الجميع بالعمل به، وعندما يحقق هذين الشرطين بالعمل بهما يكون قد وصل إلى مرضاة الله تعالى فتتحقق الغاية من هذا الجانب وهو أجر العاملين به على الوجه الذي أراده الله من الخليفة. ومما لا شك فيه أن الخليفة، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة، والتمام في الحلم والسعة في العلم، والكمال في الحزم والعزم، مع التمكين والقدرة، والفضيلة والرياسة والسيادة، والخصائص التي معه من التوفيق والعصمة، والتأييد وحسن المعونة، أن الله جل اسمه لم يكن ليجلله باسم الخلافة، ويحبوه بتاج الإيمان، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسناها، ثم وصل طاعته بطاعة الخليفة، ومعصيته بمعصيته، ورضاه برضاه، إلا ومعه من الحلم في موضع الحلم، والعفو في موضع العفو، والتغافل في موضع التغافل، ما لا يبلغه فضل ذي فضل ولا حلم ذي حلم إلا الخليفة وهذه الصفات هي أقصى درجات النفع. وقد يؤتى أُناس علما فلا ينفعهم علمهم، ويكون هذا علم نافع في نفسه لكن صاحبه لم ينتفع به ولم ينفع به أحدا كما قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٧٩] فإن الله تعالى العليم الحكيم يؤتي العلم لعباده، والخير بيده يفيضه على خلقه في أرضه لذلك وجب على العباد أن يسخّروا هذا العلم للخير ونصرة الحق ووضع هذا العلم في الموضع الذي يرضي الله تبارك وتعالى في نشر الفضيلة ودحر الرذيلة ودفع الأذى، فلما ترك هؤلاء ما أمر الله به من حق العلم النافع، ولى عليهم خيارهم، ليذهب عنهم الضرر ويزيل عنهم البأس، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وينصف المظلوم من الظالم ويقيم منار الشرع المطهر بهذا العلم الذي آتاه الله إياه. ومن صفات العلماء الذين ينتفع بعلمهم السكينة والوقار والحلم والتواضع، فالسكينة تبعث الراحة والطمأنينة في النفوس، والوقار يحافظ على هيبة العلم والعلماء، والحلم هو سعة الصدر لتوضيح كل شاردة وواردة للسائلين، والتواضع يكسب المحبة في قلوب الناس للعلماء، و ما آتى الله عبدا علما إلا آتاه معه حلما وتواضعا وحسن خلق ورفقا، فذلك هو العلم النافع، ومن

---

[٧٩] الجمعة ٥

آتاه الله علما وزهدا وتواضعا وحسن خلق وعمل صالح فهو الخليفة. وحتى يكون العلم نافعا يجب أن يجمع العالم ثلاث صفات تتم له نعمة العلم النافع ألا وهي الصبر والتواضع وحسن الخلق، وكذلك العقل والأدب وحسن الفهم، وعلى الجملة فالأخلاق التي وردت إنما تكون مجتمعة في الخليفة، فالله سبحانه وتعالى ينزل علمه ويلهمه لمن يختار من عباده كي ينتفع به كما ينتفع من الماء الذي ينزله من السماء حيث قال تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[٨٠] وهذا الماء لا يقف توضيحه عند حدود التفسير المادي من إغاثة الأرض وإنبات الزرع وإنما ينسحب أيضا على ماء الغيب وهو العلم النازل من صفاء بحار الجبروت إلى حياض رياض الملكوت فتغرقه سحائب الرحمة وتثيره رياح الهداية فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة فتملأ منه أودية القلوب المنورة وخلجان الأرواح المطهرة وهو الطرف المقابل أو المعادل الموضوعي في الجانب العلمي لما أنزل من السماء من ماء فسالت أودية بقدرها فأحتمل السيل زبدا رابيا حيث شبه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء فكما أن المطر تعمر منه الأودية والغدران وتجري منه العيون والأنهار كل على قدر سعته وكبره كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة فسالت به أودية القلوب كل على قدر طاقته وحسب استعداده وكما أن المطر يطهر الأرض من الأدران وهو معنى قوله تعالى فأحتمل السيل زبدا رابيا أي مرتفعا على وجه الماء كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس والقلوب من الضغائن والأرواح من الأكدار والأسرار من الوساوس، فقد تبقى في القلب بقية من حب شيء فيكون العلم بمثابة الدافع إلى التسامي عن الدنيا من أجل الانتقال إلى ما هو أبعد من هذا العالم المادي إلى عالم الفضيلة فإذا تحقق ذلك فيستوي عنده الحلو والمر والعز والذل والغنى والفقر لأنه تحقق أن كلا من عند الله وما في الوجود سواه وهذا هو العلم الحقيقي الذي هو العلم النافع وهو الذي ينبسط في الصدر

---

[٨٠] الرعد ١٧

شعاعه وينكشف به عن القلب قناعه وهو علم القلوب ومرجعه إلى تصفية القلوب من الرذائل وتحليتها بالفضائل ويبدأ بعد ذلك فيبحث عن عيوب النفس وعيوب القلب وعيوب الروح وعيوب السر فيطهر كل واحد من عيوبه فإذا تطهر من الجميع تحلى بصفات الكمال كالإيمان واليقين والطمأنينة والمراقبة والمشاهدة وتحلى أيضا بالحلم والرأفة والسخاء والكرم والإيثار وسائر الأخلاق الحسنة فشعاع العلم النافع الذي ينبسط في الصدر هو ثلج اليقين وبرد الرضى والتسليم وحلاوة الإيمان، وينشأ عن ذلك مخافة الله وهيبته والحياء منه والسكون والطمأنينة وغير ذلك مما تقدم من الأخلاق الحسنة التي يتصف بها الخليفة لاتصافه بالعلم النافع. وإن من النفع أيضا ما يكون من العدالة بين البشر على حدٍ سواء، فالتفويض الإلهي للخليفة بإعمار الأرض هو من النفع الدنيوي، ودعوتهم إلى الحق والخير وطريق الهداية لإصلاح دينهم هو من النفع في الآخرة برضا الله عنهم وإدخالهم في رحمته وإدخالهم جنته، أما الذين يظهرون غير ما يبطنون فإن الخليفة يدعوهم إلى ما هو خير لهم وما تكمن فيه منفعتهم فإن أبوا فإنه يأخذ على أيديهم في الدنيا من أجل مصلحتهم ونفعهم ثم بعد ذلك أمرهم في الآخرة يعود إلى الله حيث يعلم خائنة الأعين وما تخفي صدورهم فيكون مصيرهم كما قال تعالى: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ}[٨١] يُعرف المجرمون من الإنس والجن بعلامة يتميزون بها، فتأخذ الملائكة بنواصيهم أي بشعر مقدم رؤوسهم وأقدامهم فيقذفونهم فى النار أو تسحبهم الملائكة إلى النار وتأخذ بالنواصي وتجرهم على وجوههم أو تجمع بين نواصيهم وأقدامهم فى سلسة من وراء ظهورهم فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة، وهذا ليس من الضرر في شيء وإنما هو جزاء بما كانوا يعملون، وهذا العقاب اختص به الله سبحانه وتعالى في الآخرة، وأما ما كان يعمله هؤلاء في الدنيا فأمره لدفع ضررهم من أجل المنفعة العامة، بما كان من خروجهم على سلطان الله تعالى الذي خوله للخليفة بإقامة الحق والعدل لامتلاكه الصفات النسبية من

[٨١] الرحمن ٤١

الصفات المطلقة، لذلك لا يكون نفع الخليفة محضا دون عقاب حتى لا تذهب الهيبة لذلك قال تعالى: {سَتَجِدُونَ آَخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا}[٨٢] وهذه الآية حجة واضحة في تفويض الخليفة لما فيه النفع باستخدام ما فوضه الله به من النفع الضار فإن ظهرتم على الشرك كانوا معكم، وإن ظهر المشركون على الإسلام كانوا مع المشركين، فهم يريدون أن يأمنوا المسلمين ويأمنوا قومهم من المشركين، وهؤلاء فى ضلال مستمر ونفاق، فإن لم يكفوا عن قتالكم ويعلنوا لكم الأمن والسلام فاقتلوهم حيث وجدتموهم حتى لا تكون في الأرض فتنة منهم بعد ذلكن فيعاقب هؤلاء المسيئين ويكافئ المحسنين، ومن لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة، ويقتل في موضع القتل، ويحيي في موضع الإحياء، ويعفو في موضع العفو، ويعاقب في موضع العقوبة، ويمنع ساعة المنع، ويعطى ساعة الإعطاء، خالف الله تعالى في سنته في الخلق وتدبيره في الكون، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه، فبعض القتل إحياء للجميع، وبعض العفو إغراء للآخرين في التوبة، كما أن بعض المنع نفع، ولا خير فيمن كان خيره محضا، وشر منه من كان شره صرفا، ولكن خلط الوعد بالوعيد مدعاة للهيبة والرهبة، والبشر بالعبوس، والإعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فهذا مما يعود بالنفع على المجتمع، لأن الناس لا يهابون ولا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخاف ولم يوقع وعرف بذلك، كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه، فخير الخير ما كان ممزوجا، وشر الشر ما كان صرفا، وربما ينفر من هذا بعض الذين لا يعلمون أن الجنة حفّت بالمكاره وحفّت النار بالشهوات، ولا يعلمون الأمور على حقيقتها وأن الخير والنفع يكمن في المكروه إن لم يكن كلّه فجلّه كما قال تعالى: {فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[٨٣] ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده لكان الله عز وجل

---

[٨٢] النساء ٩١

[٨٣] النساء ١٩

أولى بذلك الحكم، وفي سنن الخلق والأمم والأقطار والأزمان جميعا، كان استعمال المكروه والمحبوب دليل على أن الصواب فيه دون غيره وهو مجلبة للنفع، وإذا كان الناس إنما يصلحون على الشدة واللين، وعلى العفو والانتقام وعلى البذل والمنع، وعلى الخير والشر، عاد بذلك الشر خيرا وذلك المنع نفعا وذلك المكروه محبوبا، وإنما الشأن في العواقب، وفيما يدوم ولا ينقطع، لذلك فإن الخليفة يجعل العدل والإنصاف في الثواب والعقاب حاكما بينه وبين غيره، فمن يقدمه منهم فإنما يقدمه على الاستحقاق، وبصحة النية في مودته، وخلوص نصيحته لما يحمل من أخلاق وشيم تكمن فيها المنفعة، وهو مع ذلك يحمل من العطف والشفقة والرحمة على الناس ما لا يحمله غيره وذلك لمعرفته بما يضرهم وما ينفعهم، فينأى بهم عما يضرهم وينجو بهم إلى ما ينفعهم بالرفق واللين والخطاب المؤثر في النفوس وبهذا الأسلوب الرقيق من أجل النفع ودفع الضرر جاء خطاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه حيث قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا}[٨٤] فهذا كلام يهز أعطاف السامعين، وفيه من الفوائد والمنافع ما لا يخفى على عاقل، وهو لما أراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر ربه، رتب الكلام معه في أحسن نظام، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن، مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه من أجل نفعه، وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطيئته طلب منبه على تماديه كي يوقظ غفلته بسؤاله لمَ تعبد الشيطان، ثم ثنى بعد ذلك بدعوته إلى الحق مترفقا به، فلم يصف أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق، ولكنه قال: إن معي طائفة من العلم وشيئا منه، وذلك علم الدلالة على

---

[٨٤] مريم ٤١، ٤٧

سلوك الطريق فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندي معرفة بهداية الطرق دونك، فاتبعني أنجك من أن تضل، ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه، فقال:إن الشيطان الذي عصى ربك إنما هو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذي دعاك إلى الخروج على طاعة الله، وألقاك في هذه الضلالة، وإنما ألغى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذكر معاداة الشيطان إلا التي تختص بالله، وهي عصيانه واستكباره، ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته، ثم بعد ذلك بدأ بتخويفه أبيه سوء العاقبة، فلم يصرح بأن العقاب لاحق به، ولكنه قال: إني أخاف أن يمسك عذاب ملاطفة لأبيه، وصدّر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله: (يا أبت) توسلا إليه واستعظاما لشأنه، وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه، فإنه قال: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم) فأقبل عليه بفظاظة الكفر، وغلظ العناد، فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بني، ونحن نجد أن الخليفة قد حمل هذه الصفات واستخدمها صونا للناس وحرصا عليهم، وطاعة لله، ومحبة لهم بأنه يتصف بصفة النافع بالإضافة فهو يدرك بما يحمل من علم كيف يكون نافعا في امتثاله لقول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٨٥] فالدعوة هنا إلى طريق الحق الذي شرعه الله تعالى من أجل فائدة الخلق ومصالحهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة، إنما تكون بسلوك الطريق الذي يناسب كل واحد منهم حسب مقامه ومنزلته وقدرته العقلية على استيعابه للأمور، وتكون مخاطبتهم على قدر عقولهم فدعوة خواصهم ذوي الأفهام بما يرقى إلى مداركهم العالية بالقول الحكيم المناسب لقولهم، ودعوة بقيتهم على حسب ما يستطيعون إدراكه من إيراد المواعظ وضرب الأمثال التي توجههم إلى الحق وترشدهم من أقرب طريق مناسب لهم، ويكون جدال أصحاب الملل والمعتقدات بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكن من إقناعهم واستمالتهم وكل ذلك لأنه نافع ويريد نفع الآخرين. هذا هو الطريق لدعوة الناس إلى اللّه على اختلاف ميولهم، فسلوك هذا الطريق هو الذي يؤدي إلى منفعة ما أراده النافع جل

---

[٨٥] النحل ١٢٥

شأنه، وبعد ذلك يكون أمرهم إلى الله تعالى الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جاء به الحقن فالذين اهتدوا وصلح أمرهم فقد نالوا من النفع حظا وافرا ونصيبا وافيان والذين ابتعدوا عن الحق والهداية وجب على الخليفة إعادتهم إلى الطاعة بالقوة النافعة التي تعود عليهم بالخير، إذ أن تركهم يعني مكافأة لهم على عصيانهم وهذه إساءة للمجتمع، وليس من العقل في شيء أن يُكافئ المسيء على إساءته، فمن قابل الإساءة بالإحسان فقد خالف سنة الله في التدبير، وظن أن رحمته فوق رحمة الله تعالى، والناس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، فمن باب الحكمة استخدام القوة النافعة كلما اقتضى الأمر في هذه المواقف، وهذا ما يلجأ إليه الخليفة بصفته نافع بالإضافة، والحكمة أوفى منحة وأوفر نعمة يسبغها الله تعالى على خليفته لينفع بها خلق الله وقد قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[٨٦] فالله تعالى يعطى صفة الحكمة من إصابة الحق فى القول والعمل من يشاء من عباده، ومن أُعْطِيَ ذلك فقد نال خيرا كثيرا ونفعا كبيرا لأن به انتظام أمر الدنيا والآخرة، وما ينتفع بالعظة الحسنة والاعتبار والحكمة إلا ذوو العقول السليمة التي تدرك الحقائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة، ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة، وهنا يتجلى النافع سبحانه وتعالى في رحمته بالعباد أن آتى بعضهم هذه الحكمة ليكونوا خلفاء في أرضه وشهودا على خلقه، لأن الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا ما ينفعهم باسمه النافع، وإضافة إلى الحكمة التي لا يدركها كثير من الخلق، وعلمه المسبق بذلك فقد اختار من العباد قيّما على هذه الحكمة يعرف معناها ويدرك مغزاها ويؤدي حقاها ويسعى في نفعها ليوصلها إلى الذين هم بحاجة إليها وإلى نفعها في الدين والدنيا فكان الخليفة مكلف بذلك لأنه هو النافع بالإضافة، وكذلك من المنافع التي يؤتيها النافع جل شأنه، هي حكمة مواعظ القرآن ومعاني آياته وتبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها، فهو يبينها ويوفق للعمل بها من يشاء

---

[٨٦] البقرة ٢٦٩

من عباده، ويؤتيها بموجب سعة فضله وإحاطة علمه بما تحمله من المنافع العظيمة والعبر البالغة التي يدور عليها فلك منافع الخلق وهي أيضا دعوة إلى اغتنامها والمسارعة إلى العمل بها، فمن وصل إلى هذه الدرجة وأعطي العلم والعمل فقد أوتي خيرا كثيرا لأنه قد حاز خير الدارين، وما يتعظ بما أوتي من الحكمة إلا أصحاب العقول النيرة والخالصة من شوائب الوهم ولا يركنون إلى متابعة الهوى، والمراد هنا الحكماء العلماء الذين يعملون بما علموا وأول هؤلاء هو الخليفة، ولا يتناول كل مكلف وإن كان ذا عقل لأن من لا يغلب عقله على هواه فلا ينتفع به فكأنه لا عقل له، ومن أعطي علم نافعا ينبغي أن لا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم لان ما أعطي له من خير كثير، والدنيا متاع قليل، وأما الذين يدعون إلى ترك ما ينتفع به من الحكمة فإنما هي دعوة للفحشاء التي هي اسم جامع لكل سوء لأنها تتضمن معاني البخل والحرص واليأس من الحق والشك فى مواعيد الحق للخلق بالرزق والخلف للمنفق ومضاعفة الحسنات وسوء الظن بالله وترك التوكل عليه وتكذيب قول الحق ونسيان فضله وكرمه وكفران النعمة والإعراض عن الحق والإقبال على الخلق وانقطاع الرجاء من الله تعالى وتعلق القلب بغيره ومتابعة الشهوات وإيثار الحظوظ الدنيوية وترك العفة والقناعة والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة، فمن فتح على نفسه باب الوساوس فسوف يبتلى بهذه الآفات ومن سد هذا الباب فان الله يكرمه بأنواع الكرامات ورفعة الدرجات والله واسع عليم يؤتى الحكمة من اجتنب الوساوس، لأن الحكمة من مواهبه ترد على قلوب الأنبياء والأولياء والخلفاء عند تجلى صفات الجلال والجمال وفناء أوصاف الخلقية بشواهد صفات الخالقية فيكاشف الأسرار بحقائق معان أورثتها تلك الأنوار سرا وإضمارا. فحقيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحق يؤيد الله بها عقل من يشاء من عباده فهذه ليست مما تدرك بالعقول والبراهين العقلية والنقلية وأما المعقولات فهي مشتركة بين أهل الإيمان وأهل الكفر، فالمعقول ما يحكم العقل عليه ببرهان عقلي وهذا ميسر لكل عاقل بالدراية وعالم بالقراءة فمن صفى عقله عن شوائب الوهم والخيال فيدرك عقله المعقول بالبرهان دراية عقلية ومن لم يصفُ عقله عن هذه الآفات فهو يدرك المعقول قراءة بتفهيم معلم مرشد، فأما الحكمة فليست من هذا

القبيل وما يذكر إلا أولو الألباب وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الإنسانية بل سعوا فى طلب لبها بمتابعة الأنبياء عليهم الصلاة و السلام فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الإنسانية إلى نور لب المواهب الربانية لنوال أعلى درجات المنافع، فتحقق لهم أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور، وكان الخليفة ممن خصهم الله بهذه السجية وهو نوع من الاصطفاء وسنأتي عليه إن شاء الله في مستهل كلامنا. إن الله سبحانه وتعالى رحمة منه في العباد ولطفا بهم وشفقة عليهم لأن الإنسان خلق ضعيفا ولأن الله غني عن العالمين فقد سخر لهم ما في جميع الأرض من منافع حيث قال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٨٧] لقد ذلل لكم من أجل الانتفاع كل ما فى السماوات من نجوم مضيئة وكواكب، وكل ما فى الأرض من زرع وضرع وخصب وماء ونار وهواء وصحراء جميعا، ليوفر لكم منافع الحياة، وإن فيما ذكر من نعم لآيات دالة على قدرته لقوم يتدبرون الآيات بأنه وحده الذي ذلل البحر تجري السفن فيه بأمره، وتحمل الناس وجميع ما يحتاجون، وبفضله يمكنكم أن تطلبوا من خيرات البحر بالتجارة والصيد واستخراج ما فيه من لآلئ وتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم، وكل هذه النعم آيات تدل على قدرته تعالى لقوم يتفكرون في صنائع الله القدير، وأنه بيده الملك وهو النافع القادر على النفع، وإن الآيات توضح القدرة الإلهية من جانب الخلق والإبداع ولكنها تدل المتأملين والمتفكرين على النافع وعظمته في الخلق والتمييز بين أنواع هذه المخلوقات وجواهرها ومعادنها وما لهذه المخلوقات من تباين في هذا الكون مما يدل عل اختلاف أنواع المنفعة، فالسماوات والأرض من جنسين مختلفين ولكن كل منهما يؤدي منفعة لا يعوضها غيره على الرغم من البعد والمسافات والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب وهذا الاختلاف تكمن فيه الفوائد والمنافع، وكذلك اختلاف الليل والنهار، أي في تعاقبهما فى الذهاب والمجيء يخلف أحدهما صاحبه إذا جاء أحدهما ترك الآخر خلفه أي بعده وفي الزيادة والنقصان والظلمة والنور، كل ذلك من أجل منفعة الإنسان حيث سخر النافع عز وجل هذه المخلوقات

---

[٨٧] = الجاثية ١٣

لاستمرار الحياة، وهذه الفلك التي تجرى فى البحر لا ترسب تحت الماء وهي ثقيلة كثيفة والماء خفيف لطيف وتقبل وتدبر بريح واحدة تجري مصحوبة بالأعيان والمعاني التي تنفع الناس فإنهم ينتفعون بركوبها والحمل فيها للتجارة فهي تنفع الحامل لأنه يربح والمحمول إليه لأنه ينتفع بما حمل إليه، فهذه المخلوقات الكونية كلها، أوجدها النافع خدمة لنفع الإنسان، ومن هنا كانت صفة النافع التي اتصف بها الله تعالى، حيث خلق الجن والإنس للعبادة وسخر بقية مخلوقاته منافع للإنسان حيث قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[٨٨]. الله هو الذي أنشأ السماوات وما فيها، والأرض وما فيها وما عليها، وأنزل من السحاب ماء مدرارا، فأخرج بسببه رزقا لكم هو ثمرات الزرع والشجر، وسخر لكم السفن لتجرى فى البحر تحمل أرزاقكم وتجارتكم بإذنه ومشيئته، وسخر لكم الأنهار العذبة لتنتفعوا بها فى ري الأنفس والزروع، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، للإضاءة وإصلاح النبات والحيوان، وسخر لكم الليل للراحة، والنهار للسعي والعمل وقضاء الحاجات، فهو النافع لكم، والخليفة الذي يختاره الله لإعمار الأرض فهو أيضا نافع بالإضافة ويأخذ بأسباب الفائدة والنفع من أجل الحق وإقامة العدل فإن خالفه مخالف أو عارضه معارض أو عانده معاند كان معذورا إن انتفض لإعادة الأمور إلى نصابها ووضع الموازين في أقساطها إذ أن الخروج على النافع بالإضافة هو ضرر يلحق المجتمع، لذلك كان من حق الخليفة أن يستنهض جميع الأسباب لأن يردع كل من خرج عن طاعة الله سبحانه ولو بإعلان الحرب دفعا للضرر وجلبا للمنفعة التي منحها الله تعالى للخليفة من أجل إقامة العدل وبسط سلطانه، ودحر الظلم والجور وإزهاقه، وبهذا يكون الخليفة قد أدى ما عليه من حق الله تعالى في إطاعة أوامره باستخدام ما خوله الله من قوة تصب في مجال النفع وإن كانت ضارة من وجهة نظر الأعداء، إلا أن الله تعالى ليردع بالسلطان ما لا يردع بالقرآن، والردع من أعظم أسباب جلب المنافع ودرء المفاسد،

---

[٨٨] إبراهيم ٣٢، ٣٣

وبهذا تتجلى صفة النافع في الخليفة بدفع الظلم وإقامة العدل وإعمار الأرض وإصلاح العباد ونشر الأمن والطمأنينة في نفوس البشر في ديارهم وبلدانهم، وبهذا يكون أدى ما عليه من حق هذا النفع المستمد من قوة النافع جل شأنه بالكلمة والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لجلب المنافع ودفع المفاسد ودحر الضرر فمن نعم النافع على خلقه بصفته نافعا أنه مُصطفي، يَصطفي من يشاء من عباده ويصطفيهم برسالاته ليبينوا للناس سننه جل جلاله في خلقه وما يريد تعالى من خير ونفع للخلق حيث قال سبحانه جل جلاله: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٨٩] فمن رحمة الله تعالى ونفعه لخلقه وعباده أنه اصطفى محمدا عليه الصلاة والسلام لتبليغ رسالته الخاتمة للكافة، وجعل إتباعه وسيلة لحب الله ومغفرته ورحمته التي يترتب عليها جميع المنافع في الدنيا والآخرة، كذلك من قبل قد اصطفى آدم عليه الصلاة والسلام وجعله من صفوة العالمين فهو أول هؤلاء الصفوة المختارة من النافع لنفع الخلق وإرشادهم إلى الخير والهدى والصلاح فاصطفاه ربه واجتباه واسكنه فسيح جناته وسخر له كل ما فيها لينتفع من نعيمها إلا تلك الشجرة حيث قال تعالى: {وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[٩٠]، فالله سبحانه وتعالى أمر آدم عليه الصلاة والسلام أن يسكن هو وزوجه دار الكرامة والخلود، وهى الجنة، ويتنعما بما فيها، يأكلان من أي طعام أراداه لأنه سيعود عليهما بالفائدة والانتفاع حيث أن كل ما في الجنة نافع، إلا هذه الشجرة، فلا يقرباها حتى لا يكونا من الظالمين لأنفسهما، وما كان النهي عن تلك الشجرة إلا لمنفعة لم يدركها آدم عليه الصلاة والسلام، ولكن الشيطان زين لهم الإقدام على الأكل منها فكان العقاب المترتب على المخالفة هو الخروج من الجنة، وعلى هذا يمكن القول أن الله سبحانه وتعالى كما اصطفى الأنبياء لنفع البشر بإرشادهم إلى طريق الخير والسداد، كذلك اختار لهم خلفاء يقومون بأمورهم بما يعود عليهم بالنفع من الخير

---

[٨٩] آل عمران ٣٣، ٣٤

[٩٠] الأعراف ١٩

والرشاد. واصطفى نوحا عليه الصلاة والسلام بالرسالة، واصطفى إبراهيم وآله إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام والأنبياء من أولادهم، ومنهم موسى عليهم الصلاة والسلام، واختار من آل عمران عيسى عليه الصلاة والسلام وأمه الصديقة، اختارهم ذرية طاهرة، فهم يتوارثون الطهر والفضيلة والخير، فهؤلاء جميعا إنما جاء اصطفاؤهم من النافع عز وجل من أجل انتفاع الناس بهم وبما يحملون من العلم والفضيلة والخير والرشاد ليصلوا بالناس إلى الهدى والحق والعدل الذي أمر به الله تعالى وجعل انتفاع خلقه بإتباع هداه، والهدى الذي يبينه هؤلاء الأخيار لان الفلاح والنفع منوط بإتباع من اختارهم وجعل منهم الرسل الذين يبيّنون للناس طريق الله ومحبته، فقد اختار الله هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم كما اصطفى محمدا عليه الصلاة والسلام لتبليغ رسالته للكافة، والاصطفاء أخذ ماصفا من الشيء، فالله سبحانه وتعالى اختار آدم بالنفس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة فى نفس المصطفى كما فى كافة الرسل عليهم الصلاة السلام أو فيمن يلده وينشأ في رعايته كما فى مريم أو اصطفاه بأن خلقه بيده فى أحسن تقويم وبتعليم الأسماء وإسجاد الملائكة له وإسكانه الجنة، واصطفى نوحا بكونه أول من نسخ الشرائع إذ لم يكن قبل ذلك تزويج المحارم حراما، فقد نسخ ذلك وحرَّمه، وجعل الله ذريته هم الباقين استجابة لدعوته فى حق الكفار والمؤمنين حيث قال تعالى: {وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا}[٩١] وهذه الدعوة من نوح عليه الصلاة والسلام على الكافرين إنما كانت من أجل منفعة، وقد حمله على متن الماء حيث قال تعالى: {وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}[٩٢]، فأدى الله تعالى إليه منفعة بدفع ضرر الطوفان، فمن اصطفاه الله فقد جعل فيه الخير والنفع وصافاه وكان له وليا منتخبا مكرما مواصلا، يورثه عزائم الأنبياء، ويزيده في التقريب زلفى، ويثبت في محاضر النجوى، ويصطنعه للخلة والاصطفاء، ويرفعه إلى الغاية القصوى، ويبلغه في الرفعة إلى المنتهى، ويشرف به من ذروة

---

[٩١] نوح ٢٦

[٩٢] القمر ١٣

الذرى على مواطن الرشد والهدى، وعلى درجات البررة الأتقياء، وعلى منازل الصفوة والأولياء، فيكون كله منتظما وعليه بالتمكين محتويا، وبأنبائه خبيرا عالما، وعليه بالقوة والاستظهار حاكما، وبإرشاد الطالبين له إليه قائما، وعليهم بالفوائد والعوائد والمنافع دائما، ومن كانت هذه صفاته وأحاطه الله بهذه العناية ومنحه هذه الرعاية فهو إمام الهداة العظماء والأجلة الكبراء اللذين جعلهم للدين عمادا وللأرض أوتادا، فهذا هو الخليفة الذي أمر الله بإتباعه وجعل فيه الخير وعلى يديه النفع، فكان هو النافع للعباد بحيث يقوم بقضاء حاجات الناس التي ينتفعون بها إما بعلمه وعقله وإما بماله أو ببدنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الواجب ابتغاء مرضاة الله، فقد قال صلى الله عليه وسلم: "من مشى في حاجة أخيه كان خيرا له من اعتكاف عشر سنين، ومن اعتكف يوما ابتغاء وجه الله جعل الله بينه وبين النار ثلاث خنادق، كل خندق أبعد مما بين الخافقين"[٩٣]، وإضافة إلى كونه الخليفة المفوض، ففي النهوض بقضاء حوائج الناس ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة من أجل التوجيه والتصويب وإبداء الرأي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل ذلك من النفع للخلق في دينهم ودنياهم مع القيام بحدود الشرع، ومع ذلك فهو ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام الذكر والتفكر فذلك لا يعدله شيء. وأما النافع تبارك وتعالى فقد سخر كل مخلوقاته خدمة للإنسان، وكل ما في الوجود من شيء خلقه الله تعالى إلا وجعل فيه منفعة وفائدة لخلقه دون استثناء ولعباده على وجه الخصوص، فإن لم تكن فائدة مباشرة فإنها فائدة ومنفعة غير مباشرة لا محال، إذ ما من شيء في السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات إلا وهي مسخرة لمنفعة الإنسان بصرف النظر عن طاعته أو عصيانه أو إيمانه أو كفره في هذه الدنيا، وأما في الآخرة فكل نفس بما كسبت رهينة، فالله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون للمنفعة والاعتبار حيث قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا

---

[٩٣] المعجم الأوسط للطبراني، ج ١٦، ص ١١٣

مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٩٤] ألم يبصروا الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا فى بدء خلقهما ملتصقتين، فبقدرتنا فصلنا كلا منهما عن الأخرى، وجعلنا من الماء الذي لا حياة فيه كل شيء حي، فهل بعد كل هذا يُعرضون، فلا يؤمنون بأنه لا إله غيرنا ومن دلائل النفع أن الله جعل فى الأرض جبالا ثوابت، لئلا تضطرب بهم، وجعل فيها طرقا فسيحة، ومسالك واسعة، لكي يهتدوا بها فى سيرهم إلى أغراضهم وحاجاتهم ومنافعهم وجعل السماء فوقهم كالسقف المرفوع، وحفظها من أن تقع أو يقع ما فيها عليهم، وهم مع ذلك منصرفون عن النظر والاعتبار بآياته الدالة على القدرة والحكمة والرحمة. وهو الذي خلق الليل والنهار، والشمس والقمر، كلٌ يجرى فى مجاله الذي قدَّره الله له تقديرا، ويسبح في فلكه لا يحيد عنه، فإبداع السماوات والكواكب التي تسير فيها بانتظام دون أن تتزاحم أو تصدم، بل تبعث الحرارة والنور لهذا الكون، والأرض وما فيها من البر والبحر، وتعاقب الليل والنهار، كل ذلك من المنافع للناس، كذلك ما يجري في البحر من السفن التي تحمل الناس والمتاع بقدرته، كذلك فهو الذي يرسل الرياح لواقح وتبعث المطر، فيحيي الإنسان والحيوان والنبات، ومن خلقه أيضا ما ترونه من السحاب المعلّق بين السماء والأرض وكل ذلك منفعة وفائدة لهم، فالله سبحانه وتعالى يظهر الدلائل الدالة على وجود النافع، وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزه عن الحاجة، وكذلك دالة على حصول الترتيب العجيب في العالم، فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم. وفيها أيضا رد على اليهود بقولهم في أن الله سبحانه بحاجة لخلقه حيث قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ}[٩٥] فكيف يجوز في العقل أن يعدل الخالق بالمخلوق الذي لا يضر ولا ينفع، فهذه الأرض وما أقلت والسماء وما أظلت فقد خلقهما النافع جل شأنه لمنفعة المخلوقين دون استثناء، وخص منهم الإنسان على وجه التحديد لما ميزه بالعقل وفرض عليه

---

[٩٤] الأنبياء ٣٠، ٣٣

[٩٥] آل عمران ١٨١

العبادات وشرّع له الشرائع كل ذلك من أجل منفعة وفائدة تعود عليه بالخير والسعادة والهناء في الدنيا والآخرة، فالنافع سبحانه وتعالى جعل المنافع أيضا بما فرضه من عبادات حيث قال تعالى: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ}[٩٦] ففي المشهد العظيم يوم الحج عندما يؤدي الحجاج هذه الفريضة يحصلون على منافع دينية من خلال أداء فريضة الحج، ومنافع دنيوية بالتعارف مع إخوانهم المسلمين (المستخلفين فيها)، والتشاور معهم فيما ينفعهم فى دينهم ودنياهم، وذكر اسم الله فى يوم عيد النحر والأيام الثلاثة بعده على ذَبْح ما رزقهم ويسَّر لهم من هذه النعم التي يكون فيها منافع مادية ومنافع روحية، فكلوا منها ما شئتم وأطعموا الذي أصابه الفقر والبؤس، فالبائس الشديد الفقر والفقير المحتاج الذي أضعفه الإعسار ليس له غنى، فهؤلاء تعود عليهم المنافع من هذه العبادة التي فرضها الله على العباد لمنفعة كانوا يجهلونها، فاتضح خيرها ونفعها في ممارستها وتطبقها، ومن المنافع الدينية والدنيوية التي يصيبها الحاج من هذه العبادة ألا وهي العفو والمغفرة والتجارة والكسب فى أيام الحج وهو نوع من المنافع مخصوص بهذه العبادة لا يوجد فى غيرها من العبادات، وهي منافع عظيمة الخطر كثيرة العدد، ويجوز أن يكون أي نوع من المنافع الدينية والدنيوية، وتعميم المنافع بحيث تشمل النوعين منافع في الدنيا ومنافع في الآخرة فأما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى وأما منافع الدنيا فما يصيبون من مكاسب معرفية وفضائل حسان بمعرفة الآخر الذي زاد على قوته قوة مما جعل مظهر الإسلام في الحج استعراض للقوة المادية والمعنوية والروحية، وهكذا كانت لهم مكاسب البيع والشراء وما يستبدلون، وللسائل أن يسأل أين يكمن دور الخليفة فيما فرضه الله من هذه العبادة وكيف تتضح صفة النافع النسبية في هذا المجال؟. وللإجابة على هذه التساؤلات لابد من أن نذّكر بصفة الخليفة النافع في عبادة الزكاة التي يجمعها من الأغنياء ويردها على الفقراء وهو أعلم بذلك حيث جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ

---

[٩٦] الحج ٢٨

اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٩٧] وكون الخليفة على ما ذكرنا من صفات العلم والورع والتقى والفقه وما إلى ذلك فهنا يكون نافعا في تقديم نفقات الحج لمن ليس لديه استطاعة، وتأمين المواصلات وسبل النقل وأمن الطريق في الحفاظ على أرواح حجاج بيت الله الحرام وتأمين مستلزمات المسافر وما يحتاجه، والاستعداد إذا داهم الحجاج مرض أو وباء بتأمين الأدوية والأطباء للعلاج والشفاء فإذا عددنا المنافع التي يقدمها الخليفة في هذه الشعيرة من الشعائر والأجر الذي يناله من الله لا يسعنا أن نقول إلا ما جاء عن أبي حنيفة رحمه الله بعد أن حجّ: "أنه كان يفاضل بين العبادات قبل أن يحج فلما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص"[٩٨] ويدل ذلك على حجم النفع ومقداره الذي يحصل من عبادة الحج ماديا ومعنويا وروحيا في الجانب الإيماني، وهذا يبين لنا أن النافع جل شأنه جعل النفع متدرجا من الأعلى إلى الأدنى، فالله سبحانه وتعالى نافع مطلقا وتأتي النسبية بالتدرج إلى الأدنى فالأدنى، حيث الأنبياء والخلفاء، ثم بعد ذلك تتفاوت العباد فيما بينها، ولا يقف أمر النفع من هذا الجانب عند هذا الحد، ولكنه قبل ذلك يعود عليهم من الأضاحي والنذور حيث قال تعالى: {لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}[٩٩] لقد ذكر النافع عز وجل في هذه العبادة منافع إلى أجل مسمى وهي أيام الحج إلا أن هذا النفع مسجل في ميزان حسنات كل واحد منهم يوفى أجره يوم القيامة، وهذا غير النفع المباشر الذي يحصل عليه أثناء حجه من التعارف الاطلاع والتجارة والراحة النفسية حين يصرفوا ما نذروه لله إن كانوا قد نذروا شيئا غير الأضاحي، وعندما يطوفون بالبيت الحرام ليس لهم دعاء غير التوحيد وإعلان الطاعة والتوبة، وطلب الرضا من النافع جل جلاله لينفعهم في الدارين استخلافا ووراثة، فمن يلتزم أوامر الله ونواهيه فى حجه تعظيما في نفسه كان ذلك خيرا له فى دنياه وآخرته وحصل له أعظم النفع، ولأجل الحصول على النفع العظيم

---

[٩٧] التوبة ٦٠

[٩٨] تفسير حقي، ج ٧، ٣٩٧

[٩٩] الحج ٣٣

والخير الوفير أمروا أن يكونوا مخلصين لله حريصين على إتباع الحق غير متخذين أي شريك لله فى العبادة، فإن من يشرك بالله فقد سقط من حصن الإيمان، وتنازعته الضلالات، وعرض نفسه لأبشع صورة من صور الهلاك، وكان حاله حينئذ كحال الذي سقط من السماء فتمزق قطعا فتخاطفته الطيور فلم يبق له أثر، أو عصفت به الريح العاتية فشتتت أجزاءه، وهوت بكل جزء منه في مكان بعيد، والذي يكون هذا حاله، فإنه لم يفقد النفع فقط، وإنما خسر الدنيا والآخرة، فلذلك كان أمر الله بتعظيم شعائر الحج لما فيها من منافع يعود على أهل الإيمان، لأن من يعظم دين الله وفرائض الحج وأعماله والهدايا التي يسوقها إلى فقراء الحرم، فيختارها عظيمة لا عيب فيها فقد اتقى الله، لأن تعظيمها أثر من آثار تقوى القلوب المؤمنة، وعلامة من علامات الإخلاص، ودليل على المنفعة التي تعود عليه، ففي هذه الهدايا منافع دنيوية ومنافع دينية، وفي كل ذلك يكون التقرب إلى الله والاتصال به جل جلاله، ولذا فلم يقصر النافع عز وجل نفعه على شيء دون شيء مما خلق خدمة للإنسان، ولكنه جعل النفع عاما شاملا في كل مخلوقاته بشكل متكامل من حيث المنفعة الخاصة للذات المنتفعة بتلك المنافع، وكذلك تبادل المنافع بين تلك الذوات المنتفعة بما سخره النافع عز وجل، فقد جعل الله تعالى الأرض بساطا لخلقه وتفضل عليهم بصفة النافع الذي هو من أسمائه الحسنى، بأن أودع فيها من المنافع ما لا حصر له، حيث أنه سبحانه وتعالى لم يطلب منهم العبادة والطاعة إلا وأمّن لهم مستلزمات هذه العبادة من الرزق والخير الذي يعود عليهم بالنفع وتكفل بكل ما له خير ومنفعة لهم في دينهم ودنياهم حيث قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[١٠٠] فالله جل جلاله هو النافع فما خلق الجن والإنس لشيء يعود عليه بالنفع منهم، وإنما خلقهم للعبادة، والعبادة كلها بما فيها من صلاة وزكاة وصوم وحج تعود عليهم بالنفع لما فيها من الفوائد العظيمة. فالله تعالى فجر منابع النفع من الأرض وصبّها من السماء على الخلق، فهو لا يريد منهم من رزق لأنه غنى عن العالمين، وهو وحده

---

[١٠٠] الذاريات ٥٦، ٥٨

المتكفل برزق عباده، لذلك خلقهم لعبادته تعالى وهم مستعدون لها أتم استعداد ومتمكنون منها أشد التمكين بأكمل وجه لأنه جل شأنه أمّن لهم جميع أسباب النفع، فالله سبحانه وتعالى ليس شأنه مع عباده كشأن السادة مع عبيدهم أو الأجراء مع من استأجروهم، لأنهم إنما يملكونهم أو يستأجرونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم، والمالك النافع عز وجل نفى أن يكون ملكه إياهم لذلك فكأنه قال سبحانه: ما أريد أن استعين بهم كما يستعين ملاك العبيد بعبيدهم فليشتغلوا بما خلقوا له من عبادتي، وهو توضيح لدفع توهم الحاجة من خلقهم، أي انتفاء حاجة النافع جل شأنه لخلقه أو كونهم مخلوقين لحاجة، وهذا النفي حتى لا يتوهم أحد مما وقع في العرف العام أن الذي يملك لا بد له من منفعة، فالذين يملكون العبيد أو يستأجرون الأجراء على قسمين:

القسم الأول: يتخذونهم لإظهار العظمة بالمثول بين أيادي ساداتهم وتعظيمهم إياهم كعبيد الملوك.

القسم الثاني: يتخذونهم للانتفاع بهم في تحصيل الأرزاق أو لإصلاحها، فكأنه قال سبحانه: إني خلقتهم ولا بد فيهم من منفعة لأنفسهم فليتفكروا في أنفسهم هل هم من قبيل أن يطلب منهم تحصيل رزق لمن خلقهم؟!، فهم ليسوا كذلك، فما أريد منهم من رزق، وهل هم ممن يطلب منهم إصلاح قوت أو طعام وتقديمه لمن يصنع؟، فالنافع ليس كذلك، وهم ليسوا كذلك أيضا، لأنه ما يريد منهم أن يطعمونه، فالله سبحانه كرر نفي الإرادتين لأن السيد قد يطلب من العبد التكسب له وهو طلب الرزق وقد لا يطلب إذا كان له مال وافر، لكنه يطلب قضاء حوائجه من حفظ المال وإحضار الطعام من ماله بين يديه، فنفي الإرادة الأولى لا يستلزم نفي الإرادة الثانية فكرر النهي على معنى لا أريد هذا ولا أريد ذاك، وهذا النفي من باب الترقي في بيان غناه عز وجل وكأنه قال سبحانه: لا أطلب منهم رزقا ولا ما هو دون ذلك وهو تقديم الطعام بين يدي السيد فإن ذلك أمرٌ كثيرا ما يطلب من العبد أو الأجير إن كان التكسب لا يطلب منه، فالله سبحانه وتعالى هو الغني عن ذلك المغني بذلك، ولكونه النافع أبدا فقد أغنى واستغنى، فبث في هذه الأرض كل حاجات الإنسان التي هي منفعة له سواء

ما ينبت فيها من الشجر والفواكه والغذاء كقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[١٠١]، فمن أجل النفع الذي يعود عليكم خلق جنات وحدائق من الكرم، منها ما يغرس ويرفع على دعائم، ومنها ما لا يقوم على دعائم وخلق النخل والزرع الذي يخرج ثمرا مختلفا فى اللون والطعم والشكل والرائحة وغير ذلك كثير، وخلق الزيتون والرمان متشابها فى بعض الصفات وغير متشابه فى بعضها الآخر، مع أن التربة قد تكون واحدة وتسقى جميعها بماء واحد، فكلوا من ثمرها إذا طاب لكم لتنتفعوا به، وأخرجوا منها الصدقة عند نضجها وجمعها لنفع الآخرين، ولا تسرفوا فى الأكل فتضروا أنفسكم وتضروا الفقراء فى حقهم، لأن الله لا يرضى عن المسرفين فى تصرفاتهم وأعمالهم، ذلك أن النافع جل شأنه لم يخصص خلقا دون خلق بالفائدة والنفع، وإنما كان أمر الله بالنفع عاما، ولذلك جعل خلقه منهم نافع لنفسه ونافع لغيره، ومنهم منتفع بغيره نافع لنفسه، وذلك من أجل أن تستمر الحياة وتعمر الأرض على الوجه الذي أمر به النافع عز وجل، إذ لا يكمن أن يكون البشر كلهم متساوون وفي درجة واحدة من العلم والفهم والحكمة والحزم والعزم والغنى والفقر والحاجة والاكتفاء، فلو كان الأمر كذلك لتوقفت الحياة، فكانت حكمة النافع جل شأنه أن يجعل هذا التفاوت بين الناس حتى في الأشكال والألوان والألسنة حاجة ومنفعة متبادلة حيث قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ}[١٠٢] فمن الدلائل على كمال قدرته وحكمته خلق السماوات والأرض على هذا النظام البديع، واختلاف الألسنة فى اللغات واللهجات، وتباين الألوان فى السواد والبياض والصفرة والحمرة وغيرها، إن فى ذلك لدلائل ينتفع بها أهل العلم والفهم، فلو توافقت وتشاكلت لوقع التجاهل والالتباس، ولتعطلت المصالح والمنافع، ولم يقتصر نفع الله تعالى لعباده على النبات والزرع، وإنما سخر مخلوقات أخرى

---

[١٠١] الأنعام ١٤١

[١٠٢] الروم ٢٢

لمصلحة الإنسان تدرّ عليه من المنافع ما لا حصر لها، فكل ما يدبّ على ظهر الأرض فيه منفعة للإنسان وإذا ذكرنا قسم منها فهذا لا يعني أن الذي لم نذكره خارج دائرة النفع، وإنما نختار بعض ذلك لتوضيح النفع من النافع لخلقه في خلقه، وقد جاء ذكر بعض هذا النفع في القرآن الكريم مجملا متداخلان وبعضه منفردا مفصلان فمثال الأول كما قال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٠٣] حيث ذكر تعالى منافع هذه المخلوقات جملة لبيان التكثير في النفع وليس لبيان جزئيات ذلك النفع، فذكر هذه الأنواع من الأنعام لفائدتها الجليلة ومنفعتها الكبيرة وللموعظة والاعتبار لما في الإبل والبقر والنعم من المنافع دون تفصيل جزئيات المنافع التي تعود منها، ولو أنه ذكر التنقل والارتحال عليها، إلا أن الصورة التي تظهر إبداع النافع في استخراج النفع بالقدرة الإلهية ما تحار به الألباب من تدبير الخالق المبدع الحكيم، حيث يكون الانتفاع بالسقيا من بعض ما فى بطونها من بين فضلات الطعام والدم لبنا صافيا سهل التناول كامل الغذاء والفائدة والنفع سائغا للشاربين، وكذلك من ثمرات النخيل والأعناب التي أنعم بها على الخلق فمنها ما يكون عصيرا مسكرا غير حسن، ومنها ما يكون طعاما طيبا حسنا، إن فى ذلك لعلامة دالة على القدرة والرحمة لقوم ينتفعون بها وينتفعون بعقولهم على إدراك حسن صنعها وإبداعها، وكذلك ألهم ربك النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، فأوحى إليها بأن تتخذ من الجبال بيوتا فى كهوفها، ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها النافع سبحانه وتعالى، لتنتفع بالأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على

---

[١٠٣] النحل ٦٦ ، ٦٩

وجود صانع قادر حكيم، وهذا الشراب جعله الله تعالى عاما في النفع، ينتفع بـه البشر جميعا ولم يأت على التخصيص، لأن هناك نفع خاص بالمؤمنين كما قال الله تعالى في نفع القرآن الكريم: {وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[١٠٤] فهو شفاء لما فى الصدور من الشك والريب، وسبب رحمة وعفو وغفران لمن آمن بـه، أما الطعام والشراب فلم يخص منفعته على المؤمن دون الكافر، وإنما جاء النفع عاما دون استثناء أحدن وأما ما جاء مفصلا في فائدته ونفعهن والذي سخره الله لخلقه فهو كثير فقد جاء في قوله تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}[١٠٥] فالله سبحانه وتعالى لأنه نافع جعل لكم هذه النعم التي تنتفعون بها وجعلكم قادرين على إنشاء بيوت تتخذون منها مساكن، فجعل لكم من جلود الإبل والبقر والغنم وغيرها منازل تسكنون فيها وتنقلونها فى حلكم وترحالكم بخفة وسرعة في أسفاركم، وتتخذون من صوفها وشعرها ووبرها فرشا تتمتعون بها فى هذه الدنيا إلى حين آجالكم، وكذلك من نفعه لكم أن منحكم الصحة والعافية التي تنتفعون بها لتكونوا قادرين على استخدام هذه المنافع في تحويلها إلى بيوت و مساكن تطمئنون فيها بأمن وسلام، فكان التنوع في المنافع بما جعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا و متاعا لكم ولبيوتكم من الملابس والفرش وغيرها، وكذلك من المنافع التي سخرها لكم النافع جل شأنه هذه الأشجار التي خلقها فكانت ظلالا تقيكم شر الحر، ومن المنافع أيضا هذه الجبال التي تتخذون منها كهوفا ومغارات تسكنون فيها كالبيوت، ومن الصوف والوبر والشعر والقطن والكتان وغيرها تصونكم من حرارة الشمس، أو تلجئون إلى ظل تستظلون بـه من الحر كالغمام والشجر والجبل وغيرها، وكذلك تقيكم ألم البرد على اختلاف مصادرها ومنابتها من

---

[١٠٤] الإسراء ٨٢

[١٠٥] النحل ٨٠، ٨١

الحيوانات أو من الزراعة فكلها منافع لكم من النافع جل جلاله، وكذلك المعادن فالذهب والفضة تتخذون منها الحلي والزينة والحديد تصنعون منه دروعا تصونكم من قسوة حروب أعدائكم، فجعل لكم هذه الأشياء كلها منافع، ليتم عليكم نعمته وتقروا بفضله، لتنقادوا لأمره وتخلصوا عبادتكم له دون غيره شكرا على تلك المنافع التي حباكم بها، وتتجلى صفة النافع فيما منح الله لخلقه من أشياء ينتفعون بها، في أعظم نعمة وهو الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وقد خص النافع جل شأنه الماء بمنافع لا يضاهيها أي شيء آخر مما خلق، وذلك نوع من التكريم لهذا المخلوق حيث قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[١٠٦] وأجل من هذا وأعظم في تكريمه قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}[١٠٧]، وأول ما يتبادر للذهن عند ما يذكر الماء أنه الحياة، فبدون الماء ينعدم وجود الأحياء، وهذا يعني أنه ما من حي تدبّ فيه الحياة إلا والماء هو سبب لحياته، فهذا النفع لا يخفى على أحد، ولا يمكن لأحد أن يقرنه بنفع آخر من أي شيء، أما أنه سبب في المنافع فهي مما لا يكاد يحصيها عدد، ولكن لا بدّ مما ليس منه بدّ، إذ أننا نأخذ بعض وجوه منافع الماء وأولها قوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١٠٨] فعلى الرغم من اختلاف البحرين في الملوحة والعذوبة إلا أنهما يشتركان في منافعهما، فهذا ماؤه عذب فرات بالغ العذوبة بحيث يكسر العطش ويقطعه لشدة عذوبته وحلاوته وسهولة تناوله وسائغ شرابه لسهولة انحدار مائه فى الحلق فان العذب لكونه ملائما للطبع تتقبله النفس وتستهويه وتجذبه لشعورها بالراحة والطمأنينة، وهذا ملح شديد الملوحة، ومن كل منهما تأخذون مما فيهما من

---

[١٠٦] الأنبياء ٣٠

[١٠٧] هود ٧

[١٠٨] فاطر ١٢

منافع حيث تأكلون لحما طريا مما تصيدون من الأسماك وتستخرجون ما تتخذونه زينة كاللؤلؤ والمرجان، وهذه أولى المنافع التي ينتفع بها الناس، وأما البحر الأجاج الشديد الملوحة وهو نقيض الفرات، فالحكمة فى كون ماء البحر ملحا أجاجا لا يذاق ولا يساغ لئلا ينتن من تقادم الدهور والأزمان وعلى ممرّ الأحقاب والأحيان فتهلك من نتنه وتعفنه المخلوقات، ولو كان عذبا لكانت انتفت منه الفائدة والمنفعة، بل على العكس لو كان عذبا لأصبح ضرره لا يحتمل بحيث يؤدي إلى الهلاك وينتفي نفعه، وأما الأنهار العظيمة العذبة فبسبب جريانها دائما لم يتغير طعمها ورائحتها فان التغير إنما يحصل من الوقوف فى مكان، و من كل واحد من البحرين المختلفين في الطعم، تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية وزينة من اللؤلؤ والمرجان، ورب قائل يقول إن النساء هن اللواتي يتحلين بالزينة فلماذا كان الخطاب يشمل الرجال والنساء؟. فنقول لأن النفع في هذا الاتجاه يشمل كلا من الرجل والمرأة، ذلك أن المرأة التي تلبس الزينة فإنها تشبع حاجة في أنوثتها وهو جانب يصب في النفع النفسي، والرجل الذي ينظر إلى امرأته وهي متحلية بتلك الزينة فإنه أيضا يحصل على النفع النفسي من جانب المتعة النفسية أيضا، فلما كان تزينهن بها لأجل الرجال فكأنها زينة ولباسا لهم ولذا اسند إليهم، وأما ما يطلب من ركوب البحر من أجل التجارة والسفر والانتقال فهو أكبر من أن تحصى منافعه فترى السفن تجرى فيه شاقة الماء بسرعتها طلبا للمنافع.

فالنفع من النافع سبحانه وتعالى، لم يتوقف على شيء دون شيء أو على زمن دون غيره ولكنه يكمن فيما خلق الله تعالى من منافع خلقها وسخرها للناس بما شاء أن يكون، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[١٠٩] وقبل أن نتناول النفع من الله النافع سبحانه وتعالى، وهذا النفع الناتج عن فعل الكينونة، لا بد من الكلام عن الفعل نفسه، فالله تعالى إنما شأنه فى الخلق إذا أراد إيجاد شيء أن يقول له: (كن)، فيكون فى الحال، فأمره سبحانه بين الكاف والنون، فإن قال قائل إنما أمره أن يقول له كن فهو يحدث من غير توقف على أي شيء آخر أصلا، فإذا كان المقصود هو تمثيل لتأثير قدرته تعالى فيما أراده بأمر

---

[١٠٩] يس ٨٢

الآمر المطاع للمأمور المطيع في سرعة حصول المأمور به من غير توقف على شيء ما، فلا وجه لحمل الكلام على الحقيقة، إذ ليس هناك قول ولا آمر ولا مأمور، لأن الأمر إن كان واقعا حال وجود المراد تكوينه، فلا وجه للأمر، وإن كان حال عدمه، فالأمر كذلك، إذ لا معنى لأن يؤمر المعدوم بأن يوجه نفسه، والتعقيب والتأخير في فعل الكينونة إنما نشأ من العبارة، وإلا فلا تأخير ولا تعقيب في سرعة نفوذ قضائه وهنا إشارة إلى أن الإرادة الازلية كما تعلقت بإيجاد المكونات تعلقت القدرة الازلية على وفق الحكمة الازلية بالمقدورات إلى الأبد على وفق الإرادة بإشارة أمركن فيكون إلى الأبد ما شاء في الأزل، وبما أن النفع من النافع وهو خاضع لفعل الكينونة ينسحب عليه ما انسحب على الفعل نفسه، ولتوضيح ذلك فقد قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[١١٠] وهنا لا بد من الاستفاضة بشيء من الكلام لتوضيح العلاقة بين الإرادة والكينونة والنفع، فالإبداع إظهار الشيء لا عن مادة ولا في زمان ولاعن مثال يحتذى، وذلك في إيجاده تعالى للمبادئ وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر، من وجوه ترجع كلها إلى إتمام الشيء قولا أو فعلا وإطلاقه على الإرادة من استعمال اللفظ المسبب في السبب فإن الإيجاد الذي هو إتمام الشيء مسبب عن تعلق الإرادة لأنه موجب في قضى المتعلق بالإرادة، وأما قوله: قضى أي أراد الذي جاء بصيغة الفعل الماضي والذي نتج عنه فعل الكينونة المتضمن للنفع هو ممكن، وعلى هذا فإن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لخالقه لا يملك له ضرا ولا نفعا، ولبيان أن الله تعالى نافع غير منتفع نقول: أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلو وجد أكثر من واجب لاشتركوا في وجوب الوجود، ولامتاز كل واحد منهم عن الآخر بميزات التعين والصفات المختلفة، ولكانوا اشتركوا ببعض الصفات التي لا تقبل المشاركة، كالخلق مثلا وهنا يقع التضارب في الإرادة، فالذي يُشترك به من الصفات غير التي لا تقبل التمايز، فيلزم من صفات الاشتراك، أن تكون مركبة، وكل مُرَكب متشكل من أجزاء، وكل جزء مفتقر إلى غيره،

---

[١١٠] البقرة ١١٧

إذاً كل مركب محتاج لسواه، وكل محتاج هو مفتقر لغيره، وكل مفتقر لغيره فهو ممكن الحدوث، وكل محدث يحتاج إلى حادث يحدثهن والحادث الذي أحدث المحدثات انتفت عنه علاقة المنفعة المتبادلة بين المركبات، وبهذا ثبت لله تعالى صفة النافع أبدا، وانتفت عنه المنفعة مطلقان لأن كل ما سوى الله محدث مخلوق، وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن كل ما سواه فهو خلقه وملكه فيستحيل أن يكون شيء من خلقه نافعا له، وهذا يعني أن له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع. ويتجلى هذا التسلسل من النافع عز وجل بتدرج المنفعة وانتقالها في خلقه حسب مشيئته من الخصوص إلى العموم في قوله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[١١١] إن هذه البشرى التي التي بشرت الملائكة بها مريم بمولود يخلقه الله بكلمة منه على غير السنة العادية فى التوالد، لم تكن مريم عليها السلام تدرك النفع الحاصل من الضرر الذي سيلحق بها من الناس جرّاء هذه البشرى، فاستنكرت ذلك متعجبة من وجود الولد على غير نظام التوالد بقولها: من أين يكون لي ولد ولم يمسسني رجل؟ فذكر الله تعالى لها أنه يخلق ما يشاء بقدرته غير مقيد بالأسباب العادية، فإنه إذا أراد شيئا أوجده بتأثير قدرته فى مراده من غير افتقار إلى موجب آخر، وما جعله إلا رحمة والرحمة لا تكون إلا في مجال النفع، لذلك صبرت واحتسبت أمرها إلى الله، لأن دلالة البشرى لا تكون إلا في خير ونفع، وقد خلقه الله ذا مكانة فى الدنيا بالنبوة والبراءة من العيوب وهو أعظم خير لحمل النفع ولمن ينتفع منه في الدنيا، وفي الآخرة بعلو

---

[١١١] آل عمران ٤٥ ٤٩

درجته مع الصفوة المقربين إلى الله من النبيين وهذا أعلى درجات النفع، وأما ما ميزه الله به من خصائص حيث كان يكلم الناس وهو طفل فى مهده كلاما مفهوما حكيما، كما كلمهم وهو رجل سوي، من غير تفاوت بين حالتي الطفولة والكهولة فكان نفعه في مهده وطفولته كنفعه في رجولته، وهذا النفع المتدلي نزولا من النافع إلى المنتفعين هو من طرق إثبات الصفات الدالة على المتصف بالصفة، فإذا كان النافع جل شأنه أسبغ على المنتفع المخلوق من النعم ما يكون به أهلا لنفع الآخرين، فإن المخلوق يدل على وجود خالقه، وعلى حياته، وعلى قدرته وقوته، وعلى علمه وحكمته ومشيئته باختياره. فالفعل الاختياري يستلزم ذلك استلزاما ضروريا. لأن ما فيه من الإتقان، والإحكام، ووقوعه على أكمل الوجوه يدل على حكمة فاعله وعنايته وما فيه من الإحسان والنفع، ووصول المنافع العظيمة إلى المخلوق يدل على رحمة خالقه، وإحسانه وجوده، وما فيه من آثار الكمال يدل على أن خالقه أكمل منه، فمعطي الكمال أحق بأن يكون كاملا وواهب النفع مستغنٍ عنه بالضرورة.

فقد وهب النافع للإنسان الفطرة، ورفده بالعقل ومنحه التفكر، وجمع له هذه الخصال وما هو أكثر منها في نفسه، وبسبب هذه الميزة الظاهرة فضل جميع المخلوقات حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها وهذه الميزة التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والعلم أداة وسيلة للتفكر، والعلم والفكر يشد بعضه بعضا، فصواب بديهة الفكرة من سلامة العقل، وصواب روية الفكرة من صحة الطباع، وصحة الطباع من طمأنينة النفس لأن النفس المطمئنة هي أعظم الأنفس نفعا من الله النافع ولذلك خاطبها عز وجل حيث قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[١١٢] إن النفس المطمئنة هي التي نالت أعلى درجات النفع من النافع، والمنتفع هو الذي أشبع حاجاته فوصل إلى السعادة لذلك وضح الله تعالى بيان سعادة النفس المطمئنة. والاطمئنان السكون بعد الانزعاج وسكون النفس إنما هو بالوصول إلى غاية الغايات فى اليقين والمعرفة والشهود وفى قوله تعالى: {أَلاَ بِذِكْرِ الله

---

[١١٢] الفجر ٢٧، ٣٠

تَطْمَئِنُّ القلوب}[١١٣] تنبيه على أنه بمعرفته تعالى والإكثار من عبادته يكتب اطمئنان النفس الذي فيه أعلى درجات النفع وإذا وصلت النفس إلى مقام الاطمئنان بذكر الله صار صاحبها فى مقام التمكين آمنا من الرجوع إلى الأحكام الطبيعية والآثار البشرية.

وعليه، فالذي يعرف مكامن النفع إنما هو الخليفة النافع بالإضافة المهتدي إليه بعقله وقلبه، لأن العقل بالضرورة يعرف أسباب النفع ومسبباته، وفي القلب تكمن السكينة، وهما القوة العاقلة والضامرة التي تستطيع الترقي، وأن القوة العاقلة إذا أخذت تترقى في سلسلة الأسباب والمسببات، فكلما وصل إلى سبب يكون هو ممكنا لذاته طلب العقل له سببا آخر، هكذا تطمئن القلوب والنفس بذكر الله، فكلما ذكر الذاكرين ربهم جل جلاله ازدادوا اطمئنانا، وهكذا ينتقل العقل من كل شيء إلى ما هو أعلى منه معرفة، حتى ينتهي في ذلك الترقي إلى واجب الوجود لذاته مقطع الحاجات ومنتهى الضرورات، فلما وقفت الحاجة دونه وقف العقل عنده واطمأن إليه القلب والنفس، ولم ينتقل عنه إلى غيره، فإذًا كلما كانت القوة العاقلة ناظرة إلى شيء من الممكنات ملتفة إليه استحال أن تستقر عنده، وإذا نظرت إلى النافع جل جلاله، وعرفت أن الكل منه استحال أن تنتقل عنه، فثبت أن الاطمئنان لا يحصل إلا بذكره تعالى، وأن حاجات العبد متنوعة ومتعددة ومتطورة إلى النهاية، ولا بقاء ولا قوة ولا قدرة إلا من النافع تعالى، فالاطمئنان في الحياة الدنيا هو شعور نفسي بالرضا غير الذي سبق ذكره من اطمئنان الآخرة، ويعود على المطمئن بمنافع كثيرة من الشعور بالارتياح والرضا عما يقول ويعمل، مما يولد السكينة والوقار، الأمر الذي يجعله أكثر نفعا، وأكثر الناس اطمئنانا هو الخليفة لذلك يحمل من الشعور بالارتياح والرضا ومن الهيبة والسكينة والوقار ما يجعله أكثر الناس نفعا، ومن هنا كان نافعا بالإضافة، ولو لم يكن الله هو النافع ما كان الخليفة، ولهذا الخليفة هو النافع بالإضافة، حيث استمداده قيمة النفع من النافع المطلق جل جلاله، ولما كان الخليفة بما حباه الله من النعم وما أسبغ عليه من الصفات النسبية، فهو إذاً نافع بالإضافة لما استخلف فيه من أمور الخلق، ونفع الخليفة هو جزء من التكليف المفوض به

---

[١١٣] ، الرعد ٢٨

حيث أنه يسهم في إشباع حاجات المجتمع على اختلاف منافعها سواء أكانت دنيوية أم أخروية، فالخليفة يكون نافعا بالأمر والنهي والمشورة والرأي الصائب الذي يسهم في الإصلاح أو يؤدي إليه، وهو بهذا يكون نافعا بالإضافة لأن الله تعالى قال: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}[١١٤] والمراد بسوق السحاب الحامل للماء أن الله النافع يجري المطر إلى الأرض التي قطع نباتها فيخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم، ويأكلون حبه وثمره، لأنه هو الذي ينسب إلى الله تعالى، وأما السقي بالأنهار فمنسوب إلى العبد وإن كان الإنبات من الله تعالى، فالنافع هو الذي يسوق الماء إلى الأرض الميتة فتسقى وتنبت حدائق وبساتين بعد جفاف عودها وزوال المأنوس منها، فيعود عودها مورقا بعد ذبوله فيخرج به زرعا ونباتا ينتفع به، فهذا النافع وهذه قدرته جل شأنه، وأما الخليفة فإنه نافع بالإضافة حيث يأمر بشق الترع وحفر الآبار ونصب السواني ومدِّ الأنابيب وما إلى ذلك من وسائل النفع التي بها تعمر الأرض ويتم إصلاحها، ولهذا الخليفة مصلح لا مفسد فهو الذي ينفق في أوجه الإصلاح والعمار، ولا يتأخر عن ذلك، وذلك لأنه يعلم أن نتيجة ما ينفقه على الآخرين الذين هم في حاجة يعود عليه يوم الحساب رحمة، قال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[١١٥] ولأن ما تبذلونه من معونة لغيركم ففائدته عائدة عليكم ومنفعته تكون لكم، والله مثيبكم عليه، ويكون الخليفة نافعا في صونه أرواح الناس وأعراضهم والحفاظ على مصالحهم وتعليم أبنائهم القول الحق، ذلك أن العلم هو مفتاح المنافع لما يعود به على المجتمع بأسره، فالمعلم والطبيب والمهندس والعامل كل واحد من هؤلاء يؤدي منافع متنوعة، وهنا يقوم الخليفة النافع بتوجيه منافع الله تعالى لأن لله عبادا يختصهم بالنفع لمنافع العباد، فنعم الله في أرضه وافرة المنافع.

---

[١١٤] السجدة ٢٧

[١١٥] البقرة ٢٧٢

وبما أن العباد لا يصلح حالهم إلا بالتقوى، فقد أوكل الله الخليفة كونه نافعا بالإضافة في توجيه هذا النفع بما يعود على جميع أفراد المجتمع بالخير الوفير، وأول توجيه للخليفة النافع في هذا المجال يكون في توزيع ملكية الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[١١٦] فالأرض ليست ملكا خاصا لأفراد أو جموع معينة، ولا ملكا حكوميا لحكومة معينة أو مجموعة حكومات، الأرض لله تعالى، ولذا فهي ملك لكل مصلح، ولهذا فالخليفة مصلح لا يسمح بأن يستأثر عدد قليل من الأفراد بأكبر مساحة من الأرض على حساب حاجات الآخرين، وذلك كي لا ينقلب النفع ضررا، ولهذا يكون توجيه النفع من قبل الخليفة بالتوزيع العادل للأرض التي استخلفه الله فيها بشكل يناسب إصلاح الناس جميعا، ثم يوجه استخدام الملكية حسب حاجة المجتمع في زراعتها مراعيا سدّ الحاجة ومشبعاتها المتطورة والمتنوعة، فالخليفة يتصف بصفة النافع النسبية ويؤدي النفع ويقدمه في جميع مرافق الحياة، فالله لم يترك الخلق غفلة ولا هملا لا في دينهم ولا في دنياهم لشدة ما حباهم به من منافع حيث قال تعالى: {وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[١١٧]، أي لا تستطيعون أن تحصروا وتحصوا ما أنعم عليكم من المنافع التي سخرها خدمة للناس إلا أننا سنذكر عشر دلائل تتجلى من خلالها المنافع التي شمل بها النافع عز وجل خلقه بها، فالله الذي خلق السماوات والأرض، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره، وسخر لكم الأنهار، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين، وسخر لكم الليل والنهار، وآتاكم من كل ما سألتموه، وعلى الرغم من جزيل هذه النعم والمنافع، فإن كثيرا من العباد لا يشكرون النافع على ما أكرمهم به، ومع ذلك فإن الله تعالى كونه حليما رحيم فهو نافع بحلمه ورحمته الواسعة، إذ أجل عنهم الحساب

---

[١١٦] الأنبياء ١٠٥ . ١٠٨.

[١١٧] إبراهيم ٣٤

والجزاء في الثواب والعقاب بصفته مؤخرا لأنه نافع حتى وإن تمادى بعض الخلق في الطغيان على سبيل التحدي بقولهم: {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ}[١١٨] وذلك عند سماعهم بتأخير عقاب الله تعالى إلى الآخرة فقالوا ذلك بطريق الاستهزاء والسخرية ربنا عجل لنا قسطنا ونصيبنا من العذاب الذي توعدنا به ولا تؤخره إلى يوم الحساب، إلا أن الله الحليم الرحيم النافع يؤخر الحساب لتكون الفرصة سانحة أمام من يتوب لتكون المغفرة رحمة واسعة من النافع على المنتفع، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٩] فالذين عملوا السوء تحت تأثير طيش وغفلة عن تدبر العواقب، ثم تابوا من ذلك الذنب، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم، فإن ربك يغفر لهم ذنوبهم، فالتوبة لا تكون إلا من بعد الانغماس في السيئات والزلات والغفلات، ولهذا فهي تأتي بعد الصحوة من الغفلة والالتفات إلى الطاعات والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح الله شأنه، ولهذا ينال التائب نفع النافع من تأخير العقوبة في فسح المجال أمامه ومنحه فرصة العودة إلى الطاعة وطريق الهدى وسبيل الرشاد، وبذلك تعود عليه أفضل المنافع رحمة وشفاء من ضلال، أنه نافع وخير النفع من النافع ما كان في الآخرة حيث قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[١٢٠] فقد وعدهم الله الجنة خالدين فى نعيمها وأعد لهم مساكن تطيب بها نفوسهم فى دار الإقامة والخلود، ولهم مع ذلك رضا اللَّه عنهم يستشعرون به، وهو النعيم الأكبر، وذلك هو الفوز العظيم، وكذلك فالله النافع في الدنيا فإن نفعه في الآخرة كونه المؤخر أكبر فائدة وأعظم نفعا فقد قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ

---

[١١٨] ص ١٦

[١١٩] النحل ١١٩

[١٢٠] التوبة ٧٢

الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[121] فكانت مكافأتهم عظيمة من النفع الدائم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبلى، وكما كانوا منتفعين من الأرض في الدنيا والتصرف والتمكين مما هو يعود عليهم بالنفع، كذلك كان جزاؤهم من النافع في الآخرة بأن أورثهم الجنة، حيث دخل المتقون إلى الجنة جماعات جماعات، وأفواجا أفواجا، حتى إذا بلغوها، وقد فتحت أبوابها، وقال لهم حفظتها: أمان عظيم عليكم، طبتم فى الدنيا من دنس المعاصي، وطبتم فى الآخرة بما نلتم من النعيم، فادخلوها مقدرا لكم الخلود، فإن لكم من النعيم ما لا يخطر على بال وهذا هو منتهى النفع، غير أن بعض الناس يصرف وقته وجهده وعمله فيما يسخط الله لكي يرضي بعض الناس ظننا منه أن أعماله هذه نافعة، مثل الذين يمشون بالنميمة أو يحلفون بالله كذبا ليرضى الناس عنهم ويشعر أنه انتفع بهذه الأعمال فقد قال تعالى: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ}[122]، فيعتذرون ويؤكدون معاذيرهم بالإيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم، وبذلك يعتقدون أنهم نالوا النفع. غير أن الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فالذي يكون هذا دأبه لكسب المنافع بما يسخط الله تعالى فقد عاد عمله عليه ضررا، فبكسب منافع الدنيا يخسر الآخرة ويسخط الله عليه ويسخط عليه الناس أيضا، مع العلم أن رضا الناس غاية لا تدرك، وما أرضى أحد قوما إلا أغضب آخرين، ولهذا رضا الله أيسر، فلماذا الغفلة؟! فهو المستحق لأن يقصد وحده إذ هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء فلا رازق ولا معطي ولا ضار ولا نافع إلا هو تبارك وتعالى، فكيف يترك الله تعالى ونفعه برجاء كاذب ووهم فاسد ناقص يصيب ويخطئ، وهذا الواهم المنافق الكاذب لو أطلع الناس على ما في قلبه من الرياء لطردوه ومقتوه، فمن أراد أن ينتفع وينفع الآخرين فعليه أن يتخلق بالفضائل ويترك الرذائل لأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبهذا تكون منه المجاهدة في التوجه إلى النافع جل شأنه لأن الله لا يضيع أجر المحسنين حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا

---

[121] الزمر ٧٣، ٧٤

[122] التوبة ٦٢

وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا}[١٢٣]. فالله لا يظلم أحدا شيئا ولا ينقص من أجر عمله ولا يزيد فى عذابه شيئا، ويضاعف للمحسن ثواب حسناته مهما قلت، ويعطي من فضله عطاء كبيرا غير مقابل بالحسنات التي يضاعفها وهذا هو النفع المرتجى.

لكن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم بظنه أنهم يقدمون له نفعا أو يدفعون عنه ضررا فهو مغرور، لأنه لو عرف اللّه حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه شيئا، وأنه لا نافع إلا هو جل جلاله، ولهذا رضا الناس صعب لا ينال، ورضا الله النافع ميسَّر لا صعوبة فيه، إنه سهل المنال، فمثل هؤلاء كمن يستبدل ما هو أدنى بما هو خير، ولهذا فالخليفة فاز بنيل رضا الله النافع جل جلاله، قال تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[١٢٤]. فذلك اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقُهم، لهم حدائق تجرى تحت أشجارها الأنهار، وهم مقيمون فيها لا يخرجون منها أبدا، يتمتعون فيها برضوان الله عنهم ورضاهم بثوابه، وذلك النعيم هو الفوز العظيم وهو أعلى درجات النفع. غير أن الأخذ بالأسباب فى الدنيا هو الذي يؤدي إلى نفع الآخرة، والعمل النافع ما كان حال التكليف، فالجاني المعترف يوم القيامة بجنايته لا ينفعه اعترافه وصدقه وكذلك الجاني المعترف فى الدنيا بجنايته لا ينفعه يومئذ اعترافه وصدقه، فإنه ليس المراد كل من صدق في أي شيء نال النفع.

إن الأمور كلها تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق برحمة من الله وفضله حيث قال تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[١٢٥] فلولا فضل الله ورحمته عليهم في الدنيا بعدم التعجيل بالعقوبة، وفي الآخرة بالمغفرة لنزل بهم عذاب عظيم، وإلى ما هو ضار فيهما جميعا كالجهل

---

[١٢٣] ، النساء ٤٠

[١٢٤] ، المائدة ١١٩

[١٢٥] النور ١٤

وسوء الخلق الذي يؤدي إلى الكفر، لذلك قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[١٢٦] فهو لن ينفعهم أبدا إن استطاعوا أن يملكوه، وإلى ما ينفع في الدنيا ويضر في الآخرة، كالتلذذ بإتباع الشهوة، وإلى ما يضر في الدنيا ويؤلم ولكن ينفع في الآخرة كقمع الشهوات ومخالفة النفس الهامعة والضالة، فالنافع في الدنيا والآخرة هو النعمة وما شملت مادية كالمال والبنين إذا وجهت وفق ما أراده النافع جل شأنه فقد قال الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[١٢٧]، أي بنفس سليمة من الكفر والمعاصي وإنما أضاف السلامة إلى القلب لأن الجوارح تابعة للقلب فتسلم بسلامته وتفسد بفساده حيث قال صلى الله عليه وسلم: "أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ"[١٢٨]. فالذين يقولون نحن أكثر أموالا وأولادا فاخبر الله انه لا ينفعهم ذلك اليوم لا المال ولا البنون لعدم سلامة قلوبهم في الدنيا وأما المستخلفون فيها فتنفعهم خيراتهم وينفعهم ما عملوا من عملا صالحا. والقلب السليم الذي ينفع صاحبه له ثلاث علامات:

أولاها أن لا يؤذى أحدا.

والثانية أن لا يتأذى من أحد.

والثالثة إذا اصطنع مع أحد معروفا لم يتوقع منه المكافأة، فإذا هو لم يؤذ أحدا فقد جاء بالورع، وإذا لم يتأذَّ من احد فقد جاء بالوفاء، وإذا لم يتوقع المكافأة باصطناع المعروف فقد جاء بالإخلاص، وهذا ما يعود عليه بالنفع في الآخرة. والمنفعة معنوية هي كالعلم وحسن الخلق.

والنفع يندرج تحت باب الخير والنعم، والخيرات تنقسم إلى نافع ولذيذ وجميل، فاللذيذ هو الذي تدرك راحته في الحال، والنافع هو الذي يفيد في المآل، والجميل هو الذي يستحسن في سائر

---

[١٢٦] المائدة ٣٦

[١٢٧] الشعراء ٨٨ ، ٨٩

[١٢٨] صحيح مسلم، ج ٨، ص ٢٩٠

الأحوال، فالخير كالعلم والحكمة فإنها نافعة وجميلة ومفضلة عند أهل العلم والحكمة، وأما في الشر فكالجهل فإنه ضار وقبيح ومؤلم، وإنما يحس الجاهل بألم جهله إذا عرف أنه جاهل، وذلك بأن يرى غيره عالما، ويرى نفسه جاهلا، فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم اللذيذة بحيث يشعر بحاجة الانتفاع من العلم، ثم قد يمنع الحسد والكبر والشهوات البدنية عن التعلم فيتجاذبه متضادان فيعظم ألمه، فإنه إن ترك التعلم تألم بالجهل وأدرك النقصان، وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم فيكون قد بادر إلى النفع، وضروب النفع وأنواعه مختلفة، فرب نافع مؤلم كقطع العضو الضار من الجسد، ورب نافع قبيح كالأحمق الذي لا يستغنى عنه، وفقدان العقل نافع لمن فقد عقله لأنه رُفع عنه القلم، ورب نافع من وجه ضار، كإتلاف المال لإنقاذ النفس أو إتلاف بعض المال لإنقاذ بعضه، فإنه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها. والنافع الضروري كالإيمان وحسن الخلق فهما يوصلان إلى سعادة الآخرة وهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما شيء، ثم إن العلم نافع وجميل في كل حال أبدا، والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة، ولذلك ذم الله تعالى المال في القرآن في مواضع حيث قال تعالى:{ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[١٢٩] وإن سماه خيرا في مواضع أخرى حيث قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}[١٣٠]، وأما قصور أكثر الخلق عن إدراك لذة العلم كونه نافعا، فإما لعدم الذوق وإما لعدم الشوق، إذ الشوق تبع للذوق، وإما لفساد أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب إتباع الشهوات، كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرا فلا يرى فيه نفعا، وإما لقصور فطنتهم، إذ لم تخلق لهم بعد الفطنة التي بها يعرف نفع العلم، كالطفل الرضيع الذي لا يميز بين التمر والجمر، فلكل منهما منافع ولكنه لا يملك توجيه المنفعة، فالقاصرون عن إدراك منفعة العلم والحكمة ثلاثة، إما من لم يحي فطنته كالطفل، وإما من مات بعد الحياة بإتباع الشهوات، وإما من مرض

---

[١٢٩] الأنفال ٢٨

[١٣٠] الكهف ٤٦

بسبب إتباع الشهوات وكان في قلبه مرض كما قال تعالى: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}[١٣١] إشارة إلى مرض العقل وهذا إنذار من الله لمن كان حيا، لأنه لم يحيى حياة ينتفع بها، وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء، ولذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان، غير أن الله تعالى أحياهم حياة لا نعرفها ولم نألفها، لأننا نحن أحياء في الحياة الدنيا وما يحكمها من القوانين الطبيعية والفيزيائية وفق الغذاء والزمان والمكان، ولكن النافع جل شأنه عندما أراد (وهو مريد) مكافأة من يقتل في سبيله نفعه بما لم ينتفع به أحد فجعلهم أحياء عنده جل جلاله حيث قال: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[١٣٢]، فهؤلاء الذين قُتِلوا فى سبيل الله ليسوا أمواتا بل هم أحياء حياة استأثر الله بعلمها، يرزقون عند ربهم رزقا حسنا لا يعلمه إلا هو، يتألق السرور بالبشر من وجوههم بما أعطاهم الله بسبب فضله من المزايا، ويفرحون بإخوانهم الذين تركوهم فى الدنيا أحياء مقيمين على منهجهم وبأنه لا خوف عليهم في شيء ولا من شيء، ولا هم يحزنون لفوات شيء يندمون عليه، وبالنتيجة أن هؤلاء قتلوا وماتوا. وصفوة القول في هذا أن الله سبحانه وتعالى كونه النافع، فكل ما خلقه من شيء إن هو إلا نفع للبشر لأن الله كان بخلقه رحيما، فما من شيء من المأمور بأخذه أو فعله إلا وبه خير ومنفعة للإنسان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[١٣٣] وما من شيء منهي عنه إلا لمصلحة الإنسان ولعلم الله أن في النهي والمنع منفعة للإنسان حيث قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا

---

[١٣١] البقرة ١٠

[١٣٢] آل عمران ١٦٩، ١٧١

[١٣٣] البقرة ١٦٨

أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[١٣٤] فهذه المنهيات التي أمر الله تعالى باجتنابها والابتعاد عنها إنما هي من المحرمات التي ينبغي أن لا تقربوها وتبتعدوا عنها لأن الضرر يكمن فيها، والنفع يأتي من اجتنابها وتركها، فلا تجعلوا لله شريكا، بأي نوع كان من أنواع الشرك وهذا أعظم الضرر وأبعد ما يكون عن النفع، ولا تسيئوا إلى الوالدين، بل أحسنوا إليهما إحسانا بالغا حتى تبلغوا مرضاة الله التي تنالون بها أعظم المنافع، ولا تقتلوا أولادكم بسبب فقر نزل بكم، أو تخشون نزوله فى المستقبل، فلستم أنتم الرازقين لأن الرزاق هو الله النافع الذي ينفعهم برزقه، بل هو الذي يرزقكم ويرزقهم، ولا تقربوا الفواحش من الزنا والربا والخمر التي تؤدي إلى انتشار الرذيلة التي تجلب الأضرار، وتدحر الفضيلة التي تحمل لكم جميع المنافع فهذه الأمور متناهية فى القبح والسوء، سواء ما ظهر منها للناس حين إتيانها أو ما لم يطلع عليه إلا الله، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها لعدم موجبه، إلا إذا كان القتل بحق تنفيذا لحكم قضاء يجلب المنفعة، فبديهة العقل وفطرة الإنسان التي جبلت على الخير تقتضي اجتناب ما ذُكر جلبا للمنافع. وبالنتيجة فإن أمور العباد وتصرفاتهم رجعها ومآلها إلى مولاهم ونفعهم وضرهم إلى الله النافع، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، حيث لا ينفع مال ولا بنون ولا شيء من محاسن الدنيا وملكها إلا إذا أراد الله أن ينفعه بأن ينال العفو والمغفرة وتشمله رحمة الله تعالى ليكون من الذين انتفع في الآخرة بأسباب ما قدم في حياته الدنيا على الرغم من قلته نسبة إلى الخيرات والنعم والمنافع التي سخرها له النافع عز وجل، فالله سبحانه نافع لأنه هو خالق المنافع وهو مصدرها، أي لو لم يكن النافع ما كانت المنافع، وجميع خلقه تحت رعايته وفي عنايته، وجميع خلقه محتاجون إلى نفعه، وهو غني عن المنافع ومغنٍ بها لما خلق، وإن عمَّ جميع الأحياء إلا أنه خص الإنسان دون غيره لأنه نفعه وميزه عن بقية المخلوقات بنعمة (أحسن تقويم) وبذلك استخلفه في الأرض وهيأ له أسباب الخلافة وإمكاناتها بما يعود عليه بكسب النفع الذي يؤدي إلى حسن الخاتمة.

---

[١٣٤] الأنعام ١٥١

وعليه فالنافع هو الذي بيده الأمر والنهي، وهو على كل شيء قدير، وهو مالك الملك، ولذا فهو ينفع بما يملك من أمر وقوة وقدرة وعلم وحكمة، إنه عالم الغيب والشهادة وهو الرحمن الرحيم.

النافع، هو من يملك المطلق الذي به يتم النفع، ولذا فهو النافع في الظاهر والباطن، وهو الذي بيد المشيئة، الحياة ومعاشها بضيائها ونورها، والممات وراحته وسكونه، والبعث وسرمديته ونعيمه. ولهذا النافع هو من لا حاجة تلاحقه وهو بمشبعاته يمد حاجات المخلوقين رزقا.

اللهم يا النافع أنفعنا في الدارين نعمة ويقين، ومغفرة وجنة نعيم، وأرضى عنا أجمعين، اللهم إنك في السماء أنت ربا نافعا، وفي الأرض أنت ربا نافعا، وفي أنفسنا ربا نافعا، وفي الظاهر أنت وفي الباطن أنت ربا نافعا، أنت في سمعنا الحق، وفي بصرنا الحق، وأنت في حواسنا التامة حركة وسكون الفعل الحق، لا تشرق الشمس ضياء إلا بك، ولا تظهر القمر نورا إلا بك، وأنت النافع لا يهدءا الليل ويسكن إلا بك، فأنت جل جلالك مَالِكَ الْمُلْكِ وأنت النافع تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، وأنت النافع بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فأنت النافع الذي تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وأنت النافع تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، سبحانك جل جلالك أنت في الدارين أنت النافع لا ملجأ منك إلا إليك، سبحانك أستغفرك وأتوب إليك.

النور

النور اسم ضياء وجمال تستبشر به الخلائق وترضى، تشد إليه ولا تطمأن إلا به سبحانه ينير الأنفس كما ينير الدروب، من نوره تشرق الشمس وتتلألأ السماء بنوره وتضيء القمر، وبالنور يهتدي العباد إلى التي هي أحسن، والنور حُسن يستمد من الكلمة التي تنير القلوب ومن الآيات العظام للنور المطلق جل جلاله، والنور المطلق لا يُرى في ذاته ولكن يستمد من آياته، فالنور ليس كمثله شيء، ولهذا فالله الذي ليس كمثله شيء هو نور السماوات والأرض {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[١٣٥].

---

[١٣٥] النور ٣٥.

وعليه "النُّور يُظْهِر مَا يُنْسَب إِلَيْهِ وَهُوَ يَخْتَلِف بِحَسَبِهِ، فَنُور السَّمْع مُظْهِر لِلْمَسْمُوعَاتِ، وَنُور الْبَصَر كَاشِف لِلْمُبْصِرَاتِ، وَنُور الْقَلْب كَاشِف عَنْ الْمَعْلُومَات، وَنُور الْجَوَارِح مَا يَبْدُو عَلَيْهَا مِنْ أَعْمَال الطَّاعَات"[١٣٦]

من فضائل ونعمة الله على عباده نعمة الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة للتحلي بهذه النعمة إلا بانشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والجهل والمعصية، لذا يتأتى عمى القلب بظلمة الجهالة، فالعقلاء وأرباب البصائر قلوبهم، {كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ}[١٣٧]. ولأن الله هو النور جل جلاله وهو الذي جعل في الأرض خليفة فهو الذي بث نوره في المستخلفين فيها ليصلوا ولا يفسدوا ولا يسفكوا الدماء بغير حق.

وهؤلاء هم خلفاء النور بالنسبية لا على الإطلاق، فالعلم نوّر بصائرهم التي بها عرفوا الحق بالحق فأشرق نور الله بعلمه فيهم، مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[١٣٨].

وفي مقابل الذين أطمأنت قلوبهم بذكر الله، الكافرون الجاهلون الذين اسودت قلوبهم بما يكفرون ويجهلون، {كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أخرج يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[١٣٩]. فأصحاب العقول الواعية والقلوب البصيرة هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم لنور الإسلام، والكافرون الجاهلون بحقيقة الإيمان هم الذين أراد الله أن يضلهم فجعل صدرهم ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء، فالجاهل مظلم القلب هو الذي لم تنفتح بصيرته وبقي

---

[١٣٦] عون المعبود، ج ٣، ص ٢٩٢.

[١٣٧] النور ، ٣٥

[١٣٨] الرعد ٢٨.

[١٣٩] النور ، ٤٠

في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً {وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا}[١٤٠]، وعليه فالجهل أصل الظلمة والكفر والبعد عن مصدر النور.

وحتى نتدرَّج في الرقي لنقتبس من النور المحض علينا أن ننظر في اللغة لنرى ما النور؟.

إن (الله نور، وله نور) نور ذاتي مهلك لا سبيل للوصول إليه، ونور مخلوق كنور الشمس القمر وكالذي سيتحلى به على عباده ليريهم من جماله يوم القيامة وفي الجنة، وهذا النور من وراء حجاب الصورة.

النور: هو الحق، الذي يتجلى في سماه، وهو الذي يُدرك بذاته وهو ينير البصر والبصيرة، يُهتَدى به ويُهتدى إليه، به يرشد الضال سبيله إذا اهتدى، وبدونه يَضُّل ضالاً، ولذا فبه تزاح الظلمة والغمة وتُنار الدروب.

وعليه الله جل جلاله هو النور، وهو القوة الخارقة لكل قوة، وهو القدرة النافذة لأي ظلمة، وبه يتم التبيُّن دون زيف. ولأن النور هو الله، فالنور هو القوة والقدرة التي تنير الإبصار والبصائر، كما تنير الدروب والسُبل، ولأن النور هو الله فهو لا يُرى مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[١٤١]. موسى عليه الصلاة والسلام يرى الجبل كما نحن نراه، أي بأمهات عينيه يرى الجبل جبلا، ولكن هل العينان لوحدهما كافيتان لرؤية الجبل؟. بالطبع لا. أي لو لم يكن النور الذي هو من نور الله مبثوثا ومنتشرا بين السماوات والأرض، ما كان للعينين من نور، وإذا فقدت العينان نور الله فيهما فقدت الرؤية حتى وإن كانت العينان سليمتين. ولننظر، إذا أغلقت عليك غرفة بالتمام ومعك في الغرفة فأر أو جمل هل لك أن ترى الفأر أو الجمل إذا لم ينفذ فيها نور؟. بالتأكيد لا. ولهذا علينا بإدراك الله بنوره الذي به رأينا الجبل، ونحن على سبيل المثال: إذا نظرنا إلى الشمس لزمن قصير قد نفقد

---

[١٤٠] الإسراء، ٧٢

[١٤١] الأعراف ١٤٣.

بصرنا ولهذا ينهانا الطبيب عن النظر إلى مصادر النور، فهي قوة خارقة للبصر، ولذا فما بالكم بالنور المطلق. أي إذا كانت مصادر النور المخلوقة قوة لا يطاق النظر إليها فما بالكمِّ بقوة خالقها؟. ولهذا عندما تمركزت قوة نور الله على الجبل جعلته دكا، وهكذا لو تمركزت قوة نور الله على الأرض والسماوات لجعلتها كما جعلت الجبل.

وعليه فمن يدرك نور الله لا يشك في وجوده، ومن له في نفسه بعد ذلك ظن فإن بعض الظن إثم، ولذا فمن أدرك نور الله أدركه يقينا، ولهذا قال موسى عليه الصلاة والسلام: {فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}.

إن الله نور في ذاته، ونور في خلقه، ونور في علمه، ونور في بصره وسمعه، ونور في الحركة والسكون. ولذا في الشروق ضياء وفي الغروب نور، ضياء الشمس في النهار، وضوءها في كبد السماء ليلا نجوما تتلألأ وقمرا منيرا، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[١٤٢].

وهكذا (الأنبياء نور، ولهم نور)، فهم نور المنير جل جلاله في أرضه، وكتبه معهم نورا تنير الأرض التي استخلفهم فيها مبشرين ومنذرين ومحرضين على الحق وإحقاقه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}[١٤٣].

و(للمؤمنين نور) يسعون به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آَمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ

---

[١٤٢] يونس ٥، ٦.

[١٤٣] الأحزاب ٤٥، ٤٦.

قِبَلِهِ الْعَذَابُ}[١٤٤]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٤٥].

النور في اللغة: في أَسماء الله تعالى النُّورُ "هو الذي يُبْصِرُ بنوره ذو العَمَاية ويَرْشُدُ بهداه ذو الغَوايَةِ "[١٤٦]

وهذا المعنى فيه الهداية التي تستمد من نوره بمعنى إرشاده للطريق الصحيح للوصول إلى الحقيقة ولا بأس من هذا المعنى فاللغة قد أحالتنا إلى معنى مستفاد من النور لا إلى معنى النور في حد ذاته، مع التأكيد في الوقت نفسه أن الأثر المعنوي للنور وهو الهداية لاشك مطلب من أعز المطالب التي يرجوها الخليفة الذي يسعى ليصلح في الأرض ولا إصلاح إلا بنور الهداية قال الله تعالى:

{اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٤٧]

نعم (الله ولى الذين آمنوا) فهو سبحانه محبهم ومعينهم ومتولي أمورهم لا يكلهم إلى غيره، فالولي يكون بالمحبة والنصرة فيقال للمحب ولي لأنه يتقرب من حبيبه بالنصرة والمعونة ولا يفارقه، والولي الناصح المحب يكون بحسن ونفع التدبير، وبصحة الأمر، وبنفع النهى، لذلك الله ولى الذين أراد أن يهديهم للإيمان و يخرجهم بالهداية من الظلمات، وهي ظلمات الكفر والمعاصي وظلمات الشبه والشك في قدرة الله (إلى النور) نور الإيمان، فيخرج الله سبحانه وتعالى بهدايته وتوفيقه كل مؤمن من الظلمة التي وقع فيها إلى ما يقابلها من النور، والظلمات جمع تدل على أنواع الضلالة المتعددة من أنواع الكفر على جميع ملله، والنور

---

[١٤٤] الحديد ١٢، ١٣.

[١٤٥] التحريم ٨.

[١٤٦] لسان العرب ، ج ٥ ، ص ٢٤٠.

[١٤٧] البقرة ٢٥٨

مفرد فيدل على أن الإسلام دين واحد وسمى الكفر ظلمة لالتباس طريقه وسمى الإسلام نورا لوضوح طريقه (والذين كفروا) الذين ثبت في علمه الأزلي كفرهم هؤلاء (أولياؤهم الطاغوت) الشيطان وأعوانه من المضلين عن طريق الحق من الكهنة و السحرة وقادة الشر والمفسدين في الأرض ومن يقفون عائقا أمام تحقيق الخلافة المثلى في الأرض الذين يعتقدون في الأصنام التي هي جماد لا ينفع ولا يضر، فالولاية هنا ولاية اعتقاد لأن المفسدين الضالين المضلين أهل الظلمات يعتقدون ويتوجهون إليهم من دون الله فهم بذلك تنحوا عن طريق النور إلى طريق الظلمات. والطاغوت وأعوان الظلام يخرجونهم من نور الإيمان الفطري الذي خلقهم الله عليه إلى ظلمات الكفر والفساد والانهماك في الشهوات، والخروج من نور اليقين إلى ظلمات الشك والشبهات، وإسناد القدرة المطلقة إلى الطاغوت مع أن الله مخرج العباد إلى الوجود ومرشدهم لطريق النور.

فالله (النور) وبنور هدايته يخرج المؤمنون من ظلمة المعصية إلى نور الطاعة والهداية لأنه يصلي على الذين آمنوا به وصلاته رحمة لأن صلاته لنا لا تعني أن فيها ركوع أو سجود أو قيام حاشا لله ولكنها كما قلنا إرادة رحمة، واستجابة للملائكة الذين يستغفرون للمؤمنين، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[١٤٨] فالله هو الذي يصلي عليكم ويرحمكم وأنتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضاً للمؤمنين على الذكر والتسبيح (لِيُخْرِجَكُمْ مّنَ الظلمات إِلَى النور) يعني يهديكم برحمته، والصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، واللفظ المشترك يجوز استعماله في معنيين معاً وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول إلى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فإن أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب فالرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما (وكان بالمؤمنين رَحِيماً).

---

[١٤٨] الأحزاب ٤١ ، ٤٣

والسؤال هل الملائكة وهي الكائنات النورانية تستغفر للمؤمنين؟.

نعم الملائكة تستغفر للمؤمنين وليس الأمر كذلك فقط بل أكثر فإن كائنات البحر تستغفر لطالب العلم، ولأن العلم نور فهو يهدي إلى الحق بالإتباع، فنبي النور صلى الله عليه وسلم يقول: "وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السماوات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ"[١٤٩].

ولأن نور العلم يفوق أي نور فإن النبي صلى الله عليه وسلم جعل فضل العالم الذي يعبد الله على علم أعلى من العابد الذي انقطع للعبادة وفاته الأخذ بالعلم، والعلماء الذين استناروا بنور العلم قد فازوا بميراثهم للأنبياء لأن الأنبياء هم مصابيح الهدى والعلم، والميراث المادي يفنى ونور العلم باق ما دامت السماوات والأرض فالعلم نافع في الدنيا لصاحبه ولمن يحيط به ونافع في الآخرة ببقاء أثره الحسن لأنه يرجح ميزان العبد لما ناله من ثواب متصل لقوله صلى الله عليه وسلم: "إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ"[١٥٠].

والثلاثة –أرى– أنها تجتمع في العلم فإن العلم لا يوفيه أجر فهو في عمومه صدقة، يأخذ العالم ثوابه بفضل ما نقله أبناؤه في العلم، ومن المؤكد أن خير ولد هو ولد العلم الذي يحفظ علم أبيه وينميه، لذا فالعلم نور متصل لا ينقطع بحيلة صاحبه.

و الله (النور) فهو الظاهر الذي به كل ظهور والظاهر في نفسه المُظْهِر لغيره يسمى نوراً[١٥١]

فلو لم يكن هو الظاهر كل الظهور ما ظهر من خلقه شيء، وظهور الأشياء به لأنه أوجدها من لاشيء، فبه ظهرت وجودا وبه ظهرت بصرا وبه ظهرت بصيرة لأولي البصائر لذا بيَّن

---

[١٤٩] سنن أبي داود ، ج ١٠ ، ص ٤٩.

[١٥٠] صحيح مسلم ، ج ٨ ، ص ٤٠٥.

[١٥١] لسان العرب ج ٥ص٢٤٠

سبحانه وتعالى أن العبرة لا يعتبر بها إلا ألو الأبصار والعظة لا يتعظ بها إلا ألو الأبصار: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}[152].

وأولو الأبصار هم الناظرون في بهاء صنع الله عز وجل السائرون في طريق طاعته وهذه الطاعة عبرة لأولى الأبصار.

لذلك نور البصر لا يساوي قيمة بما يعوَّل عليه من نور البصيرة التي تبصر الحق أما من عميت بصيرته فهو أعمى البصر لأن النور المظهر للتبصر انقطع من بين البصيرة والبصر فانعدم عنده البصر الثاقب الذي يغوص في عمق المبصر فيدرك منه ما لا يدركه غيره من ذوي الأبصار الكليلة العاجزة التي لم تدرك موقعها الحقيقي في الحياة فلم تبصر لا بالبصر ولا بالبصيرة.

إن الدور الأول للإنسان في الكون هو خلافة الله في أرضه، فأما إذا غفل ذو البصر عن إبصار دوره فقد أخطأ في حق ذاته وأهمل في واجبه بل تنازل عن حقه في الخلافة لانعدام النور المتصل من البصيرة إلى البصر فلم تظهر له حقيقة وجوده ولا حقيقة ما حوله، وصدق الله في قوله: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[153].

وفي تفسير الألوسي: "وهذا حث على النظر والاعتبار فلا يعتد بعمى الأبصار وإنما يعتد بعمى القلوب فكأن عمى الأبصار ليس بعمى بالإضافة إلى عمى القلوب، فالكلام تذييل لتهويل ما بهم من عدم فقه القلب وأنه العمى الذي لا عمى بعده بل لا عمى إلا هو أو المعنى أن أبصارهم صحيحة سالمة لا عمى بها وإنما العمى بقلوبهم فكأنه قيل: أفلم يسيروا فتكون لهم قلوب ذات بصائر فإن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم وهي الآفة التي كل آفة دونها كأنه يحثهم على إزالة المرض وينعي عليهم تقاعدهم عنها"[154].

---

[152] آل عمران١٣

[153] الحج، ٤٦

[154] تفسير الألوسي ، ج ١٣ ، ص ٨٣.بتصرف

والله (النور) الظاهر المظهر بنوره لغيره هو الرب الذي يدبر الكون وهو الخالق لكل شيء المستحق للعبادة وهو المتصرف في كل شيء لأنه الذي أظهر الموجودات بنوره قال تعالى: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[١٥٥] وهو سبحانه وتعالى لشدة ظهوره لا يدرك لا بالأبصار ولا بالبصائر وإنما يدرك في خلقه الظاهر من خلال الاعتبار والعظة فهو، {لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار} والأبصار جمع البصر الذي هو حاسةُ النظرِ وتطلق على العين من حيث أنها محلُّها، وإدراكُ الشيءِ عبارةٌ عن الوصول إليه والإحاطةِ به فلا تصِل إليه الأبصارُ ولا تُحيط به، وقد كلّتْ أبصارُ المخلوقين عن الإحاطة به. وعن ابن عباس ومقاتل رضي الله عنهم: لا تدركه الأبصارُ في الدنيا وهو يُرى في الآخرة (وَهُوَ يُدْرِكُ الأبصار) أي يحيطُ بها علمُه إذ لا تخفى عليه خافيةٌ (وَهُوَ اللطيف الخبير) فيدرك ما لا تدركه الأبصارُ، ويجوز أن يكون تعليلاً للحُكمين السابقين أي لا تدركه الأبصارُ لأنه اللطيفُ وهو يدرك الأبصارَ لأنه الخبيرُ فيكون اللطيفُ مستفاداً من مقابل الكثيفِ لما لا يُدرك بالحاسة ولا ينطبع فيها.

وقوله تعالى: (قَدْ جَاءكُمْ بَصَائِرُ مِن رَّبّكُمْ) استئنافٌ وارد على لسان النبي عليه الصلاة والسلام، والبصائرُ جمعُ بصيرةٍ وهي النورُ الذي به تستبصِرُ النفسُ كما أن البصرَ نورٌ به تبصِرُ العين، والتعرضُ لعنوان الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار كمالِ اللطفِ بهم أي قد جاءكم من جهة مالككم ومبلِّغِكم إلى كمالكم اللائقِ بكم من الوحي الناطقِ بالحق والصوابِ ما هو كالبصائر للقلوب أو قد جاءكم بصائرُ كائنةٌ من ربكم (فَمَنْ أَبْصَرَ) أي الحقَّ بتلك البصائرِ وآمن به (فَلِنَفْسِهِ) أي فلنفسه أبصر، أو فإبصارُه لنفسه لأن نفعَه مخصوصا بها مصداقا لقوله تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[١٥٦]، (وَمَنْ عَمِىَ) أي ومن لم يبصر الحقَّ بعد ما ظهر له بتلك البصائرِ ظهوراً بيِّناً وضلَّ عنه، فعبّر عنه بالعمى

---

[١٥٥] الأنعام١٠٢ ، ١٠٤.

[١٥٦] الذاريات ٢١.

تقبيحاً له وتنفيراً عنه {فَعَلَيْهَا} أي فعليها عمِي أو فعَماهُ عليها أو وبالُ عملِه {وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} فالحفيظ الله جل جلاله.

وقيل أيضا في تفسير البصر والبصيرة والإدراك: (لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار) الأبصار جمع بصر يطلق على الجارحة الناظرة، وعلى القوة التي فيها وعلى البصيرة وهي قوة القلب المدركة، وإدراك الشيء عبارة عن الوصول إلى غايته والإحاطة به، (وبهذا نقول لا إدراك لنور الله) أي لا بلوغ لنوره، من حيث الرؤية، بل من حيث الهداية ممكن، ولهذا فبنور الله تدرك الأشياء والحقائق التي هي عليها، وبه تتم رؤية الأشياء المخلوقة بنوره وفقا لدائرة الممكن. وأكثر المتكلمين على حمل البصر هنا على الجارحة من حيث إنها محل القوة. وتقرير ذلك على أن الإدراك المضاف إلى الأبصار إنما هو الرؤية ولا فرق بين أدركته ببصري ورأيته إلا في اللفظ أو هما متلازمان لا يصح نفي أحدهما مع إثبات الآخر فلا يجوز رأيته وما أدركته ببصري ولا عكسه، فالآية نفت أن تراه الأبصار، وذلك يتناول جميع الأبصار بواسطة اللام الجنسية في مقام المبالغة في جميع الأوقات لأن قولك: فلان تدركه الأبصار لا يفيد عموم الأوقات فلا بد أن يفيده ما يقابله فلا يراه شيء من الأبصار لا في الدنيا ولا في الآخرة لما ذكر ولأنه تعالى تمدح بكونه لا يرى حيث ذكره في أثناء المدائح وما كان من الصفات عدمه مدحاً كان وجوده نقصاً يجب تنزيه الله تعالى عنه فظهر أنه يمتنع رؤيته سبحانه.

وعليه فالمراد بالإدراك الرؤية المطلقة لا الرؤية على وجه الإحاطة، وأن (لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار) سالبة كلية دائمة وهذا أقوى الأدلة النقلية في هذا المطلب كما ذكره (الكوراني) والجواب عنه: "إن الإدراك ليس هو الرؤية المطلقة وإن اختاره على ما نقله الآمدي أبو الحسن الأشعري وإنما هو الرؤية على نعت الإحاطة بجوانب المرئي كما فسره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن ابن عباس في قوله تعالى: (لاَّ تُدْرِكُهُ الأبصار) لا يحيط بصر أحد بالله تعالى. وإليه ذهب الكثير من أئمة اللغة وغيرهم. والرؤية المكيفة بكيفية الإحاطة أخص

مطلقاً من الرؤية المطلقة ولا يلزم من نفي الأخص نفي الأعم، فظهر صحة أن يقال: رأيته وما أدركه بصري أي ما أحاط به من جوانبه وإن لم يصح عكسه[١٥٧].

وبما أن الله نور ومصير المؤمن إلى النور، فهنا يبرز التساؤل هل يرى نور الله رؤية إدراكية؟ أم رؤية غير إدراكية؟.

هناك مجموعة من النصوص التي تثبت الرؤية أو تنفيها، كما أنه من الواجب علينا تتبعها لإيضاح الأمر وبيان تعلق ذلك بالنور، ومن هذه النصوص:

عدم إثبات الرؤية:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ"[١٥٨].

وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ"[١٥٩] ثُمَّ قَرَأَ أَبُو عُبَيْدَةَ قوله تعالى: {إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آَنَسْتُ نَارًا سَآَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آَتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[١٦٠]

عَنْ السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: "مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ وَلَكِنْ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الْأُفُقِ"[١٦١].

---

[١٥٧] تفسير الألوسي ، ج ٥ ، ص ٤٦٣

[١٥٨] سنن ابن ماجه ، ج ١ ، ص ٢٢٧.

[١٥٩] مسند عبد بن حميد ، ج ٢ ، ص ١٥٦.

[١٦٠] النمل ٨، ٩.

[١٦١] صحيح البخاري ، ج ١١ ، ص ١١.

ولانعدام رؤية الله إلا آيات عظام، قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ}[١٦٢].

عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنْتُ مُتَّكِئًا عِنْدَ عَائِشَةَ فَقَالَتْ: "يَا أَبَا عَائِشَةَ ثَلَاثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قُلْتُ مَا هُنَّ قَالَتْ مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ قَالَ وَكُنْتُ مُتَّكِئًا فَجَلَسْتُ فَقُلْتُ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلَا تَعْجَلِينِي أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ }، {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أخرى}، فَقَالَتْ أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنْ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَتْ أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) وقالت: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ). ثم قالت: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَمَ شَيْئًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)، ثم قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى اللَّهِ الْفِرْيَةَ وَاللَّهُ يَقُولُ: (قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السماوات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ)، وقَالَتْ: وَلَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَاتِمًا شَيْئًا مِمَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ لَكَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ، (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)"[١٦٣]

أحاديث إثبات الرؤية:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: "قُلْتُ لِأَبِي ذَرٍّ: لَوْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَسَأَلْتُهُ قَالَ وَمَا كُنْتَ تَسْأَلُهُ قَالَ كُنْتُ أَسْأَلُهُ هَلْ رَأَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَأَلْتُهُ فَقَالَ قَدْ رَأَيْتُهُ

---

[١٦٢] الشورى ٥١.

[١٦٣] صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٤١٣.

نُورًا أَنَّى أَرَاهُ. قَالَ عَفَّانُ وَبَلَغَنِي عَنِ ابْنِ هِشَامٍ يَعْنِي مُعَاذًا أَنَّهُ رَوَاهُ عَنْ أَبِيهِ كَمَا قَالَ هَمَّامٌ: (قَدْ رَأَيْتُهُ)"[١٦٤].

ومن الآيات التي تشير إلى الرؤية قوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}[١٦٥]، في هذه الآية الكريمة علينا أن نفرق بين الناضرة، والناظرة، فالأولى: نضر الحسن والجمال والكمال، وهذه نضرة ذوق، والنضرة الذوقية توقُّف عند الآيات العظام التي فيها يظهر الحُسن والجمال والكمال الإلهي جل جلاله. والثانية: نظر بصري، وهذا الأمر لن يتحقق في الدنيا، ولكن يومئذٍ (يوم القيامة) وفي هذه الحالة يكون النظر في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

فجمهور أهل السنة يتمسكون بهذه الآية في إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة. أما المعتزلة فلهم ههنا مقامان أحدهما: بيان أن ظاهره لا يدل على رؤية الله تعالى والثاني: بيان التأويل.

ومن المفسرين من يجعل الرؤية في الوجه لا للعين وأن هذه الرؤية مخلوقة عندما يمن الله على العباد بالرؤية.

فقوله جلّ ذكره: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) النَّاضِرَةٌ، المشرقة الحسنة، وهي مشرقة لأنها إلى ربها (ناظرة) رائية لله، والنظر المقرون بـ(إلى) مضافاً إلى الوجه لا يكون إلاَّ الرؤية، فالله تعالى يخلق الرؤية في وجوههم في الجنة على قَلْبِ العادة، فالوجوه ناظرة إلى الله تعالى، ويقال: العين من جملة الوجه فاسم الوجه يتناوله[١٦٦].

ويقال: الوجهُ لا ينظر ولكنَّ العينَ في الوجهِ هي التي تنظر؛ كما أنَّ النهرَ لا يجري ولكنَّ الماءَ في النهر هو الذي يجري، قال تعالى: {جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ}[١٦٧].

---

[١٦٤] مسند أحمد ، ج ٤٣ ، ص ٣١٧.

[١٦٥] القيامة٢٢ ، ٢٣.

[١٦٦] تفسير القشيري ، ج ٨ ، ص ٤.

[١٦٧] البقرة ، ٢٥.

(وجوه يومئذٍ ناضرةٌ)، وجوه كثيرة، وهي وجوه المؤمنين المخلصين يوم تقوم القيامة، بهية متهللة مستبشرة، يشاهَدُ عليها نَضْرة النعيم والسرور، (إلى ربها ناظرةٌ) مستغرِقة في مشاهدة جماله متأملة مع تدبر استقرائي، فلا تلتفت إلى ما سواه.

النور ظاهرا وباطنا، ظاهرا في الحق، وكامنا في الحقيقة، فأما الحق فهو بيِّن لا حجاب عليه، كالشمس ظاهرة لا تغطى بفتحات الغربال، والحقيقة كامنة كالزيت في حبة الزيتون وكالشجرة في النواة، ولذا فالحقيقة تحتاج لمن يبحث ويكتشف فهي حقيقة لمن يريد المعرفة، والحق هو الذي به يتم البحث الموضوعي، حيث لا انحياز إلا للحق، ولا اعتراف إلا به.

النور الحق مهيمن على الظاهر والباطن، ولذا فهو الحق في الظاهر والحق في الباطن، ومن مظاهر الحق ومكامنه الآتي:

١ . ظاهر في النهار: حيث التجلي والوضوح الذي به يتم الاسترشاد إلى السبيل الحق، فهو الظاهر ضياءا في الشروق والغروب وما بينهما من مواقيت ممتدة من ضحى وظهيرة وعصرية. قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[١٦٨]

٢ . ظاهر في الليل: في مصابيح الكواكب والنجوم والقمر التي تنير الليل وتزين سماءه في تحديد الحركة والاتجاهات وفي ذلك أسرار ظاهرة وعلامات دالة على معرفة النور (الحقيقة) قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ}[١٦٩].

---

[١٦٨] يونس ٥، ٦.

[١٦٩] الملك ١ ـ ٥.

٣ . ظاهر في القول الحق: الذي به يُدمغ الباطل فيزهق، قال تعالى {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[١٧٠]، وقال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[١٧١].

٤ . ظاهر في العمل الصالح: الصلاح أساس الاستخلاف في الأرض، والفساد خروج عن الطاعة، ولهذا الإصلاح نور، والفساد ضلال وظلمة، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدم الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدم أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأخرجهما مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[١٧٢].

ظاهر في الطاعة: الطاعة هداية بعد تبيُّن، ولا تبيُّن ولا هداية إلا بنور، ولذا فالنور هو الحق الذي به يتم التبيُّن والتعرف على الحقيقة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١٧٣]، وقال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

---

[١٧٠] البقرة ١٤٦، ١٤٧.

[١٧١] الأنبياء ١٨.

[١٧٢] البقرة ٣٠ . ٣٧.

[١٧٣] النساء ٩٤.

حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[١٧٤].

٥ . ظاهر في الروح: الروح نور من الله مبثوث في الجسد ليمده بالحياة والحركة، فبدونها تكون العودة للأصل وهو الطين اللازب حيث كان الخلق الأولي لأبونا آدم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[١٧٥]، ولأن أمر الروح أمر عجيب، فأسرارها لا يعلمها إلا هو، كيف هي؟ وكيف تكون؟ هذا من علم الغيب، أما أين تكون؟ فهذا الأمر معروف، وذلك كونها مَبعَثُ الحياة في المخلوقات، أما أمرها فمن علم ربي جل جلاله، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[١٧٦]، {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}[١٧٧]. كلمة يلقي الروح، تعني إلقاء نوراني، أي يلقي النور على من يشاء من عباده وحيا أو كتابا منزلا، لتبث الحياة الفاعلة بالقوة والقدرة والمعجزات الكريمة.

قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ

---

[١٧٤] الحجرات ٧ ـ ١١.

[١٧٥] آل عمران ٥٩، ٦٠.

[١٧٦] الإسراء ٨٥.

[١٧٧] غافر ١٥.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ}[١٧٨]. (نزل به الروح الأمين) تعود على القرآن الذي نزل به جبريل من عند الله تعالى على سيدنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام، ولهذا قلنا إن الروح هو النور الذي به تُبعث الحياة ويستقيم المرء.

٦ . ظاهر في النفس: النفس متنوعة الطباع فمنها ما يملؤه النور فتكون المطمئنة، ومنها ما يسودها الظن فتكون من الآثمين، ومنها ما يسودها السوء فتكون الأمَّارة به، ولهذا النفس المطمئنة تعود إلى ربها بنور الهداية الذي استمدته منه جل جلاله. قال تعالى: {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي}[١٧٩]. أما النفس التي تضل تفقد نور ربها فيها مما يجعلها تأمر بالسوء إن لم يرحمها الله بنور من نوره جل جلاله، قال تعالى: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٨٠].

٧ . ظاهر في البدن: نور الله لا تخفيه خافية، وعلامات السرور والفرحة والابتهاج في مرضاة الله نور يُبث على الوجوه، ويجعل الحركة والفعل والعمل صالح على الهداية والصراط المستقيم، قال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أخرج شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[١٨١].

٨ . ظاهر في الصدور (القلوب والبصيرة): النور هو محيي البصيرة، وباعث اليقظة والفطنة فيها، ولهذا تصحو القلوب من غفلتها بنور اليقين الذي نزل به الروح الأمين على سيدنا

---

[١٧٨] الشعراء ١٩٢ ـ ٢٠٦.

[١٧٩] الفجر، ٢٧ ـ ٣٠.

[١٨٠] يوسف ٥٣.

[١٨١] الفتح ٢٩.

محمد صلوات الله وسلامه عليه، قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[١٨٢]، وفي دعاء المؤمن تضرُّع لأن يشرح الله قلبه بالإسلام كما جاء على لسان سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي}[١٨٣].

٩ . ظاهر في العقل: النور كما سبق القول، هو الحق، الذي به تُنار الدروب والسبل، وبه تتم الهداية حتى بلوغ الحقيقة، التي ببلوغها يستوجب التوحيد، قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[١٨٤]. العقل هو مركز استقبال النور، ومركز بثه للآخرين، وبه تميَّز الإنسان في خلقه في أحسن تقويم، مصداقا لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[١٨٥]

١٠ . ظاهر في البصر: البصر حاسة للرصد المشاهد، وهذه لا تتم إلا بالعينين، التي تعكس الأشعة النورانية مع الأضواء المتجمعة على قاعها، لتكون الحركة المرشدة بنور من النور المطلق جل جلاله، قال تعالى: {فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ

---

[١٨٢] الحج ٤٦.

[١٨٣] طه ٢٥ ـ ٢٨.

[١٨٤] الأنعام ١٥١.

[١٨٥] التين ٤.

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[١٨٦]. وعليه لا رؤية إلا بنور ضوئي أو نور يقيني، وفي كلتا الحالتين لا نور إلا من النور المطلق عز وجل. قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[١٨٧]. لو جعل الله النهار سرمدا لا نور فيه، هل لنا بأن نبصر؟ بالطبع لا، ولهذا النور هو الذي به تبصر العين، فالحمد لله رب العالمين الذي جعل النور في قلوبنا وعيوننا حتى اهتدينا إلى السبيل الحق، اللهم اجعلنا من الثابتين على الحق واجعل الحق لنا نصيرا، ولا تجعلنا من الضالين والمفسدين في الأرض وسافكي الدماء فيها بغير حق، اللهم نوّر عقولنا وقلوبنا وأبصارنا وأسماعنا بما ينيرها في الدارين، ويجعلنا من الوارثين فيها ونحن بحمدك نسبح لا إله إلا أنت جل جلالك.

قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وما لا تبصرون}[١٨٨]، الذي به نبصر هو النور الحسي المستمد من النور المطلق، وهو أمر عظيم، ولهذا كان القسم بعظمته جل جلاله، حيث لولا النور ما كان لنا بصرا به نهتدي إلى السبيل دون ميل أو انحراف، وهذا لا يعني أن الله جل جلاله، لم يقسم بما عرفنا وبما لا نعرف، فهو علام الغيوب، ولذا جاء القسم مطلقا بكل ما نعلم وكل ما نبصر، وكذلك بما لم نعلم وما لم نبصر، والآيتان بينهما تكامل، ففي الآية الأولى: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ) فبما تبصرون، جاءت جامعة لا مانعة، فهي تحتوي جميع ما به نبصر من النور إلى العينين إلى القلوب والعقول والبصائر وغيرها كثير حيث نعم الله التي بها نبصر لا تحصى، فله الحمد.

---

[١٨٦] مريم ٢٦ ـ ٣٨.

[١٨٧] القصص ٧٢.

[١٨٨] الحاقة ٣٨، ٣٩.

أمَّا الآية الثانية: (وما لا تبصرون) فالذي لا نبصره هو العظيم الذي يفوق مقدرتنا على إبصاره وهو المطلق الذي لا تحده الحدود ولا يحصره حيز، وهو ما لم نعلمه والله به عليم سبحانه جل جلاله.

١١ .ظاهر في السمع: نور الله على عباده هداية، والهداية قيمة مرضية لمن آمن، وهي الشاهد على القول والفعل والعمل، ولذا فالنور دائما في الكلمة الحق والفعل الحق والعمل الحق، أي هو في كل ما من شأنه أن يصلح ولا يُفسد، ومن نعمه على الذين استخلفهم في الأرض بعد أن خلقهم في أحسن تقويم هي نعمة السمع والإنصات إلى الحق، حتى الأخذ به، فسبحانه جل جلاله قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[١٨٩]. أمَّا الذين ضلوا فقولهم لا يحزن أصحاب الحق ومتبعيه، بل سيكون حزناً على أصحابه يوم لا ينفعهم مال ولا بنون، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخرينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخرةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[١٩٠].

وعليه، فالحق لا يقبل التغيير فهو ليس كمثله شيء فلو تغير في ذاته لم يصدق وهو صدق فاستحال أن يتغير في ذاته والحق يقول إن الله قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده، وقال كنت سمعه وبصره فالصور التي تقع عليها الأبصار والصور التي تدركها العقول

---

[١٨٩] الأنفال ٢٠ ـ ٢٥.

[١٩٠] المائدة ٤١.

والصور التي تمثلها القوة المتخيلة كلها حُجُب يرى الحق من ورائها وينسب ما يكون من هذه الصور من الأعمال إلى الله تعالى كما قال: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}[١٩١] فلم يزل الحق غيباً فيما ظهر من الصور في الوجود وأعيان الممكنات في شيئية ثبوتها على تنوعات أحوالها مشهودة للحق غيباً أيضاً وأعيان هذه الصور الظاهرة في الوجود الذي هو عين الحق أحكام أعيان الممكنات من حيث ما هي عليه في ثبوتها من الأحوال والتنوع والتغيير والتبديل تظهر في هذه الصور المشهودة في عين الوجود الحق وما تغير الحق عما هو عليه في نفسه كما أن الهباء ما تغير عن كونه هباءً.

وفي نور الله تعالى والمثل الذي ضرب للنور ولا نقول لنور الله لأن الله ليس له مثل قوله تعالى: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٩٢]

والنُّور من صفات الله قال الله عز وجل (الله نُورُ السماوات والأَرض) لا غيره، فهو النور الذي ملأ الوجود خلقا، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولأنه هو خالق السماوات والأرض، فلا نور فيهما إلا من خلقه، أي من نوره جل جلاله، لقد بعث نوره فيهما وفينا فأدركنا السماوات العلا والأرض بنوره، ولهذا فإن (الله نُورُ السماوات والأَرض) وقيل مَثل نوره كمشكاة فيها مصباح أَي مثل نور هداه في قلب المؤمن كمشكاة فيها مصباح كما جاء وصفه في الآية الكريمة.

والنُّورُ الضياء والنور ضد الظلمة وفي المحكم النُّور الضَّوْءُ أَيًّا كان وقيل هو شعاعه وسطوعه. وقوله عز وجل ومن لم يجعل الله له نُوراً فما له من نُورٍ، هذه بالنسبة للمسلم

---

[١٩١] الصافات ٩٦.

[١٩٢] النور، ٣٥

والمؤمن مسلَّمة، حيث لا شك في أن النور لا يستمد إلا من النور، ولهذا من لا يسترشد بالنور المطلق لن يجد ما يرشده سواه، مما يجعله في الظلمة.

من معاني الاسم النور كما ورد في آية النور:

(الله نور السماوات والأرض)، قال الإمام الغزالي قَدُسَ سره في شرح الاسم النور هو الظاهر الذي به كل ظهور فإن الظاهر في نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لا محالة للوجود ولا ظلام أظلم من العدم فالبارئ بظهور الوجود وإبداع الخلق من لا شيء وإظهاره للرؤية، جاءت صفته الحسنى (النور) ولهذا فالوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته فهو نور السماوات والأرض، فكما أنه لا ذرة من نور الشمس إلا وهى دالة على وجود الشمس النيرة فلا ذرة من وجود السماوات والأرض وما بينهما إلا وهى بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها.

و (الله نور السماوات والأرض) أي مظهرهما من لا شيء الى الشيء (الوجود) فإن معنى النور في اللغة الضياء وهو الذي يبيِّن الأشياء ويظهرها للأبصار.

فقوله تعالى: (الله نور السماوات والأرض) من باب التشبيه البليغ أي كالنور بالنسبة إليهما من حيث كونه مظهرا لهما أي موجدا، فإن أصل الظهور هو الظهور من لا شيء الى الوجود.

والنور على أربعة أوجه:

أولها: نور يظهر الأشياء للأبصار وهو لا يراها كنور الشمس وأمثالها فهو يظهر الأشياء المخفية في الظلمة ولا يراها.

وثانيها: نور البصر وهو يظهر الأشياء للأبصار ولكنه يراها وهذا النور أشرف من الأول.

وثالثها: نور العقل وهو يظهر الأشياء المعقولة المخفية في ظلمة الجهل للبصائر وهو يدركها ويراها.

ورابعها: نور الحق تعالى وهو يظهر الأشياء من لا شيء للشيء أي للأبصار والبصائر من الملك والملكوت وهو يراها في الوجود كما هي في قدرته وقوته قبل الخلق، لأنها كانت

موجودة في علم الله وإن كانت معدومة في ذواتها فما تغير علم الله ورؤيته بإظهارها في الوجود بل كان التغير راجعا الى ذوات الأشياء وصفاتها عند الإيجاد والتكوين فتحقيق قوله تعالى (الله نور السماوات والأرض) مظهرهما ومبديهما وموجدهما من العدم بكمال القدرة الأزلية[١٩٣].

ونور الله الذاتي الذي لا يقف له مخلوق لو تجلى الله به عليه لدكه كما دك الجبل أمام أنظار موسى عليه الصلاة والسلام، ولأن الله قال: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) فمن لطفه وخبرته بصنعته أي بعباده فهو يتجلى عليهم بنور جماله وجلاله، فيريهم من أنواره بالقدر الذي لا يهلكهم وذلك لأنه اللطيف الخبير، وعليه، فوجهة نظرنا أن الله على كل شيء قدير، ولذا فما نعلمه ونجتهد بشأنه لا عليم به بالمطلق إلا هو جل جلاله، ولهذا لا مستحيل بالنسبة للنور المطلق، بل كل شيء ممكن، فإذا أراد الله شيئا يقول له كن فيكون، ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلا، وبالمنطق ملكات عقولنا وسعة مدركات بصائرنا، في الحياة الدنيا هي أقل من أن توصف برؤية الله جل جلاله، وكيف نراه وبصائرنا لا تطيق رؤية جزءٍ من النور الذي لا يذكر في المقارنة مع نوره المطلق؟.

و(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ) الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة. وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب خلفائه من الرسل والصالحين المصلحين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات، ولهذا: كل محل يفقد نوره فثم الظلمة، (مَثَلُ نُورِهِ) الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، (كَمِشْكَاةٍ) أي: كوة (فِيهَا مِصْبَاحٌ) لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك (الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَة) من صفائها وبهائها (كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ) أي: مضيء إضاءة الدر. يُوقَدُ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية (مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ) يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، وهي من حيث الأصل لا تنتمي لغيره خلقا (لا

---

[١٩٣] تفسير حقي ، ج ٩ ، ص ١٣٥.

شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ) زيتونة مباركة متميزة بنوعها وخاصيتها، ومن زيتها الشفاء، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: (يَكَادُ زَيْتُهَا) من صفائه (يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ) فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة (نُورٌ عَلَى نُورٍ) نور الزيت الذي يكاد أن يضيء، فالنور هنا في تكوين الزيت، وليس في إيقاده، ولهذا جاء الوصف لنقاء الزيت وصفائه وكأنه مصباح في زجاجة والزجاجة في المشكاة، منظر جميل لمن يعرف المشكاة والمصباح والزجاجة التي فيها المصباح ينير.

فهنا لا مثال لنور الله لأن نور الله الذاتي لا مثال له، وعليه فلمن هذا النور؟.

والخليفة هو النور بتخلقه ببهاء الله الذي يبعث النور في قلوب العباد فيجعلهم مهتدين يصلحون ولا يفسدون. ووجه المثل الذي ضربه الله بالزيتونة المتميزة، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة لتقبل التعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من كل شائبة، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجة الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، فهو نور على نور في قوله للحق وعمله به.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، ولا يصلح كل إنسان له لذلك قال الله تعالى: (يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ) ممن يعلم صفاء سريرته وطهارته، وأن النور معه يزيد وينمو (وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ) ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفا منه بهم، وإحسانا إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرِّب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علما واضحا، (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فعلمه محيط بجميع الأشياء، فلتعلموا أن ضربه الأمثال، ضرب من يعلم حقائق الأشياء وتفاصيلها، وأنها مصلحة للعباد، فليكن اشتغالكم بتدبرها وتعقلها، لا بالاعتراض عليها، ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأنتم لا تعلمون.

وقد يكون معنى النور (الإيجاد والإظهار) أي الإخراج من حال لا شيء إلى حال الشيء، أو من الظلمة إلى الضياء، أو من الباطن إلى الظاهر، وهذا ما يتفق مع ما قلناه سالفا أن النور إظهار والظلمة إبطان.

ونور الله هداه للمؤمن فهو نور الهدى على نور الإيمان (يَهْدِى الله لِنُورِهِ) إلى دين الإسلام الذي به يُحق الحق ويُزهق الباطل، (مَن يَشَاء وَيَضْرِبُ الله الأمثال لِلنَّاسِ) تقريباً لإفهامهم حتى يعتبروا فيؤمنوا (والله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) ومنه ضرب الأمثال وعلم الإحاطة الكاملة.

وبما أن نور الله الذاتي لا مجال لوصفه، فلننتقل إلى لمحة أخرى من لمحات النور فنرى أن الناس جميعا عليهم من النور، فالكل متساوون إلا من رحم ربي وزاده من نوره أي فضله ورحمته إنه واسع المغفرة والرحمة.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل"[١٩٤].

وليس النور الملقى على الخلق من النور الذاتي لأن (من) تفيد التبعيض والتجزئة والله لا تتجزأ صفاته ولا يبعض نوره، لذا فهذا النور الذي رش على الخلق هو نور مخلوق. كما في قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسماوات}[١٩٥] فأي نور ينيرها في ذلك الوقت؟. بنور ربها الذي خلقه لينير الأرض والسماوات العلا.

النور في الدنيا عدل وفي الآخرة عدل، أي لم تعتدل الدنيا إلا به، ولن تعتدل الآخرة إلا به، ولأنه نور فهو المدخل للجنة، والخليفة هو الذي في نظره نور وفي سمعه نور وفي نفسه نور وقلبه نور وفي قوله نور وفي فعله نور، به يهتدي للحق في الحركة والسكون.

ولهذا قد استعار الله عزّ وجلّ النور للحق والقرآن والبرهان في مواضع من التنزيل، قال تعالى: (وَأَشْرَقَتِ الأرض) بما أظهر فيها من حق وعدل، وبما بسطه من القسط في الحساب ووزن للحسنات والسيئات، وإشراق الأرض بنور ربها الخالق البارئ جل جلاله، فهي التي

---

[١٩٤] الإبانة الكبرى لابن بطة ، ج ٣ ، ص ٤٣٧.

[١٩٥] إبراهيم ، ٤٨

أشرقت بوجودها أي ظهورها من لا شيء إلى الشيء الذي هي عليه. وأشرقت بضياء الشمس عليها وذلك بتجلي الظلمة عنها، وأشرقت بنور القمر والنجوم في سمائها ليلا، وأشرقت بحمْل الأمانة فيها من قبل الخليفة الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وأشرقت باصطفاء الأنبياء والمرسلين فيها مبشرين ومحرضين ومنذرين، وأشرقت بالإسلام دينا خاتما لكل الديانات السماوية التي أنزلت من عند الله تعالى، وأشرقت باهتداء العباد بها وإليها وهم مؤمنون بخالقها وخالقهم منها لأجل إحقاق الحق فيها وإزهاق الباطل عنها.

(بنور ربها) النور الضوء المنتشر المعين على الإبصار أي بما أقام فيها من العدل استعير له النور لأنه يزين البقاع ويظهر الحقوق كما يسمي الظلم ظلمة وفى الحديث "الظلم ظلمات يوم القيامة" يعنى شدائده يعنى الظلم سبب لبقاء الظالم في الظلمة حقيقة فلا يهتدي الى السبيل حين يسعى نور المؤمنين بين أيديهم ولكون المراد بالنور العدل أضيف الاسم الجليل الى ضمير الأرض فإن تلك الإضافة إنما تحسن إذا أريد به تزين الأرض بما ينشر فيها من الحكم والعدل أو المعنى أشرقت بنور خَلقهُ الله في الأرض وفي الآخرة مجالان واسعان:

المجال الأول: الجنة: مجال امتداد النور طولها وعرضها مع فائض في الخيرات الحسان والثواب الواسع، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السماوات وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[١٩٦].

المجال الثاني: النار: مجال امتداد الظلمة طولها وعرضها مع وفرة العذاب الشديد، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ

---

[١٩٦] آل عمران ١٣٣ ـ ١٣٦.

غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[١٩٧].

وعليه كما يستمد الغنى من الغني المطلق والعدل من العدل المطلق، والحق من الحق المطلق كذلك يستمد النور من النور المطلق جل جلاله، ولهذا فالنور جل جلاله خالق ونور الموجودات مخلوق، الخالق لا مادة، المادة تُخلق من اللا مادة، والمادة تتنوع وتتعدد، منها ما هو من التراب والطين اللازب، ومنها ما هو من نور، ومنها ما هو من نار، ومنها ما هو هواء، وجميعها خالقها الخالق الذي لا تدرك ماهيته إلا بذاته جل جلاله، أي يدرك هو كما هو واحد أحد لا شريك له، له الملك وله الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير لم يلد ولم يولد سبحانه جل جلاله.

لذا قال الله لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لن تراني، كما في قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[١٩٨] فلم ير سيدنا موسى إلا النور المخلوق، وخر منه صعقا لعدم قدرته على تحمله، فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: (قال ربِّ أرني أنظر إليك)، بأن تكشف الحجب عني، حتى أنظر إلى ذاتك المقدسة من غير واسطة، كما أسمعتني كلامك من غير واسطة. فكان الرد (لن تراني) باعتباره لم يره من قبل، وكذلك بعد طلب الرؤية جاء القرار بنفي رؤيته جل جلاله حاضرا زمن الطلب، ومستقبلا إجابة مترتبة على فعل الطلب.

وعليه، فإن رؤيته تعالى برداء الكبرياء وهي أنوار الصفات جائزة واقعة، وأما رؤية أسرار الذات وهي المعاني الأزلية، التي هي كنه الربوبية فغير جائزة إذ لو ظهرت تلك الأسرار لتلاشت الأكوان واضمحلت، وهذا الأمر يتعارض مع القاعدة التي تنص على أن: (الخالق يرى ما خلق والمخلوق لا يرى خالقه) ولهذا جاءت الإجابة الحق: (لن تراني ولكن انظر إلى

---

[١٩٧] التحريم ٦، ٧.

[١٩٨] الأعراف، ١٤٣

الجبل فإن استقرَّ مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربُّه للجبل جعله دكًا) مدكوكًا مفتتًا كأن لم يكن، والدك لا يحدث إلا بقوة شديدة، والدك استواء بالأرض، (وخرَّ موسى صَعِقًا) مغشيًا عليه من هول ما رأى، (لما أفاق قال) تعظيمًا لما رأى، (سبحانك تُبت إليك وأنا أولُ المؤمنين).

فلا مانع أن يتجلى الله بنور الصفات على قدر الرائي لا على قدر المرئي، فالكل كانوا في ظلمة ثم رش الله عليهم من نوره الذي خلقه لهم فهم في نور من ربهم وتصديق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء اهتدى، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول جف القلم على علم الله"[199]. ولهذا جعل الظلمات والنور أي النور المخلوق الذي خلق منه الملائكة وألقى منه على الخلق ليهديهم إن كانوا في علمه ممن يستحقون الهداية. قوله تعالى: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[200].

وهذا هو نور الهداية للإسلام وللعمل الصالح وهو يدخل في صميم دور الخليفة الذي هداه الله وتولى هو بدوره إنارة الطريق أمام الناس ليهتدوا إلى النور الذي أرسله الله في كتابه النور لأن القرآن نور وهديه نور ومن أرسله نور ومن أرسل به نور ومن اتبعه وعمل به فهو نور على نور.

ولذا فمن آمن واهتدى بالحق للحق وعمل به هو الخليفة الذي قال عنه النور جل جلاله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدم الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

[199] سنن الترمذي ج ٥، ص ٢٦.

[200] الزمر ٢٢ ، ٢٣

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدم أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأخرجهمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٢٠١]، ولهذا فالخليفة هو الذي (عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ) وهو الذي حمّل مسؤولية الخلافة ليخرج بالناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم من قهر الفقر إلى بسطة العيش بتدبير الأمور تدبيرا عاقلا مستنيرا انطلاقا من رؤية نورانية اقتبسها من انشراح صدره للإسلام الدين الخاتم للكافة، فكانت حياته لنشر الحق وإحقاقه وتعميم العدل بين الناس حكما بلا مظالم. أما أولئك الذين لم يدخل الإيمان في قلوبهم والذين أشركوا ولم يصلحوا في الأرض التي استخلفهم فيها الله تعالى ليصلحوا فيها ولا يفسدوا ولا يسفكوا دماء بغير حق، فأولئك هم القاسية قلوبهم، في النار هم خالدون ولهذا قال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ) قلوب هؤلاء قاسية لا تلين لنور كتابه، ولا تنشرح بتذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره (أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن نور ربه عملا واتباعا وذكرا وقسا قلبه، وأقبل على كل ما يضره من ظلم وظلمات؟.

قال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[٢٠٢].

فعلامة سعادة العبد وهدايته انشراح الصدر بنور الهداية بفضل من الله تعالى، وعلامة شقاوته وضلاله ضيق الصدر وإعراضه عن نور الهداية، ولذا فمن انشرح صدره للإسلام،

---

[٢٠١] البقرة ٣٠ ـ ٣٧.

[٢٠٢] الأنعام١٢٥

اتسع فاستنار بنور الإيمان، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير له ولغيره، وتطوعت نفسه لفعله، وهذه علامة على أن الله قد هداه، ومَنَّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق، واستحق الخلافة عن جدارة لأنه اتبع مصدرها فارتشف منه وارتوى حتى فاض خيرا على من يحيط به خيرا.

وعلامة من يرد الله أن يضله، أن يجعل صدره ضيقا حرجا في غاية الضيق فينصرف عن نور الإيمان والعلم واليقين، ويلطخ قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، ولا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء ، فينصرف عن نور الخلافة إلى ظلم وظلمات الفساد، وهذا سببه عدم إيمانه وإعراضه عن نور الهداية.

وهذا ما يؤكده النبي صلى الله عليه وسلم، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) وقال: "إن النور إذا دخل الصدر انفسح" فقيل: يا رسول الله هل لذلك من علم يعرف؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله"[٢٠٣].

وعن عبد الله بن المسور، قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) قالوا: يا رسول الله، ما هذا الشرح؟ قال: "نور يقذف به في القلب ينفسح له القلب. قالوا: يا رسول الله، فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: نعم. قالوا: وما هي؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت"[٢٠٤]. ولأن النور المطلق هو الله جل جلاله، والنور المقتبس هو من خلق النور المطلق، لذا فللنور المطلق معطيات، منها:

-أن الله له نور ذاتي وهو النور الفائق الذي لا يُدرك بمشاهدة أبصارنا، ولا تطيقه عقولنا كما حدث مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام حين قال كما جاء في قوله تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ

---

[٢٠٣] المستدرك على الصحيحين للحاكم ، ج ١٨ ، ص ٢٣٣.

[٢٠٤] تفسير ابن أبي حاتم ، ج ٢٧ ، ص ١٧٠.

اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}[٢٠٥].

-وله سبحانه نور الصفات الذي يمكن أن يرى بلا إدراك ولا إحاطة ويتجلى الله به على قدر الرائي لا على قدره هو فلا يعلم قدره إلا هو سبحانه وتعالى.

-له سبحانه وتعالى نور مخلوق ينير به الأرض والسماوات عندما تبليان فتشرق الأرض بنور ربها.

- وللمهتدي إلى الإيمان به ممن شرح الله صدره للإسلام نور يهتدي به ويهدي به لأنه على نور من ربه.

وعليه من يقتبس نور الله بالهداية يشرح صدره للإسلام ومن يضيق صدره بالإسلام يضل، ولن يجد للحق سبيلا، وأما المنافقون فهم مذبذبون لا قرار لهم مرة يميلون للصدق ومرة أخرى يرفضونه فلم يصدقوا أنفسهم ولا أنفس الآخرين وهم الذين يقولون ما لا يفعلون أي يظهرون ما لا يبطنون، ولذا فهم المخادعون الذين لم تتطهر قلوبهم، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[٢٠٦]. (إِنَّ المنافقين يخادعون الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ) فهم يظنون أنفسهم أنهم يخادعون الله فيما يقولونه لرسوله وللمؤمنين، فيما يتعلق بالهداية والإسلام دين الكافة، ولكن الله تعالى علام الغيوب، يعلم الظاهر والباطن، وبالتالي فهو يعلم الحق من الحقيقة، فيكشف الأمر لرسوله الكريم فيما نافقوه، أي يكشف له الحقيقة التي عليها حال المنافقين، ولهذا فالله خادعهم، تدل على علمه التام والكامل بما يبطنون، فيكشفهم بكشف سرهم الذي يظنون أنه لن يعلمه، وهنا تكون مخادعة الله لهم، بالكشف والبطلان، سبحانه لا إله إلا هو جل جلاله. وعليه يمكن أن تكون المنافقة بين الناس ومن المستحيل أن تكون أمام كاشف الأسرار الله

---

[٢٠٥] الأعراف ١٤٣.

[٢٠٦] النساء١٤٢ ، ١٤٣.

تعالى، وفي هذا الأمر هم يعرفون مخادعتهم ونفاقهم للرسول ومن معه من المسلمين الكرام، ولكنهم لا يعلمون علم الله تعالى به، ومقدرته على كشفه لرسوله الكريم، وهنا تكمن دلالة المخادعة، ولأن الله يمهل ولا يهمل فقد يظن البعض أنه لم يعلم بسرهم ونجواهم، فالحمد لله رب العالمين عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم.

فالله لا يخدع فهم يخادعون رسول الله وحتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخدع لأنه يتلقى القرآن من لدن حكيم خبير فيطلعه الله على خداعهم، فهم يظهرون له صلى الله عليه وسلم الإيمان ويبطنون الكفر كما قال: {إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله}[٢٠٧]، وفي قوله تعالى: (وَهُوَ خادعهم) فهو سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم، ولهذا لا يغفل عن كبيرة ولا صغيره، ظاهرة أو باطنة، مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢٠٨]، وقال تعالى: {يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}[٢٠٩]، إذن من يعلم ويحيط بكل شيء علما لا تخفى عليه خافية، ولهذا من يظن انه خافٍ ما في نفسه عنه فهو جاهل بأمر حاله الذي يعتقد أنه يعلمه.

(وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) يعني وإذا قاموا إلى الصلاة مع المسلمين قاموا كسالى متثاقلين متباطئين لعدم بلوغ الإيمان ربوع قلوبهم، فهم خوفا فقط يأتون للصلاة، فيحرمون من نورها الذي يسلك في قلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

قال صلى الله عليه وسلم: "الصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالنَّاسُ غَادِيَانِ: فَغَادٌ مُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقٌ رَقَبَتَهُ، وَغَادٌ بَائِعٌ نَفْسَهُ وَمُوبِقٌ رَقَبَتَهُ"[٢١٠]. فعن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الصلاة نور، والصيام جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء

---

[٢٠٧] الفتح ١٠.

[٢٠٨] .آل عمران ٢٩.

[٢٠٩] لقمان ١٦.

[٢١٠] المعجم الكبير للطبراني ، ج ١٤ ، ص ٩.

النار، والحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"[٢١١]، والصلاة نور لأنها علامة دالة على بلوغ الهداية، والتقرب إلى الله وإشهار للإيمان،، ولهذا فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مصداقا لقوله تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[٢١٢]، ولهذا يقتبس المصلي نوره من النور المطلق. وعن أنس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الصلاة نور المؤمن"[٢١٣].

أما المنافق الذي لا يخلص النية في إيمانه فلا نور له وإن صلى، لأنه أراد أن يخدع فخدع، يقول الله تعالى: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢١٤].

قوله تعالى: (يَكَادُ البرق يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ) المنافق دائما في حالة ظن، حيث بعض الظن إثما، ولهذا فهو دائما في حالة خوف وقلق، حتى إذا زهر الرعد بقوة تلاطم أكوام السحب العالية تولد البرق، فظن أن الضربة قد أتت وأن أمره قد انكشف، وأنه سيفقد بصره من البرق، الذي به يستبشر المؤمنين لأنه علامة رحمة وغيث، ولهذا كلما أطمأنت قلوب المستخلفين فيها ضاقت قلوب المنافقين، ولهذا كأن البرق بنوره سيتخطف أبصارهم، وفي هذا الأمر تشبيه مادي لتقريب المعنى، بما هو إيمان في القلوب، حيث يكاد نور القرآن لشدة تجليه بالحق يعمي بصائرهم، قال الشاعر:

مثل النهار يزيد أبصار الورى... نوراً ويعمي أعينَ الخفّاش

وقال الآخر:

خفافيش أعماها النهار بضوئه... ووافقها قطع من الليلِ مظلم[٢١٥].

---

[٢١١] شعب الإيمان للبيهقي ، ج ١٤ ، ص ١٢٤.

[٢١٢] العنكبوت ٤٥.

[٢١٣] مسند أبي يعلى الموصلي ، ج ٨ ، ص ١٧٧.

[٢١٤] البقرة ٢٠

[٢١٥] أضواء البيان ، ج ١ ، ص ١٥.

ولهذا فالنتيجة بالنسبة للمنافقين لا تختلف عما يحمله مضمون الآية الآتية: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}[٢١٦].

وهذا مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد نارا، وكان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار الشديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدّة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعدم النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها وحقنت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلمة المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار وبئس القرار[٢١٧].

فلهذا قال تعالى عنهم: (صُمٌّ) عن سماع الخير، (بُكْمٌ) عن النطق به (عُمْيٌ) عن رؤية الحق (فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ) لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعا منهم، ثم قال تعالى: (أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ) يعني: أو مثلهم كصيب: وهو المطر الذي يصب وينهمر بقوة وبكثرة.

قال الشاعر:

فَلَسْتُ لإِنْسِيٍّ وَلَكِنْ لَمَلأَكٍ... تَنَزَّلَ مِن جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ

---

[٢١٦] البقرة١٨.

[٢١٧] تفسير السعدي ، ج ١ ، ص ٤٤.

وكما قال علقمة بن عَبَدَة:

كَأَنَّهمُ صَابَتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ... صَوَاعِقُهَا لِطَيْرِهِنَّ دَبِيبُ[٢١٨]

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ) ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر (وَرَعْدٌ وبرق كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ) البرق في تلك الظلمات (مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا) وقفوا، فهكذا حال المنافقين إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فيروعهم وعيده وتزعجهم وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل أصابعه في أذنيه خشية الموت، فبهذا كما يتخيلون تحصل لهم السلامة، وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرة وعلما، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويكون لهم عليها العقاب والعذاب الشديد.

ولما كانوا مبتلين بالصمم، والبكم، والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ) الحسية، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية، ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، (إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) فلا يعجزه شيء بالمطلق، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئا فعله من غير ممانع ولا معارض، إنه فعال لما يريد.

والمؤمن نور قال الله تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ}[٢١٩]. فنور المؤمن يسعى بين يديه، وله هيبة بها يخشاه المنافقون والمخالفون، وحتى الأتباع الموافقين له فيعظمه الموافق ويعظم شأنه، ويهابه المخالف ويخافه، وهذا النور الذي جعله الله تعالى لأوليائه الذين قبلوا بالإسلام وحققوا الخلافة في الأرض، ولا يظهر ذلك النور لأحد إلا إن

---

[٢١٨] تفسير الطبري، مجلد ١، ص ٣٣٣.

[٢١٩] الحديد ١٢ ، ١٣

انقاد له وخضع، وهو من نور الإيمان، ثم وصف الله المنافقين أنهم يقولون للمؤمنين الذين لهم نور: {انظرونا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ} فنسير معكم على الصراط فإنا في الظلمة، فتقول لهم الملائكة: (ارجعوا وراءكم فالتمسوا نُوراً) بعقولكم التي كنتم تدبرون بها أموركم في الدنيا، فيرجعون إلى ورائهم، فيضرب الله بين أنفسهم وبين عقولهم سوراً فلا يصلون إلى طريق هدى، حتى إذا انتهوا في السير على الصراط سقطوا في جهنم خالدين فيها والحمد لله رب العالمين.

يقول الله تعالى –مبينا فضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة قال تعالى: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٢٢٠] أي، إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: (بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ما أحلى هذه البشارة العظيمة، حيث حصل لهم كل مطلوب ونجوا من كل شر ونفاق وضلال، فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به وهم قد طفئ نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ (قِيلَ) لهم: (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا) إن كان ذلك ممكنا، والحقيقة فذلك غير ممكن، بل هو محال (فَضُرِبَ) بين المؤمنين والمنافقين (بِسُورٍ) حاجز مانع بما يشبه الحائط المنيع، والحصن الحصين، (لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ) وهو للمؤمنين (وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ) وهو للمنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعا وترحما: (أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ) في الدنيا نقول: (لا إله إلا الله) ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟ فكانت

---

[٢٢٠] الحديد ١٢.

الحقيقة بالقول: (قَالُوا بَلَى) كنتم معنا في الدنيا، وعملتم في الظاهر مثل عملنا، ولكن أعمالكم من غير إيمان ولا نية صادقة صالحة،

وهذا هو جل الفرق بين من يتحقق بأسمائه الحسان فيعمل بنية صادقة مخلصة لتحقيق الخلافة في الأرض بنشر نور العلم والمعرفة ومحو ظلام الجهل وعبث الظلم في مقابل فريق الفساد الذين رضوا بالفتنة وتربصوا ليطفئوا نور الحق، وهم الذين يصدق فيهم قول الله: (بل فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ) في نور الله الذي لا يقبل شكا، (وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) الباطلة، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ) فجاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة، وقد ضاعت الفرصة التي أعطيت لكم، واليوم لا ينفع ندم النادمين.

قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[٢٢١] فالمنافقون أرادوا (لِيُطْفِئُواْ نور الله) ليطفئوا وهذه اللام فعل الإرادة تأكيداً له لما فيها من معنى الإرادة يدل على إصرارهم محو نور الله بمحاربة الإسلام وتعاليم القرآن والإساءة للنبي صلى الله عليه وسلم وتعطيل كل إصلاح يقوم به المتحقق بنور الرحمن ليهدي البشرية وينقذها من الجهل والعبودية والظلم، والمنافقون في الظلام يريدون إطفاء نور الله، فأنى لهم ذلك والحمد لله رب العالمين، وإطفاء نور الله تعالى بأفواههم، فيه تهكم من الله بهم في إرادتهم إبطال الإسلام بقولهم كما جاء في القرآن: {فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ}[٢٢٢]، وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

---

[٢٢١] الصف ٩

[٢٢٢] النمل ١٣.

رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأخرى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ}[٢٢٣]. فحالهم مثل من ينفخ في نور الشمس بفيه ليطفئه (والله مُتِمُّ نُورِهِ) فسيظهر دينه. والنور بلا شك هو دين الله، وكتاب الله، ورسول الله، وكل واحد من هذه الثلاثة بهذه الصفة لأنه يظهر عليهم من الآثار النورانية التي تبعث الهدى في الآخرين.

كما أن نور الله مشرق أبداً لا يمكن زواله أصلاً، لأنه من الذات الإلهية الباقية يوم أن يطرح السؤال: لمن الملك اليوم؟ مصداقا لقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آَيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٢٢٤]، وعليه فكل واحد من الثلاثة أنوار الكتاب والإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم فهم يستمدون النور من الأصل من الله الذي لا يستطيع كائن من كان أن يطفئ نوره سواء أحب أو كره، ولذا فمن النور يستمد العلم واليقين وإحقاق الحق، والظلمة تؤدي إلى الجهل ، نور الإيمان يخرج من الظلمات إلى النور، لهذا فالإسلام هو النور، والكتاب هو النور، والرسول هو النور، نعم إنه النور وإلا لما وصفه الله سبحانه وتعالى بصفة كونه رحمة للعالمين، وعليه فالنور المطلق

[٢٢٣] الصف ٦ ـ ١٤.

[٢٢٤] غافر ١٣ ـ ١٦.

هو الله، والأنوار المستمدة منه، هي الرسل والأنبياء والمؤمنين والكتب التي جاءوا بها مبشرين ومنذرين ومحرضين بها على الحق وإحقاقه قولا وفعلا.

فبالنور اهتدى الخلق وبلغ سبل الحق، و لكونه رسول الكافة، فهو رسول إلى جميع الخلائق، وصدق الله إذ وصف حبيبه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا}[٢٢٥] وفي هذا بشرى عظيمة للمسلمين الذين اتبعوا النور فالله يطلب من حبيبه صلى الله عليه وسلم: {وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا}[٢٢٦]، ولأن المنافقين أذى وظلمة فالله أمر نبيه ومن خلال هذا الأمر يتأسى كل من سار على نهج النور بالابتعاد عن ظلمة المنافقين فقال الله تعالى: {وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[٢٢٧].

قال الله تعالى: {قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ}[٢٢٨]، وفيه أقوال:

الأول: أن المراد بالنور محمداً شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

الثاني: الحل لجميع مشاكلكم في الدار الدنيا.

الثالث: أن المراد بالنور الإسلام الذي هو دين الله في أرضه وهو مبعث جميع الأنبياء والرسل.

الرابع: الكتاب المبين الذي هو نور للهداية وهو الرسالة الخاتمة، فلا فتنة بعد ذلك فهو كتاب الكافة. والنور القرآن فإنه الكاشف لظلمات الشك والضلال والكتاب الواضح الإعجاز.

فالمؤمن هو النور والكافر هو الظلمة فعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: "المؤمن بين أربع: إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل، فهو يتقلب في خمسة من النور، وهو الذي يقول الله: (نور على نور) كلامه نور، وعلمه نور، ومدخله في نور، ومخرجه من نور، ومصيره إلى النور يوم القيامة، والكافر يتقلب في خمسة من الظلم،

---

[٢٢٥] الأحزاب ٤٥ ، ٤٦

[٢٢٦] الأحزاب ٤٧

[٢٢٧] الأحزاب ، ٤٨

[٢٢٨] المائدة ، ١٥

فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه في ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة"[٢٢٩].

والنبي صلى الله عليه وسلم دعا الله أن يكون نورا ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب لا محالة فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ رَقَدَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَيْقَظَ فَتَسَوَّكَ وَتَوَضَّأَ وَهُوَ يَقُولُ: بعد أن قرأ ما تيسر من القرآن وبعد ما صلى لله تطوعا، "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا وَفِي لِسَانِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي سَمْعِي نُورًا وَاجْعَلْ فِي بَصَرِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ خَلْفِي نُورًا وَمِنْ أَمَامِي نُورًا وَاجْعَلْ مِنْ فَوْقِي نُورًا وَمِنْ تَحْتِي نُورًا اللَّهُمَّ أَعْطِنِي نُورًا"[٢٣٠].

اللهم يا النور أنر عقولنا وقلوبنا بالقرآن، وبكل قول حق وفعل حق، وأنر أبصارنا بنور من نورك، وأسماعنا بنور من نورك، وأنر دروبنا وسبلنا في الدارين واجعلنا من المستخلفين الوارثين واجعل النور في أنفُسنا.

اللهم يا النور في السماوات والأرض نوّر عقولنا بنور وجهك الكريم، ونوّر قلوبنا بالإيمان وحفظ الأمانة والصدق والوفاء بالعهود ومحبة العباد في محبتك، ونوّر نفوسنا بالطمأنينة وطموحاتنا بالعلم الذي يؤدي للتي هي أحسن وبالرزق الحلال والزوجات الصالحات والأبناء الصالحين، اللهم يا النور أهدنا بنور الصراط المستقيم، وتغمدنا بنور رحمتك يا أرحم الراحمين، اللهم اجعل لنا نوراً في ألسنتنا، ونوراً في أسماعنا، ونوراً في أبصارنا، ونوراً في أجسادنا، ونورا يسعى أمامنا، ونوراً من بين أيدينا، ونوراً من خلفنا، ونوراً عن أيماننا، ونوراً عن شمائلنا، ونوراً من فوقنا، ونوراً من تحتنا. اللهم زدنا نوراً، وأعطنا نوراً، واجعلنا على اليقين بكل سرور.

---

[٢٢٩] حلية الأولياء ، ج ١ ، ص ١٣٦.

[٢٣٠] صحيح مسلم ، ج ٤ ، ص ١٥٩.

الهادي

الهادي: هو الذي بيده الأمر وهو مالك الملك الذي به يَهدي ويُهدى به إليه، وهو علَّام الغيوب، إنه الهادي إلى ما يجب اتباعه.

الهادي: "مبين الرشد من الغي"[٢٣١].

الهادي هو "الله سبحانه وتعالى الهادي إلى الصواب"[٢٣٢]

الهادي مالك الحق، والمرشد إليه، ومالك القوة والمرشد بها، ومالك القدرة والتسيير بها؛ ولأنه الهادي فلا يهدي إلا للتي هي أحسن وأنفع وأفيد وأجود وأقوم.

الهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حق بالفعل الحق بالقوة والقدرة الحق.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ}[٢٣٣] وهو منزِّل نصوص وحِكم وكَلِم

---

[٢٣١] التيسير بشرح الجامع الصغير . للمناوى، ج ١، ص ٦٧٩.

[٢٣٢] فتح الباري ابن حجر، ج ١٣، ص ٣٤٤.

الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأن الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب.

وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هدي، فهو المنزه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

والهادي من أسماء الله عز وجل قال: {قل إن هُدَى الله هو الهُدَى}[٢٣٤]، أَي الصِّراط الذي دَعا إِليه هو طَرِيقُ الحقّ وقوله تعالى: {إِنَّ علينا لَلْهُدَى}[٢٣٥]، أَي إِنَّ علينا أَنْ نُبَيِّنَ طريقَ الهُدَى من طَرِيق الضَّلال.

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بَصَّرَ عِبادَه وعرَّفَهم طَرِيقَ معرفته حتى أَقَرُّوا برُبُوبيَّته وهَدى كل مخلوق إِلى ما لا بُدَّ له منه في بَقائه ودَوام وجُوده، وهذا لأن هداية كل مخلوق لبقائه ولدوام وجوده، وهذا هو المعنى الذي يدور عليه بحثنا في أسماء الله الحسنى ودور الخليفة المتخلق بأسمائه، لأن كل ما في ملك الله عبيد له كرها وطوعا، وعليه فإن الهادي سبحانه وتعالى تكرم وتفضل فهدانا إلى الصراط المستقيم، وهو سبحانه وتعالى فعل ذلك جودا وكرما منه، ومن استجاب لهدايته فقد عرف طريق البقاء الأبدي، وضمن لنفسه دوام الوجود في جنة الخلد هداية من الله الهادي جل جلاله.

والله خلق خلقا من خلقه جبلهم على الطاعة، فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[٢٣٦]، فيسبح لله كلّ ما في السماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعًا وكرهًا، فهو (الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ) الذي له ملك الدنيا والآخرة

---

[٢٣٣] الإسراء ٩٧.

[٢٣٤] البقرة ١٢٠.

[٢٣٥] الليل ١٢.

[٢٣٦] الجمعة، ١

وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كلّ ما يضيف إليه المشركون به ويصفونه به مما ليس من صفاته (الْعَزِيزِ) الشديد في انتقامه من أعدائه (الْحَكِيم) في تدبيره لأمور خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

الهادي هو الذي أرسل الرسل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى}[٢٣٧] وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

١- هداية دلالة.

٢- هداية معونة:

٣-هداية تسديد:

٤- هداية تأييد:

١-هداية الدلالة: بمعنى أن الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحق النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

٢- هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

٣- هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدي الصحيح ويدخل في ذلك النوع الخليفة.

٤- هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

- الهادي وأدوات الهداية الدلالية:

---

[٢٣٧] فصلت ، ١٧

الإسلام العظيم هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله منهجا للهداية والإصلاح حاكى عقول الناس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدي بمن يراها إلى عبادة الله وسلوك مسلك الحق وهذا النوع من الهدي موجه للأنبياء والناس على السواء، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[٢٣٨] وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يوميا ولكي تكون مثل هذه الأشياء من الدلائل الهادية أنزلها الله في كتابه ليذكرنا بها النبي صلى الله عليه وسلم اقتداء بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فإن الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[٢٣٩] فاذكر يا محمد قصة إبراهيم يوم قال لربه: أرني بعيني كيف يكون إحياء الموتى، فقال له تعالى: أَوَلَمْ تؤمن بأني قادر على إحياء الموتى؟. قال: بلى، علمت وصدّقت، ولكن ليزداد إيماني ويطمئن قلبي. قال الله تعالى: خذ أربعة من الطير فضمها إليك ثم جزِّئهنّ بعد ذبحهن واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءا، ثم نادهن فسيأتِينَك مسرعات وفيهن الحياة كما كانت، واعلم أن الله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل شيء، وهذه الأمور من المعجزات التي لا تحدث إلا على أيدي الأنبياء. ولو أننا دققنا النظر يومياً فيما حولنا لرأينا كثيرا من المعجزات في أنفسنا وفي نظام الكون والحياة، لكان الإحياء والموت لنا شيء عادي وأصبحت مثل هذه المعجزات عندنا أمورا عادية. فإن كثيرا من المخترعات الحديثة لو أخبرنا عنها أحدٌ قبل مدة من الزمن لما صدقناه، مع أنها من صنع الإنسان، فكيف بقدرة الله العظيم جل جلاله. فهو بهذه الاختراعات قد وفَّر لنا أدلة جديدة على وجوب الاهتداء إليه والإيمان به.

---

[٢٣٨] البقرة، ٢٦٠.

[٢٣٩] الذاريات ، ٥٥.

– ومن أدوات الهداية الدلالية: الآيات الكونية ومنه الشمس والقمر والنجوم والبحار والسماء والأرض والنبات وغير ذلك تدل كلها على أنه الواحد الأحد جل جلاله قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَإنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٢٤٠].

الله هو الخالق بلا منازع ولا شريك وقد أوجد في الخلق مبدأ الفطرةِ ليعلم الناس المؤمن والكافر أن الخالقَ والمالكَ الذي خلق الأجرامَ العلوية والسفليةَ في ستة أيام في مقدار ستةِ أيامٍ والمتعارفَ أن اليومَ زمانُ طلوعِ الشمسِ إلى غروبها، ولم تكن المواقيت هكذا يوم خلق الله الخلق، فمقدار الوقت الفعلي للخلق يعلمه الله أو هو شيء تقريبي للأذهان حتى تستوعب، والعلم الكامل يعلمه الله، مع القدرة على إبداعها دفعةً واحدة، وهذا الزمن المذكور في الآية دليلٍ على الاختيار والعظة، وحثٌّ على التأني في الأمور، ثم استوى على العرش والاستواء كما سبق أن أشرنا في الاسم العلي صفة لله تعالى بلا كيفية، فقد استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزهاً عن الاستقرار والتمكن، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملِك، ومن الآيات ذات الدلالة الهادية على أنه الله رب العالمين قوله تعالى: (يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ) يغطّيه به (يَطْلُبُهُ حَثِيثًا) يعقُبه سريعاً كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحثيثُ من الحث أي السرعة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بِأَمْرِهِ) فهو سبحانه القادر الخالق خلقهن حال كونهن مسخراتٍ بقضائه وتصريفِه، (ألاَ لَهُ الخلق والأمر) فإنه الموجدَ للكل والمتصرِّفَ فيه على الإطلاق (تَبَارَكَ الله رَبُّ العالمين) تفرد تعالى بالوحدانية في الإلوهية وتعظّم بالتفرد في الربوبية، فلا إله غيره ولا رب سواه.

---

[٢٤٠] الأعراف ٥٤، ٥٧

وهو الله الهادي الذي في هديه طريق النجاة للفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة فمن آيات هدايته إنزال المطر بمقدار معين حتى تستفيد الأرض والخلق الذي عليها بالماء فيشربون ويزرعون و يصلحون الأرض، وحتى إن هم أهملوا تلك الأرض فالله ينبت منها النبات الطيب مثل الزيتون والنخيل والأعناب، وغير ذلك من الثمار التي فيها لاشك فائدة عظيمة لخلق الله على الأرض، ومن آيات هدايته الليل والنهار والشمس والقمر تلك الدلائل الباهرة التي لابد لكل متأمل لها أن يدرك أنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وغير ذلك من دلائل شاهدة على أنه الواحد الهادي للتي هي أحسن قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٤١] وهذه آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان، وهذا انتقال للاستدلال والاهتداء بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان. ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال والاسترشاد بها على الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة.

الهداية التأملية في الكون وفي النفس:

ومن الشواهد التي تصل بالمرء إلى الهداية عن طريق التأمل الخارجي للوصول إلى الحق من كلام الله تعالى قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا

---

[٢٤١] النحل ١٠، ١٤

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يؤمنون}[٢٤٢]. فقوله: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) الله سبحانه وتعالى أخرج الناس من بطون الأمهات واستثنى من ذلك آدم عليه الصلاة والسلام، وقد فطر الله الإنسان على الفطرة التي هي كما أسلفنا الهداية الدلالية، وفي مرحلة الفطرة جعل الله الإنسان خالياً من العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً ثم وضع له أدوات للهداية الذاتية التي لا يفترق فيها إنسان عن آخر فقال تعالى: (وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) فالله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم أيها الناس هذه الحواس لتهتدوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب وقوله الحق، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها وتهتدوا إلى ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ومعجزاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على وحدانيته وتهتدوا إليه طائعين غير عاصين. وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتدركوا القول الحق والفعل الحق، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل وحدانيته، فالله الهادي خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، من ضيق الأحشاء إلى سعة الأنحاء، وجعل الحواس أدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، ومن آمن به واهتدى إلى سبيله كان من المستخلفين فيها.

وقوله تعالى: (لعلكم تشكرون) الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحواس للوصول إلى الهداية الحقيقية إلى الله وإنعام الله على الإنسان بهذه الحواس ليستعملها في شكر من أنعم بها عليه، ثم نجد دليلاً كونياً ليهتدي به المتأمل في خلق الله (ألم يروا إلى الطير مسخرات) مذللات طائعات لله الذي هداها لسر الطيران بأبسط الوسائل التي تفوق قدرة الإنسان، وإن حاول أن يحاكيها فلا شك إنه لن يصل إلى قدراتها التي ذللها الله لها (في جو السماء) في الجو وفي الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء المعد كميدان مناسب لطيرانها (ما يمسكهن إلا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها في جو السماء، وهذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخراً سخرها، ومذللاً ذللها، وممسكاً أمسكها في حال طيرانها

---

[٢٤٢] النحل(٧٩، ٧٨)

ووقوفها في الهواء، وهو الله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وقد أفرد وخصص المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها وينتفعون بها دون غيرهم فيهتدون.

ومن الشواهد التأملية التي تؤدي إلى الهداية والإيمان بالله موقف سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وهذا ما يبينه قول الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٢٤٣].

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبّى) ويقال: إنما قال ذلك على سبيل الاستفهام أهذا ربي؟ (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: غاب الكوكب (قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين) يعني: لا أحب ربنا يتغير عن حاله ويزول (فَلَمَّا رَأَى القمر بَازِغاً) يعني: طالعاً. ويقال: إن ذلك كان في وقت السحر، وكان ذلك في آخر الشهر. فرأى كوكباً: فلما ارتفع ذلك الكوكب وطلع الفجر نقص ضوءه (قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين) لا أحب ربنا يتغير. فلما رأى القمر فرأى ضوءه أكثر (قَالَ هذا رَبّى) على سبيل الاستفهام (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: نقص ضوءه حين أسفر الصبح (قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبّى لأكُونَنَّ مِنَ القوم الضالين) يعني: لئن لم يحفظ ربي قلبي. لقد كنت اتخذت إلها ما لم يكن إلهاً (فَلَماَّ رَأَى الشمس بَازِغَةً) يعني: طالعة قد ملأت كل شيء ضوءاً: {قَالَ هذا رَبّى هذا أَكْبَرُ) يعني: أعظم وأكثر نوراً (فَلَمَّا أَفَلَتْ) يعني: غربت. علم أنه ليس برب دائم. فجاءته أمه فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا. قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك. قال : ومن رب أبي؟ قالت

---

[٢٤٣] الأنعام،٧٥ ، ٨١

: نمرود بن كنعان. قال: ومن ربه؟ قالت له: اسكت. فقال لها: كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟ قالت: نعم. قال: هذا لا يصلح أن يكون ربًّا وإلها. فرجعت الأم إلى أب إبراهيم، فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك. ثم قال له في آخره: تعال حتى تعبد الذي خلقني وخلقك وخلق نمرود. فغضب أبوه، فرجع عنه، ثم دخلت عليه رأفة الوالد لولده، فرجع إليه. وقال له: ادخل المِصْر لتكون معنا، فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام. فدعوه إلى عبادة الأصنام فقَالَ لهم حينئذٍ: (قَالَ يا قوم إِنّى بريء مّمَّا تُشْرِكُونَ) فقيل له من تَعْبُد أنت يا إبراهيم؟ فقال أعبد الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض فذلك قوله: (إِنّى وَجَّهْتُ وَجْهِي) يعني: أخلصت ديني وعملي (للذي فَطَر السماوات) خلق السماوات (والأرض حَنِيفاً) يقول: إني وجهت وجهي مخلصاً مستقيماً (وَمَا أَنَاْ مِنَ المشركين) على دينكم. ويقال: إن قوله (هذا رَبّى) قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم[٢٤٤]. كما قال: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُواْ يِنْطِقُونَ}[٢٤٥] ويقال: أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم، وخطأ مذهبهم وجهلهم. لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس، والقمر.

و أكثر المفسرين ذكروا أن ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنه يولد غلام ينازعه في ملكه، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد، فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس، فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل عليه السلام، فكانت الأم تأتيه أحياناً وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له رباً، فسأل الأم فقال لها: من ربي؟ فقالت أنا، فقال: ومن ربك؟ قالت أبوك، فقال للأب: ومن ربك؟ فقال: ملك البلد. فعرف إبراهيم عليه الصلاة والسلام جهلهما بربهما فنظر

---

[٢٤٤] سنن ابن ماجة، ج ١ ، ص ٨٤

[٢٤٥] الأنبياء ٦٣.

من باب ذلك الغار ليرى شيئاً يستدل به على وجود الرب سبحانه فرأى النجم الذي هو أضوأ النجوم في السماء فقال: هذا ربي إلى آخر القصة[٢٤٦].

إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان قد عرف ربه قبل هذه الواقعة بالدليل. والدليل على صحة ما ذكرناه أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: {أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٢٤٧].

فقال تعالى مخبرا عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام حيث قال: {يا أبت لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً}[٢٤٨].

قال تعالى: (قال يا قوم إني برئ مما تشركون) يعني أنه لما أثبت إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست بالله تعالى ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه برئ مما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال: (إني وجهت وجهي) يعني إني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدي (للذي فطر السماوات والأرض) يعني للذي خلقهما وأبدعهما (حنيفاً) يعني مائلاً عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى. وأصل الحنف: الميل، وهو ميل عن طريق الضلالة إلى طريق الاستقامة والهداية. وقوله: (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه.

وقوله عز وجل: (وحاجَّه قومه) خاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السلام عيب آلهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عز وجل خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال: أتحاجونني في الله، يعني تجادلونني في توحيدي لله وقد هداني وقد بين لي طريق الهداية إلى توحيده ومعرفته. وجادله قومه في دينه فقال إبراهيم {أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّـهِ وَقَدْ هَدَانِ} إلى توحيده ومعرفته (ولا أخاف ما تشركون به) وذلك أنهم قالوا له: احذر، الأصنام فإنا نخاف أن تمسَّك بخبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فإنها جمادات

---

[٢٤٦] سنن ابن ماجة، ج ١ ، ص ٨٥.

[٢٤٧] لأنعام ٧٤..

[٢٤٨] مريم ٤٢.

لا تضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضر وهو قوله (إلا أن يشاء ربي شيئاً) يعني لكن أن يشأ ربي شيئاً كان ما يشاء لأنه قادر على النفع والضر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفى هذه الشبهة بقوله (إلا أن يشاء ربي شيئاً) وهذا استثناء منقطع وليس هو من الأول في شيء. والمعنى ولكن إن شاء ربي شيئاً كان (وسع ربي كل شيء علماً).

الهادي اسم من الأسماء الحسنى، والهادي"هو الذي بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتى أقروا بربوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده، والهدى ضد الضلال وهو الرشاد والدلالة، وقوله عز وجل: قل إن هدى الله هو الهدى، أي الصراط الذي دعا إليه"[٢٤٩] و الهدى من الهادي هو الطريق الحق كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}[٢٥٠] أي أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته بين طريق الهدى من طريق الضلال، وأعطى كل خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه، فما كان لله تعالى أن يخلق خلقه دون المتممات التي أوجد من أجلها هذا الخلق الذي وجد أصلا للعبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٢٥١]، فالعبادة بالضرورة تحتاج إلى هداية من أجل التعرف عليها وعلى كيفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها، فالذي يهدي إليها هو الهادي تبارك وتعالى، وحيث إنه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يبين لهم طريق الهدى وما يؤدي إليه من صلاح ورشاد، وبهداه أيضا يبين لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدي إليه من الهلاك، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلهية رحمة بالعباد من جهة، وحتى يقيم عليهم الحجة من جهة أخرى، وقد بين الله تعالى حال من سلك كلا من الطريقين رغبة أو رهبة، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة على الحق بما يتوصل به إلى البغية

---

٢٤٩ لسان العرب، ج ١٥ ، ص ٣٥٣

٢٥٠ الليل ١٢

٢٥١ الذاريات ٥٦

والمنال، فالله الهادي ضمن الهدى لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا على الهادي، فهدى الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق وسائل حسية وإدراكية، خارجية من حيث الآيات المبثوثة في هذا الكون الرحيب، أو داخلية مما يتمتع به الإنسان من قدرات خَلقية ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي الجوارح من الحواس، والباطنة هي الإدراكات النفسية والعقلية والذهنية، والجمع بين هذه وتلك يكون الإنسان قد استوفى حقه من الهادي من وسائل الهدى، وبالتالي لأن الهادي عز وجل منح وأعطى فيكون قد أقام الحجة على الذين لا يهتدون لذلك قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[٢٥٢] فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمل، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصادق والجمع بينهما يؤدي إلى التمكين من جانبي الدلالة وصولا إلى الهدى من أجل الاستدلال على الهادي واستبصاره.

ونحن بداية نسلم في ما جاء به الخبر الصادق المتواتر من القرآن الكريم، والخبر المنقول أيضا من العدل الضابط عن العدل الضابط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأحاديث النبوية الشريفة، في الهدى والرزق والأجل وما إلى هنالك من هذه الأمور المتعلقة بخلق البشر ورزقهم وهداهم وإضلالهم وشقائهم وسعادتهم ومدى آجالهم، كل ذلك كان عند الله مكتوبا قبل أن يخلق الخلق، والهدى والضلال يدخل ضمن هذا الحيز ممن كتب عليه شقي هو أم سعيد، وبمعنى أوضح أمهتدٍ هو أم ضال، وقد قال تعالى في محكم التنزيل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٢٥٣] فمهما تكن شديد الحرص على هداية أحد تحبه، فإنك لا تستطيع أن تُدْخل الهدى إلى عقله أو الإيمان إلى قلبه، ولكن الله يهدى للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها، وهو الذي يعلم علما ليس فوقه علم من سيدخل فى صفوف المهتدين، فالبعيدون عن الهدى يتأولون ذلك بأن الله تعالى وهو الهادي إلى سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأن الضلال والغي مكتوب عليهم، والأمر

---

[٢٥٢] البلد ٨، ١٠

[٢٥٣] القصص ٥٦

هنا من وجهين، أما الأول فإن الله سبحانه وتعالى ما أراد شرا بالعباد وحاشا لله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ذلك أن الخالق عز وجل أعطى الإنسان عقلا مميزا، وبين له الخير والشر والهدى والضلال، وبين كذلك المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدي إلى كل واحد مما ذكرنا، وبهذا فإن الله تعالى أقام الحجَّة على الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٢٥٤] ومن هذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني وهي قضية العلم، فإن هذا الإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدى واتخذ الغي سبيلا، وأما الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته أيضا اختار الهدى واتخذه سبيلا، فبعلم الله المسبق لما سيقع قبل وقوعه كتب هذا من الأشقياء الضالين، وكتب ذاك من السعداء المهتدين، وعلى هذا فالعلم سابق على القدر بما ستكسب أيدي الناس، وبما أن الله تعالى هو خالق الخلق، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه؛ ولأن علم الله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق على خلق كل واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه، وهذا مصداق لقوله صلى الله عليه وسلم: "يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقول: اكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[٢٥٥]، فالله سبحانه وتعالى لم يرد ظلما بالعباد، ولذلك بث آياته الدالة على وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلى الخالق، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل من بعثه الأنبياء والمرسلين، فالله سبحانه وتعالى أمّن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدى وصولا إلى الهادي، وضرورة الخلق إلى معرفة

---

[٢٥٤] آل عمران ١٨٢

[٢٥٥] سنن ابن ماجة، ج ١ ، ص ٨٤

الحق عن طريق الهدى ودين الحق فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من جهة الهداية، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوة والرسالات وما جاء به الأنبياء والرسل من الكتب التي تحمل الهداية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب فأمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[٢٥٦] وبالإضافة إلى آيات الهادي المبثوثة في هذا الكون التي تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم، فقد أرسل الله الأنبياء والرسل دعاة إلى سبيل رشاده وهداه مبينا لهم بما آتى أنبياءه من الكتب، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، فأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق وينشر به الهدى ويعامل الناس على ضوئه بالحق والقسطاس المستقيم، وبهذا فإن الله تعالى قد أوجد ضرورات الهدى لخلقه عن طريق الرسالات والأنبياء، إضافة إلى آيات الكون المبثوثة أمام أعين الخلق، ذلك أن ضرورة الخلق إلى معرفة ما جاء به الرسل والأنبياء من الهدى ودين الحق فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من هذه الجهات، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من هذا الطريق، فالله سبحانه وتعالى كما أوجد ضرورات العيش من الرزق، كذلك أوجد ضرورات السبل من الهداية، فأي حاجة فرضت، وأي ضرورة عرضت، فحاجة الخلق وضرورتهم إلى معرفة سبل الرشاد وطرق الخير إلى

[٢٥٦] صحيح البخاري، ج ١ ، ص ١٧٠

الهُدى ودين الحق فوقها بكثير وهذه المعرفة الضرورية لا تتحقق إلا بأخذ الأسباب المبثوثة والآيات المنتشرة والرسل المبلغة، ولكن لا تؤتى إلا لمن ألقى السمع ودقق النظر وأجال الفكر حتى يصل إلى طريق الهداية الذي بينه الهادي تبارك وتعالى فيما ذكرنا وبالوسائل التي أشرنا إليها.

ومن الخلق من تتوفر له الوسيلة لكي يرى نور الهدى والإيمان ويقتنع بذلك في عقله ولكن قلبه غير مطمئن، وهؤلاء أصحاب الأهواء أو من الذين يستعلون على الآخرين كونهم على هدى فيفعلون بعد ذلك ما يبدو لهم أنه الصواب لذلك قال تعالى: {وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ}[٢٥٧] فدل ذلك على أن عدم التكلم والهداية نقص، وأن الذي يتكلم ويهدي أكمل ممن لا يتكلم ولا يهدي، غير أن المهتدي الذي يقف على حقيقة الهادي يعمل بحقيقة الهدى على الوجه الأكمل، فيؤثر بعمله الخيرات، ولا يدع الشهوات تتسرب إلى رشاده، ويكون عقله معينا له، فهو الذي يدعوه إلى الهدى، ويعصمه من الردى، ويلجم هواه عن الفواحش، ويطلق سجيته في المكارم حتى يبرّ نفسه ويكون من المهتدين، فمن استظهر اليقظة انتفع بها ونال ما أراد، ومن استهدى الأعمى عمي عن الهدى، ونقصد به عمى البصيرة الذي يبعد الإنسان عن الهدى والرشاد، كما قال الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[٢٥٨] والمقصود في هذه الآية الكريمة حقيقة الإنسان نفسه لسببين:

أولهما: أنه من الذين يدبون على الأرض.

وثانيهما: أن الدواب هم من البكم حقيقة، ولهذا فالخطاب موجه لبني البشر، أو لبعض منهم، لأنهم يتصاممون ويتباكمون عن الحق والهدى، ولو كانوا صما بكما وكانوا هم لا يعقلون، لما عيرهم بذلك، فالله سبحانه وتعالى لم يُعر من خلقه معتوها لم يعقل، ومن خلقه أعمى لم يبصر، وكما لم يَلُمْ الدواب، ولم يعاقب السباع، ولكنه سمى البصير المتعامي أعمى،

---

[٢٥٧] الأعراف ١٤٨

[٢٥٨] الأنفال ٢٢

والسميع المتصامم أصم، والعاقل المتجاهل جاهلا. ونحن لا نقول إن طريق الهداية إلى الهادي مقتصر على العقل فحسب، ودليلنا على ذلك أننا نرى أُناسا من أعقل الناس وعباقرة البشرية بعيدون كل البعد عن الهدى، وذلك لاعتمادهم على قدرة القوة العقلية الخالصة، وهذا يعني استنارة العقل وفراغ القلب كما قال تعالى: { فإنهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[٢٥٩] فموجبات الهدى إلى الهادي إضافة إلى العقل، هي القلوب التي في الصدور حيث يصل بها الإنسان إلى يقين ما يؤمن به، وعلى هذا يكون يقين الإيمان العامر في القلب هو دليل العقل إلى الهدى، ولو لجأنا نلتمس الهدى عن طريق قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربنا، بما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، إذاً لقلّت المعرفة بالهادي، وقصرت الهمة عن إدراكه، وضعف الاجتهاد في كنهه، فيعتقم بنا الرأي ويموت الخاطر، ويتبلد العقل، ويستبد بنا سوء الظن، ولذلك كانت رحمة الله الواسعة أن أنعم على عباده بالتبليغ عن طريق الرسل والأنبياء وما آتاهم من الرسالات التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة، وبث آيات الهدى للإنسان من المخلوقات على اختلاف أنواعها من الحيوانات والنباتات والجمادات التي ترشد إلى الهادي، وإلى هذه الآيات في ما يمتلكه الإنسان نفسه من الوسائل الدالة على الهدى والمؤدية إلى الهادي حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٢٦٠] فهذه الآيات دلائل صدق فى أقطار السماوات والأرض وفي أنفس البشر من السمع والبصر والعقل والإدراك والجوارح وبقية الحواس، فهذه بعض أدوات الهداية التي توصل الإنسان إلى الهادي في نفس خلق الإنسان، هذا في جانب المخلوق العاقل بمعنى أنها الدلالات الداخلية التي يمتلكها كل إنسان وهي مرافقة له في حلّه وترحاله، ونومه ويقظته، ومسيره وإقامته، أي أنها هي الدلائل اللازمة والضرورية الملازمة الموصلة إلى الهادي، وهي وسائل الهداية التي يقيم الله بها الحجة على من ابتعد عن الهدى اختيارا

---

[٢٥٩] الحج ٤٦

[٢٦٠] فصلت ٥٣

بما سخره الله له من الوسائل والأدوات، ومن خلال هذه الوسائل والأدوات يتوصل الإنسان إلى الهدى الضروري البسيط الذي يدخل في باب التكليف، بمعنى أن من امتلك هذه الوسائل أصبح بالضرورة مكلفا بالبحث عن الهداية والوصول إليها على قدر ما أوتي من وسائل البحث، لذلك رفع الله القلم عن المعتوه وهو المجنون والصبي والنائم لأن هؤلاء فقدوا تلك الوسائل أو بعضا منها جزئيا أو كليا، أي إما مدى الحياة أو لفترة زمنية محددة متصلة أو منفصلة فقد قال صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل"[٢٦١] ويدخل ضمن هؤلاء أيضا من أكره على ما يخالف سنة الله في خلقه من الوصول إلى الهدى مؤقتا أو الابتعاد عنه لسبب طارئ خارج عن الاستطاعة والقدرة البشرية حيث يزول السبب بزوال المسبب كما قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ}[٢٦٢] فوجود الإكراه سبب لرفع الذنب والإثم، وبزوال المسبب يزول السبب، وهذا يعني أن كل إكراه مرهون بوقت، وهو من باب تغيير المسار من أجل المحافظة على النفس من أجل الهدف الأسمى والغاية الأعلى فيما ينشده الإنسان من الهدى.

فالأدوات الداخلية التي تهدي إلى الهادي مما يمتلكه الإنسان هي التي تعرفه الطريق، وبها يأخذ في سبيل الرشاد ويستنير عقله ويستوعب قلبه الدلائل الهادية، وأول هذه الدلائل هي السمع التي نراها أرفع درجة من البصر، ذلك أن السمع يرسم صورة المعاني ويحللها ويقارن بينها عن طريق العقل، وهذه الخاصية لا يمتلكها البصر وإن كان ينقل صورة ذات أبعاد ثلاثية، إلا أن الصورة المعنوية أشد تأثيرا وأعظم وقعا على العقل الذي بصور المعاني ويستطيع أن يستنتج منها صورا مركبة غير تلك التي ينقلها البصر، فالصورة المعنوية التي تأتي عن طريق السمع هي مدعاة للتأمل أضعاف ما ترسمه صورة البصر، لذلك يكون الوصول إلى الهداية عن طريق السمع أسرع والتمسك بها أوثق والحجة بالسمع أشد إقناعا

[٢٦١] سنن أبي داود، ج ١١ ، ص ٤٨١

[٢٦٢] النحل ١٠٦

لذلك قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[٢٦٣] فإنما يجيب دعوة الحق مقبلين عليه، الذين يسمعون سماع فهم وتدبر وتحليل وتأمل، وأما الذين لا ينتفعون بسمعهم فهم فى حكم الأموات، والذين يسمعون سماع وعي وتدبير وتأمل، فإنما أطاعوا في ما دُعوا إليه واستجابوا للهدى، والاستجابة من الله يعبر بها عن الأمور التي تقع في المستقبل، ودليلنا أيضا على أن السمع أدعى إلى الهدى من البصر قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّـهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ}[٢٦٤] فمعرفة الحق والهدى الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلى الهادي، إنما تأتي عن طريق سمعه ووعيه لما يسمع، ولكن الذين لا يذعنون فهم غير سامعين عن طريق المجاز لا عن حقيقة السمع، أي أنهم سمعوا كلاما ولم يدركوا المعاني والصور التي يحملها هذا الكلام، فمثل هؤلاء أنهم أشد شرا من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبكم فلا تتكلم، فهم صمُّوا عن الحق، فلم يسمعوه ولم ينطقوا به ولم يعقلوه، وصمُّوا عن الهداية فلم يقربوا إليها، فهم لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدى، لذلك سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون، وتتجلى الهداية عن طريق السمع أكثر دقة في المشاهد التي أصل الاعتبار فيها إنما هو بصري الرؤية والهدى فيه عن طريق السمع بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ}[٢٦٥] إن سياق الآية في الصور التي أوردتها وجميعها يندرج تحت المشاهدة البصرية التي هي من مهام العين المبصرة في مشاهدة الليل والنهار والآيات الأخرى التي وردت في الآية، غير أن طريق الهداية مرهون بالسمع الذي ينقل صورة غير الصورة المادية الحسية مما ينتاب الإنسان من شعور عميق يؤدي به إلى تحسس الهدى في داخل نفسه لا عن طريق المشاهدة الحسية، وإنما بطريق الشعور والإدراك الذي يولده السمع في النفس

---

[٢٦٣] الأنعام ٣٦

[٢٦٤] الأنفال ٢١، ٢٢

[٢٦٥] يونس ٦٧

الإنسانية، فذكر السماوات والأرض وخلق الليل والنهار بما في ذلك من منافع للسعي والعمل في النهار، وبعد ذلك الهدوء والراحة والسكينة في الليل، وهذا مضيء وذاك مظلم، إنما هي دلائل لمن يسمع ما يقال في ذلك من الآيات من أجل العظة والاعتبار الذي يؤدي إلى الهدى وهو بينة لمن يسمعون ويتدبرون ويعتبرون بذلك.

وأما مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ}[٢٦٦] فإنك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم فى الحقيقة لا يرون شيئا، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ونعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح، فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء؛ لأن الرجل الماشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه المخلوقات بكثير، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدى.

إن الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله، وبين لهم الطرق ووضح لهم السبل حتى يتبين الخلق الرشد من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ

---

[٢٦٦] الأعراف ١٩٨

لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ}[٢٦٧] فالله سبحانه وتعالى ينص في هذه الآية على أنه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة، لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكا هذا العمل، إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله مَن يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشد سواه إلى السبيل الحق، فهل القادر على الهداية إلى الحق أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي فى نفسه، وهو لا يهدى غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدى من يشاء للحق دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبر الصائب فإن العقول مضطربة والأفكار مختلطة وتعيين الحق صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقائق لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحق بإعطاء العقل وبعثة الرسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبر بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحق أحق بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره، وإذا كان لا بد من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحق أن يتبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالهدى متبعا للحق ومعلما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتديا، لأن الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه اكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يبصّر عباد الله ويعرفهم طريق معرفته حتى يقروا بالهادي وصولا إلى الهدى، ذلك أن الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات.

---

[٢٦٧] يونس ٣٥

إن مسألة الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد إلى الهادي جل شأنه أخذت اتجاهات شتى في كلام أهل الجدل وأصحاب التفسير وأقوال المتكلمين، وإن لم يشر البعض إلى اللفظة صراحة، وإنما في قضية الجبر والاختيار بالنسبة للمخلوقين من أصحاب العقول من الجنة والإنس، ونحن نقول أن الهداية هي حق وجب لكل مخلوق ممن ذكرنا، فمن منع ذلك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق هي حق من حقوق الله تعالى فإنه يختص برحمته من يشاء، وهنا يجدر القول أن الله سبحانه وتعالى كتب الهداية لمن علم أنه سوف يأخذ بأسبابها ويتوصل بتلك الأسباب إلى الهادي، فكتبه من المهتدين لعلمه بأنه سوف يفعل ذلك، وأما الذين اتخذوا طريق الغي سبيلا، فينسحب عليهم ما انسحب على أصحاب الهدى من علم الله المسبق بما سوف يعملون قبل أن يعملوه فكتبهم من الضالين البعيدين عن طرق الهدى وسبل الرشاد، وعلى هذا فيكون خلق فعل الضلال من الله تعالى، كما أن خلق فعل الهدى منه سبحانه، وعلى هذا فإن خلق الفعلين من الله تعالى، وأما اختيار أحد الفعلين والسير في طريق أحدهما دون الآخر فهو اختيار المخلوقين؛ لأن الله تعالى ما كان ظلاما للعبيد، وبعبارة واضحة ومثال بسيط نقول: من بين عدد من طلابك مثلا قلّ العدد أو كثر، تعرف طالبا منهم أنه مجتهد ومتابع وحريص على علمه، فعندما تسأل عنه تقول إنه ناجح على الرغم من أن بينه وبين الامتحان أيام وشهور، فأنت أصدرت حكما صادقا قبل زمن وقوع فعل النجاح لعلمك المسبق بما سيكون عليه مستقبلا، وعلى العكس من هذا يكون طالب مهمل، ويقال لك هل هذا ناجح، فتجيب بكل بساطة: أتريد أن ينجح من هو راسب، وهذا الحكم أيضا قبل وقوع الفعل، والآن نستطيع أن نفهم قوله تعالى: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[٢٦٨] فالله تعالى أركسهم ولكن بما كسبوا، وهنا لا يسوغ الاختلاف في شأن هؤلاء أهم مهتدون أم ضالون، وهم قابلون لأن يكونوا مهتدين أم لا ترجى منهم هداية، إنهم قلبت مداركهم بما اكتسبوا من أعمال، جعلت الشر يتحكم فيهم وما كان لك

---

[٢٦٨] النساء ٨٨

أن تتوقع هداية من قَدَّر اللَّه فى علمه الأزلي أنه لن يهتدي، فإن من يُكتب فى علم الله الأزلي ضلاله، فلن تجد طريقا لهدايته، وبهذا المفهوم على ما نعتقد وإن شاء الله نكون من أصحاب السداد فيما نقول: أن الله تعالى بعلمه الأزلي حكم على مجريات الأبد بما كان وبما سيكون، ومن هنا لا أحد يستطيع أن يفعل حيال نفسه شيئا مما قدر عليه بفعل نفسه وتم به القضاء ولا أحد أيضا يضل نفسه ولا يضله غيره من المخلوقين وإنما المضل الهادي هو الله وحده دون جميع خلقه من الإنس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين ومن نسب إليه منهم ضلال فإنما نسب إليه مجازا لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالى: {قَالَ فإنا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ}[٢٦٩] فقد قال تعالى وأضلهم السامري، حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلى الضلال بعبادة العجل الذي أبعدهم في هذا الفعل عن طريق الهدى الذي كانوا عليه، فأضاف الإضلال إلى السامري لأنه كان حصل بتقريره ودعوته، وأضاف الفتنة إلى نفسه عز وجل لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقه، وعلى هذا يكون إضافة الأشياء إلى أسبابها ومسبباتها، فلا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الضلال وأبعدهم عن الهدى، لأن الدلائل العقلية والمنطق السليم يعارض ذلك، فلا يجوز من الله هذا الفعل من الجانب العقلي، ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله (وَأَضَلَّهُمُ السامري) وأيضاً فلأن موسى عليه الصلاة والسلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة فقال: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ العهد أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رَّبّكُمْ}[٢٧٠] فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ما ذكرت، فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام أيضاً فقال (أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مّن رَّبّكُمْ) ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له،ولذلك قال فتنّا قومك وأضلهم السامري، وذلك لأن الفتنة هنا بمعنى الامتحان، فهنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك

---

[٢٦٩] طه ٨٥

[٢٧٠] طه ٨٦

العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا على الهداية بأنفسهم بما امتلكوا من أسباب تلك الهداية وقد كانوا عليها قبل الفتنة، إذ أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها المؤثرة فيها في الظاهر، ومثل هذا أيضا ما جاء في قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا}[٢٧١] وهنا تتجلى هداية التأييد من الهادي التي تمثلت بالفضل، فلولا أن الله تفضل على نبيه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ، لأرادت طائفة منهم السعي إلى الإضلال، ولكنهم لا يضلون إلا أنفسهم، لأن الله أطلع نبييه عليه الصلاة والسلام على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحق، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم، وقد أيده الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان الحق ومصباح الهدى وسبيل الرشاد، وأودع قلبه الحكمة وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه، حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبا نبيه: إن فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توخي طريق العدل، وأن وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب تعاونهم على الإثم، ومردُّ ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدى ممن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أراده بسوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له.

ومثل ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٢٧٢] وإرادة الفتنة من الله تعالى هنا لا تدخل في المشيئة، وإنما تدخل في باب العلم من الله تعالى أن هؤلاء لن يهتدوا أبدا بما تقدم أيديهم من باب الاختيار بين الخير والشر والهدى والضلال والغي والرشاد، فترك الخير والهدى والرشاد، واتباع الشر والضلال والغي، هو من قبيل التمسك بالجهل

---

[٢٧١] النساء ١١٣

[٢٧٢] المائدة ٤١

الموفي بأهل على المهالك، فهؤلاء لا يؤسف عليهم بصنيع أفعالهم من تركهم طريق الهدى الموصل إلى الهادي، فهم ينتقلون فى مراتب الضلال من أدناها إلى أعلاها مسارعين فيها، من هؤلاء المخادعين الذين قالوا: آمنا بألسنتهم ولم تذعن للحق قلوبهم فمن يرد الله ضلاله لانغلاق قلبه فلن تستطيع أن تهديه أو أن تنفعه بشيء لم يرده الله له، وأولئك هم الذين أسرفوا فى الضلال والعناد لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الحقد والعناد والجهل والضلال، ولهم فى الدنيا ذل بالفضيحة والهزيمة ولهم فى الآخرة عذاب شديد عظيم.

إن الله سبحانه وتعالى هو الهادي، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك بخلق أفعال الهدى وأفعال الضلال، وعلى هذا يكون الخلق من الله وممارسة الفعل من الإنسان، سواء أفعال الهدى والرشاد أم أفعال الغي قال الله جل ذكره إخبارا عن كليمه موسى عليه الصلاة والسلام في مناجاته له: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ}[٢٧٣]، والهداية تكون على معنيين أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه، والآخر بمعنى التوفيق قال الله عز وجل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٢٧٤] أي أنك لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والإيضاح؛ لأنه لا خلاف بين المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم أرشد وبين وأوضح وبلغ من يحب ومن لا يحب، فبين بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها صلى الله عليه وسلم، إذ لا خلاف أن الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلها مصدرها الهادي جل جلاله وهنا نستطيع أن نقول أن هدي النبي عليه الصلاة والسلام هدي تكليف، وأما بالنسبة للمبلغين فهديهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو الخليفة وهو الهادي بالإضافة، ولأن الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين

---

[٢٧٣] الأعراف ١٥٥

[٢٧٤] القصص ٥٦

بـه إلـى نجاتهم وفوزهم، وأما الفتنـة فمعناها الامتحـان والاختبار إلا أنها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتن فلان إذا أخذل وضل، ويدل على صحة هذا التأويل أنه قال الهادي بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضله، والخاذل لمن شاء بعدله لا إله إلا هو الفعال لما يريد.

إن الله سبحانه وتعالى هو الهادي في أسمائه والهادي في خلقه، وهداية الأسماء تختلف عن هدايـة الخلـق، إذ أن هـدى الأسـماء يحمـل دلالات معنويـة لا حسـية ولا مشـاهدة، غيـر أن حصول هذا النوع من هدي الأسماء للذات الإلهية إنما يرتبط بالإنسان عن الامتناع عن نوعين من الأفعال، والإقبال على نوعين آخرين، وقبل أن نذكر تلك الأفعال لا بدّ من معرفة كيفية هداية الأسماء، فلله الأسماء الحسنى، ونذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر كيفية الوصول إلى الهدى من خلال الأسماء، فالغفور والرحيم والتواب والعفو، كل هذه الأسماء يتوصل بها إلى الهداية، ولأجل الوصول إلى هداية الاسم وجب على الإنسان ترك الأفعال المادية التي تؤدي إلى الغواية والضلال، ويدخل ضمنها أفعال الأذى قولا أو عملا، والإقدام على نوع آخر من الأفعال قولا وعملا أيضا، وقد جمع الأمر والنهي في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٢٧٥] فاللّه سبحانه وتعالى من أجل هداية خلقه يأمرهم بأن يعدلوا فى أقوالهم وأفعالهم، ويقصدوا إلى الأحسن في كل الأمور، فيفضلوه على غيره، كما يأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه لدعم روابط المحبة بين الأسر وصلة الرحم، وينهى عن فعل كل خطيئة، خصوصاً الذنوب المفرطة فى القبح والسوء والرذيلة، وكل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة، كالاعتداء على الآخرين، واللّه سبحانه بهذا يذكرهم ويوجههم إلى الصالح من أمورهم، لعلهم يتذكرون فضله فى حسن توجيهه لهم، فيمتثلوا كلامه من أجل هدايتهم، فالأمر بالعدل هو بحد ذاته نهي عن الظلم، ومن انتهى عن الظلم فقد اهتدى إلى الحق، وليس الظلم هو ظلم الآخرين فقط، وإنما هو أيضا ظلم النفس، لذلك كان الأمر بالعدل بأن

---

[٢٧٥] النحل ٩٠

لا تظلموا أنفسكم ولا غيركم ولا تجوروا بالتسوية فى الحقوق فيما بينكم وترك الظلم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وكذلك هو أمر بمراعاة التوسط بين الأمور، والعدل أيضا هو صرف ما أعطاك الله من الجوارح البدنية والأدوات الروحية ومن الأموال الدنيوية وما وهب الله خلقه من صحة وعافية وسمع وبصر كل ذلك يجب إعماله فى طلب الهداية والسير في طريقها إليه؛ لأن صرفه فى طلب غير هذا الاتجاه ضلال مبين، ومن هنا نتبيَّن الهادي في أسمائه كيف يهدي إلى الحق وإلى العدل وهو الحق العدل جل جلاله.

ونقف على دلالة الهادي لخلقه في أسمائه أيضا في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٢٧٦] فالذين أكثروا على أنفسهم من المعاصي وأسرفوا فيها لم تغلق أمامهم أبواب التوبة والرحمة والمغفرة، لأن الله تعالى يهدي إلى الغفور، فلا تيأسوا من رحمة الله، لأن الله يتجاوز عن الذنوب جميعا بعظيم رحمته فالإسراف تجاوز الحد فى كل ما يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق وغيره من الأعمال، وتعدية الإسراف تعني تضمين معنى الجناية والإفراط في المعاصي وارتكاب الكبائر والفواحش، فخصوص السبب لا ينافى عموم اللفظ فدخل فيه كل مسرف، "واعلم أن القنوط من رحمة الله علامة زوال الاستعداد، والسقوط عن الفطرة بانقطاع الوصلة بين الحق والعبد إذ لو بقى شيء في العبد من نوره الأصلي لأدرك أثر رحمته الواسعة السابقة على غضبه، فرجاء وصول ذلك الأثر إليه لاتصاله بعالم النور بتلك البقية وإن أسرف وفرط فى جنب الله وأما اليأس فدليل الاحتجاب الكلى واسوداد الوجه، فالله تعالى يغفر الذنوب جميعا بشرط بقاء نور التوحيد فى القلب فإذا لم يبق دخل فى قوله"[٢٧٧]، وكذلك من الهادي في الأسماء ما فيه هدي توبة ورحمة، وليس بالضرورة أن يكون الإنسان قد اقترف ذنبا وإنما هي هدي هداية للهادي كما يتضح ذلك في قوله تعالى: {رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا

---

[٢٧٦] الزمر ٥٣

[٢٧٧] تفسير حقي، ج ١٢ ، ص ٣٠٨

مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٢٧٨] وهذا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بعد أن رفعا القواعد من بيت الله الحرام، والتوبة إلى الهادي هنا هي توبة عصمة وإخلاص، لا توبة عن ذنب قد مضى، ربنا وفقنا واجعلنا مخلصين لك واجعل من ذريتنا جماعة مخلصة لك، وعلمنا طريقة عبادتنا التي ترضى بها عنا أي أهدنا إلى طريقة عبادتك على الوجه الذي يرضيك فى بيتك الحرام وما حوله، وطلب التوبة وقبول المغفرة برحمتك عن خطأ أو نسيان وحاشا لأنبياء الله، ولكن مع ذلك قال عليه الصلاة والسلام وتب علينا إن نسينا أو أخطأنا إنك أنت كثير القبول لتوبة عبادك، الغافر لهم بفضلك ورحمتك والهادي لهم لما تحبه وترضاه، فالإخلاص طريق الهداية، والمراد من المسلم أن يجعل نفسه وذاته خالصا لله تعالى بأن يجعل التذلل والتعظيم الواقع منه للسان والأركان والجنان خالصا له تعالى ولا يعظم معه تعالى غيره ويعتقد بأن ذاته وصفاته وأفعاله خالصة له تعالى خلقا وملكا لا مدخل فى شيء منها لأحد سواه وكذلك اجعلنا مستسلمين لك منقادين بالرضا بكل ما قدرت وبترك المنازعة فى أحكامك، بمعنى الاستسلام والانقياد والرضا بالقضاء وهذا أعلى درجات الهدى، وعلى الرغم أنهما كانا مخلصين ومستسلمين فى زمان صدور هذا الدعاء منهما، إلا أن المراد هو طلب الزيادة فى الإخلاص والإذعان والثبات عليه، فهذا تعليم منهما للناس الدعاء للتثبيت على الهدى، فإنهما لما سألا ذلك مع أمنهما من زواله عنهما فكيف غيرهما مع خوفه، وسألا أيضا الثبات على الانقياد فأجيبا إلى ذلك حتى اسلم إبراهيم للإلقاء فى النار وإسماعيل للأمر بالذبح.
(ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أي واجعل بعض ذريتنا جماعة مخلصة لك بالعبادة والطاعة، وإنما خص الذرية بالدعاء مع أن الأنسب بحال أصحاب الهمم وخاصة الأنبياء أن لا يخصوا ذريتهم بالدعاء لكنهما خصاهم لوجهين: الأول كونهم أحق بالشفقة كما فى قوله تعالى: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ}[٢٧٩] فدعوا لأولادهما ليكثر ثوابهما

---

[٢٧٨] البقرة ١٢٨

[٢٧٩] التحريم ٦

بهم، لأنه ما من رجل من المسلمين يخلف من بعده ذرية يعبدون الله تعالى إلا جعل الله له مثل أجورهم ما عبد الله منهم عابد حتى تقوم الساعة، والثاني انه وان كان تخصيصا صورة إلا أنه تعميم معنى لان هدى أولاد الأنبياء سبب وطريق لهدي الناس فكأنهما قالا واهدي عامة عبادك بهدي بعض ذريتنا وخصا البعض من ذريتهما لما علما أن من ذريتهما محسن وظالم لنفسه وربما يفهم البعض أن طلب الهداية والتوبة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من باب تجوز الذنوب على الأنبياء، قياسا على أن التوبة لا تطلب من الله إلاّ بعد تقدم الذنب، فلو لا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة مبرر، إلا أننا نقول أن أيوب عليه الصلاة والسلام خلال مدة ابتلائه لم ينفك عن التوبة والاستغفار، ومنى ذلك أن الإنسان وإن اجتهد في طاعة ربه عز وجل فإنه لا ينفك عن تقصير في بعض الأوقات، إما على سبيل السهو أو انشغاله بعمل، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك، ونحن نعتقد أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم أن في ذريته منهم ظالم لنفسه سأل ربه التوبة لأولئك الظلمة،حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[٢٨٠] طلب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من ربه أن يجعل البلد الذي سينشأ حول البيت بلدا آمنا، وأن يرزق من ثمرات الأرض وخيراتها من آمن من أهله بالله واليوم الآخر، فأجابه الله بأنه لن يضنَّ حتى على الكافر نفسه بالرزق فى أثناء حياته القصيرة، ثم يلجئه يوم القيامة إلى عذاب جهنم، والمعنى المقصود بجملته هو طلب التوبة للظلمة من أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما،أنهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك أحرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليُقتدى من بعدهما في ذلك الدعاء؛ لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة والهدى إلى سبيل الله تعالى.

وأما الهادي عز وجل من خلال التواب، فإن أول عباد الله وأول خلقه من الإنس من اهتدى بالاسم هو آدم عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ

---

[٢٨٠] البقرة ١٢٦

إِنَّـهُ هُوَ التَّوَّابُ الـرَّحِيمُ}[٢٨١] فعنـدما أحـس آدم عليـه الصـلاة والسـلام هـو وزوجتـه بخطئهمـا وظلمهما لأنفسهما، طلب التوبة ليهتدي إلى الصراط الحق الذي يرضى به الله تعالى عنه، فألهم الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فقالها: فتقبَّل الله منـه وغفـر لـه وهـذه الهدايـة مـن اسـم التـواب، وبصـرف النظـر عمـا قـال العلمـاء والفقهـاء والمفسرون مما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة في الكلمات التي تلقاها آدم عليه الصلاة والسلام من ربه، فإنما هي العهود الإنسانية والمواثيق الآدمية والمناجاة الربانية من الخليفة إلى الحق تعالى جل جلاله، فهي كلمات هداية أوصلته إلى الرشد ليتوب الله تعالى عليه، فتاب آدم عليه الصلاة والسلام إلى الله بالرجوع عن المعصية والاعتراف بذنبه والاعتذار عن خطئه وسهوه، فتاب الله تعالى عليه أي فرجع الله سبحانه، عليه بالرحمة وقبول التوبة، وبذلك عاد إلى الهدى، لأن أصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعا عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به الله سبحانه أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة لفتح باب الهداية، وتمام التوبة من العبد بالندم على ما كان وبترك الذنب الذي هو فيه، وبالعزم على أن لا يعود إليه فى مستأنف الزمان، وبردّ مظالم العباد وبإرضاء الخصم بإيصال حقه إليه باليد والاعتذار منه باللسان، وهذا كله من باب العودة إلى ما كان عليه من الهدى، وربّ سائل يسأل لماذا اكتفى بذكر آدم عليه الصلاة والسلام بالتوبة والهداية، دون حواء، وللإجابة على ذلك نقول: إن الأمر من عدة جوانب وأولها أنها كانت تابعة له فى الحكم ولذلك طوي ذكر النساء فى أكثر المواطن في القرآن الكريم وذلك لباب القيام حيث قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ}[٢٨٢] والثاني: أن الرجل هو الأصل والمرأة فرع عليه حيث يتضح ذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً}[٢٨٣] فالله سبحانه الذي أوجدكم من

[٢٨١] البقرة ٣٧

[٢٨٢] النساء ٣٤

[٢٨٣] النساء ١

نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، وخلق منهما رجالاً كثيراً ونساء أي قدر خلقكم حالا بعد حال على اختلاف صوركم وألوانكم من نفس واحدة، أي من أصل واحد وهي النفس الآدمية الواحدة (الإنسان) أي أن النفس من حيث الخلق واحدة ومن حيث التعدد ثنائية مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٢٨٤]، والثالث أن اللغة تخاطب المؤنث على التغليب أي تغليب المذكر على المؤنث الذي هو داخل ضمنها وذلك مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا}[٢٨٥] فالخطاب للناس شمل الذكر والأنثى، وكذلك قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[٢٨٦] فالتوكل على الله تعالى يكون من المؤمنين رجالا ونساء، وهذا يعني أن حواء دخلت في التوبة والعودة إلى الهدى ضمنا وإن لم تذكر، كما أنها هي التي بادرت إلى المعصية ودفعت آدم إليها، فكان الحوار مع آدم عليه الصلاة والسلام، والعتاب موجه إليه دون حواء ولم تذكر أيضا إلا في حال إضافتها لزوجها (أنت وزوجك). ومن باب الهداية في اسم التواب أيضا قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٢٨٧] حيث إن خطاب موسى عليه الصلاة والسلام يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم عجل السامري معبوداً لكم دون خالقكم فهو الضلال بعينه والابتعاد عن طريق الهدى والرشاد، فهذا الخطاب يحمل وجهين من المعاني، فالأول دور الهادي بالإضافة وهو الخليفة الذي يقوم اعوجاج البشر في الأخذ بيدهم إلى طريق الهدى، والثاني أن التوبة هي رجوع عن الباطل والغي والضلال إلى طريق الحق الذي هو منارة الهدى، لذلك أمرهم أن يتوبوا إلى ربهم وخالقهم، وهذه التوبة سوف تكون طريق العون إلى الله الذي يهدي الضالين ويتوب عليهم، فإن هم اتبعوا الخليفة وامتثلوا لأمره فقد ترتب على ذلك التوفيق إلى الهدى بترك

---

[٢٨٤] الذاريات ٤٩.

[٢٨٥] النساء ١٧٤.

[٢٨٦] آل عمران ١١

[٢٨٧] البقرة ٥٤

الضلال عن طريق التوبة، وبقبول التوبة من الله تعالى بإرشاد الخليفة يتم العفو الموصل إلى الهدى. فاقتراف الذنوب هو مخالف لسنة الله تعالى في خلقه بدليل ذكر(بارئكم) والبرء في جملة ما يعنيه أنه برأكم خَلقا في الصورة وخُلُوقا في التقويم والعدل والاستقامة وهي فطرة الله الذي فطر عليها عباده بأنهم مهتدون إلى الخالق قبل اقتراف الذنوب، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء"[٢٨٨] فالإنسان خلقه الله تعالى بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت، ولكنه ميز بعض خلقه من بعض بصور وهيئات مختلفة، فهؤلاء الذين تركوا فطرة الله في هدايته لهم وعصوا أمر الخليفة، فقد بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغباوة منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي هو لا يريد بعباده إلا الهدى والرشاد حيث قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٢٨٩] فالله تعالى على صراط مستقيم، والصراط المستقيم هو طريق الهدى وسبيل الرشاد، الذي يوصل إلى الهادي، وهو الذي آخذٌ بكل ناصية إلى صراطه، وعلى هذا يكون الله تعالى آخذ بنواصي خلقه إلى هدايتهم إلا من أبى، أي رفض وامتنع واتخذ غير سبيل الله أو عصى ما أمره به الخليفة حيث جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: يا رسول الله ومن يأبى قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى"[٢٩٠]، وكما أن الله سبحانه وتعالى هو هادٍ في أسمائه، فهو أيضا هادٍ في خلقه، وأول هداية الخلق بالخلق، ما أرسل الله الهادي رسله بالبينات ليبينوا للناس حيث قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[٢٩١] وهنا تتضح هداية الهادي في خلقه وهي دعوة لاتباع المرسلين من الله إلى الناس، فهم لا يطلبون أجرا على نصحهم

---

[٢٨٨] صحيح البخاري ، ج ٥ ، ص ١٤٣

[٢٨٩] هود ٥٦

[٢٩٠] صحيح البخاري، مجلد ٢٢، ص ٢٤٨.

[٢٩١] يس ٢٠، ٢١

وإرشادهم، وإنما غاية الدعوة هي إيصالهم إلى ما أمر الله به من الهدى، وهنا يتجلى دور الخليفة الهادي بالإضافة، فهو يعلم من الهادي المطلق ما لا يعلمه الآخرون، لأن الله تعالى يختار ويختص من عباده من يشاء، لأنهم مهتدون ينتفع الخلق بهديهم فى سلوك طريق الخير والفلاح، وتكون الدعوة إلى الهادي المطلق من الهادي بالإضافة إلى خير الدين والدنيا، لأنه المهتدي إلى طريق الحق الموصل إلى هذا الخير، فإذا كان الذي يدعوك إلى الخير والهدى وطريق الحق ويأخذ بيدك إلى الخيرات وينأى بك عن الزلات هو من هو إنسان عادي فوجب عليك اتباعه، وان لم يكن رسولا ويكفي أنه يأمرك بالمعروف وينهاك عن المنكر، فكيف إذا كانوا رسلا ومهتدين، فإذا هم الخلفاء الذين وجب اتباعهم، لأن الرسول مهتد لا محالة، وكونهم مهتدين فالعقل يسلم بصلاح ومنطقية ما يقوله الهادي بالإضافة، ذلك أنهم يرغبون في اتباعهم لا من أجل عرض الحياة الدنيا ولا يريدون أجرا على ذلك، ومع ذلك فترى بعض الناس يعرضون تكبرا، ونحن نقول لمثل هؤلاء، إن كانت الهداية لا تقدم لكم منفعة آنية في الوقت الحاضر ،ولا تؤمنون أنها تقدم لكم منفعة مستقبلا أو في الحياة الآخرة فإن الدعوة إلى مكارم الأخلاق أيضا لا تضركم، ومن هذا الباب وجب اتباعها لأنها تتنزه عن الغرض الدنيوي وتدعو إلى الاهتداء إلى الخير، وعلى هذا فالذين يتبعون هدى الهادي في خلقه لا يخسرون معه شيئاً من دنياهم ويكسبون صحة دينهم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة، فالدعوة إلى مكارم الأخلاق هداية من مخلوق لمخلوق وهي في غاية الاستقامة والحسن وذلك من حيث الشعور النفسي والارتياح، ولا شك أن الخلق في الدنيا على فطرتهم سالكون طريق الخير في داخلهم وطالبون للاستقامة بدليل أن الإنسان السيئ إذا مدحته وذكرته بخير فإنه يهتز طربا وتنفرج أساريره عن الرضا والارتياح، وإذا ذكرته بما فيه من السوء الذي يعلمه بنفسه ويمارسه فإنه سوف ينكر عليك ذلك ولا يقبله منك لأن طبيعة النفس الإنسانية تميل إلى الخير رغما عن العقل لأنها تعلم الدليل إلى الطريق بالفطرة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل وجوب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين، إما مغالاة الدليل في طلب الأجر، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته

بالطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرا وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين، لذلك وجب اتباعهم.

ومثلما أن الله تعالى هو الهادي في أسمائه، والهادي في خلقه كذلك هو هادٍ في الخصوصية التي اختص بها بعض مخلوقاته دون البعض مثل الأنبياء والمرسلين والأولياء والخلفاء، وهذا هدي اختصاص من الله تعالى بالنسبة للبشر، أما المخلوقات غير العاقلة فقد هداها إلى ما هي مخلوقة له بشكل عام، وكذلك جعل لبعضها خصوصية لحكمة أرادها الهادي لقضاء أمر أو لتعريف الإنسان قدر نفسه من خلال مخلوقات ضعيفة تفعل ما لا يستطيع الإنسان فعله فقد جاء في قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[٢٩٢] فالله الهادي هدى هذه النملة لتخاطب قومها خوفا عليهم من الهلاك، وبذلك أرادت هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم من الموت الذي قد يسببه جنود سليمان عليه الصلاة والسلام من تحطيم جماعة النمل، فقالت لهم بطريق الهداية: يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم لكيلا تميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم يا معشر النمل، ادخلوا مساكنكم لا يهلكنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فسمعها سليمان فتبسم ضاحكا متعجباً من قولها، وسأل الله تعالى أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه من عِلم وملك، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه، وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة عباده الصالحين. ومن البديهي أن سليمان عليه الصلاة والسلام من المهتدين الذين يهدون إلى الهادي، ومع ذلك فإن هدي النملة لجماعتها جعله يتشبث بهداه أكثر ويدعو الله أن يثبته عليه، وهدي النمل لم يقتصر على هذه الحادثة، ولكن الله هداه أيضا إلى أمور يعجز عنا الإنسان وقد كتب كثير من الكتاب والباحثين عن معيشة النمل ونظامها

---

[٢٩٢] النمل ١٨، ١٩

الدقيق في حياتها، وما لها من عجائب في معيشتها وتدبير شئونها، ومثابرتها على العمل، وأنها تتخذ القرى في باطن الأرض، وتخزن قوتها لأيام الشتاء.

وكما هدى النمل كذلك فقد هدى النحل لما هو مكلف به وحيا ليس بمعنى أنه أرسل إلى النحل رسلا من الملائكة تهديها إلى ما يجب عليها فعله، وإنما هو هدي برمجة وإلهام بما أودع الله فيها من تصريف الأمور لتصنع شرابا يهتدي البشر إلى الشفاء الذي أودعه الله فيه بما هدى النحل إلى استخلاصه من أنواع شتى من الزهور والورود والنباتات على اختلاف أنواعها قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ}[٢٩٣] فقد ألهم الله تعالى النحل أسباب حياتها بما أودع فيها، ووسائل معيشتها بما بثّ لها من أسباب الرزق وهداها إليه، وكذلك هداها إلهاما بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في الكهوف، ومن فجوات الشجر وبين الصخور، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا كذلك، فهذا التنوع في الهداية إلى اتخاذ بيوت النحل في مناطق مختلفة من البيئة والطبيعة، إنما هو هداية من أجل الهداية، فلماذا هذا التفاوت؟ إن الله تعالى هدى النحل إلى اتخاذ المساكن في أنحاء مختلفة في الطبيعة ليس فقط من أجل امتصاص رحيق الأزهار وتحويله إلى شراب فيه شفاء للناس، وإن كان يبدو أن هذا هو عملها الأساسي، إلا أن هناك أمراً أكثر أهمية من العسل، خاصة إذا علمنا أن النحل يسقط على أزهار لا يأخذ منها رحيقا على الإطلاق، فلماذا يقف على أزهار لا ينال منها فائدة؟ وهنا تكمن الهداية الأهم بالنسبة لهذه الحشرة، وهي أنها تنقل حبوب الطلع من الذكر للأنثى مما بث الله تعالى من نباتات في هذه الأرض، وهنا نقف على الحكمة من هداية النحل في اختلاف مساكنها، وأما الجانب الآخر فلكي يكون الشراب الذي يخرج من بطونها في متناول الجميع؛ لأن الله تعالى لم يجعله للخواص وإنما هو عام لكل البشر حيث قال تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٢٩٤]

---

٢٩٣ النحل ٦٨

٢٩٤ النحل ٦٩

فقد هداها الله تعالى للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربها مذللة سهلة وهداها إليها، كي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس جميعا دون استثناء، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم هادٍ، يهتدي الناس للانتفاع به من أجل الغذاء أو الدواء، فهذا الغذاء النافع والشراب الشافي، الذي هدى الله تعالى النحل أن تأكل الأجزاء اللطيفة الطيبة الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمتص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة ثم تخرجه من بطونها، وتدخره في بيوتها للشتاء فينعقد عسلا بإذن الله تعالى، فأي هدى وأي هادٍ أوحى إلى النحل كل هذا، فسبحان الهادي وسبحان الخلاق العظيم، حيث إنه سخرها لما خلقها له وهداها لما فيه خير الإنسان، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وهنا نذكر هداية دقيقة من الله تعالى لهذا المخلوق العجيب وإن كنا ذكرناه سابقا في مواطن من هذا البحث، إلا أننا نرى وجه الهداية دقيق جدا في عملية بناء بيوت النحل، وذلك أن النحل تبني بيوتا على شكل سداسي من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى وهداها، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية ضائعة، وهداها الله سبحانه وتعالى أيضا إلى أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها، ولما امتازت هذه الحشرة الضعيفة بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الهدي الإلهي فكان ذلك شبيها بالوحي، من هاديتها إلى الطرق التي ألهمها الله أن تسلكها والنبتات والأزهار التي تأكل منها وما تلقح من أشجار لولا وقوع النحل عليها ما كان لها ثمار. فالهدي الإلهي في مخلوقات الله تعالى عدا الإنسان إنما هو قائم على طبيعة الخلق المؤثر في السلوك وحيا وإلهاما وتوجيها لما يهدي الله تعالى هذه المخلوقات من تصرفات وأعمال كونها أمم من أمم الخلق مكلفة أيضا بغير ما كلف به الإنسان من العبادة، إذ أن هديها مسخر للإنسان، فسليمان عليه الصلاة والسلام عندما تفقد

الطير لم يجد الهدهد بينها، فهو لم يعص نبي الله سليمان، وإنما اهتدى إلى سبب يكون مدعاة لنشر الهدى من الخليفة المكلف من الهادي المطلق حيث جاء ذلك في قوله تعالى: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[٢٩٥] فعندما تفقد جنوده من الطير لم يجد الهدهد، فتعجب من ذلك وقال: مالي لا أرى الهدهد، هل هو بيننا ولم يقع عليه نظري، أم هو غائب عنا وليس بيننا، فتوعده بأن به عذابا شديدا يردعه، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيما، إلا أن يأتي بحجة بيِّنة تُبرر غيابه وكان الهدهد قد مكث فى مكان غير بعيد زمانا يسيرا، ثم جاء إلى سليمان يقول له: قد أحطت علما بما لم يكن عندك علم به، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن بذلك، فعفا عنه ثم سأله عن ذلك الخبر الذي أحاط به، علما ومعرفة وحفظا من جميع جهاته، وذلك لأنه كان مما لم يشاهده سليمان عليه الصلاة والسلام ولم يسمع خبره من الجن والإنس، حتى اهتدى هذا الهدهد إليه وهدى نبي الله إلى ذلك، وهذا إشارة إلى سمة كرم الله ورحمته بأن يختص طائرا بعلم لم يعلمه نبي مرسل، وهذا لا يقدح فى حال النبي والرسول بأن لا يعلم علما غير نافع في النبوة فإن النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا العلم بخبر الهدهد وما جاء به أصبح نافعا بأن هدى أهل سبأ إلى الهادي المطلق الذي بينه لهم الهادي بالإضافة، لأن هذا الطائر أخبر أن هؤلاء يسلكون طريق الضلال والغي بتركهم الصراط الحق حيث قال تعالى: {إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فأنظر مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ

---

[٢٩٥] النمل ٢٠، ٢٢

إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}[٢٩٦] فأخبر أنه وجد فى أهل سبأ امرأة تحكم قوما بعيدين كل البعد عن الهدى، وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا، من النعيم والسلطان والقوة والمنعة، ولها سرير كبير يدل على عظمة ملكها وقوة سلطانها، فوجدتها هي وقومها في الغي والضلال يعبدون الشمس ولا يتبعون هدى الله، حيث حسَّن لهم الشيطان أعمالهم فظنوها حسنة وهي السوء، فصرفهم بذلك عن سبيل الحق فهم لا يهتدون، لأنهم لا يسجدون لله تعالى، الذي يخرج المخبوء فى السماوات والأرض ويهديه كيف يجب عليه أن يكون مثل هداية النبات في الاتجاه إلى الضوء وهداية المخلوقات المائية إلى طعامها وكل ما هو مخبوء حدد له الهادي طريق الرشاد ليهتدي إلى ما من شأنه منفعته ومنفعة الآخرين في عملية التكامل والتوازن بين مخلوقات الله تعالى، إذاً فهو يعلم ما تسرون وما تظهرون من الأعمال والنوايا وهو الذي يدعوكم إلى سواء السبيل ويهدي إلى الطريق المستقيم، وطالما أنه هو خالق الخلق فهو متكفل بهدايتهم، وعلى هذا لا تحق العبودية لغيره جل جلاله وهو صاحب السلطان المطلق العظيم على كل ما فى الوجود، لذلك أراد نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام أن يوصل الرسالة المكلف بها، وهو الخليفة والهادي بالإضافة إلى الهادي المطلق فكلف الهدهد أن يوصل بشائر الهدى عن طريق تحري الخبر، فبعثه بكتاب حتى يوصله إليها وإلى قومها ثم تنح عنهم متوارياً فى مكان قريب، لتنظر فيما يرجع به بعضهم إلى بعض ويرددونه من قول، فجمعت أشراف قومها وأصحاب الرأي والمشورة، وقالت: يا أيها الملأ إني قد وصل إليّ كتاب عظيم الشأن يدعو إلى الهدى. ثم تلت الكتاب عليهم قائلة: إنه من سليمان وإنه مفتتح باسم الله ذي الجلال والإنعام الذي يفيض برحمته دائما على خلقه ويدعوهم إلى الهدى فبما تأمرون، وكان أول المهتدين هي الملكة نفسها حيث عارضت قومها عندما فوّضوها في الأمر حيث قال تعالى: {قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ}[٢٩٧] فهم مطمئنون بأنهم أصحاب قوة بدنية وأهل

---

[٢٩٦] النمل ٢٣، ٣٠

[٢٩٧] النمل ٣٣

نجدة وشجاعة، لا يخافون حربا ولا يخشون عدوا، لذلك قالوا: انظري في الأمر الذي تأمريننا بـه فإنا مطيعون، ومن هداها ورشدها أدركت أن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعضهم، فلما أحست بلقيس منهم الميل إلى الحرب والعدول عن سنن الصواب بادعائهم القوة الذاتية والعرضية شرعت فى تزييف مقالتهم المنبئة عن الغفلة فكان من رشدها وعقلها وهداها أنها أجابت كما قال تعالى: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}[٢٩٨]. قالت متريثة مسالمة: إن الملوك إذا دخلوا مدينة عظيمة بجيوشهم أفسدوها، فأذهبوا عمرانها، وأبادوا الحرث والنسل، وأهلكوا أهلها، فكان الصواب منها أن تهتدي، وذلك باهتداء الهدهد الذي هو هدي مخصوص من الهادي عز وجل لبعض مخلوقاته لأمر يريد نفاذه.

ومن هدي الهادي المطلق هو الاهتداء إلى العلاقات الإنسانية فيما بين الناس مما شرعه الله لخلقه وهداهم إليه حيث يتجلى ذلك في أعظم صوره في الزواج والمحارم والمواريث والدين، فأما الصورة الأولى حيث نقف عليها في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[٢٩٩] يا أيها الناس هو خطاب شامل لكل البشر من الذكر والأنثى على اختلاف الألوان والأجناس والألسنة دون استثناء بأن يتقوا ربهم، والتقوى هي من دلائل الهداية، فمن اتقى فقد اهتدى، والاهتداء إليه عن طريق الأدلة التي تعيشونها وتمارسونها وتعرفونها بأنه هو الذي أوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها وهدى كل واحد منهما إلى الآخر، وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء يهدى منهم من يشاء لمن يشاء، وهذا الهدي هو هدي الزواج والمصاهرة ليبث من تلك النفس الواحدة شعوبا وقبائل، مع أنكم تنتهون إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلاة والسلام، واتقوا الله الذي تستعينون به فى كل ما تحتاجونه، ودعوة التقى هذه إنما هي دعوة إلى الهداية والصلاح،

---

٢٩٨ النمل ٣٤

٢٩٩ النساء ١

واتقوا أرحامكم فلا تقطعوها قريبة وبعيدة وإنما القريب منها يهدي إلى البعيد لكي تتواصلوا بالعطف والرفق والحنان والشفقة، وهي أيضا دعوة من الهادي لإقامة أفضل العلاقات الإنسانية حيث قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٠٠] وهي دلائل رحمة الله أن جعل بين الرجال والنساء من المودة والرحمة ما يهتدي كل منهما للآخر، فقد جعل بين الزوجين المودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان فهذا من هداية الله تعالى لخلقه فيما بينهم، ومن جانب آخر أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهداه إلى الطيب من العلاقات الإنسانية وبيّن أن خلق الإنسان لم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة في ذات الشخص، بل أبقى نوعه في أشخاص آخرين، وجعله بحيث يتوالد ويتكاثر، فإذا مات الأب يقوم الابن أو الأبناء مقامه لئلا يوجب فقد الواحد تهدم الكيان الأُسري، وهذا هدي معونة من الله تعالى في استكمال سنته في خلقه لاستمرار الحياة وإعمار الأرض وإصلاح النفس، وأم ما يخص علاقة السكن(لتسكنوا إليها) فالمقصود أن الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه إلا بهدي من الله تعالى فيما يخص العلاقات الإنسانية، وأما قضية السكن فمن القضايا التي تفضّل الله بها على عباده، وسكن الشخص إلى الآخر هو سكون القلب واطمئنانه وهذا نفسي معنوي، وأمّا سكن عنده، فهو سكون مجاورة بالمادة والمكان، وأما اهتداء المودة والرحمة، فلكل منهما شأن عظيم في هدي حامل هذه الخصال، ذلك أن الاهتداء إلى المودة هو دون سابق معرفة وهو بمعنى الألفة والتقارب اللطيف بين الجنسين للمحافظة على بقاء النوع، وأم الرحمة فهي دائمة مستمرة لمن عرفت وما لم تعرف، ويستوي في ذلك الصديق والعدو، وهذا لأن الإنسان يحب مثلا ولده، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع أو عطش أو ألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال عدوه، وهذا ليس من المودة في شيء، وإنما هو من هدي الرحمة وما

---

[٣٠٠] الروم ٢١

ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة، وأما ما يخص هدي العلاقات القائم على المودة بين الزوجين وذلك لكون الزوج من جنس زوجه وأحدهما أصل والآخر فرع عليه، وهذا ما يفضي إليه، فهو هدي الجنسية، وهو السكون إليه، فالجنسية توجب السكون، والمودة والرحمة في هذا النوع من العلاقات أن أحدهما يفضي إلى الآخر، فالمودة تكون أولا ثم إنها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها قائم بالرحمة، وأن هدي المودة بينهما آيات، فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة والتناسل، فإنها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهي من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة، لكثر الوقوع في الخلافات بسبب العقم المبطل للشهوة أو العقم المبطل للتناسل، ولو كان ذلك كذلك، لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق، فالرحمة هي التي يدفع بها الإنسان المكاره، وهدى الله الإنسان إليها لاستمرار الحياة ومن هذه الباب أيضا هداية التعرف على الآخرين فقد حض الله تعالى على هذا الجانب وأمر به في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٣٠١] إن الخلق من ذكر وأنثى متساوون لأنهم من أصل واحد هو آدم وحواء فصيرهم الله تعالى بالتكاثر جموعا عظيمة وقبائل متعددة، ليتم التعارف والتعاون فيما بينهم من المصاهرة والنسب، وإن أكرم خلق الله على الله هم المتقون، أي المهتدون إلى التقى وهذا هو عين الهدى فمن حكم عقله ونظره وبرهانه فقد أخذ بهدي الإقبال على ما أمر الهادي عز وجل به، لأن في التعارف تمكن مصالح الناس، ويسود بينهم السلام والمحبة والأمن، ويطمئن كل واحد إلى من يعرفه، وهذا نظير هدي الامتناع في الاطمئنان، فكما أمر الهادي جل جلاله بالإقبال على أمر يكمن فيها هدى الناس ورشادهم، كذلك وضح في هدي الاجتناب والامتناع ما فيه صلاحهم، ويتضح هدي الاجتناب في النهي عن الخمر والميسر والزنا وبعض أنواع الأطعمة وأنواع المحارم، فمن الأشياء ما لا يهتدي إليها الإنسان إلا بالتجريب، وبعض هذه الأشياء إذا دخلت مجال

---

[٣٠١] الحجرات ١٣

التجربة لحين حصول النتائج، يكون الإنسان قد أودى نفسه بالتهلكة قبل أن يعلم الضرر المترتب على ما أقدم عليه، لذلك كان هدي الهادي إلى هذه الأمور ومثيلاتها بالأسلوب المباشر عن طريق هدي المنع حيث قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ والمطيحة وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ}[٣٠٢] والهداية في هذه الآية على نوعين، الأول منهما هداية منع مادي لأنه يعود بالضرر أو التهلكة على من يقدم على هذه الممنوعات وهي هداية رحمة من الله، وهو ما دخل في باب الطعام مما ذكر في الآية الكريمة من تحريم الله تعالى أكل لحم الميتة وهي كل ما فارقته الروح من غير ذبح شرعي، وكذلك أكل الدم السائل ولحم الخنزير، وما ذكر اسم غير الله عليه عند ذبحه، وما مات خنقا أو التي ضربت حتى ماتت، وما سقط من علو فمات، وما مات بسبب نطح غيره له، وما مات بسبب أكل حيوان مفترس منه، وأما ما أدركتموه وفيه حياة مما يحل لكم أكله وذبحتموه فهو حلال لكم بالذبح، وهذا المنع ليس هدى من الله فحسب، وإنما هي هدية منه لعباده رحمة لهم، ذلك أن الحيوان الذي يموت بغير طريق الذبح إنما يبقى دمه في جسده، ومعروف أن الدم عند الميت سرعان ما تتكاثر فيه البكتريا والجراثيم مما يؤدي إلى التفسخ، أي انتشار هذه الجراثيم داخل الجسم، وأن أكل هذا الحيوان الذي لم يذبح سوف يؤدي إلى ضرر كبير ربما يودي إلى الهلاك، فمن هذا الجانب هدى الله عباده هدي تحريم ومنع رحمة بهم، وإذا قال قائل: فما بال المضطر قد رخص الله له أن يأكل الميتة، فنقول إن للمضطر شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن غير المضطرين، والمضطر أيضا هو المشرف على الهلاك من شدة الجوع، وجوعه هذا يمنحه وضعا فسيولوجياً يختلف تماما عن الإنسان الذي يشعر بالجوع لتأخر وجبة الغداء أو العشاء أو يوم بدون طعام، أما بالنسبة لميتة البحر فالأمر مختلف هنا حيث أحل أكلها، فقد ورد في الحديث أنه: "جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن

---

[٣٠٢] المائدة ٣

توضأنا به عطشنا أفنتوضأ به فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الطهور ماؤه الحل ميتته"[٣٠٣]، وقد بين الهادي جل جلاله هذه الأشياء لعباده بطريق هداية التوجيه والإرشاد لما فيه مصلحتهم ومنافع لهم من الخير ولدفع الضرر عنهم لذلك قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ}[٣٠٤] ومن هدي الامتناع والنهي والتحريم ما بينه الله تعالى لعباده من العلاقات فيما بين خلقه من صلة القرابة التي تتميز بنوعين:

الأول منهما المصاهرة والنسب.

والنوع الثاني هو صلة الرحم وما تعلق به من باب المحارم لشرط مانع، حيث هدى الله تعالى عباده إلى ما أمرهم به وإلى ما نهاهم عنه في هذا الجانب بقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آَبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِن لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٣٠٥]، وهذه الهداية في العلاقات إنما هي من أجل أن يترفع الله ببني البشر عن بقية المخلوقات الأخرى، وكون الإنسان خليفة فقد وجب عليه وهو المخلوق العقل أن يتميز بنفسه ويميز الآخرين بأنهم أحق خلق الله بخلافة الله في أرضه، لذلك فإن هدي العلاقات يقوم على المحافظة على كرامة الإنسان ومراعاة مشاعره وأحاسيسه وميوله ورغباته النفسية في الحب والكراهية والغيرة والأنفة وما إلى ذلك مما يعتري الإنسان من مشاعر اتجاه هذه العلاقات، لذلك فإن الهادي تعالى وضح هذا الجانب مراعاة لمشاعر الإنسان الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه، لذلك فصّل تعالى هداية النهي في العلاقات الإنسانية، وأول هذه الأمور أن لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من

---

[٣٠٣] موطأ مالك، ج ١ ، ص ٥٥

[٣٠٤] الأنبياء ١٥٧

[٣٠٥] النساء ٢٢، ٢٣

النساء، لأنه كان أمرا فاحش القبح، يمقته الله والناس، وهو أسوأ سبيل ومقصد، وأن الله يعفو عما قد سلف منكم فى زمن الجاهلية، وهذه حكمة إلهية أهديت لبني البشر، حيث أن هذا النوع من الزواج وإن كان قليلا ولكنه كان قائما في الجاهلية، وأقول أنها حكمة إلهية، وهدية من الله الهادي، لأنه لو كان رجل متزوج وله أولاد وماتت هذه الزوجة ثم تزوج بامرأة أخرى وأنجب منها ثم مات هو فيأتي أحد أبنائه من زوجته الأولى ويتزوج زوجة أبيه التي خلفها وراءه، فكيف يكون شعور أخوته الذي هو زوج لأمهم ولا نعلق على هذا ولكن نتركه لإحساس القارئ وشعوره وغيرته وهو البعيد عن الموضوع أي أن القضية لا تمس القارئ وأنا أقدر شعوره، فكيف بصاحب القضية، وأنكر من هذا وأشد وقعا ما كان يمارسه الفرس قبل الإسلام من زواجهم من بناتهم، حيث أن يزدجرد آخر ملوك الفرس هو ابنٌ لأختيه من أبيه وأبيها، أي أن كسرى أنوشروان تزوج ابنته بوران فأنجبت له يزدجرد، فهذا المولود أمه أخته وخاله أخوه وأبوه أبو أمه وزوجها ولك ما تشاء أن تذكر من اختلال النسب والقرابة والتوازن الأُسري، عندما تخرج العلاقات الإنسانية من إنسانيتها إلى الغريزة الحيوانية ومخلفة سنة الله في خلقه ومشيئته، لذلك كان هذا النوع من الهداية الربانية دليل استقامة وتوازن نفسي وعقلي لدى الإنسان، فذلك جاء هدى التوضيح والتفصيل في هذه الأمور حفاظا على الكرامة والمشاعر والأحاسيس الإنسانية، ولهذه الأشياء فقد حرَّم الله عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم، وكذلك المحرمات لغير النسب: أمهات الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات وبنات الزوجات من غير الأزواج إذا دخلتم بهن، وزوجات أبناء الصلب، والجمع بين الأختين، وما سلف في الجاهلية فإنه معفوٌّ عنه، قال تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ

الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٣٠٦].
إن الله غفور لما سلف قبل هذا النهج، رحيم بكم فيما شرع لكم وهداكم إليه وبينه لكم، وحرم عليكم كذلك نكاح المتزوجات من النساء عامة، حرائر وغير حرائر مؤمنات وكافرات، وأدخله بباب الزنا الذي يوجب الحدود، وهنا يتجلى دور الخليفة، وهو الهادي بالإضافة إذ أن كثيرا من الناس تتجاوز المحارم جهلا أو عمدا، وهو ما نقف عليه في زماننا هذا من أمور في هذه العلاقات ما أنزل الله بها من سلطان، فواجب الخليفة الهادي النصح والتوجيه والإرشاد وأن يبين للناس هدى الهادي الذي أمر به لما فيه صلاح البلاد والعباد.

ومن هذا القبيل في أنواع الهدى من الهادي المطلق جل جلاله، هو هداية الحقوق في الدين والمواريث وما إلى ذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد قسم لكل إنسان قسمه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية"[٣٠٧] فقد بين صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى هداهم إلى فضّ هذه الحقوق بينهم بهدايتهم إلى تقسيم المواريث بمعرفة نصيب كل وارث من الميراث في ما جاء من القرآن مفصلا وليس مجملا حيث قال تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فإن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فإن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فإن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٣٠٨] إذ أن الله سبحانه وتعالى لما يعلم من جبلة الإنسان وحبه للدنيا وإقباله عليها ورغبته في امتلاك الأموال وغيرها، وما حبب للإنسان منها حيث قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[٣٠٩] فذلك بين لهم بطريق الهداية المباشرة

---

[٣٠٦] النساء ٢٣.

[٣٠٧] سنن النسائي، ج ١١ ، ص ٤١٢

[٣٠٨] النساء ١١

[٣٠٩] آل عمران ١٤

بالنصوص حق كل إنسان في قضية الإرث، فهو يأمركم فى شأن توريث أولادكم وأبويكم بما يحقق العدل والإصلاح، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا كان الأولاد ذكوراً وإناثاً، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنتين فلهن الثلثان من التركة، وإن ترك بنتا واحدة فلها نصف ما ترك. وإن ترك أباً وأماً فلكل منهما السدس إن كان له ولد معهما_ ولد ذكر أو أنثى_ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فقط فلأمه الثلث والباقي للأب، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب ولا شيء للأخوة، وتُعْطَى هذه الأنصبة لمستحقيها بعد أداء ما يكون عليه من دين، وتنفيذ ما وصَّى به فى حدود ما أجازه الله في الوصية حتى لا يضر بالورثة. هذا حكم الله فهو عدل وحكمة وهداية، فالهادي عز وجل جعل أنواع الهداية كثيرة ومتنوعة، وجعل سبلها متعددة ليهدي الناس لما فيه خيرهم وصلاحهم، وليحافظوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم بما هداهم إليه أو بما أوجده لهم من أسباب الهداية وطرقها ووسائلها {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ}[٣١٠].

اللهم يا الهادي أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، اللهم إنك الهادي بالحق للحق أهدنا للحق بالحق واجعلنا من الراشدين، اللهم يا الهادي أهدنا في من هديت، وأهدنا يا هادي لنتعاون على محبتك ونهتدي بهداك ونستقيم لأمرك، وننتهي عما نهيت، نعدل ولا نظلم، نُصلح ولا نُفسد، نصدق ولا نكذب، اللهم يا الهادي أهدنا للعلم ولا تجعلنا من الجاهلين، وأهدنا للقسط ولا تجعلنا من المطففين، وأهدنا للصلاة والزكاة وحج بيتك المحرم واجعلنا في شهرك المكرم من الصائمين، اللهم يا الهادي اجعلنا من المتذكرين والمتفكرين ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم يا الهادي أهدي أبناءنا لما تحبه وترضاه واجعلنا لهم من الراعين وأجعلهم لنا في غير معصيتك من الطائعين وأرضى عنا وعنهم وارحمنا إنك أنت الرحمن الرحيم.

---

[٣١٠] الحشر ٢

البديع

البديع عز وجل هو الذي لا عهد بمثله فإن لم يكن بمثله عهد لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولا في كل أمر راجع إليه فهو البديع المطلق وإن كان شيئا من ذلك معهودا فليس ببديع مطلق ولا يليق هذا الاسم مطلقا إلا بالله سبحانه وتعالى فإنه ليس له قبل فيكون مثله معهودا قبله وكل موجود بعده فحاصل بإيجاده وهو غير مناسب لموجده فهو بديع أزلا وأبدا، وكل عبد اختص بخاصية في النبوة أو الولاية أو العلم لم يعهد مثلها إما في سائر الأوقات وإما في عصره فهو من وهب له البديع رسالة يختص بها ويخص بها آخرين أو يعمهم[٣١١].

البديع يقال أبدعت الشيء إبداعا إذا جئت به فردا لم يشاركك فيه غيرك وهذا بديع من فعل فلان أي مما يتفرد به وقال تعالى (بديع السماوات و الأرض) أراد به أنه المنفرد بخلق السماوات والأرض[٣١٢].

البَدِيعٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعل مثل قدير بمعنى قادر وهو صفة من صفات الله تعالى لأنه بدأَ الخلق على ما أَراد على غير مثال تقدّمه"[٣١٣].

---

[٣١١] الغزالي، المقصد الأسنى، ص ١٤٧.

[٣١٢] الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٦٤.

[٣١٣] لسان العرب ، ج ٨ ، ص ٦

البديع هو الذي يعود ما يوجد إليه دون سابق عليه في شيء، وهو الذي بأمره (كن) خلق ما خلق وهو الخلاق العليم.

البديع هو الذي يخلق الأشياء دون سابق على ما يخلق، فهو الذي إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، وهو القادر على ذلك دون نقصان.

البديع هو الخالق لجميع الموجودات دونه، يقول تعالى: {اللَّه خَالق كل شَيء وَهو عَلَى كل شَيء وكِيل}[٣١٤]. جاء قوله بالمطلق حين قال: (خَالق كل شَيء) أي لا يوجد شيء لم يكن من خلقه، ولهذا لا خالق غيره، وبما أنه الخلاَّق ولا خالق قبله ولا بعده، إذن هو البديع فيما خلق، وقال تعالى: {وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[٣١٥] هذه الآية وكأنها إجابة على السؤال: من الذي خلق السماوات والأرض؟ لتكون الإجابة: إنه البديع الذي أبدعهما من لا شيء، حتى أصبحت ذات مسمى (السماوات والأرض) ولها وظيفة في الوجود، الذي خلق فيه من هم يتفكرون في السماوات والأرض، وقال تعالى: {الرحمن علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان}[٣١٦] وقال تعالى: {اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}[٣١٧].

- فالله البديع يرينا في الآيات السابقة إبداعا في الخلق، و خلقا من إبداعه.

- ويطلب منّا التفكر في الإبداع من خلال تأمل الخلق.

- البديع أبدع لنا منهجا قرآنيا (علّم القرآن) للخليفة في الأرض (خلق الإنسان) ليخلفه بمنهج سديد وبيان أكيد.

- معالم الوصول للمنهج (اقرأ)، والفهم والإبداع من الرب الأكرم (وربك الأكرم) الذي خلق أداة العلم وعلم بها (الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم).

---

[٣١٤] الزمر، ٦٢

[٣١٥] آل عمران، ١٩١

[٣١٦] الرحمن، ٣

[٣١٧] العلق، ٣.

وهذا مدخلنا في الغوص في أنوار الإبداع الإلهي، فالله أبدع كل شيء ابتداء، وخلق كل شيء من لاشيء، أو بالأحرى واجد كل شيء من لا شيء وهذا الإيجاد من اللاشيء هو الإبداع في أرقى تجليه، وبهذا تختلف رؤيتنا لمعنى البديع عن السابقين الذين خاضوا غمار البحث في الأسماء الحسان، معولين على إنه الخلق من غير مثال، فهم قالوا: (البديع في أسماء اللّه تعالى هو الخالق المختَرِع لا عن مِثال سابق)[٣١٨] فالخلق على غير مثال ينطوي تحت الصنع لا الخلق الذي هو صفة من صفات الله التي تنطوي تحت الإبداع، والعلاقة بين الخلق والإبداع علاقة دقيقة رقيقة لا يقع على لبها ولا يسبر أغوارها ولا يكشف أسرارها إلا المتأملون المتعمقون في جميل المباني للوصول إلى رقائق المعاني، فالكل بلا أدنى شك يعرفون ويعترفون بأن الخالق هو الله وأن الخلق كله لله سبحانه وتعالى لا شريك له فيه حيث قال الله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عليم بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٣١٩]، فالآية متعلقة بقضية الخلق لأنه تعالى لما استدل بخلق السماوات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بيَّن أن الكل معترفون بذلك غير منكرين لخلقه للكون وما ومن فيه وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله، لأن الله الواجد الخالق البديع للسموات والأرض الذي يحتاج إليه كل من في السماوات والأرض، وهو الغني عنهم، ولا يحتاج إليهم، ولذلك فالحمد كله له وحده لا شريك لأحد فيه، وهذا يقتضي أن لا يعبد خلقه غيره، لكن بعضهم ضلوا وعبدوا من دونه من لا يستحق العبادة ممن هم في الأصل خلق من خلق الله وكأنهم لا يعلمون أن الخلق له خالق واحد وهذا الخلق إبداعي لا مثيل له ولا معين لصاحبه عليه لأنه البديع بالإرادة دون الحاجة للاشيء أو الشيء الذي هو في مفهومنا ما قبل المادة ثم المادة، ولأنه البديع فلا يحتاج إلى المادة التي يخلق منها لأنه

---

٣١٨ النهاية في غريب الأثر ، ج ١ ، ص ٢٦٧

٣١٩ ، لقمان ، ٢٥، ٢٣

يملك الإرادة وإرادته في علمه وعلمه أصل في ذاته لذا فلا بديع سواه ولا خالق بإبداع إلا إياه سبحانه جل جلاله.

والله تعالى لما طمأن النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (فَلاَ يَحْزُنكَ كُفْرُهُم إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم) فالمعنى لا تحزن يا حبيبي على تكذيبهم فإن صدقك واضح وكذبهم بيّن، وهذا الصدق الذي أنت عليه، والكذب الذي هم عليه سيظهر عند رجوعهم إلينا للحساب، والذي يظهر من كذبهم قبل رجوعهم للحساب يوم القيامة من اعترافهم بأن خلق السماوات والأرض لله، وهذا يصدق حقيقة الإسلام التي تؤكد أن للكون خالق واحد ومبدع واحد، ويبين كذبهم على الله في الإشراك به لذا يقول الله للنبي صلى الله عليه وسلم فقل (الحمد لله) على ظهور صدقك وكذب مكذبيك (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ) فلا يوجد علم يمنعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يؤكد صدقك فهم لا يعلمون وليس لهم أدنى علم على أن البديع هو الله والخالق هو الله والواجد هو الله ولا يعلمون أن الحمد كله لله.

وعليه فالبديع هو الواجد من اللاشيء شيء للخلق، وكل خلقه إبداع لاعن مثال لأن المثال في الأصل من إبداعه، وإبداعه متجدد لأن إبداعه من نعمه ونعمه غير منتهية، ويا لجمال المنطق القرآني في سياق الآيات فإن الله قد أعقب الآية التي تشير إلى الإبداع الإلهي المطلق بقوله تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[٣٢٠]، وعندما قال الله سبحانه وتعالى: (لِلَّهِ مَا في السماوات والأرض) لا يدل ذلك بالقطع على أن ملك الله محصور في السماوات والأرض، فملك الله أوسع من أن يحد أو يعد في السماوات وفي الأرض ومن فيهما، لذا قال سبحانه وتعالى: (وَلَوْ أَنَّ مَّا في الأرض مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ) فلو أن أشجار الأرض التي نعلمها صارت أقلاما للكتابة يكتب بها والأبحر

---

[٣٢٠] لقمان٢٥، ٢٦

التي نعلمها ولا نعلمها مداد لا تفنى بدائع صنع الله، وإبداعه في خلقه الذين نعلمهم لا ينتهي فكيف الحال في الخلق الذين لا نعلمهم؟!!

وذلك فإن إبداع الله في كلماته، وكلماته لا نهاية لها، فالكلمة عنده جل وعلا نعمة لمن أراد أن ينعم عليه ونقمة لمن أراد أن تحل عليه النقمة وهذا في حد ذاته إبداع، فإبداعه في قوله وقوله في كلمته كن، وكن كلمة واحدة فيها القدرة المطلقة والإبداع المطلق ومن إبداعه في الخلق أن خلق (المسيح ابن مريم) دون أب وسماه كلمة لأنه كان أمراً عجيباً وصنعاً غريباً وخلقا بديعا لوجوده من غير أب، قال الله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[٣٢١].

فالمغالاة في الدين دفعت البعض من أهل الكتاب إلى الافتراء على الله البديع بقولهم إن المسيح ابن الله أو هو الله متجسد في صورة المسيح، وأن الله ثالث ثلاثة تعالى الله على ذلك الإفك علواً كبيرا، فهو يحذرهم من هذا القول الكاذب فالله واحد أحد ليس له والد أو ولد أو زوجة لأنه الغني بذاته عن ذلك وهو الغني الحميد وهو واجد الخلق بديع السماوات والأرض وكل من في الأرض عباد لله طوعا وكرها، والمسيح وأمه من خلقه وإبداعه فأمه بالخلق، وعيسى بالإبداع بالكلمة التي لا يملكها إلا الله ومن أنعم عليهم من عباده بحدود وبمقدار لا على وجه الإطلاق.

فالقول لمن شابه النصارى في الرأي: يا أهل الكتاب من النصارى لا تغلوا في دينكم ولا تفرطوا في تعظيم المسيح، وهذا هو الغلو في الدين اعتقادا منكم أن ذلك قد يرضي المسيح وهو عبد الله وإبداعٌ من إبداعه، إبداعٌ بالكلمة التي هي مظهر من مظاهر القدرة المطلقة التي لا يملكها إلا البديع المطلق، فعيسى عليه الصلاة والسلام إبداع قبل أن يكون خلق من

---

[٣٢١] النساء، ١٧١

خلق الله وهو كآدم عليه الصلاة والسلام إبداع قبل أن يكون خلق، {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[٣٢٢]؛ لذا يؤكد الله للنصارى الذين يبالغون في تعظيم المسيح عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: (لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ) وقوله: (وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى الله إِلاَّ الحق) فلا تصفوا الله بالحلول والاتحاد في بدن الإنسان أو روحه، ونزهوه عن هذه الأحوال. ولكن الغلو أعماهم عن معنى من معاني الإبداع الرباني في عيسى عليه الصلاة والسلام، فأرشدهم الله إلى طريق الحق، وأخبرهم في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وعبده.

وأما قوله (وَكَلِمَتُهُ أَلقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ).

فالكلمة: هي الإبداع الذي لا يملكه إلا الله البديع: فقد قال الله تعالى: {إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسمهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخرةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ}[٣٢٣] فقوله تعالى: (بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ) يدل على أن كل إبداع إلهي هو مخلوق بواسطة الكلمة وهي قوله: (كُنْ) وكن حرفان مشتملان على القدرة الألوهية التي لا تحتاج إلى سبب من الأسباب المتعارف عليها، لذا فقد كان السبب مفقوداً في حق سيدنا عيسى عليه الصلاة السلام وهو عدم وجود الأب الذي هو السبب في حمل الأم، وعدم وجود السبب لا يمنع قدرة الله من الإيجاد والإبداع لأنه الواجد للسبب ولغير السبب، فهنا كانت الإحالة للقدرة الإبداعية إلى الكلمة، وفي هذه الحالة الإبداعية كان عيسى عليه الصلاة والسلام مظهر من مظاهر الكلمة، لذا فقد أطلق الله عليه الكلمة وهو أحد مظاهرها ولا غرابة في ذلك فإن اللغة تبيح تلك الإحالة فيطلق على الإنسان الكريم (الكرم) وعلى العادل (العدل) لأنه سبب ظهور العدل، ولنتذكر قول الخنساء ترثي أخاها صخراً وتصفه بالندى (الجود) و (الكرم) وأنه صاحب (المجد):

---

[٣٢٢] آل عمران ٥٩، ٦٠.

[٣٢٣] آل عمران ٤٥، ٤٦

أعيني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى
ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
طويل النجاد رفيع العما د ساد عشيرته أمردا
إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
فنال الذي فوق لأيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
يحمله القوم ما عالهم وإن كان أصغرهم مولدا
ترى المجد يهوي إلى بيته يرى أفضل المجد أن يحمدا
وإن ذكر المجد ألفيته تأزر بالمجد ثم ارتدى[٣٢٤].

فلأن صخرا كان مظهرا من مظاهر الجود والكرم والمجد فقد أطلقت عليه الخنساء أنه الندى والمجد، فكذلك كان عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام سبباً وآية فأظهر الله على يديه من الخوارق التي تؤهله ليطلق عليه كلمة الله والتي هو نفسه من مظاهرها.

وإبداع الله لعيسى عليه الصلاة والسلام من غير نطفة الأب ممكن لأن تركيب الأجسام وتخليقها وإيجاد الحياة والفهم والنطق فيها أمر ممكن، ولنتذكر ما قلناه في الاسم البر بإيجاده سبحانه للنوع الإنساني في عالم الذر و كيف كانوا يسمعون وينطقون ويفهمون ويعقلون، ولهذا فالله البديع الخالق القادر قادر على الممكنات بأسرها وكذلك غير الممكنات التي توجد إبداعا على غير مثال وبلا سبب، لهذا كان سبحانه وتعالى قادراً على إيجاد عيسى إبداعا لا من نطفة الأب، وهذا ثابت لأنه في الإمكان الإلهي، مع كونه غير ثابت في الإمكان البشري، وعليه فلا يجب قياس النسبي الإنساني بالمطلق الإلهي، وهذا النمط من الخلق فيه مظهر من مظاهر الإبداع والإعجاز للنسبي الإنساني، وهذا يؤكد أن الله واحد أحد لا معبود بحق إلا هو.

---

[٣٢٤] الأغاني ، ج ٤ ، ص ١٥٧

سبحانه الذي أوجد بالكلمة، وكان أمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عيسى عِندَ الله كَمَثَلِ آدم خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ}[٣٢٥].

ووصف المسيح بالروح (وروح منه) فذلك لطهارته ولأنه لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام من خلال الإرادة الإبداعية الربانية، و(مِنْه) تفيد التشريف والتفضيل كما نقول: (نعمة من الله)، بمعنى أن تلك النعمة كاملة ومن هنا فلا داع للمغالاة من قبل بعض أهل الكتاب في المسيح لأنه إبداع من إبداع الله، وقد تعني (روح) رحمة، بمعنى: رحمة منه كما في قوله تعالى: {وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ}[٣٢٦]، قوّاهم ببرهان منه ونور وهدى[٣٢٧] وهذا يتفق مع قول النبي عليه الصلاة والسلام: "يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداة"[٣٢٨].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ:"بُعِثْتُ رَحْمَةً مُهْدَاةً"[٣٢٩] لذا (فروح منه) مع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام بمعنى رحمة من الله إلى الخلق من حيث كونه يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم ومن هنا فلا مانع من تسميته روحاً منه.

وقد يتساءل القارئ: لماذا الإلحاح على الربط بين البديع وبين الخلاق حول المسيح عليه الصلاة والسلام؟

والإجابة على هذا التساؤل تكمن في التمعن في الآيتين اللتين ورد فيهما الاسم (البديع) وهما:

---

[٣٢٥] آل عمران ، ٥٩

[٣٢٦] المجادلة ، ٢٢

[٣٢٧] تفسير الطبري ، ج ٢٣ ، ص ٢٥٨.

[٣٢٨] المستدرك على الصحيحين للحاكم ، ج ١ ، ص ١٠٣

[٣٢٩] المعجم الكبير للطبراني ، ج ١٨ ، ص ٤٩٧

١- {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عليم وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٣٣٠]

٢- {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم}[٣٣١]

والآيتان تناقشان قضية التوحيد وتركزان على أن الله الواحد مالك الملك المطلق.

ومن له ملك الجهات المعلومة وغير المعلومة له أيضا الحكم فيها وله وحده الحق في أن يتوجه إليه الخلق في هذه الجهات بتخصيصه بالعبادة، إلا أنه قد افترى عليه بعض الضالين المضلين فنسبوا ملكه لغيره ، وقالوا عليه كذبا وزورا: (اتخذ الله ولدا) وهو المنزه عن ذلك وينزه الله سبحانه وتعالى نفسَه في خطابه للنبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول ويقول معه كل من كان على طريق الحق في الاستخلاف والإعمار والإصلاح: {سبحانه} هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، ولهذا قد أنزل الله سورة عظيمة في الفرقان العظيم الذي يفرق بين الحق والباطل، فقال لنبي الحق نبي التوحيد ولأمة الإصلاح والتعمير: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ   اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٣٣٢] فله ملك السماء والأرض لأنه البديع المنشئ وليس له حاجة لزوجة أو ولد لأن الحاجة منتفية البتة في صفات الله فهو الله الذي أنشأ السماوات والأرض على غير مثال سبق فكيف يكون له ولد؟ كما يزعم هؤلاء الكاذبون الضالون بأن له زوجة وولد، وقد أنشأ وأبدع وخلق جميع الأشياء وفيها هؤلاء الذين اتخذوهم شركاء، وهو الله العالم بكل شيء يحصي عليهم ما يقولون وما يفعلون، وسيحاسبهم على قولهم وفعلهم.

---

[٣٣٠] البقرة١١٥، ١١٧

[٣٣١] الأنعام، ١٠٠ ، ١٠١

[٣٣٢] الإخلاص، ١، ٤

وهو الله البديع المتصف بصفات الكمال فلا رب غيره، ولا إله سواه، بديع كل شيء مما كان وما سيكون فهو المستحق للعبادة دون شرك.

فبالله كيف تجرأتم على هذا الكذب؟ هل أبصرتم الله؟ فتقولوا له زوجة من جنسكم أنتم وهو الغني عنكم وعن جنسكم.

وهو الذي لا تبصره العيون، وهو العليم بدقائق العيون المبصرة والقلوب البصيرة وهو العليم المحيط فلا يغيب عنه شيء، وهو الخبير الرقيب فلا يخفى عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو الله البديع للظاهر المشاهد والباطن الغائب.

والنبي صلى الله عليه وسلم، ومن سار على نهجه في خلافة الأرض يتبعون أصدق القول– قول الله– ويعلمون أنه الله وحده البديع للسموات والأرض ومن فيهما، فيا أيها المغتر بالأوهام، الملتحف بالأكاذيب، المتوسد بالباطل، اعلم أن الله هو البديع الذي أبدعك من لا شيء، وهو مالك أمرك، ومدبر شئونك، الغني عنك وعن سواك، واعلم إنه سبحانه الإله المستحق للطاعة والخضوع، فالتزم طاعته، فهو (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم).

والله عندما يدحض آراء الضالين ممن قالوا بأنه له ولد – تعالى الله على ذلك علوا كبيرا– قال لهم كيف يكون له ولد وهو البديع، وضرب مثلا بسيطا بأن له ملك السماوات والأرض وملكه أوسع من أن يحاط بكلمات، (إن السماوات السبع والأرضين السبع وما فيهما وما بينهما بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض)[٣٣٣]. فكيف ببقية ملكه، ومن المعلوم صغر الأرض في المجموعة الشمسية فما بالنا وهي الصغيرة في ملكه فماذا يكون حجم الإنسان الذي يفتري الكذب على الله سبحانه وتعالى بأن له ولد، وهو الصغير في الصغير، وأقل المخلوقات هي الأرض وما عليها – بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السماوات – فإن نظرت –أيها المفتري على الله الكذب –فيها من حيث الحجم فحجم الشمس على ما يظهر

---

[٣٣٣] نظم المتناثر ، ج ١ ، ص ٢١٩

من صغر حجمها هي مثل عشرات المرات من الأرض، فالأرض صغيرة بالإضافة إليها، والشمس صغيرة بالإضافة إلى فلكها الذي تدور فيه، فإنه لا نسبة لها إليه، وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السماوات السبع، ثم السماوات في الكرسي كحلقة في فلاة، والكرسي في العرش كذلك، وما أحقر الأرض كلها بالإضافة إليها! بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار! قال صلى الله عليه وسلم: "عن أبي ذر الغفاري، قال: دخلت المسجد الحرام، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فجلست إليه، فقلت: يا رسول الله أي آية نزلت عليك أفضل؟ قال: « آية الكرسي ، وما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة"[٣٣٤] ومصداق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة، وعلم أن المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض، وهي بالنسبة للماء بنسبه (٢٩% إلى ٧١%) والإنسان المخلوق من التراب _الذي هو جزء من الأرض_ بالله ماذا يمثل في الأرض حتى يفتري على الله البديع فيقول له ولد (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ) نعوذ بالله من بدعتهم الضالة ومن كذبهم المشين (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ)، والله يرد على افترائهم بقوله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم}[٣٣٥] فهو الذي أبدع السماوات والأرض وهو الذي يعلم إنكم كاذبون في الافتراء عليه وهو الذي خلق كل شيء، فهل من الغريب أن يخلق عيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب؟.

نعم غريب عليكم أنتم أيها المكذبون ولكن ليس بغريب على البديع لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء لأنه على كل شيء قدير، ولذا فقد أرسل الله لهم نور الهدى والصراط المستقيم والنهج الصحيح الذي قال جلت قدرته في محكم آياته: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ

[٣٣٤] الإبانة الكبرى لابن بطة ، ج ٦ ، ص ١٦٥

[٣٣٥] الأنعام ١٠١.

وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٣٣٦]، فيقول الله تعالى: (لَّقَدْ كَفَرَ الذين قَالُواْ إِنَّ الله هُوَ المسيح ابن مَرْيَمَ) ومنهم من يدعي أن المسيح ليس هو الله ولكن حلت فيه روح الله وإن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين، أو في روحه وإن جماعات من النصارى ذهبوا إلى هذا القول، بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون: أن أقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام ، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة ، فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى فيكون عيسى هو الإله على هذا القول. وإن قال منهم لا بل حلت فيه صفة الله من العلم الشامل والقدرة المطلقة لأن الأقنوم عبارة عن الصفة، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول لخلو الأول منها وهذا يستحيل في حق الذات الألوهية، ثم بتقدير انتقال أقنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات الله عن العلم حاشا لله وتعالى عن قولهم، لأن القاعدة البسيطة والتي تعد من البديهيات تقول: (من يكن جاهلا فهو ليس بعالم).

وعليه فلا يمكن تقبل الجهل في الإله المعبود، فحينئذ يكون الإله هو عيسى على قولهم لأنه قد تحل بصفات الألوهية وهي بذلك نفيت عن الإله الأوحد فيثبت أن المبتدعين من النصارى وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول إلاّ أن اعتقادهم ليس إلاّ ذلك، ثم إنه سبحانه وضّح فساد هذا الافتراء في الدين بقوله: {قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ الله شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ المسيح ابن مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن في الأرض جَمِيعاً}[٣٣٧]، وهذه جملة شرطية قدم فيها الجزاء على الشرط، بمعنى إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً، فمن الذي يقدر على أن يدفعه عن إرادته، ومن يملك من أفعال الله شيئاً، ولديه القدرة المطلقة، ومن الذي يقدر على دفع

---

[٣٣٦] المائدة ١٥، ١٧

[٣٣٧] المائدة ١٧.

شيء من أفعال الله تعالى ومنع شيء من مراده. وعيسى عليه الصلاة والسلام مشابه لمن في الأرض في الصورة والخلقة والجسمية والتركيب وتغيير الصفات والأحوال، فبهذا يجب التسليم بكونه تعالى خالقاً للكل مدبراً للكل، و خالقاً لعيسى عليه الصلاة والسلام لأنه بديع السماوات والأرض، (وَلِلَّهِ مُلْكُ السماوات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا) وهو سبحانه: (يَخْلُقُ مَا يَشَاء والله على كُلّ شيء قَدِيرٌ) فيخلق ما يشاء كما يشاء فمرة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، والأخرى يخلق لا من الأب والأم كما في خلق آدم عليه الصلاة والسلام، و يخلق من الأم لا من الأب كما في حق عيسى عليه الصلاة والسلام، ويخلق ما يشاء، فيعطي سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام تقدير صورة الطير من الطين والله تعالى يخلق فيه اللحم والدورة الدموية ويهبه الحياة بانبعاث الروح فيه، والقدرة على التصوير معجزة لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، ويعطيه القدرة ليحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص معجزة له من عند الله لا امتلاكا لهذه الصفة حلولا واتحاداً، ولا اعتراضاً على الله تعالى في شيء من أفعاله، فيهب من القدرات ما يشاء لمن يشاء.

ولهذا ليس بغريب على المؤمنين به وموحديه أن تكون عقيدتهم إن الله جلت قدرته بديع لعيسى عليه الصلاة والسلام من غير أب، وليس بغريب على من يريد تحقيق الخلافة في ملك الله ويبدع فيها لمصلحة خلق الله، ويكون خلاقا في الأرض ليستخرج خيرها ولا يفسد فيها ببدعة سوء سواء أكانت بدعة قولية أم فعلية، والخليفة المتخلق بالاسم البديع يصلح الأرض بإبداع الجديد المفيد وهذا تخلقا بصفة البديع المطلق فيصبح بديعا بالإضافة.

والبديع المطلق هو الذي لا مثيل له، وهو المنشئ المبدئ لكل شيء على غير مثال، وهو الواحد الأحد المستحق للعبادة، وهو الواحد الذي يستحيل في حقه الوَلَدُ لأن ذلك تبعيض وتجزيء، وهذه ليست من صفات الله تعالى.

والبديع بالإضافة هو الذي يقبل أن يكون له مثيل إذا سار على المنهج الصحيح وهو المنشئ للجديد بالاستفادة من خلق الله وإبداعه في الأرض، وهو الواحد القابل للكثرة لأنه بإبداع

المجموعة تتحقق الخلافة الجماعية فتكون الخلافة خلافة أمة لا خلافة فرد مع جواز أن يكون الفرد محفز للجماعة بريادته وقيادته لها، وهو الموحد لله الذي لا يرى أن الله قد اتخذ صاحبة ولا ولداً لأن هذا ينتفي في حقه تعالى.

وعشاق الفساد ومخربو العمار الروحي ومفسدو الإصلاح الجمعي وحملة راية الظلام (جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) وهو سبحانه وتعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم).

يخبر الله تعالى أنه مع إحسانه لعباده وتودده إليهم، بآياته البينة، وحججه الواضحة فإن المشركين به بدءا من مشركي قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء من الجن والملائكة يدعونهم ويعبدونهم، والجن والملائكة خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوهم شركاء، لله الخالق الآمر الناهي، وهو المنعم المتفضل بجميع أنواع النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك خرق المشركون فكذبوا وافتروا على لله، بأن له بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه النقص، والله منزه عن قولهم. ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ) فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص، فهو (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ) خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الألباب مثله، وليس له في خلقهما مشارك. (أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ): كيف يكون لله الولد، وهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لا صاحبة ولا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلهم في حاجة إليه في جميع أحوالهم، والولد لا بد أن يكون من جنس والده؛ والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابها لله بوجه من الوجوه.

والبديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل، وعند أهل الإشارة الذي ليس له شيء مِثْله. فهذا الاسم يشير إلى نفي المثل عن ذاته، ونفي المثال عن أفعاله، فهو الأحد الذي لا عدد

يجمعه، إنه الله الدائم جل جلاله، وهو العدل الذي جعل الصراط المستقيم معيارا للتقويم، والحق الذي لا يزول، والباقي الذي لا يتغير، حكمه نافد ولا مرد له سبحانه جل جلاله.

و(بَدِيعُ السماوات والأرض) أي مبدعهما، والإبداع اختراع الشيء لا عن مادة ولا في زمان، ويستعمل ذلك في إيجاده تعالى للمبادئ، وهو غير الصنع إذ هو تركيب الصورة بالعنصر؛ ويستعمل في إيجاد الأجسام، وغير التكوين فإنه ما يكون بتغير وفي زمان غالباً، وإذا أريد من السماوات والأرض جميع ما سواه تعالى من المبدعات والمصنوعات والمكونات لاحتوائها على عالم الملك والملكوت فبعد اعتبار التغليب يصح إطلاق كل من الثلاثة إلا أن لفظ الإبداع أنسب لأنه يدل على كمال قدرته تعالى، والقول بتعين حمل الإبداع على التكوين من مادة أو أجزاء لأن إيجاد السماوات من شيء كما يشير إليه قوله تعالى: {ثُمَّ استوى إِلَى السماء وَهِيَ دُخَانٌ}[٣٣٨] ناشئ والآية حجة أنه تعالى مبدع لكل ما سواه فاعل على الإطلاق، ولا شيء من الوالد كذلك ضرورة انفعاله بانفصال مادة الولد عنه فالله تعالى ليس بوالد[٣٣٩].

قال الشاطبي: أصل مادة (بدع) الاختراع على غير مثال سابق ومنه قول اللّه تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}[٣٤٠]، أي أنه بديع الشيء وخالق الأشياء منه.

ونحن نقول: الإبداع شيء والاختراع شيء آخر ولنوضح ذلك:

الإبداع إيجاد دون سابق، دون محاولة للخطأ والصواب، إنه الخلق السليم بالكامل.

والاختراع، لا يحدث إلا بتصور مسبق، مع احتمال الوقوع في الخطأ، وهذه لا تكون من صفة المبدع المطلق جل جلاله.

---

[٣٣٨] فصلت ، ١١

[٣٣٩] تفسير الألوسي ، ج ١ ، ص ٤٨٢

[٣٤٠] البقرة ، ١١٧

وعليه فالمبدع بالمطلق هو الله، وهذه الصفة لا مشاركة فيها، إما الاختراع (صفة) قد تسري على ما يجده المخلوق من مصنوع على مثال، ولهذا الإبداع يوجد من غير مثال، والمخترع لا يكون إلا على مثال.

والخليفة هو الذي يبدع في استيعاب ما أبدعه الله يقينا لا شك فيه، مع إدراكه مسلمات وحجة مطلقة بأنه الحق. والمبدع بالإضافة هو الذي يعلم أن ما يجده من جديد هو إضافة من مبدع بالمطلق. ولهذا فالمبدع بالإضافة هو من يدرك ما أبدعه الله ويقف دونه، تأملا واستقراء واستنباطا حتى يدرك اليقين من ورائه من خلال إدراكه للكيفية التي عليها خلق وبهذا يتمكن عقله من الإدراك الذي يمده بروح الإبداع في تقوى الله فيتمكن من أدراك المجرد الذي يكمن ورأي كل علة أو سبب حتى يضيف الجديد المفيد والنافع الذي يسهم في إصلاح الأرض وإعمارها.

إذاً نقول: الإبداع إيجاد عن غير مِثَالٍ سابق، والبديع هو مبدع الموجوداتِ بلا مَادةٍ فهو واجدها ومخرجها بالهيئة التي تكون عليها هي كما هي.

وخليفة البديع المطلق هو الذي يبدع الحلول لمصلحة الجماعة الإنسانية لتوفير سبل الراحة لتعمير الأرض لا لإفسادها، وهنا من حق المتشدد أن يقول لنا إن البدعة من الإبداع والإبداع ضلالة والضلالة في النار، وقبل أن نرد عليه نطلب منه قليل من الصبر حتى تتضح لنا ما معالم البدعة الضالة المضلة؟ التي تهوي بصاحبها إلى النار، ولنرى الإبداع المفيد النافع الذي يرقى بصاحبه وبجماعته إلى أعلى رتب السعادة في الدنيا وأعلى الجنان في الآخرة فينال خير كل الخير.

البدعة:

البدعة مأخوذة من بدع الشيء يبدعه بدعا وابتدعه أنشأه وبدأه، وهي عمل ما ليس بمألوف، وقد تكون خروج عن مألوف أو متعارف عليه، وهذه البدعة قد تواجهها المعارضة وقد يواجهها التأييد كل حسب استدلالاته عليها.

"فعَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ خَرَجْتُ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي رَمَضَانَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَإِذَا النَّاسُ أَوْزَاعٌ مُتَفَرِّقُونَ يُصَلِّي الرَّجُلُ لِنَفْسِهِ وَيُصَلِّي الرَّجُلُ فَيُصَلِّي بِصَلَاتِهِ الرَّهْطُ فَقَالَ عُمَرُ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرَانِي لَوْ جَمَعْتُ هَؤُلَاءِ عَلَى قَارِئٍ وَاحِدٍ لَكَانَ أَمْثَلَ فَجَمَعَهُمْ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُ لَيْلَةً أخرى وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلَاةِ قَارِئِهِمْ فَقَالَ عُمَرُ نِعْمَتِ الْبِدْعَةُ هَذِهِ وَالَّتِي تَنَامُونَ عَنْهَا أَفْضَلُ مِنْ الَّتِي تَقُومُونَ يَعْنِي آخر اللَّيْلِ وَكَانَ النَّاسُ يَقُومُونَ أَوَّلَهُ"[٣٤١].

والبدعة بِدْعَتَان: (بدعة هُدًى)..........(وبدعة ضلال):

فما كان في خلاف ما أمَر اللّه به ورسوله صلى اللّه عليه وسلم فهو في حَيِّز الذم والإنكار، وما كان واقعا تحت عُموم ما نَدب اللّه إليه وحَضَّ عليه اللّه أو رسوله فهو في حيز المدح وما لم يكن له مثال موجود كنَوْع من الجُود والسخاء وفعْل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما وَردَ الشرع به لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم قد جَعل له في ذلك ثوابا فقال: "(من سَنّ سُنة حسَنة كان له أجْرها وأجرُ من عَمِل بها) وقال في ضِدّه: (ومن سنّ سُنة سيّئة كان عليه وزْرُها وَوِزْرُ من عَمِل بها)، والحديث كما ورد في الصحيح: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: "مَنْ سَنَّ سُنَّةَ خَيْرٍ فَاتُّبِعَ عليها فَلَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ شَرٍّ فَاتُّبِعَ عليها كَانَ عليه وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا".[٣٤٢] وذلك إذا كان في خلاف ما أمر اللّه به ورسوله صلى اللّه عليه وسلم، ومن هذا النوع قولُ عمر رضي اللّه عنه: نِعْمَت البدعة هذه. لمَّا كانت من أفعال الخير وداخلة في حيز المدح سماها بدعة ومدَحها لأن النبي صلى اللّه عليه وسلم لم يَسَنَّها لهم وإنما صلاّها لَيالِيَ ثم تَركَها ولم يحافظ عليها ولا جَمع الناسَ لها ولا كانت في زمن أبي بكر وإنما عمر رضي اللّه عنه جمع الناس عليها ونَدَبهم إليها فبهذا سمّاها بدعة وهي على الحقيقة سُنَّة لقوله صلى اللّه عليه وسلم: عَنْ

[٣٤١] موطأ مالك ، ج ١ ، ص ٣٤٠

[٣٤٢] سنن الترمذي ، ج ٩ ، ص ٢٨٥

الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: "وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعليه بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ"[٣٤٣].

وعَلَى هذا فيُحمل الحديث (كل مُحْدَثة بدعةٌ) إنما يريد ما خالف أصول الشريعة، وأكثر ما يُستعمل المبْتدَع عُرفا في الذمّ والبِدْعةُ الحَدَث وما ابْتُدِعَ من الدِّينِ بعد الإكمال.

فالمبتَدِع الذي يأْتي أَمْراً على شبه لم يكن ابتدأه سابقه، و بِدْعٍ في هذا الأَمر كان الأَوّل فيه ولم يَسْبِقْه فيه أَحد.

وعليه فالخليفة هو مبدع أعمال الخير وأفعاله، وهو المجتهد في غير معصية، وهو المضيف لما يحقق موجبات ويترتب عليه حسنات، ويلاقي قبولا من الآخرين، وبه يتم العمار والإصلاح في الأرض.

وعليه فالبديع هو ما أحدث واخترع، وإن كان نافعا ومفيداً فهو ممدوح وإن كان غير ذلك فهو مذموم.

قال تعالى: {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ}[٣٤٤] أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من اللّه إلى العباد بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلأن بدعة يعني ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، وهذا الأمر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.

ومن البدع، البدعة في القول:

---

[٣٤٣] سنن الترمذي ، ج ٩ ، ص ٢٨٧

[٣٤٤] الأحقاف ، ٩

هذا هو النوع من البدعة من بدع اليهود والنصارى والمشركين هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزيز ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله فقال الله: سبحانه فهي كلمة ينزه بها نفسه عما قالوه، فهو المنزه عن ذلك لأنه البديع، سبحانه أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض، والدليل على فساد بدعتهم القولية: إن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، و بيان أن ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلأنه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتركا في وجوب الوجود، ولامتاز كل واحد منهما عن الآخر، ويلزم تركب كل واحد منهما، وعليه فكل مركب ناقص محتاج إلى كل جزءٍ من أجزائه، وكل جزء من أجزائه من غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ليس إلها.

وعليه، فالمبدع المطلق هو واحد احد، أي لا يتجزأ أي لا يتركب، صفاته تتعدد وهو واحد احد لا يتعدد، واحد في مطلقيته، وواحد في قدسيته وعظمته وهيمنته وكبره ورحمته وإلى كل صفة له واحد احد لم يكن له كفوا احد ولم تكن له الصاحبة ولا الولد. قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٣٤٥]. إنه المبدع الحق جل جلاله، وفي مقابل ذلك يكون المبدع بالإضافة بين متبع حق وبين متبع باطل، فالمتبع للحق هو الصادق به، والمتبع للباطل هو المفتري به. ولهذا كان الافتراء من الذين قالوا عزير ابن الله، والذين قالوا المسيح ابن الله، والذين سموا الملائكة بنات الله؛ وصدق الذي جاء بالحق مبشرا ونذيرا وهاديا للخير وسراجا منيرا.

إن كان كل واحد مركب يتجزأ إلا الواحد الأحد مطلق لا يتجزأ، ولهذا كل كثرة فلا بد فيها من الواحد، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة كما أ ثبتنا، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولى بالإمكان، فثبت بهذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الواجب

---

[٣٤٥] الإخلاص ١ . ٤.

ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده، فإن كان الأول فذلك الممكن محدث، وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر، إما أن يكون حال بقائه أو حال حدوثه، والأول محال لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم، وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه، فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحيل أن يكون شيء مما سواه ولداً له، والأصح أن نقول: (بَل لَّهُ مَا فِي السماوات والأرض) فله كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع. فهو (بديع السماوات والأرض) خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثال سبق وعن غير مثال. وهو البديع الذي يبدع الأشياء و يحدثها مما لم يكن موجودا، لأنه (إذا قضى أمراً) قدره في علمه وأراد خلقه (فإنما يقول له كن فيكون) فإنما يقول له: (كن) فيكون ذلك الأمر على ما أراد البديع جلت قدرته والله تعالى عالم بكل ما هو كائن وما سيكون قبل تكوينه، وعليه فالأشياء التي لم تكن في الوجود فهي يقينا كانت كائنة ولعلمه يقول لها: كوني ويأمرها بالخروج من غير حال أو عن غير حال، إلى حال الوجود والظهور سواء كانت قابلة للمشاهدة أو قابله للملاحظة فقط أو قابلة للاثنين معا.

وبهذا تنقض البدعة الكبرى _أعني بدعة الكلمة- بالافتراء على الله الكذب، ولسنا الذين وصفنا هذه البدعة بالكبرى، بل الله الذي قال ذلك: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآَبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا}[٣٤٦].

والمقصود من العالم وإيجاده أن يوجد الإنسان لخلافة الله تعالى في أرضه فيتوصل بالخلافة الحقيقية إلى النعيم الأبدي في الآخرة بعد أن يؤدي رسالته في الأولى كما قالَ الله تعالى:

---

[٣٤٦] الكهف ١، ٥

(إنـي جاعل فـي الأرض خليفـة). والإنسـان الخليفـة المخصـوص بالكرامـة كمـا قـال تعـالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[٣٤٧]. وجعل ما سواه وسيلة لـه ليصلح الأرض ويبد فيها كما قال تعالى: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً). فليس فضل الإنسان بقوة الجسم، فالفيل والبعير أقوى جسماً منه، ولا بطول العمر فالنسر والحية والسلحفاة أطول عمراً منـه، ولا بشدة البطش فالأسد والنمر أشد بطشاً منه، ولا بـالقوة فالبعير والخيل أقوى منـه، ولا بكثرة الذهب والفضة والمعـادن فالجبـال أكثـر منـه ذهبـاً وفضـةً. ولكـن قيمتـه فـي عقلـه وقيمـة عقلـه فـي حسـن استخدامه، وما أحسن قول الشاعر:

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان

وليست القيمة بالعنصر المخلوق منه كما زعم إبليس حيث قال: (خلقتني من نار وخلقته من طين). بل ذلك بما خصه الله تعالى به، وهو المعنى الذي ضمنه فيه، والأمر الذي خلقه لـه (الخلافة.. الخلافة.. الخلافة) فقال الله تعالى: (فإذا سويتُه ونفختُ فيه من روحي فقعوا لـه ساجدين) والملائكـة لمـا نـبههم الله تعـالى لفضـل آدم تنبهـوا فـأذعنوا وسـجدوا لـه كمـا أُمـروا. وإبليس لما نظر إلى ظاهر آدم و عنصره تعامى عن أمر الله تعالى، ولم يتأمل المعنى الذي ضمنه الله تعالى آدم، والعاقبة التي جعلها لـه (أبى واستكبر) وكانت بدعته في القول: (أنا خير منه). وقد اقتدى بـه الكفار في ردّ الأنبياء حيث قالوا: (ما هذا إلاّ بشرٌ مثلكم يريد أن يتفضل عليكم). وقالوا: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق)، فالتميز ليس بظـاهر المبـاني بـل بباطن المعاني، ولهذا لـيس المهم أن ننظـر فـي المبـاني لكن الأهم أن نبصـر المعاني ونستشعر إبداع البديع وندحض بـدع المبتدعين، ولا نكون ممن قيل فيهم: (وتـراهم ينظـرون إليك وهم لا يبصـرون)، وهـذه مهمـة الخليفـة المبدع أن يحـول النـاس مـن (ينظرون) إلى (يبصرون) فتقع أعينهم على دورهم الذي خلقوا من أجله، الإبداع في إصلاح

---

[٣٤٧] الإسراء ٧٠.

الأرض، والرد على بدع المبتدعين بالقول والفعل بتوضيح وبيان الهدف الذي لأجله وجد الإنسان وهو أن يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه كما نبه الله تعالى بآيات في مواضع مختلفة قال تعالى: (وما خلقتُ الجنَّ والإنس إلا ليعبدون).

وقوله: (إني جاعل في الأرض خليفة).

وقوله: (ليستخلفنهم في الأرض).

وقوله: (ليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب).

وقوله: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله).

وقوله: (استعمركم فيها). وهذا لعلم الله بقيمة الإنسان الذي سيخلفه فقال تعالى: (إني أعلم ما لا تعلمون) وهذا مطلق الإبداع الإلهي في علمه بدور الإنسان الخليفة.

ومن البدعة الفعلية: بدعة العبادة التي لم ينزل الله بها من سلطان ومن أمثلة ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في قوله تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عليهمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[٣٤٨].

فالرهبنة من البدع العملية (ورهبانية ابتدعوها) فهم جاؤوا بها بدعة من عند أنفسهم بخلوتهم في الجبال والكهوف و المغارات والأديرة هربا من الفتنة وكلفوا أنفسهم فوق طاقتهم في العبادة بالزيادة فيها، وترك النكاح وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها لتعمير الأرض واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس، وهذا لم يكتبه الله عليهم بل ابتدعوه من عند أنفسهم فيول الله تعالى: (ما كتبناها عليهم) ما فرضها الله عليهم (إلا ابتغاء رضوان الله) هم ظنوا

---

[٣٤٨] الحديد ٢٥، ٢٩

أنها ترضي الله فابتدعوها ابتغاء رضوان الله (فما رعوها حق رعايتها) فأهملوا ما أحل الله وابتدعوا الرهبانية وبلغ بهم الابتداع بأنهم ضيعوها و زادوا في بدعتهم بالقول بالتثليث والاتحاد وكفروا بدين عيسى عليه الصلاة والسلام ودخلوا في دين ملوكهم، ولما بعث الله النبي محمد صلى الله عليه وسلم فآمن به بعضهم فآتاه الله الأجر الحسن وذلك قوله تعالى: (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين ابتدعوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى صلى الله عليه وسلم.

وخليفة الاسم البديع هو الذي يعرف أن العبادة التي فيها مشقة وهلاك للنفس لا ترضي الله سبحانه وتعالى فقد قال الله تعالى: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعليها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ علينا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مولانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٣٤٩]، وقوله تعالى: (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) مع إنَّ الأمانة التي حملها الإنسان كان ظلوما جهولا بعبئها إلا أن الله تعالى كان رءوفا رحيما بعباده الذين استجابوا لحمل الأمانة ولهذا قال: (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) فهذا إخبار من الله تعالى إلى خير الخلق من أصحاب الرسول صلى لله عليه وسلم فهم طلبوا من الله ألا يكلفهم مالا يستطيعون من أعمال في العبادة ولأنه رحيم بر فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها حتى لا تضيق الأنفس بمشقة العبادة، ولذلك قالوا: (سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا) فكيف لا نسمع ولا نطيع نحن أمة المصطفى والله تعالى لا يكلفنا إلا ما في وسعنا وطاقتنا، وهذا بحكم الرحمة الألوهية فهو لا يطالبنا إلا بالشيء السهل الهين، فكذلك نحن بحكم العبودية وجب أن نكون سامعين مطيعين فقال من اتبع المنهج السهل الرحيم (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا) طلباً للمغفرة فيما يصدر عنهم من وجوه التقصير منهم على سبيل العمد لذلك خفف الله تعالى عنهم ذلك وقال: (لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا) ذلك لو وقع نوع في التقصير على سبيل السهو والغفلة فلا تكونوا خائفين منه فإن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهذه استجابة لدعائهم في قولهم (غُفْرَانَكَ رَبَّنَا).

---

[٣٤٩] البقرة ٢٨٥، ٢٨٦

ومن سنة النبي صلى الله على وسلم التي ترفض الابتداع وتحث على الإبداع الآتي:

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تأخر، قَالَ أَحَدُهُمْ :أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا.

وَقَالَ آخر: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ.

وَقَالَ آخر: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا.

فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي"[٣٥٠]

فهؤلاء مبتدعون وليسوا مبدعين لأن الابتداع في الباطل والإبداع في الحق، والخليفة على هذا مبدع لأنه يريد أن يحق الحق ويبطل الباطل باتباع المنهج الذي يحفظ النفس والنسل والزرع.

أما القيام الدائم ليلا بالعبادة لا شك سيكون على حساب نواح أخرى في الحياة ستتعطل بلا ريب من ذلك رعاية الأبناء والقيام بحقوق الزوجة وهلاك للبدن والنفس بتحمل المشاق وهذا لا يرضي الرب دون أدنى شك.

فالصيام الدائم هلاك للجسم وللقوة وعليه توقف لحركة التعمير في الأرض، وهذا يخالف الهدف الذي خلق له الإنسان عبادة وإصلاح، واعتزال النساء توقف لاستمرار النوع البشري وتعطيل فطرة من الفطر التي فطر الله البشر عليه وفي تعطلها مخالفة لله ووسيلة غير

[٣٥٠] صحيح البخاري ، ج ١٥ ، ص ٤٩٣

مباشرة لنشر الرذيلة في المجتمع بين النساء، وهذا يخالف المنهج الإصلاحي في خلافة الإنسان لله في الأرض.

وهنا نتذكر شكوى أم الدرداء لسلمان الفارسي من أبي الدرداء لأنه أهمل بسبب المغالاة في العبادة شأن الأسرة التي هي عماد المجتمع.

فقد"آخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ فَرَأَى أُمَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَذِّلَةً فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكِ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فَقَالَ: كُلْ، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أَنَا بِآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، قَالَ: فَأَكَلَ فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ فَنَامَ ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخرِ اللَّيْلِ، قَالَ: سَلْمَانُ قُمْ الآنَ فَصَلَّيَ، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عليك حَقًّا وَلِنَفْسِكَ عليك حَقًّا وَلِأَهْلِكَ عليك حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ صَدَقَ سَلْمَانُ"[٣٥١].

ومن البدع ترك ما أحل الله ابتداعا من عند أنفسهم وهذا يظهر في الذين يحرمون اللحم دون إرشاد من طبيب، بحجة أنه يقوي الشهوة فينصرف الإنسان عن العبادة الى النساء ويهمل في العبادة فعن ثابت عن أنس: "أن نفرا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله في السر فقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا آكل اللحم وقال بعضهم لا أنام على فراش، فحمد الله وأثنى عليه فقال ما بال أقوام قالوا كذا وكذا لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"[٣٥٢].

ومن البدع السيئة التي تفسد في الأرض وتؤدي الى انهيار الذمم الغش في التجارة وهي بدعة ضالة مضلة لأنها تعتمد على الخداع البصري والكذب في الوقت نفسه لذا فقد نهى

---

[٣٥١] صحيح البخاري ، ج ٧ ، ص ٧٦

[٣٥٢] صحيح مسلم ، ج ٧ ، ص ١٧٥

النبي صلى الله عليه وسلم من الغش لأنه بدعة سوء، فعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم "مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال ما هذا يا صاحب الطعام قال أصابته السماء يا رسول الله قال أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس من غش فليس مني"[٣٥٣].

ومن البدعة السيئة ترك النكاح وهو سنة الأنبياء فعن السيدة عائشة أم المؤمنين قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني، وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم، ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصيام فإن الصوم له وجاء"[٣٥٤].

ولا حجة أقوى وأظهر في البيان من حجة القرآن فيقول الله تعالى: {يَا بَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٣٥٥] ففي الآية الأصول والبدع الخارجة عليها.

. فالغش بدعة لأن الأصل الأمانة.

. الكذب بدعة لأن الأصل الصدق.

. التبتل بدعة لأن الأصل الزواج.

. السهر المفرط بدعة لأن الأصل الراحة بعد التعب.

. الصوم المتصل بدعة لأن الأصل شهر رمضان وأيام معدودات.

---

[٣٥٣] صحيح مسلم ، ج ١ ، ص ٢٦٧

[٣٥٤] سنن ابن ماجه ، ج ٥ ، ص ٤٣٩

[٣٥٥] الأعراف ٣١ . ٣٣.

ـ إهمال الأسرة بدعة لأن الأصل الرعاية والعناية، فعن ابْنَ عُمَرَ قال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَقُولُ كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا وَالْخَادم رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ قَالَ وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ"[٣٥٦]

. إهمال الرعية بدعة والأصل القيام على شئونهم.

. إهمال الرجل لأسرته وأولاده بدعة والأصل الكد والاجتهاد لسعادتهم.

. إهمال المرأة لأسرتها بالإهمال في نفسها وعدم الظهور بالمظهر اللائق أمام زوجها بدعة والأصل الاهتمام بنفسها ومراعاة مشاعر زوجها واحترام مشاعر الآخرين وتقديرها.

. إهمال المرأة في رعاية أبنائها بدعة والأصل السهر على راحتهم وتوفير الطمأنينة لهم بكل مشاعر الأمومة. وهذا يذكرنا بوصية المرأة العربية لابنتها عند زواجها، فقد خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس، فقال: نعم، أزوجها على أن اسمي بنيها وأزوج بناتها. فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحهن أكفاؤهن من الملوك، ولكني أصدقها عقاراً في كندة وأمنحها حاجات قومها، لا ترد لأحد منهم حاجة. فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها. فلما كان بناؤه بها خلت بها أمها فقالت: أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى رجل لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فكوني له أمة يكن لك عبدا، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخرا.

. أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة.

. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا الطيب ريح.

---

[٣٥٦] صحيح البخاري ، ج ٣ ، ص ٤١٤

ـ وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

– وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على خشية وعاليه، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

– وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمرا ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره. ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً. فولدت له الحارث بن عمرو، جد امرئ ألقيس الشاعر"[٣٥٧]، وهذه النصائح لفطرية أصل ومخالفتها بدعة.

– وإهمال العامل في عمله بدعة والأصل إتقان العمل، والذي يتقن العمل يحبه الله – فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله تبارك وتعالى يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه"[٣٥٨].

وكل ما يحبه الله فهو إبداع وخلافه بدعة فالله يحب المقسطين لأن العدل هو الأصل والظلم هو البدعة ،قال الله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}[٣٥٩]

– الأصل هو الوحدة والتراص صفا واحدا في الحرب والسلم وخلاف ذلك بدعة

فقال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}[٣٦٠].

---

[٣٥٧] العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٤٢٠

[٣٥٨] شعب الإيمان للبيهقي، ج ١١ ، ص ٢٩٦

[٣٥٩] الممتحنة ، ٨

[٣٦٠] الصف ، ٤

– والإنفاق في سبيل الأصل والإمساك بدعة والإحسان للفقير أصل والإساءة له بدعة. فقال الله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٣٦١].

– والسمح في البيع والشراء والقضاء أصل والجفاف والغلظة بدعة

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قال: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ سَمْحَ الْبَيْعِ سَمْحَ الشِّرَاءِ سَمْحَ الْقَضَاءِ)[٣٦٢].

– وتجديد التوبة والطهارة أصل والقنوط من رحمة الله بدعة فقال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ}[٣٦٣] .

وعلى ما تقدم فإن كل عمل يحبه الله فيه إبداع وإتقان فهو أصل وكل عمل يغاير ذلك فهو بدعة من المبتدعين حفظنا الله من البدع وأهلها وشرها واجعلنا يا الله يا مبدع من المبدعين للخير وما يؤدي إلى إحسان واجعلنا لذلك أهل وناصرين وللحق محقين وللباطل زاهقين إنك ربي بك آمنت وعليك توكلت وأوليت أمري وأسرتي وما املك إليك فحفظك ورحمتك وغناك من الفاقة والحاجة وعفوك من كل عاهة ومرض وحاجة.

ومن مظاهر الإبداع الإلهي في الكون ما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أجل مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عليها الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[٣٦٤] فهنا يتجلى إبداع الله سبحانه وتعالى في هذا الجانب من الخلق حيث يخاطب الناس ويدعوهم للتفكر في آياته

---

[٣٦١] البقرة ، ١٩٥

[٣٦٢] سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص ١٤٨

[٣٦٣] البقرة، ٢٢٢

[٣٦٤] الحج، ٥

ويضرب لهم المثل في أدق الحقائق التي يلمسونها من أنفسهم والتي لا تدعو عاقل إلى نكران حقيقة ما يقف عليه من إبداع الله الذي فطر كل شيء فأحسن خلقه وهذا مما لا يدع مجالا للشك من بعث الله للخلائق بعد الموت، فإن كان أحد منكم في ريب من بعثكم ففي خلقكم الدليل على قدرتنا على البعث، فقد خلقنا أصلكم من تراب، ثم جعلنا منه نطفة حولناها بعد مدة إلى قطعة دم متماسكة، ثم جعلناها قطعة من اللحم مصورة فيها معالم الإنسان، أو غير مصورة لنبين لكم قدرتنا على الإبداع والتدرج في التكوين، والتغيير من حال إلى حال، ونسقط من الأرحام ما نشاء، ونقر فيها ما نشاء من ذكر أو أنثى، حتى تكمل مدة الحمل، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا، ثم نرعاكم لتبلغوا تمام العقل والقوة، ومنكم بعد ذلك من يتوفاه الله، ومنكم من يمد له عمره حتى يصير إلى الهرم والكبر فيتوقف علمه وإدراكه للأشياء، ومن بدأ خلقكم بهذه الصورة لا تعجزه إعادتكم. وأمر آخر يدلنا على قدرة الله على الإبداع وهو أنك ترى الأرض قاحلة يابسة، فإذا أنزلنا عليها الماء دبت فيها الحياة من كل لون وصنف وتحركت وزادت وارتفع سطحها بما تخلله من الماء والهواء، وأظهرت من أصناف النباتات ما يروق منظره، ويبهر حسنه، ويبتهج لمرآه، فالمتأمل لهذه الحركة العجيبة من بدايتها التي تنطلق من قطرة الماء التي يسكبها المبدع ويسكنها حبات الرمال فإذا هي بعد ذلك تجعل الأرض تعج بالحياة وتصطخب بالحركة في عملية إخراج النبات فيكون أشجارا وأزهارا ذا ألوان تخلب الألباب يأتي أعظم الفنانين في الرسم ليحاكي الصور التي أبدعها المبدع العظيم، فإذا أردنا أن نقف على عظمة البديع في هذا الجانب فلننظر إلى الصحراء بعد أن يصيبها المطر ما الذي يحدث فيها وكيف يتلاشى السراب وتتبدل صورتها وتدب فيها الحياة من مختلف الأنواع عندما تنتشر الغدران ويتماس النبات فيكون ذلك مسرحا لإبداعات الله الأخرى من الحيوانات والطيور والزواحف والفراشات، لذلك ضرب الله مثل إبداعه هذا بالأعمال الصالحة التي يسر مرآها عيون الناظرين حيث قال الله تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ

أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٣٦٥] فشبه الأعمال الصالحة والإنفاق في سبيل الله بأرض خصبة مرتفعة يفيده كثير الماء وقليله، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين، وإن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفى لإثماره لجودة الأرض وطيبها، فهو مثمر في الحالتين، وما هذا إلا لما في الحدائق والبساتين من عجائب الإبداع والدلالة على هذه القدرة وهي قدرة الخالق عز وجل الذي يتجلى إبداعه فيها، فصفة المبدع لا تقتصر على جانب دون غيره، وعلى الرغم من ورود لفظة المبدع في القرآن الكريم مرتين فقط، إلا أننا نقف على هذه الصفة الجليلة من أسماء الله الحسنى في أنفسنا وفي كل ما حولنا، فلا تكاد تلتفت إلى شيء أو تقع عينك على شيء إلا وتتجلى لك هذه الصفة فيما تفكر أو فيما ترى مما أودع المبدع صدور صنوف سائر المخلوقات من الحيوان، من أنواع المعارف، وفطرها عليه من غريب الطباع والسجايا، وسخر لحناجرها من ضروب النغم الموزونة، والأصوات الملحنة، والمخارج الشجية، والأغاني المطربة، فقد يقال إن جميع أصواتها معدلة، وموزونة موقعة، ثم الذي سهل لها من الرفق العجيب في إبداع الصنعة، مما ذلل الله تعالى لمناقيرها وأكفها، وكيف فتح لها من باب المعرفة على قدر ما هيأ لها من الصوت واللسان الصغير والحنجرة التي ترى بالكاد، وكيف أعطى كثيرا منها من الحس اللطيف، والصنعة البديعة، من غير تعليم وتدريب، ومن غير تقويم وتلقين، فبلغت بعفويتها وبمقدار قوة فطرتها، من البديهة والارتجال، ومن الابتداء والاقتضاب، ما لا يقدر عليه حذاق رجال الرأي، وفلاسفة علماء البشر، لا بيد ولا آلة، بل لا يبلغ ذلك من الناس أكملهم خصالا وأتمهم خلالا، لا من جهة القصد ولا من جهة المصادفة، ولا من جهة التقدم فيه، والتأني به، والتأتي له، والترتيب لمقدماته، وتمكين الأسباب المعينة عليه، فصار جهد الإنسان الثاقب الحس، الجامع القوى، المتصرف في الوجوه، المقدم في الأمور، يعجز عن عفو كثير منها، وهو ينظر إلى ضروب ما يجيء منها، كما أعطيت العنكبوت قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا

---

[٣٦٥] البقرة ٢٦٥

يَعْلَمُونَ}[٣٦٦] فبيت العنكبوت أوهن وأضعف بناء بناه مخلوق، ومع هذا فقد كان أعظم حاجز ومانع، أمام كفار قريش حتى لا يصلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأي إبداع هذا الذي أودعه الله تعالى في مخلوقاته.

ومن عجائب إبداعه جل شأنه هذه الحشرة الصغيرة في الحجم التي تحمل قدرا من السم تدافع به عن نفسها وعن مسكنها، والعظيمة في الفائدة ألا وهي حشرة النحل التي ذكرها الله تعالى في محكم التنزيل بقوله: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٦٧] فقد ألهم الله النحل أسباب حياتها، ووسائل معيشتها، بأن تتخذ من الجبال بيوتاً في كهوفها، ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتاً، كذلك ألهمها وألقى في روعها وعلمها بوجه لا يعلمه إلا اللطيف الخبير البديع ما يجب عليها أن تفعله، فأوحى إليها بتسخيرها لما أريد منها، وكيف أن الملكة من النحل هي الوحيدة التي تضع البيض، وسائر النحل قائم على خدمتها، وكيف ألهمت أن تبني البيوت على شكل سداسي من أضلاع متساوية مستقيمة، والبشر لا يمكنهم ذلك إلا بآلات مثل المسطرة والفرجار، ولماذا تختار هذا الشكل على غيره من البيوت المشكلة بأشكال أخرى كالمثلثات والمربعات والمخمسات وغيرها، وفي ذلك سر من عجائب الإبداع حيث ثبت في علم الهندسة أنها لو كانت مشكلة بأشكال أخرى يبقى فيما بينها بالضرورة فراغات خالية ضائعة، ولها من الأحوال والعجائب أشياء كثيرة، فسبحان من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ومن بديع المعرفة ومن غريب الصنعة، في غير النحل من أصناف الخلق الشيء الكثير، فنحن نعلم أن النملة تدخر للشتاء في فصل الصيف ما يمكنها من العيش، ولا تضيع أوقات إمكان الحزم، ثم يبلغ من تفقدها وحسن خبرها والنظر في عواقب أمرها، أنها تخاف على الحبوب التي ادخرتها للشتاء في الصيف، أن يصيبها العفن أو

[٣٦٦] العنكبوت ٤١

[٣٦٧] النحل٦٨، ٦٩

السوس، فتخرجها من بطن الأرض إلى ظهرها، لتيبسها وتعيد إليها جفافها، وليضربها النسيم، وينفى عنها الفساد، ثم إذا كان مكانها نديا وخافت أن تتبت نقرت موضع النواة من وسط الحبة، وتعلم أنها من ذلك الموضع تبتدئ وتتبت وتنقل، فهي تفلق الحب كله أنصافا، فأما إذا كان الحب من حب الكزبرة، فلقته أرباعا، لأن أنصاف حب الكزبرة ينبت من بين جميع الحبوب، فهي على هذا الوجه مجاوزة لفطنة جميع الحيوان، والمخلوق الوحيد الذي يحمل قدر وزنه خمسين ضعفا، فأية قدرة هذه التي أبدعت هذا الخلق وأوحت إليه أن يفعل هذا الأمر ولا يفعل ذلك الأمر، إنه المبدع الخلاق العظيم.

فياله من إبداع لا يقدر عليه إلا البديع فصدق الله العلى العظيم إذ قال: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ}[٣٦٨].
فالله أمر بتكرار البصر في خلقه البديع على سبيل التصفح والتتبع، فهل يجد المتأمل لإبداع البديع في إبداعه لخلقه عيباً وخللاً، و إذا كرر النظر ملايين المرات لم يرجع البصر بملاحظة أدنى خلل أو عيب، بل يرجع النظر إلى الذي يبحث عن خلل في إبداع البديع خاسئاً مبعداً حاقنا مغيظا ضعيفا لأنه أتعب نفسه دون فائدة.

الحمد لله أولا وآخرا وأزكى صلاة وتسليما على النبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والحمد لله إننا عباد المبدع الذي يمدنا بالخيرات كيفما نتوقع وكيفما لا نتوقع، إنه المبدع المطلق الذي لا يتعب ولا يكل ولا يمل ولا يضعف، ولا يعجز ولا تأخذه سنة ولا نوم إنه ربي المهيمن البديع جل جلاله.

اللهم يا البديع لا تجعلنا على بدعة واجعلنا من المبدعين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كل حين، اللهم يا البديع للسماوات والأرض والبديع للروح والنفس والجسد قد

---

[٣٦٨] الملك، ١ـ ٥

خلقت الشيء وخلقت من الشيء أشياء، فاجعلنا من المتدبرين في آياتك وهم مطمئنون (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)، اللهم يا البديع للجمال والأقوال والأفعال والأعمال والأزواج أجعل أقوالنا على الحق وأفعالنا على الحق وأعمالنا على الحق وأزواجنا على الحق إنك أنت البديع سبحانك محق الحق رب العالمين.

الباقي

الباقي: هو الدائم الذي لا يزول ولا يفني ولا يبيد ولا ينتهي، هو الأول والآخر وهو على كل شيء قدير.

الباقي "هو الله تعالى المستأثر بالبقاء وكتب على خلقه الفناء وهو خالق الفناء و البقاء"[٣٦٩].

الباقي "الدَّائِمُ الْمَوْجُودُ لَمْ يَزَلْ، الْمَوْصُوفُ بِالْبَقَاءِ، الَّذِي لا يَسْتَوْلِي عَلَيْهِ الْفَنَاءُ"[٣٧٠].

الباقي هو الموجود لا عن حدوث في حال وصفه بذلك[٣٧١]، أي إذ ذُكر الباقي فصفة الوجود كامنة في الذات لا في الحدث، فالله سبحانه موجود لا محدث، وهو موجود قبل الوجود، وموجود بمعنى العِلْمِ المُجَرَّدِ إذ كان اللهُ تعالَى مُنَزَّهاً عن الوَصْفِ بالجَوَارِحِ والآلاتِ[٣٧٢]، فهو الذي أوجد الوجود، فقد أوجد السماء والأرض، {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[٣٧٣]، وقد أريد بالرتق حالة العدم إذ ليس فيه ذوات متميزة فكأن السماوات والأرض أمر واحد متصل متشابه وأريد بالفتق وأصله الفصل في قوله تعالى: (ففتقناهما) الإيجاد لحصول التمييز وانفصال بعض الحقائق عن بعضها، ومعنى الآية ألم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا على حالتين من التهيؤ، فأظهرناهما بالأمر (كن).

ثم أوجد ما في الأرض وما في السماء، {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٣٧٤]، ثم أوجد عليهما من يقوم بأمره، فأوجد الخليفة في الأرض ليعمرها ويأمر بالحق ويمنع سفك الدماء والفساد، {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٣٧٥]، وأوجد الملائكة في السماء ليسبحوا

---

[٣٦٩] تفسير أسماء الله الحسنى ، ج ١ ، ص ٦٤.

[٣٧٠] الأسماء والصفات للبيهقي ، ج ١ ، ص ٤٤.

[٣٧١] معجم الفروق اللغوية ١، ٩٠.

[٣٧٢] تاج العروس ١، ٢٣١٩.

[٣٧٣] الأنبياء ٣٠.

[٣٧٤] البقرة ٢٩.

[٣٧٥] البقرة ٣٠.

باسمه جل جلاله، {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٣٧٦].

وليقوموا بأمره فيها، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[٣٧٧].

والباقي هو الدائم الذي دام وجوده، فالبقاء له صفة قائمة بذاته[٣٧٨]، وهو الباقي بجلاله وعرشه وملكه وكماله على الدوام دون تأثر أو تغيير؛ لأن الحي من البشر قد يوصف بالسمع لكن سمعه يتأثر بمرور الوقت فيضعف سمعه، وربما يحتاج إلى ما يعينه كسماعة الأذن لتعينه على تلافي النقص الحاصل جراء التغيير الطارئ عليه، وقد يكون بصيرا لكنه يتأثر بعد مدة فيضع عدسة يستعين بها على الإبصار، والإنسان قد يكون متصفا بالصفات لكنه يتأثر بالسنة والنوم والغفلة، ولو كان قائما دائما لكملت حياته وبقيت صفاته، أما الباقي فهو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم لأنه كامل الصفات، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٣٧٩]، وهو الذي لا يغفل، {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[٣٨٠]، وعلى الخليفة أن يكون بقدر ما يستطيع على الصفات الحسنى، فلا يغفل عن أداء واجبه تجاه الله سبحانه وتعالى ولا تجاه العباد، فالغفلة صفة يجب على الخليفة تجنبها بالمطلق لأن الله سبحانه وتعالى ذكرها في موضع التحذير والتنبيه على تجنبها، فوصف الغافلين بالكفر فقال جل شأنه: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ

---

[٣٧٦] الزمر ٧٥.

[٣٧٧] التحريم ٦.

[٣٧٨] الاعتقاد للبيقهي، ج ١، ص ٦٦.

[٣٧٩] البقرة ٢٥٥.

[٣٨٠] إبراهيم ٤٢.

النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[٣٨١]، ووصفهم في موضع آخر بالجهل، {وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}[٣٨٢]، وهذه صفات الأولى بالخليفة أن يتجنبها بالمطلق وأن يتحلى بنقيضاتها، فيكون له أذن قادرة على السماع المميز بين الخير والشر، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[٣٨٣]، وتكون له بصيرة وليس مجرد عين ينظر بها، فإذا قال قائل؛ كيف يمتلك الخليفة البصيرة وهي من أسرار مواهب الله، أما من وهبه الله البصيرة فقد ملكها، وأما من لم ينل ذلك فعليه بكلام الله يعيه ويعمل به لأنه هو بصيرة الخليفة المؤمن، {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[٣٨٤]، وعلى الخليفة أن يحارب الغفلة بالذكر، وأن يتمثل حال الخليفة الحق في الانتباه بعد الغفلة فيتذكر انتباه سليمان عليه الصلاة والسلام بعد أن غفل عن ذكر الله، {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}[٣٨٥].

والباقي دائم في أمره، فأمر الله دوام إرادته، في الثوابت والمتغيرات، أما في الثوابت فمثاله أمر الباقي للجبال أن تقوم بدور إرساء الأرض وهي تقوم بهذا الدور إلى الوقت المعلوم عنده وحده سبحانه، {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}[٣٨٦]، وعندما يحين الوقت المعلوم المحدد بأمر الباقي سبحانه تكون بغير هيئتها التي كانت عليه، يقول الباقي جل شأنه عن حركتها: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ

---

[٣٨١] يونس ٧، ٨.

[٣٨٢] الروم ٦، ٨.

[٣٨٣] الحاقة ١٢.

[٣٨٤] الجاثية ٢٠.

[٣٨٥] ص ، ٣٠، ٣٣.

[٣٨٦] النحل ١٥.

نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[٣٨٧]، ثم يصف نسفها فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[٣٨٨]، أما المتغيرات فمثاله حركة الأفلاك التي ينتج عنها تحديد الزمن والمواقيت وهنا أمر الله باقٍ دوام إرادته، ولا يتغير لا لطاعة العباد ولا لمعصيتهم لأنها حاجات عامة لكل المخلوقات، وشاء الباقي سبحانه أن يبقى أمره فيها إلى أن يشاء، ثم تكون وبأمره في ساعة يعلمها هو سبحانه وتعالى عما يصفون بغير حالها، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٣٨٩]، ونفهم من هذه الآيات أن ما من باقٍ غير الله ، وما نراه من بقاء هذه المخلوقات إنما هو بقاء جزئي وأن البقاء المطلق هو لله سبحانه وتعالى.

وأمره جل وعلا لا تنطبق عليه حدود الزمن، فلا ماضي ولا حاضر ولا مستقبل، إذ الماضي من أمره هو ماضي وحاضر ومستقبل، وحاضره هو ماضي ومستقبل، ومستقبله هو ماضي وحاضر وكل ذلك على سبيل الإثبات أو النفي، أما على سبيل الإثبات فأمثلته كثيرة منها قوله تعالى :{ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}[٣٩٠]، فـ (كان) هنا في الآية فعل فاعله الباقي فهو مستمر غير منقطع، بمعنى أنه كان عفواً ولم يزل يعفو وسيعفو، فلا حد لزمن الفعل، ولو كان الفاعل غير الباقي سبحانه وتعالى لكان الماضي منقطع لا محالة، وأمثلة هذا النمط كثير منها قوله تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[٣٩١]، فقد كتبها في الماضي وهي مستمرة في الحاضر وستبقى في المستقبل. وكذلك حاضره، {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

---

[٣٨٧] الكهف ٤٧.

[٣٨٨] طه ١٠٥، ١٠٧.

[٣٨٩] يس ٣٨، ٤٠.

[٣٩٠] النساء ٩٩.

[٣٩١] الأنعام ١٢.

دَرَجَاتٍ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[٣٩٢]، فالفعل المضارع دال على الحاضر لكن فاعله الباقي سبحانه فانتفى عنه حد الزمن ليصبح فعلاً دالاً على الماضي والحاضر والمستقبل معاً وهو ما يتجلى في الكثير من الآيات الكريمة ومنها قوله عز من قائل: {وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣٩٣]، وكذلك الأمر في المستقبل من أوامره حيث يسقط عنها حد الزمن وانظر إلى قوله سبحانه: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}[٣٩٤]، فهل يمكن أن يكون وجوب هذا القول للمستقبل فقط وهو الله أحد من الماضي إلى الحاضر وسيبقى في المستقبل باقياً أحداً صمداً!، كذلك يقول عز وجل: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}[٣٩٥]، ففعل الأمر في القاعدة يدل على المستقبل لكنه إذا صدر من الباقي فإنه باقٍ كذلك فهو للماضي والحاضر والمستقبل. وكل ما ذُكر كان على وجه الإثبات، ومثله وجه النفي فهو الآخر لا ينطبق عليه حد الزمن لأن الزمن مخصص للمتغير أما الثابت الباقي فلا ينطبق عليه حد الزمن أو مقياسه، يقول الباقي سبحانه: {وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[٣٩٦]، بمعنى أنه ما كان معذبهم وهم يستغفرون ولم يزل يفعل وسيفعل، فزمن الماضي غائب تماما في مساحة الدلالة للآية، ومثله المضارع المنفي، يقول سبحانه وتعالى: {يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}[٣٩٧]، فهو باقٍ على عدم الرضا عن هؤلاء المتصفين بهذه الصفة التي جعلتهم من الفاسقين، أو أنهم سيكونون منهم في المستقبل.

---

[٣٩٢] البقرة ٢٥٣.

[٣٩٣] البقرة ١٨٥.

[٣٩٤] الإخلاص ١.

[٣٩٥] الأعراف ١٩٩.

[٣٩٦] الأنفال ٣١.

[٣٩٧] التوبة ٩٦.

وهو باق في فعله، فهو خالق ويخلق وسيخلق إلى أن يشاء سبحانه، فقد خلق الوجود من قبل، {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٣٩٨]، ويخلق ما يشاء بأمر منه، {قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٣٩٩]، ولعل ما يقال عن الأضرب الجديدة من النباتات وبعض عمليات تهجين الحيوانات وما ينتج عنها من أنواع جديدة وأشكال جديدة هي أكبر دليل على أنه يخلق سبحانه لأن ذلك كله إنما يجري بأمر الله، ولو أراد له أن لا يكون لما تحقق على سبيل النجاح في تجارب العلماء والدليل فشل بعض أنواع التهجين بين فصائل كثيرة من الحيوانات والنباتات، وهو قادر على أن يخلق الجديد في المستقبل كما يخبرنا سبحانه وتعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[٤٠٠]. إنه الباقي القادر على أن يخلق مثل ما خلق من السماوات والأرضين، ولأن الإجابة جاءت منصوص عليها في ذات الآية السابقة، بقوله (بلى وهو الخلاق العليم) فإن خلق السمات والأرضين سيكون باقيا دائما بيد الحي الباقي جل جلاله.

من هنا يجب على الخليفة أن يمتلك مجموعة من الثوابت التي تتماشى مع ما يريد ربه الباقي سبحانه ولتكون له عنواناً يُعرف به، فيجب أن يكون الحق من أولى ثوابته، والإصلاح من أولويات أعماله، وأن يدعو العباد إلى العمل بهما (الحق والإصلاح) على طريق اعمار الأرض.

وهو باقي لأنه لا ينتهي تقدير وجوده لا في زمان ولا في مكان، ففي الزمان هو رب المشرق والمغرب، {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[٤٠١].

---

[٣٩٨] الأعراف ٥٤.

[٣٩٩] آل عمران ٤٧.

[٤٠٠] يس ٨١.

[٤٠١] المزمل ٩.

وهو الذي يبقى في مد الزمن من حيث حركته واختلافه عليم مجيب، فهو الباقي المحصي لحمد العباد وتسبيحهم كما يقول سبحانه وتعالى: {فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ}[٤٠٢]، وهو الباقي المحصي لطاعتهم في القيام بالواجبات، {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[٤٠٣]، وللنوافل، {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}[٤٠٤]، ومن حيث المكان فهو إله كل الأكوان لأنه خالقها جل وعلا، يقول سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ}[٤٠٥].

فهو أبدي الوجود لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ينتهي إليه[٤٠٦]، لأنه الباقي بعد فناء غيره كما يخبرنا بحكيم قوله عز وجل فيقول: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٤٠٧]. وتفسر الآية بقاء الباقي سبحانه، فالوجه يطلق على الذات والمجسم يحمل الوجه على العضو وهو خلاف العقل والنقل أعني القرآن لأن قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ}[٤٠٨]، يدل على أن لا يبقى إلا وجه الله تعالى، فعلى القول الحق لا إشكال فيه لأن المعنى لا يبقى غير حقيقة الله أو غير ذات الله شيء.

الباقي: "هو الموجود الواجب وجوده بذاته، والباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر ويعبر عنه بأنه أبدي، واجب الوجود بذاته متضمن لجميع ذلك وإنما هذه الأسامي بحسب إضافة هذا الوجود في الذهن إلى الماضي والمستقبل، وإنما يدخل في الماضي والمستقبل المتغيرات لأنهما عبارتان عن الزمان ولا يدخل في الزمان إلا التغير

---

[٤٠٢] الروم ١٧، ١٨.

[٤٠٣] هود ١١٤.

[٤٠٤] الإسراء ٧٩، ٨٠.

[٤٠٥] الزخرف ٨٤.

[٤٠٦] لسان العرب ، ج ١٤، ص ٧٩.

[٤٠٧] الرحمن ٢٦ . ٢٨.

[٤٠٨] القصص ٨٨.

والحركة إذ الحركة إنما تنقسم على ما هو في الماضي والمستقبل والمتغير يدخل في الزمان بواسطة التغير فما جل عن التغير والحركة فليس في زمان فليس فيه ماض ومستقبل فلا ينفصل فيه القدم عن البقاء بل الماضي والمستقبل إنما يكون لنا إذ مضى علينا وفينا أمور وستتجدد أمور ولا بد من أمور تحدث شيئا بعد شيء حتى تنقسم إلى ماض قد انعدم وانقطع وإلى راهن حاضر وإلى ما يتوقع تجدده من بعد فحيث لا تجدد ولا انقضاء فلا زمان وكيف لا والحق سبحانه وتعالى قبل الزمان وحيث خلق الزمان لم يتغير من ذاته شيء وقبل خلق الزمان لم يكن للزمان عليه جريان وبقي بعد خلق الزمان على ما عليه كان"[٤٠٩].

فهو الباقي آخرا بالديمومة والبقاء، ويقول سبحانه وتعالى عن دوام بقائه: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ}[٤١٠]، ثم جاءت الإجابة بقوله تعالى: {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٤١١] أي: الذي هو واحد وقد قهر كل شيء، وحكم بالفناء على كل مخلوق من بشر أو حيوان أو نبات، وبالفناء لكل مقام على الأرض.

وديمومة البقاء من صفاته عز وجل لأنه باقٍ قبل أن يكون لمخلوق بقاء وهو باقٍ بعد أن يفنى بقاء العباد، فقد خلق الإنسان ولم يكن هذا الإنسان شيئا من قبل، {وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[٤١٢]، وشيء في الآية الكريمة توحي بأن الإنسان لم يكن يملك القدرة على هذا الأمر (الخلق) ولا على أمر غيره إنما هو بأمر الباقي سبحانه وتعالى، وقد كتب عليه الفناء من بعد وليس له في هذا حول ولا قوة إنما هو أمر الباقي عز وجل، {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ

---

[٤٠٩] المقصد الاسنى في شرح أسماء الله الحسنى ، أبو حامد الغزالي، ج ١، ص ١٤٧.

[٤١٠] غافر ١٦.

[٤١١] غافر١٦.

[٤١٢] مريم ٩.

بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ}[٤١٣]. ومن الباقي بعد ذلك؟ إنه الحق الحي القيوم، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}[٤١٤].

والباقي سبحانه هو الذي لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُصُ وَلَا يَفْنَى وَلَا يُعْدَمُ، بَلْ هُوَ الدَّائِمُ الْبَاقِي الَّذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ لأنه الباقي وحده، يقول عز وجل: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٤١٥] إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، وفي الآية عمق دلالي يمكن استشعاره بتحليل أسلوب الأداء فيها، فقد جاء تركيب (كل شيء) ليدل دلالة عميقة على العموم وذلك لان (كل) حرف يفيد العموم وقد أضيف إلى شيء وهي نكرة ومعلوم أنها تفيد العموم مما يجعل هذا العموم مطلقاً، ثم جاء بأداة الحصر والاستثناء (إلا) ومن بعدها ذكر سبحانه المستثنى وهو وجه الله في دلالة واضحة على الباقي الآخر جل وعلا ليس بعده شيء، وكل المخلوقات تهلك ويبقى الحي الذي لا يموت، كما قال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ}[٤١٦].

والباقي سبحانه وتعالى هو مالك البقاء، فهو الباقي بذاته وما سواه إنما باقٍ بالله وبإرادته، وقضى على ما عداه بالعدم والفناء[٤١٧]، وفي هذه المقابلة بين الباقي بذاته والفاني بغيره إيحاءات عظيمة بالقدرة للباقي وبالضعف والوهن للفاني، فالباقي قدير بذاته على البقاء بينما لا يملك الفاني قدرة البقاء وإن أراد لأنه فاقد القدرة على تحقيق إرادة البقاء هو ومن معه، يقول الباقي سبحانه وتعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}[٤١٨]، دليلاً قاطعا على فقدان القدرة على البقاء في تلك اللحظة أي في لحظة إرادة الباقي لفناء العبد.

---

[٤١٣] المؤمنون ٩٩، ١٠٠.

[٤١٤] آل عمران ٢.

[٤١٥] القصص ٨٨.

[٤١٦] الفرقان ٥٨.

[٤١٧] المواقف، عضد الدين الايجي، ج ١، ص ١٢.

[٤١٨] الواقعة ٣٨، ٨٧.

وليس لشأن العبد عظم أو قل أثر في تحقيق إرادة البقاء، فالأنبياء حلت بهم إرادة الباقي ففنوا، وفي القرآن آيات محكمة تدلل على ذلك، فقد أشار الذكر العزيز إلى موت يعقوب، {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}[٤١٩]، وكذلك سليمان، {فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}[٤٢٠]، وأخيراً نبي العالمين الخاتم محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فقد أخبره الباقي عز وجل في آيات كثيرة أنه مقبل على الموت فقال له: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[٤٢١]، وقال لنا: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ}[٤٢٢]، وفي هذه الآية والتي قبلها إشارة إلى صعوبة تقبل موت الأنبياء من قبل من حولهم، فالجن لم ينتبهوا لموت سليمان لأنه لم يكن في حسبانهم ، وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم حدث لهم إرباك كبير بعد إعلان وفاة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، ولعل ذلك راجع إلى ما في هذه الشخصيات من تمثل لصفات من استخلفهم في الأرض، فهم في مرتبة عالية من الإيمان المطلق بالله وبالامتثال لأوامره، وكذلك فقد كانوا ينطقون بأخبار السماء من خلال ما يوحى إليهم من ربهم وانقطاع ذلك لاشك هو مذهل لألباب من حولهم، كما كان لدورهم الفعال في حل قضايا الناس أثر في إرباك العقول وتشتيتها عن القبول بموتهم، وبالرغم من كل ذلك إلا أنهم اقبلوا على الموت محبين لقاء ربهم بشوق ورغبة.

وعليه الباقي هو الحي الذي لا يموت وهو مالك الفناء والبقاء، فبقاؤه مطلق وبقاء غيره نسبي مؤقت، فكان لبقاء غيره النسبي توقيت محدد نص عليه سبحانه فقال: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا

---

[٤١٩] البقرة ١٣٣.

[٤٢٠] سبأ ١٤.

[٤٢١] الزمر ٣٠.

[٤٢٢] آل عمران ١٤٤.

جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٤٢٣]، ويروى أن الباقي حدد لكل امة معدل متوسط للبقاء، فبينما كانت الأمم السابقة تعمر بألف سنه كما يخبرنا الباقي سبحانه بقوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}[٤٢٤]، كتب أن يكون بقاء المخلوق بقدر ما يشاء هو لها فتجد أن بعض المخلوقات تعمر أكثر من غيرها، وبقاء بعضها مرتبط بدوره كالملائكة الكرام فيروى أن الملائكة يبقون بأمر الله أكثر من كل المخلوقات لكن يحل بهم الفناء بأمر الخالق بعد انتهاء دورهم وأكبر دليل على ذلك هو تأخر فناء عزرائيل وذلك لغرض استكمال مهمته في القيام بأمر الله وحين يكمل هذه الدور سوف يحل به الفناء هو أيضا، {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[٤٢٥]، "والموت صفة وجودية خلقت ضدا للحياة المؤقتة. والمعنى يقبض عزرائيل أرواحكم بحيث لا يترك منها شيئا بل يستوفيها ويأخذها تماما على أشد ما يكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم أو يقبض أرواحكم بحيث لا يترك منكم أحدا ولا يبقى شخصا من العدد الذي كتب عليهم الموت وأما ملك الموت نفسه فيتوفاه الله تعالى كما روى أنه إذا أمات الله الخلائق لم يبق شيء له روح يقول الله يملك الموت من بقى من خلقي وهو أعلم فيقول يا رب أنت أعلم بمن لم يبق إلا عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الله يا ملك الموت قد أذقت أنبيائى ورسلي وأوليائي وعبادي الموت وقد سبق في علمي وأنا علام الغيوب إن كل شيء هالك إلا وجهي وهذه نوبتك فيقول إلهي ارحم عبدك ملك الموت والطف به فإنه ضعيف فيقول سبحانه وتعالى ضع يمينك تحت خدك الأيمن واضطجع بين الجنة والنار ومت فيموت بأمر الله تعالى"[٤٢٦]، وسبحانه الحي الباقي الذي لا يموت ولا يفنى.

فالباقي على ذلك باق إلى غير نهاية، وكل ما لا نهاية له هو باق، فانظر إلى الأكوان هل ترى أن شيء منها باق؟

---

[٤٢٣] الأعراف ٣٤.

[٤٢٤] العنكبوت ١٤.

[٤٢٥] السجدة ١١.

[٤٢٦] تفسير حقي، ج ١٠، ص ٤٦٠.

فالأرض تنتهي كما ينص قول الله سبحانه وتعالى تذكرياً للفاني المنتهي بمصيره القادم، وتحذيراً له قبل الندم، {كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا}[٤٢٧]، وقوله تعالى: (كَلاَّ) ردع لهم عن ذلك وإنكار لفعلهم أي لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا في الحرص على الدنيا وقصر الهمة والجهاد على تحصيلها والاتكال عليها وترك المواساة منها وجمعها من حيث تتهيأ من حلالٍ أو حرام، وتوهم أن لا حساب ولا جزاء. فإن من كان هذا حاله يندم حين لا تنفعه الندامة ويتمنى أن لو كان أفنى عمره في التقرب بالأعمال الصالحة والمواساة من المال إلى الله تعالى، ثم بين أنه إذا جاء يوم الحشر تبين مصير الأرض وطريقة انتهائها، فقوله : (إِذَا دُكَّتِ الأرض دَكّاً دَكّاً) ، فمعنى الدك كسر كل شيء على وجه الأرض من جبل أو شجر حين زلزلت فلم يبق على ظهرها شيء، أي أنها استوت في الانفراش فذهبت دورها وقصورها وسائر أبنيتها حتى تصير كالصخرة الملساء، واعلم أن التكرار في قوله : (دَكّاً دَكّاً) معناه دكاً بعد دك كقولك حسبته باباً باباً وعلَّمته حرفاً حرفاً أي كرر عليها الدك حتى صارت مستوية الانبساط. وهذا الحال لا بد وأن يكون متأخراً عن الزلزلة، لان الباقي سبحانه يقول: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا}[٤٢٨]، فإذا زلزلت الأرض زلزلة بعد زلزلة انهدت الجبال بالقوة التي تُكسَّرُ أوتادها فلا تكون تلالاً بعد أن كانت، وهكذا تكون النهايات.

وآيات انتهاء الأرض عديدة كلها توضح بجلاء حالة الانتهاء ولحظته، يقول الباقي سبحانه وتعالى: {يَوْمَ تَرْجُفُ الراجفة تَتْبَعُهَا الرادفة}[٤٢٩]، وهي الحركة الأولى في لحظة الانتهاء، ثم الزلزلة التي ذكرناها سالفاً، ثم الرج والبس، {إِذَا رُجَّتِ الأرض رَجّاً ، وَبُسَّتِ الجبال بَسّاً}[٤٣٠]، أي زلزلت وحركت تحريكاً شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبل متعلق بخافضة أو برافعة، والبس التقليب، ثم يأتي الدك، {وَحُمِلَتِ الأرض والجبال فَدُكَّتَا دَكَّةً واحدة }[٤٣١].

---

[٤٢٧] الفجر ٢١.

[٤٢٨] الزلزلة ١.

[٤٢٩] النازعات ٦٧.

[٤٣٠] الواقعة ٤، ٥.

[٤٣١] الحاقة ١٤.

والجبال تنسف وتتغير حالتها من الارتفاع إلى الانبساط وهذه نهايتها التي يذكرها الباقي عز وجل فيقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[٤٣٢]، والمياه تجف وتغور في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ}[٤٣٣]، والسماء تنتهي بطيها، {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[٤٣٤]، والطي ضد النشر، وهو الإفناء والإزالة، والعودة إلى الأصل وهي الذرة التي تهيأت عليها الأرض وخلقت، وهكذا كل شيء يَفنى وينتهي ولا يبقى إلا وجهه جل جلاله، {فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}[٤٣٥]، وكذلك يقول الباقي عن الفاني: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى}[٤٣٦]، والعمل ينتهي، {وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا}[٤٣٧] ، وكل شيء ينتهي بأمر القادر على وضع النهايات.

مظاهر الباقي:

١- كلمته (لا إله إلا الله)، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٤٣٨]، ولأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام موحدا لله رب العالمين قال: {إِنَّنِى بَرَاء مّمَّا تَعْبُدُونَ}[٤٣٩]، وهذه كلمة باقية من بعده في قلوب المستخلفين فيها. (كَلِمَةً باقية في عَقِبِهِ) في ذريته عليه السلام الذين لا يزالون على التوحيد لله رب العالمين واحدا أحد لا شريك له، (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) تعليل للجعل أي جعلها باقية في عقبه إلى يوم يبعثون، وكلمة التوحيد باقية لا تفنى لأنها تدل على صلة المخلوق بالخالق الباقي عز وجل، الذي لا يفنى ومن هنا اكتسبت هذه الكلمة صفة البقاء،

---

[٤٣٢] طه ١٠٥ . ١٠٧.

[٤٣٣] هود ٤٤.

[٤٣٤] الأنبياء ١٠٤.

[٤٣٥] الحاقة ٨.

[٤٣٦] النجم ٥٠، ٥١.

[٤٣٧] الفرقان ٢٣.

[٤٣٨] الزخرف ٢٦ . ٢٨.

[٤٣٩] الزخرف ٢٦.

وستبقى هذه الكلمة بعد أن تفنى الخلائق لأنها كلمة بحق الباقي الذي لا يموت تبارك وتعالى.

ويجب أن تكون للخليفة كلمة تبقى وهي كلمة الحق، فعليه أن يعي أهمية كلمة الحق وضرورتها لإعمار الأرض، فهي التي يتم بموجبها تصحيح مسار الحياة على الأرض على طريق الإصلاح الذي أُريد للخليفة أن يقره فيها، فإذا وعى كلمته يجب عليه أن يعممها ويعمم العمل بمقتضاها حتى تعم الفائدة منها ولا تقتصر عليه فقط.

٢- شأنه، الشأن الحال، وهو باقي الشأن من قدرته على البقاء والثبوت، والنقص في ما سواه، فكل صفات الباقي ثابتة لا تتغير لعلة فيها كما في الباقي بالإضافة الذي يتغير لمرض أو لغضب أو لحب أو لكره، فالبقاء المطلق صفته التي لا تتبدل، يقول جل وعلا: {مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٤٤٠]، لذا فهو رحيم مطلق الرحمة، {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٤١]، وهو عفو باقٍ على عفوه، {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}[٤٤٢]، وهو تواب، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}[٤٤٣]، وهو شديد، {عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى}[٤٤٤]، وشدته مفسرة بمحكم الآيات على سبيل ضرب المثل على سبيل الإحصاء والإحاطة التامة بشدته الباقية، فهو شديد العقاب، {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٤٤٥]، وشديد المحال، {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[٤٤٦]، وهو قوي {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}[٤٤٧]، وكل الصفات الأخرى فهي باقية

---

[٤٤٠] ق ٢٩.

[٤٤١] آل عمران ٣١.

[٤٤٢] النساء ١٤٩.

[٤٤٣] النصر ٣.

[٤٤٤] النجم ٥.

[٤٤٥] غافر ٢٢.

[٤٤٦] الرعد ١٣.

[٤٤٧] المجادلة ٢١.

بقاءً مطلقا لبقاء الذات المتصفة بها، ولعله من الواجب أن نقف مع آية كريمة شغلت الألباب لما فيها من معانٍ قد يتوهم البعض خلاف البقاء والثبوت إذا مرت به، يقول الباقي عز وجل: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٤٤٨]، ويبقى وجه ربك يا محمد تشير إلى بقائه بعد فناء كل من على الأرض، {ويبقى} للاستمرار أي سيظل هو الله الباقي واحدا أحداً لا شريك له.

قال تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}[٤٤٩] كل من على الأرض سيفنى ولا يبقى على وجهها أحد، كل شيئا هالك {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٤٥٠] ويبقى الله تعالى لا يفنى إنه الحي الدائم الباقي بالمطلق.

(كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) عندما يكون الأمر متعلق بالمخلوق فالمخلوق في حالة تبدل، بأسباب التغيرات التي تؤثر فيه سلبيا وإيجابيا، وهكذا أيام الله واحدة والأقوال والأفعال البشرية تتبدل وتتغير من حال إلى حال، وستظل أقوال وأفعال الإنسان متبدلة إلى أن يؤمن بالباقي الذي لا يفنى، وعندما يقول: {لِّمَنِ الملك اليوم لِلَّهِ الواحد القهار}[٤٥١] ، فإنه تعالى في ذلك اليوم يجوز أن يكون هو السائل وهو المجيب، ويجوز أن يكون البعث والعباد مؤمنهم وكافرهم يجيبون إجابة واحدة الملك اليوم لله الواحد القهار، ولهذا فشأن الكفرة في الدنيا الإنكار، وشأنهم في اليوم الآخر الاعتراف.

وعليه فالخليفة باقٍ أي باقٍ بتحليه بالصفات الباقية، وأن يتمثل على الدوام قول الباقي المُسْتَخْلِفْ جل في علاه: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[٤٥٢]، أي

---

[٤٤٨] الرحمن ٢٧ . ٣٠.

[٤٤٩] الرحمن ٢٦.

[٤٥٠] القصص ٨٨.

[٤٥١] غافر ١٦.

[٤٥٢] الأنعام ١٦٤.

يجب أن يبتعد الخليفة عن الأخذ بالذنب السابق أو أن يصدر عقوبة لذنب تجاوز عن صاحبه لعودته عنه.

٣– شرعه، شرع الله باقٍ منذ اختار الله آدم ليكون خليفته في الأرض، رحمة منه بالناس وليكون للناس منهاجاً وسراجاً يهتدون به، والشرع هو "ما شَرَع اللّه لِعبادِه من الدِّين: أي سَنَّه لهم وافْترضَه عليهم. يقال: شرَعَ لهم يَشرَع شرْعا فهو شارِع. وقد شرَع اللّهُ الدين شرْعا إذا أظهَره وبيَّنه"[٤٥٣] ، وقد كان هذا الشرع الذي أراد الباقي أن يكون باقياً إلى يوم الدين قد مر بمراحل إلى أن وصل خاتمته برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد بدأ على شكل وصايا وتنبيهات من الباقي عز وجل إلى أول خلفائه آدم فقال له: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٤٥٤]، وفصل له هذه الوصايا فقال عز من قائل: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}[٤٥٥]، والإشارة واضحة إلى القادم من أوامر الله وناهيه، فالآيات كلها تشير إلى الهدى وهو شرع الله الذي يوصي به عباده

---

[٤٥٣] النهاية في غريب الأثر، ج ٢، ص ١١٤١.

[٤٥٤] البقرة ٣٧ . ٣٩.

[٤٥٥] الأعراف ٢٤ . ٣٠.

على مراحل قادمة، وفي المرحلة الثانية كانت الصحف هي التي تمحل مكملات ما شرعه الله للعباد، {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}[456] ، وفي إبهامها ووصفها بالقدم ثم بيانها وتفسيرها من تفخيم شأنها ما لا يخفى وكانت صحف إبراهيم عشرة وكذا صحف موسى عليه السلام والمراد بها ما عدا التوراة، ثم توالت الكتب وهي: ألزبور، {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}[457]، وذكر لنا الباقي عز وجل نصاً من الزبور ضمنه في الكتاب الحكيم فقال: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا في الزبور مِن بَعْدِ الذكر أَنَّ الأرض يَرِثُهَا عبادي الصالحون}[458]، ثم التوراة فالإنجيل فالقران بتسلسل تدلل عليه الآيات الكريمة التي تنص على: {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ وَقَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[459].

---

[456] الأعلى ١٨، ١٩.

[457] الإسراء ٥٥.

[458] الأنبياء ١٠٥.

[459] المائدة ٤٤ . ٤٨.

وهنا قد يتساءل البعض عن حكمة أن يكون شرع الله على هذه المراحل ولم يكن ينزل مرة واحدة؟ والجواب هو أن الباقي حكيم عالم بخلقه، فهو ينزل الشرع على مراحل رحمة بهم ومراعاة من جلاله لضعفهم عن القيام بالكل، وهو أمر اختص به وحده سبحانه، فكان الشرع متسلسلا ليتسنى للعباد القيام به، كما أن الحكيم سبحانه جعل لكل امة شرعا يختص بهم ليناسب معايشهم حكمة منه لتسهيل الحياة عليهم مما يمكنهم من القيام بأمر الاستخلاف، فالباقي باقٍ على عونه دائم في رحمته للإنسان معينا له وهو يقوم بما أمره الله به من استخلاف الأرض و إتباع شرع الباقي.

هنا يجب أن يفهم الخليفة ما أراد ربه جل وعلا، فيجعل ما يشرعه للناس من أحكام ومعاملات متناسبة مع قدراتهم على التطبيق، واعياً للهدف من ذلك وهو قيام الناس بأمر الاستخلاف، وليس الهدف تكليف الناس بغير ما يطيقون لان الحكيم سبحانه يقول: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٤٦٠].

٤- إرادته: وهي صفة لوقوع الفعل على وجه مخصوص دون آخر[٤٦١]، وهو مما اختص به الباقي بالمطلق، لأنه القادر على الإتيان بالفعل على الوجه الذي يريد سبحانه وبالشكل الذي يريد وفي الوقت الذي يريد كما قال الله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون}[٤٦٢]، وإرادته باقية لأنها صادرة من الباقي، وهي مخصوصة بما ذكر لنا في محكم آياته، واختص لنفسه بما لم يخبرنا، فقد ذكر لنا أنه يريد:

أ- التيسير على العباد في كل ما تقتضيه العبادات والمعاملات، فقد أراد القيام بالتكليف على قدر الممكن فقال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا

---

[٤٦٠] البقرة ٢٨٦.

[٤٦١] التعريفات ١. ٤.

[٤٦٢] يس ٨٢.

تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٤٦٣].

ونص على إرادة التيسير في قوله تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٤٦٤]، كما أشار سبحانه إلى التخفيف وهو شكل من أشكال التيسير فقال جل الباقي: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[٤٦٥]، ثم بعد ذلك رفع الحرج عن عباده في حال الكلفة فقال جلت إرادته: {مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٤٦٦]، وعلى ذلك وجب على الخليفة اختيار إرادة التيسير اقتداءً بإرادة الباقي جل وعلا واستيعاباً للفوائد المتحققة من التيسير، فهي تقرب الناس من الطاعة ولا تنفرهم منها أو من الداعي إليها. وكل ذلك يجب أن يكون بخطاب ودود لا فظاً ولا غليظاً متمثلاً قول الباقي جل في علاه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٤٦٧].

ب- يريد الهداية لعباده، {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٤٦٨]، لأمرين أشار إليهما الباقي جل وعلا، الأول: لأنه خلق المخلوقات لعبادته، {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٤٦٩]، فكان من حكمته أنه يسر لنا هذا الواجب بالهداية، والثاني: انتفاء إرادة العذاب بلا موجب، فالله سبحانه وتعالى لا يريد عذابنا إن قمنا بواجب العبادة الموكل إلينا، {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا

---

[٤٦٣] البقرة ٢٨٦.

[٤٦٤] البقرة ١٨٥.

[٤٦٥] النساء ٢٨.

[٤٦٦] المائدة ٦.

[٤٦٧] آل عمران ١٥٩.

[٤٦٨] النساء ٢٦.

[٤٦٩] الذاريات ٥٦.

عَلِيمًا}٤٧٠، فكانت إرادة الهداية موجبة. ودور الخليفة ينحصر في توفير سبل الهداية ومحاربة سبل الضلالة، وما من سبيل إلى الهداية أكثر قوة في التأثير من إشاعة العلم بين الناس في أمور دنياهم ودينهم، لان العلم يوصل بالتأكيد إلى معرفة حق الله في عبادته وحده والإخلاص في العبادة، والى ذلك أشار الباقي جل وعلا في محكم كتابه فقال: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ}٤٧١، الخشية بقدر معرفة المخشي، والعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه. وهذا دليل على أن العالم أعلى درجة من العابد، لأن الله تعالى قال: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ الله أتقاكم}٤٧٢، فبين أن الكرامة بقدر التقوى، والتقوى بقدر العلم.

ج – التفريق والتمييز وفقا للإرادة: فكان التميز بين العباد بالإيمان والكفر والشرك مما جعل القول والفعل دليلا للتمييز بين ما يجب وما لا يجب، قال تعالى: {وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}٤٧٣، فقد ميز الباقي سبحانه أن أموال الكفار في الحياة الدنيا هي لعذابهم فقال سبحانه وتعالى: {فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}٤٧٤.

أما أموال المؤمن فهي رحمة منه ورضواناً لينفق منها في ما يرضي الباقي جل وعلا، قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}٤٧٥، وأوجه التميز في الدنيا محدودة وذلك من رحمة الله بعباده ومن عدله وحكمته، لأنه ما من عائدٍ إلى طاعة الله إلا رفع عن حكم الكافر فخرج من جماعتهم إلى جماعة المؤمنين فسقط عنه التمييز، لكن

---

٤٧٠ النساء ١٤٧.

٤٧١ فاطر ٢٨، ٢٩.

٤٧٢ الحجرات ١٣.

٤٧٣ آل عمران ١٧٦.

٤٧٤ التوبة ٥٥.

٤٧٥ البقرة ٣.

بعد الحياة حيث لم يبق للعبد إلا عمله هنا يحصل التمييز العادل وبالحق بين من أطاع ومن كفر، فيثاب الطائعون بالجنة وما فيها من طيبات، {إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ}[٤٧٦].

ويُجزى الكافرون بالنار، وأول ما يجزى به هؤلاء هو التمييز عن غيرهم وهي العقوبة الحق، مصداقا لقوله تعالى: {وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}[٤٧٧]،ثم يأتي الجزاء الآخر عافانا الباقي منه برحمته، {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا}[٤٧٨].

فالخليفة عليه أن يميز بالمعرفة لا بالمعاملة بين المؤمنين والمنافقين، وعليه أن يحتفظ بهذا في مكنون معرفته ثم يذكر بما آتاه الباقي من آيات الذكرى ثم ينظر عمل كل منهم فيثيب الذي بقي على إيمانه وكذلك العائد من النفاق إلى الإيمان، ويدعو لمن بقي فإذا أصر وتولى وكفر فان الله سيعذبه العذاب الأكبر: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}[٤٧٩]، فدور الخليفة إذا ينحصر في التذكير فعليه أن يجتهد فيه.

د – يريد العدل وذلك يحث خلائفه على الامتناع عن الظلم، فقد نزه نفسه عن الظلم جل وعلا فقال: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[٤٨٠]، وفي هذه الآية دعوة واضحة إلى الاقتداء به سبحانه وتعالى وترك الظلم، ولهذا فالباقي هو العدل الذي يستوجب أن يسود بين المستخلفين فيها، ومن لا يعدل يضل ثم يرد إلى ربه ليرى العذاب

---

[٤٧٦] يس ٥٥ . ٥٨.

[٤٧٧] يس ٥٩.

[٤٧٨] الكهف ٢٩.

[٤٧٩] الغاشية ٢١، ٢٤.

[٤٨٠] آل عمران ١٠٨.

الأكبر، {قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا}[٤٨١]، وقال تعالى: {وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ}[٤٨٢].

وهذا ما يجب أن يعيه الخليفة فيجعل العدل باقياً بين الناس وذلك بترسيخ الإدراك عند الناس لأن ما من حكم يصدر إلا عن عدل ومن عدل ولعدل، وهنا سيكون العدل باقياً في النفوس بتحققه بين الناس على الأرض، وهذا أمر الله الباقي وجب على الخليفة القيام به كواجب من واجباته، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٤٨٣].

هـ- يريد لنا التوبة، وهي إرادته الباقية لكل عباده وفي كل الأزمان والأماكن، وهي عكس إرادة الذين كفروا كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى :{وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا}[٤٨٤] .

ويجب أن تكون إرادة الخليفة مستمدة هنا من إرادة الباقي عز وجل، أي أن ينتظر توبة المخطئ ويقبلها منه فيتجاوز عن السابق من الذنب، ولا يمل من كثرة عودة التائبين ولا من عددهم بل يجب أن يُبقي إرادة التوبة في ذاته لأن من شأن ذلك تحقيق الإصلاح الذي هو من أبرز مهام الاستخلاف في الأرض.

٥- قدره: تدل الآيات الكريمة على بقاء قدره سبحانه وتعالى، {سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى}[٤٨٥]، وقوله: (قدَّر) تعني إنه حقق الشيء على الاتزان والاعتدال، فجعل كل شيء بحسبان، {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ

---

[٤٨١] الكهف ٨٧.

[٤٨٢] المائدة ٤٩.

[٤٨٣] النساء ٥٨.

[٤٨٤] النساء ٢٧.

[٤٨٥] الأعلى ١ ـ ٣.

مَّعْلُومٍ}[٤٨٦]، فالموت وهو قدر الباقي كتبه على الخلق كلهم وليس بإمكان أحد المنع أو الرد أو إنهاء هذا القدر لعدم وجود القدرة على ذلك، فهو قدر باقٍ من إله باق، {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}[٤٨٧]، ومن الآيات الدالة على قدره الباقي جل وعلا تقدير الليل والنهار، {وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[٤٨٨]، وما ينتج عن حركة الأفلاك من متغيرات تحدد الوقت فتنظم المعايش، وتهيأ سبل الراحة للإنسان الموكل بأعمال الدنيا والآخرة، {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[٤٨٩].

بقي أن نسأل هل للخليفة قدر؟ يجب على الخليفة أن يصنع لنفسه قدراً وذلك بإقرار الحق وإزهاق الباطل، ويجب عليه أن يُفهم العباد أن هذا قدره الذي لا يساوم فيه ولا يبدله، وبالتقدير يتم نيل الاعتراف، ويتحقق الرضا النفسي ويعم بين من نال التقدير وبين من قدره بالحق، ولهذا لا ييأس غريب من عدلٍ هو بأمس الحاجة إليه. والقدر نصيب وفقا لكل خصوصية، فمن قدَّر الآخرين قدر نفسه، ومن لم يقدرهم بما هم عليه لن يقدروه حق قدره.

٦- نعيمه: هو وعد الله وثوابه، وقضى الباقي عز وجل بأن الحياة الدنيا فانية منتهية وأن الباقية هي حياة الآخرة فأعملوا لها للفوز بالنعيم الباقي، يقول عز من قائل: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٤٩٠] فالفوز هنا محصور بالحياة الدائمة والنعيم الباقي، ووعده باقٍ لأنه من الباقي فلا تبديل لكلمات الله التامة، {الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٤٩١]، وقد قال عز من قائل في وصف وصف نعيمه، {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا

---

[٤٨٦] الحجر ٢١.

[٤٨٧] الواقعة ٦٠.

[٤٨٨] المزمل ٢٠

[٤٨٩] الأنعام ٩٦.

[٤٩٠] آل عمران ١٨٥.

[٤٩١] يونس ٦٣، ٦٤.

وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٤٩٢]، فهو نعيم باق ينعم به الخالدون، وهو بشراه الباقية لكل من أطاعه، {يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[٤٩٣].

والنعيم باقٍ لمن عمل له، فهو لمن تزين بعمل الآخرة مؤمناً بأنه الباقي عند الباقي جل وعلا، وأخذ من زينة الدنيا على قدر حاجته ولم يزد على ذلك، يقوْل الباقي سبحانه: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا}[٤٩٤].

وهذا النعيم الباقي له أثر باقٍ، {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ}[٤٩٥]، فالوجوه متأثرة بأثر هذا النعيم الباقي، فهي ناضرة كما يصفها الباقي عز وجل: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ}[٤٩٦]، أي مشرقة بالنعيم.

والخليفة يدرك أنه لا يملك مثل نعيم ربه، لكن عليه أن يجعل حياة المؤمنين من حوله ممن يعملون بالحق ويدعون إليه ويمنعون الفساد ويحاربونه نعيماً يستشعرون معه بلذة الطاعة، فيجعل لكل مستحق أجراً كما جعل شعيب لموسى عليهما الصلاة والسلام على قدر العمل، {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ

---

[٤٩٢] لقمان ٨، ٩.

[٤٩٣] التوبة ٢١، ٢٢.

[٤٩٤] الكهف ٤٦.

[٤٩٥] المطففين ٢٢ . ٢٤.

[٤٩٦] القيامة ٢٢.

وَكِيلٌ}[497]، ويجب على الخليفة أن يحرص على مكافأة العاملين امتثالاً لحكم الباقي عز وجل الذي يقول: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا}[498]، وفي هذه الآيات حِكم عظيمة للخليفة، فالأجر والمكافأة هي من أقوى الدوافع النفسية والجسدية لاستمرار العباد بالعمل الصالح، ولاستمرار مسيرة إعمار الأرض الموكلة بالخليفة، وبدون المكافأة والأجر لن تجد من يقوم بهذه المهمة إلا قليل ممن يعملون لوجه الله خالصا ولا ينتظرون أجر الدنيا فيسألون الباقي وحده.

٧- عذابه، هو باق بحق من بقوا على كفرهم وهو باق مطلق من عدل مطلق، {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[499]، وتدل لفظة مقيم المصاحبة للفظة العذاب في كثير من الآيات على كونه باق بحق مستحقيه، يقول الباقي جل في علاه: {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[500]، كذلك تشير الآيات إلى الديمومة والاستمرار وهي من أوجه البقاء، كما في قوله تعالى: { كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا}[501]، فَهَذَا فَنَاءٌ وَتَجْدِيدٌ دلالة على البقاء، فهو عذاب مستمر غير قابل للتخفيف ولو بجزء زمني بسيط حدده المولى عز وجل بيوم فقال: {وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ}[502]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ}[503]، والعذاب باق حتى لو حرص الإنسان على تأخيره ورغب في ذلك إلا أنه لم يزل يتمنى ما لا يقدر على فعله، فهو يتمنى أن لا يلق العذاب لكنه ينسى أنه فانٍ والعذاب باقٍ للمستحق كما

---

[497] القصص ٢٤ . ٢٨.

[498] الكهف ٣٠.

[499] المائدة ٣٦.

[500] المائدة ٣٧.

[501] النساء ٥٦.

[502] غافر ٤٩.

[503] البقرة ١٦١، ١٦٢.

يصف الله عز وجل هذه المعادلة بين رغبة الفاني (الإنسان) وبين العذاب الباقي بقوله عز من قائل: {وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[٥٠٤]. وكانت نتيجة هذا البقاء هو الخلود في النار كما يخبر الباقي عز وجل: {تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ}[٥٠٥].

والعذاب الباقي موصوف بصفات منها:

١ . شديد: {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}[٥٠٦].

٢ . مديد طويل: {كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا}[٥٠٧].

٣ . مضاعف: {يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}[٥٠٨].

٤ . أليم: {أليم لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ}[٥٠٩].

٥ . كبير: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٥١٠]، وقال تعالى: {فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ}[٥١١].

٦ – مهين: وهذا العذاب المهين مخصوص بالذكر لأهمية التنبيه عليه من الباقي عز وجل فأكثر من الإشارة إليه كما هو آتي:

أ . الكفر بالمعصية لأولياء الله وخلفائه توجب العذاب المهين، {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ}[٥١٢] .

---

[٥٠٤] البقرة ٩٦.

[٥٠٥] المائدة ٨٠.

[٥٠٦] البقرة ٨٥.

[٥٠٧] مريم ٧٩.

[٥٠٨] الفرقان ٦٩.

[٥٠٩] الشعراء ٢٠١.

[٥١٠] السجدة ٢١.

[٥١١] الغاشية ٢٤.

ب . الطغيان على الناس بالأموال التي وهبها الله أو بالقوة أو بالبنين هو مما يوجب هذا العذاب، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥١٣]. ولذا فإن تعدي حدود الله يجعل هذا العذاب المهين مستحقاً، {وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥١٤] .

ج التكذيب بالآيات، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥١٥].

د . الاستهزاء بآيات الله ورسله وكتبه من موجبات العذاب المهين، {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥١٦].

هـ . وكذلك التلاعب بالإيمان لتسيير أغراض دنيوية، {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥١٧].

ولأهمية تجنب الوقوع بما يوجب العذاب المهين يجب على الخليفة أن يكون له دور بارز في توعية العباد إلى الموجبات التي تزيل هذا العذاب، وأن يدعوهم إلى تجنب مسبباته، بل عليه تيسير أسباب الاجتناب بالمطلق، فلا يسمح بالكفر ولا بالطغيان ولا تعدي حدود الله ولا التكذيب بالآيات، وأن يحارب الاستهزاء بالله وبرسوله كما يحدث الآن من قبل بعض أعداء الدين الحق وبعض الحاقدين المبغضين لله ورسوله، فلا يترك وسيلة حق إلا أتبعها من أجل الدفاع عن الله ورسوله، وأهم هذه الوسائل إشاعة الوعي بين العباد لهذه الأفكار لئلا يقعوا فيها أو أن يسايروا من يدعوا بها وإليها.

---

[٥١٢] سبأ ١٤.

[٥١٣] آل عمران ١٧٨.

[٥١٤] النساء ١٤.

[٥١٥] الحج ٥٧.

[٥١٦] لقمان ٦.

[٥١٧] المجادلة ١٦.

٧ . عظيم: قال تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٥١٨] .

ولأنه جل جلاله الباقي فهو الذي هدى وأبدع كل شيء خلقه، {رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٥١٩] ، ثم هو الذي يرث ملكه الباقي له وحده، {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[٥٢٠]، وهنا يصدح قول الحق بوجه الباطل بكل أنواعه، قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٥٢١].

وإذا أردنا أن نبحث لمزيد من المعرفة بالباقي، فلننظر إلى الفاني، إلى المتغير لنعرف الباقي الثابت بعد زوال غيره[٥٢٢]، فالفاني متغير حاله من الموت في الرحم إلى الحياة في الدنيا ثم إلى الموت القبر وهو رحم الأرض، {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٥٢٣]، والباقي حي لا يموت، {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}[٥٢٤]، ولأنه مالك الإحياء والإماتة، قال: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٥٢٥]، فالباقي الذي يُفني ولا يفني {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٥٢٦].

---

[٥١٨] البقرة ١١٤.

[٥١٩] طه ٥٠.

[٥٢٠] مريم ٤٠.

[٥٢١] غافر ١٦.

[٥٢٢] معجم لغة الفقهاء، ج ١، ص ١٠٣.

[٥٢٣] البقرة ٢٨.

[٥٢٤] الفرقان ٥٨.

[٥٢٥] الأنعام ٩٥.

[٥٢٦] القصص ٨٨.

وانظر إلى مرض الفاني وتأمل في التغيرات الحاصلة عليه من حيث المبنى الجسدي أو الانفعال المزاجي له، وتأمل فيما يصدر عنه من ضعف وارتباك في الجسد والسلوك لتعرف عظمة الباقي جل شأنه، ثم تأمل في نوم الفاني وما يصدر عنه من غفلة عظيمة بحق نفسه وغيره وما يترتب على ذلك من مكاره، ثم تأمل في الباقي حياً قيوماً، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٥٢٧]، وفي المنافع الحاصلة لذلك، فهو الباقي حيث الفاني نائماً غافلا عن الإجابة، والباقي يسمع ويجيب في الليل كما يسمع ويجيب في النهار، ويحصي عمل العبد خيرا كان أم شرا، {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٥٢٨]، وتأمل أيها المعاند غير ذلك فكيف سيكون حال الأرض والإنسان عليها من دون الله الباقي الحي القيوم؟ فسبحان الله عما يصفون! ودور الخليفة يتمثل في وجوب تحليه بالحضور الدائم في قضايا العباد ومسائل دينهم ودناياهم، وأن يبتعد عن الغفلة والإهمال، وأن يحرص على امتلاك القدرة على التأثير في مجريات الأمور بما مكنه الله في الأرض فيستخدم الوسائل ويتبع الأساليب التي ألهمه الله إياه لغرض خدمة العباد والقيام بأمرهم.

والفاني يغضب مما يصاحب ذلك إرادة الضرر للمغضوب عليه، وهو في الغالب انفعال ينتج عنه عدم انضباط في السلوك، لذلك أوصى الباقي الخليفة بعدم الغضب وحثه على كظم

---

[٥٢٧] البقرة ٢٥٥.

[٥٢٨] المزمل ٢٠.

الغيظ فقال جل وعلا: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٥٢٩]، وتأمل حال الفاني ساعة الغضب لتسبح طويلاً للباقي الحكيم الذي لم يدفعه عصيان عباده إلى أخذهم بسوء أعمالهم أنما غلّب الرحمة على غضبه فأمهلهم حتى يعود من يعود ليجد الباقي رحيما توابا، {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا}[٥٣٠].

وغضبه سبحانه محصور بالمصرين على محاربة الله ورسله، أولئك الذين يصفهم سبحانه بقوله جل في علاه: {وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٥٣١]، أو الذين ارتضوا الكفر منشرحين الصدر به، {وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[٥٣٢]، وبشهداء الزور من غير إكراه وبلا وجه حق أي برضاه ورغبة منه في تحقيق مكسب دنيوي بالباطل، مثل المرأة التي تتهم زوجها بالزنا بالباطل لغرض أن تنزل به القصاص وتحقق هي بذلك منفعة دنيوية لها، {وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ}[٥٣٣]، وبالمجادلين بغير حق، {وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ}[٥٣٤] .

وتأمل في بخل الفاني وحبه للمال وحرصه عليه، لتعرف الباقي كريماً حناناً مناناً، فالفاني محبٌ للمال، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[٥٣٥]، بخيلٌ به غافلٌ عن تبعات ذلك البخل، {وَلَا

---

[٥٢٩] آل عمران ١٣٤.

[٥٣٠] النساء ١١٠.

[٥٣١] البقرة ٩٠.

[٥٣٢] النحل ١٠٦.

[٥٣٣] النور ٩.

[٥٣٤] الشورى ١٦.

[٥٣٥] الفجر ٢٠.

يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[536]، آمرٌ به، {الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[537]، فتأمل الخير من مثل هذا الفاني، وتذكر الغني الكريم الذي يرزق العباد بغير حساب ولا ينقص من ملكه الباقي شيء، {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[538]، وهو الذي يرزق الكافر والعاصي على حد سواء لأنه ربهما الباقي ولا رب سواه، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[539]، فأما المؤمن فانه يقر بنعمة ربه ويشكر، {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }[540]، وأما الكافر فإنه يرد بالتكذيب، {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}[541].

وهو الذي يأمر عباده بالكرم ويحثهم عليه، {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[542]، والكافر يرى غير ذلك، إذ يرى أن المال الذي بين يديه

---

[536] آل عمران ١٨٠.

[537] النساء ٣٧.

[538] الأنعام ١٤١، ١٤٢.

[539] هود ٦.

[540] النمل ٤٠.

[541] الواقعة ٨٢.

[542] البقرة ٢٦١، ٢٦٢.

ملكه وحده ولا يمكن أن يشترك فيه معه أحد، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٥٤٣].

وعلى الخليفة أن يشرح للعباد قباحة البخل، وأن يشيع مبدأ الإنفاق بين الناس وأن يعلمهم أصوله، فيدلهم على مقاصده المتمثلة بالإنفاق على النفس والغير من أهل وزوج وعيال بالحق، ثم للذين نص عليهم الباقي سبحانه بقوله: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[٥٤٤]. وأن يمنع إلى جانب ذلك الإنفاق السلبي المتمثل بالإسراف الذي نهى عنه الباقي في آيات القران الكريم، {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[٥٤٥].

وتدلل الآيات على أحوال الفاني المتغير لتجعلنا ندرك على وجه اليقين حال الباقي عز وجل: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ }[٥٤٦].

وهذا التفاوت إنما هو تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم، وتمامهم ونقصانهم، وإنما نقلناكم من حال إلى حال ومن خلقة إلى خلقة (لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ) بهذا التدريج قدرتنا وحكمتنا وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولاً، ثم من نطفة ثانياً ولا تناسب بين الماء والتراب وقدر على أن يجعل النطفة علقة وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة والمضغة عظاماً ثم (نقر) إخبار بأنه يقُرّ في الأرحام مَا يَشَاء أن يقرّه من ذلك إلى أَجَلٍ

---

[٥٤٣] يس ٤٧.

[٥٤٤] البقرة ٢١٥.

[٥٤٥] الأعراف ٣١.

[٥٤٦] الحج ٥.

مُّسَمًّى وهو وقت الوضع آخر الأشهر المعدودة، أو السنة المعدودة، أو كما شاء وقدّر. وما لم يشأ إقراره محته الأرحام أو أسقطته. أما قوله تعالى: (ثُمَّ لِتَبْلُغُواْ أَشُدَّكُمْ)، الأشد: تمام القوة والعقل والتمييز والقدرة، ومنكم من يتوفى أي يتوفاه الله، أما أَرْذَلِ العمر فهو الوهن الإيماني أو العقلي، (لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً).

كما أن حاجات العبد غير متناهية، لأن كل ما سوى الله تعالى فهو متناهي البقاء والقوة إلا بإمداد الباقي، فالعبد محتاج للأكل، {وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٥٤٧] ، الشرب، {وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[٥٤٨]، وتحركه الشهوة، {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٥٤٩]، ويحتاج إلى الراحة، {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ}[٥٥٠]، ويحتاج النوم، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}[٥٥١]، وكلها دالة على النقص الحاصل فيه من جهة وعلى الكمال في الباقي، وعند مقابلة حاجة العبد التي لا نهاية لها من كمال الله الذي لا نهاية له، يحصل العلم بكمال

[٥٤٧] البقرة ٥٧.

[٥٤٨] البقرة ٦٠.

[٥٤٩] البقرة ١٨٧.

[٥٥٠] النحل ٨٠.

[551] الفرقان ٤٧.

الباقي جل وعلا، فهو الأكرم، {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[٥٥٢]، الأكرم، الذي له الكمال في زيادة كرمه على كل كرم، ينعم على عباده النعم التي لا تحصى، ويحلم عنهم فلا يعاجلهم بالعقوبة مع كفرهم وجحودهم لنعمه وركوبهم المناهي وإطراحهم الأوامر، ويقبل توبتهم ويتجاوز عنهم بعد اقتراف العظائم، فما لكرمه غاية ولا أمد، وكأنه ليس وراء التكرم بإفادة الفوائد العلمية تكرم، حيث قال الأكرم (الذي عَلَّمَ بالقلم عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ) فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم والإيمان، ونبَّه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلاّ هو. وهو الأرحم، {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[٥٥٣]، والأعلم، {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٥٥٤] .

وللباقي كمال القدرة التي تشير إليها كثير من آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}[٥٥٥]، والآية تتحدى إنكار المنكرين لقدرة الله وذلك ببيان كمال قدرته سبحانه الذي خلق هذه الخلائق العجيبة التي هي من دلائل كمال القدرة، فهو الذي مهد الأرض من حيث التضاريس والطقس وقوانين الجاذبية وغير ذلك فيسر العيش عليها بقدرة منه، ويكفي أن نتأمل حال الكواكب الأخرى التي لم يكتب الله تيسير سبل العيش فيها لتعي حقيقة قول الباقي (مهادا) فالمهاد مشتق من المهد وهو سرير يخصص للطفل وتتوفر فيه كل وسائل الراحة وكذلك الأرض بالنسبة للإنسان فقد كانت بقدرة الباقي راحة وقياماً بحاجات الإنسان عليها، وجعل النهار معاشاً تستيقظون فيه وتتقلبون في حوائجكم ومكاسبكم. والليل سباتاً للراحة، أما السَبْع الشداد فهي السماوات وشِدَاداً جمع شديدة، يعني:

---

[٥٥٢] القلم ٣، ٥.

[٥٥٣] الأعراف ١٥١.

[٥٥٤] النحل ١٢٥.

[٥٥٥] النبأ ٦، ١٦.

محكمة قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الأزمان فهي باقية بقدرة الله، وَهَّاجاً متلألئا وقاداً، يعني الشمس، وكذلك المعصرات: السحائب إذا أعصرت، أي شارفت أن تعصرها الرياح فتمطر. كل هذه من دلائل كمال القدرة للباقي عز وجل. أما الفاني فإنه ناقص القدرة، بل هو فاقدها بالمطلق لولا رحمة الباقي، فالفاني لا يملك القدرة اللازمة للإتيان بالأعين أو مدركات الحواس عموما، وعن ذلك يقول الباقي سبحانه: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[٥٥٦] ، فالفاني لا يملك القدرة على الجعل لأي من أجزاء جسده من عيون وما يختفي من أسرار في كيفية أداء عملها، ولا لسان لينطق به فيكفر أو يؤمن بقدرة الباقي، ولا غير ذلك من أجزاء الجسد، وعجائب هذه الأعضاء مذكورة في كتب التشريح، وقال أهل العربية النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "يا أيها الناس أنيبوا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير يا أيها الناس اتقوا النار ولو بشق تمرة"[٥٥٧] .

وقد جمعت سورة الإخلاص كل دلالات الكمال، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٥٥٨]، فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه، واسمه الأحد يتضمن أنه لا مثل له، فالصمد سيداً لا يساد، وفي هذا دلالة على صفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال، فمن كان مصموداً إليه في جميع الحاجات ومتعالياً عن كل سمت حدث وشائبة نقص كان موجداً لكل ما يريد من نفع وضر ونافع وضار قادراً على حفظ ما يريد، وكان معلوماً كالشمس أنه لا شريك له، وأنه هو وحده المستحق للعبادة

---

[٥٥٦] البلد ٨ . ١٠.

[٥٥٧] جامع الأحاديث ، جلال الدين السيوطي، ج ٢٣، ص ١٥٩.

[٥٥٨] الإخلاص ١ . ٤.

لاحتياج الكل إليه الاحتياج المطلق وغناه عنهم الغنى المطلق، وتفرده بصفات الكمال والانقطاع عن قرين وإلى الصمدانية ينتهي التوجه وهو الإقبال بالكلية[٥٥٩].

ولو تأملت مزيد من أحوال الفاني لزادت معرفتك بالباقي جل وعلا، فما من صفة تجدها في الفاني إلا وهي متغيرة متبدلة، وما من صفة تعرفها عن الباقي سبحانه إلا وهي باقية ثابتة، فتعالى الباقي عما يصف الكافرون، والحمد لله رب العرش العظيم.

اللهم يا الباقي اجعلنا على الإيمان باقين، وبتوحيدك متمسكين ثابتين، وبالشرك بك كافرين، وعلى طاعتك مهتدين، اللهم أبقينا على العدل والرحمة، والصدق وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، اللهم أجعلنا يا الباقي على الإصلاح عاملين لا مفسدين، ولا تجعلنا من سافكي الدماء فيها بغير حق، ولا تجعلنا من الضالين ولا المغضوب عليهم ولا تجعلنا من الفاسقين الجاحدين لفضلك وكرمك وجودك سبحانك جل جلالك أنت ربُّ العالمين، اللهم اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين.

اللهم إنك أنت الباقي الدائم فاجعلنا على الحق باقين وعلى توحيدك وشكرك مداومين بك متصلين غير منقطعين، اللهم إنك الباقي مالك الملك الباقي وكل شيء غيرك هالك فاجعلنا على الإصلاح والفلاح ولا تجعلنا على الهلاك، اللهم يا الباقي نسألك أن تعصمنا من فتن الدنيا وتوفقنا لما تحب وترضى، وأن تبارك لنا في الصالحات الباقيات من أعمالنا، تصلح لنا شأننا كله وتبقي علينا الصحة والعافية حتى نؤدي حق طاعتك وعبادتك علينا، ولا تضلنا وإن كنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا سيئاتنا وأبقنا على الحسنات وضاعفها لنا، اللهم أنت الباقي الذي سبَّحت له السماوات بأكنافها، وسبَّحت له البحار بأمواجها، وسبَّحت له الجبال بأصدائها، وسبَّحت له الحيتان بلغاتها، وسبَّحت له النجوم في السماء بأبراجها، وسبَّحت له الأشجار بحفيفها وأصولها وثمارها، وسبَّحت له السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن، وسبَّح له كل شيء من مخلوقاته، تباركت وتعاليت سبحانك، سبحانك يا الحي يا الدائم يا الباقي، كل شيء هالك إلا وجهك الكريم.

---

[٥٥٩] نظم الدرر للبيقاعي، ج ١٠، ص ٥٧.

الوارث

الوارث: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك وذلك هو الله سبحانه وتعالى إذ هو الباقي بعد فناء الخلق وإليه مرجع كل شيء"[٥٦٠].

من أسماء الله الحسنى "اسمه الوارث فقد سمي الله نفسه به على سبيل الإطلاق والتعظيم"[٥٦١]

في البداية وقبل أن ننطلق إلى الغوص في أسرار وأنوار وتجليات الاسم (الوارث) نريد أن نحدد من خلال المتعارف عليه والذي يعد من البديهيات أن الميراث يكون من مالك أصلي يملك ملكاً لا ينازعه فيه أحد يئول إلى آخر يستحق الميراث انطلاقا من صلة قرابة تفضي إلى أحقية في الميراث، وتأسيسا على ذلك فإنه لا يوجد مالك أصلي على وجه الأرض بل في كلٍ ملك لله من عالم مرئي محسوس ملموس أو غير مرئي لا محسوس ولا ملموس، أو ما يمكن أن نسميه عالم الغيب الذي نؤمن به كما أخبرنا الله به في كتابه العزيز يقول تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٥٦٢] فمن على الهدى يوقن أن الله سبحانه وتعالى الأول بلا بداية لذا فهو مبدع الكائنات والموجودات المعلوم منها لنا والمجهول ومن هذا الإبداع الإنسان وما يملكه من عقل يفكر وعين تبصر ويد تبني أو تهدم ترحم أو تبطش، فكيف يملك الإنسان شيء لم يكن له فيه أي دور بل إن كل ما يحيط به هو لله والأكثر من ذلك أن الإنسان وما فيه من نعم ملك لله فكيف يرث إنسان من إنسان لا يملك حتى أمر نفسه وهي أبسط الأشياء ؟!.

وعلى ما تقدم فكل ميراث لا محالة وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث.

---

٥٦٠ المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٤٨.

٥٦١ أسماء الله الحسنى، ج ١٤، ص ١٨.

٥٦٢ البقرة ١ . ٥ .

الوارث: صفة من صفات الله عز وجل. وهو الباقي الدائم الذي يرث الأرض، ومن عليها، ويبقى جل جلاله بعد فناء الكل، ويفنى من سواه، فيرجع ما كان ملكه العباد إليه وحده لا شريك له[٥٦٣].

الوارث: هو من له حق المُلك.

. وإذا تساءل البعض: مِن مَن يُورث المُلك؟.

. تكون الإجابة بطبيعة الحال: المُلك يُورَّث من مالكه.

. ومن هو مالكه بالمطلق؟.

. الله مالك الملك المطلق.

. إذن لا مالك سواه للملك المطلق.

. نعم إنه الله الذي لا إله سواه.

. وما هو المُلك؟.

. الملك يمتد من النبوة إلى الحكم والحكمة والعلم إلى الثروة وإلى الإنس والجن والملائكة، والموت والحياة والجنة والنار والعقاب والثواب؟.

. ومن ذا الذي يملك كل ذلك؟.

. إنه الوارث.

. ومن ذا الوارث الذي ينفرد بملك كل ما ذكر؟.

. الله جل جلاله.

. ومتى تكون الوراثة حقا؟.

. عندما يكون النصيب فيها.

. ومتى تكون الوراثة كاملة؟.

. عندما لا يوجد شركاء في خلقها وإيجادها.

---

[٥٦٣] القاموس الفقهي ، ج ١ ، ص ٣٧٧.

. إذن لا مالك للخلق إلا الخالق عز وجل، ولا وارث من بعده إلا هو، ولا مالك للأرض ومن عليها والسماوات ومن فيها إلا خالقها، ولذا لا وارث لها إلا هو، وهكذا لا يملك الجن والإنس والملائكة إلا خالقهم، ولأن الخالق واحد أحد، إذن لا يرث المخلوق إلا الخالق الواحد الأحد.

. وبما أن الوارث جعل في الأرض خليفة، ألا يكون له الحق في حمْل الأمانة؟.

نعم له الحق في حملها، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث المطلق الذي يرث الخليفة).

. ومتى تكون الوراثة؟.

. عندما يكون المورث حق.

. ومن الذي يرث الحق؟.

. لا يرث الحق إلا الحق.

. وأيهما اسبق الوارث أم الموروث؟.

. الوارث أولا وآخرا.

. كيف يكون أولا وآخرا؟.

. أولا لأنه السابق على كل سابق. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآَتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}[٥٦٤]. وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٥٦٥].

. وآخرا لأنه الحي الذي لا يموت.

---

[٥٦٤] الحجر ٨٥.

[٥٦٥] يس ٧٧ ـ ٨٣.

. إنه الحق {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ}[٥٦٦] تفنى الخلائق ويبقى الملك لله.
. وعليه، لا يرث الخليفة شيئا إلا بالحق.
. نعم سيكون الخليفة فيما أتاه الله من النبوة والحكمة والعلم والثروة مستخلفا بالوراثة، ومع أنه مورث نسبيا فيما أتاه الله إلا أنه لم يورث بالمطلق في أمر الموت والحياة.
. ولكن للخليفة بداية ونهاية.
. إنه الحق، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء مما يملك المالك، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثا إلا مالكه بالمطلق لا إله إلا هو.

وبناءً عليه، فكل ميراث هو وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قال الإمام الغزالي: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء المُلك"[٥٦٧].

الوارث هو المالك الأوحد وهو الأول والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، وهو الباقي الذي يرث ما خلق. فلو لم يكن مالكا ما ورث، ولو لم يكن وارثا ما خلق، ولو لم يكن باقيا ما كان وارثا سبحانه.

والوارث الأوحد هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله الواحد الأحد الأول بلا بداية والأخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلة نسب بأي مخلوق، وكيف تربطه صلة بمخلوق؟!! وهو جل وعلا خالقه.

إن الصلة لا تتعدى أن الخلق جميعاً عباد لله سبحانه وتعالى لأنه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول الله تعالى عن صفته الذاتية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٥٦٨]، فلا توجد بين الله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأباعد، إذاً فليس لديه سبحانه وتعالى ميراث ورثه من أحد ولا يستحق أحد

---

[٥٦٦] الحديد ٣.
[٥٦٧] محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى ، الإسكندرية، ١٩٩٦، ص ٩٢.
[٥٦٨] الإخلاص ١ . ٤ .

أن يرثه لأنه الحي القيوم الدائم الباقي، وورد في تفسير قوله تعالى: {قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ} أن قريشاً قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: صِفْ لنا ربَّك الذي تعبده وتدعونا إليه ما هو؟ فأنزل الله تعالى: {قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ} قل يا محمد للكفار إن ربي الذي أعبده {هُوَ الله أَحَدٌ} فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له، ثم قال عز وجل: {الله الصمد}، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم و{الصمد} السيد الذي انتهى سؤدده، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: الصمد الدائم، وقال قتادة الصمد الباقي، ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ويقال: الصمد التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصْمَد إليه في الحوائج ثم قال عز وجل (لَمْ يَلِدْ) لم يكن له ولد يرث ملكه. {وَلَمْ يُولَدْ} لم يكن له والد يرث عنه ملكه {وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ} لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه[٥٦٩].

الوارث: هو المالك، أي لو لم يكن مالكا ما كان وارثا، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه، حيث لا وارث له إلا هو، قال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٥٧٠]. فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه، يبقي من بعدهم الملك الذي خُلِقوا منه وخُلِق لهم وخُلق من قبلهم سابق عليهم، فبعد الموت لمن يكون الملك؟.

يكن لله الواحد القهار.

فالله سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد فهو عز وجل لم يولد فيرث من غيره ميراث، وهو كذلك لم يلد فيرث أحد منه ميراث، لذا فقد أمر الله –الوارث لنفسه من نفسه – النبي

---

[٥٦٩] بحر العلوم للسمرقندي، ج ٤ ، ص ٤٤٩.

[٥٧٠] غافر ١٥، ١٦.

صلى الله عليه وسلم في كتابه الكريم أن يقول: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}[٥٧١].

نعم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فتتفرق الأهواء والآراء فيفسد الكون، والحمد لله الوارث الذي لا ينافسه أحد في ملكه ولا يشاركه بالخلق أو النسب.

والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم:

(وَقُلِ الحمد لِلَّهِ الذي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) كما يزعم اليهودُ والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيرٌ ابنُ الله والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله تعالى عن ذلك علواً كبيراً (وَلَم يَكُنْ لَّهُ شَرِيكٌ في الملك) أي الإلوهية كما يقوله القائلون بتعدد الآلهة (وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ وَلِيٌّ مَّنَ الذل) ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه، والحمد لله الذي لم يوالِ أحداً من أجل مذلةٍ ليدفعها به، والحمدِ بهذه الصفاتِ الجليلة إيذانٌ بأن المستحقَّ للحمد مَنْ هذه نعوتُه دون غيره[٥٧٢].

وعليه فإن الوارث المطلق هو الذي يرث الأرض ومن عليها والسماء ومن فيها وما بين كل سماء وكل أرض، أي أنه المالك لكل شيء مما نعرف ومما لا نعرف. ومن الوارث المطلق وبه يورث الوارث بالإضافة، الذي يورث من بعده فيما ورِّثَ فيه.

وفي هذا السياق يقول الله تعالى للإنسان الوارث: إنه أنزل الكتاب الذي ورث الكتب السابقة على النبي الذي ورث الأنبياء السابقين، وعلى الأمة التي ورثت الأمم السابقة في العلم والعمل، وكل هذا الميراث لابد وأن يصفّي الإنسان الخليفة من أي تعلق بملك أو مالك غير أصيل، لأن المالك المطلق هو الله الذي لم يلد ولم يولد فيقول الله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا}[٥٧٣].

---

[٥٧١] الإسراء ١١١.

[٥٧٢] تفسير أبي السعود ، ج ٤ ، ص ٢٣٢.

[٥٧٣] الكهف ١ ـ ٤ .

وفي الآية نلحظ لمحة رائعة تتمثل في البدء بحمد الله سبحانه وتعالى على نعمة إنزال الكتاب الجامع الذي جمع الله فيه كل ما أنزل على الأنبياء السابقين الذين وضحوا أنه لا شريك لله ولا ند ولا وارث يرثه وإنه سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد، وهذا المنهج الجامع جاء ليصحح الطريق ويوضحه للخليفة الذي ورث مهمة تعمير الأرض ومن هذا الميراث جاء تسخير الكون وما فيه من أدوات للخليفة الوارث الذي سيتبع الكتاب الذي ليس فيه عوج.

وعليه فالميراث يمكن أن يتم تناوله من حيث:

أولا: الميراث الدائم للحي الدائم: قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}[٥٧٤]، وقال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}[٥٧٥].

ثانيا: الميراث المؤقت للحي المؤقت: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٥٧٦]، وقال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}[٥٧٧].

ولذا فإن الكتاب الكريم الذي اشتمل على المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيه علم الميراث يوضح معنى الميراث، الذي يستوجب من الخليفة القيام بمهام الوراثة بالآتي:

١ – حمد الوارث المطلق على ما آتاه من نعم.

---

[٥٧٤] القصص ٥٨.

[٥٧٥] القصص ٢٢ ـ ٢٤.

[٥٧٦] المؤمنون ١ ـ ١١.

[٥٧٧] القصص ٥.

٢ – الإقرار بأنه لا أحد يكون في منازعة الوارث على ملكه.

٣- الاعتراف للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة الخاتمة المشتملة على المنهج الذي لاعوج فيه، باعتبارها النص الذي يُفصِّل الآيات لقوم يعلمون ويتقون.

٤- هذا الكتاب الذي ورث الكتب السابقة ينذر إنذارا شديدا الذين لا يتبعون المنهج الخاتم.

٥- البشرى العظمى للذين يتخذون المنهج الصحيح منهجا للإصلاح والتعمير وبذلك يستحقون الخلافة ويرثون المسؤولية لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

٦- الخليفة الذي يعمل الصالحات سيرث ثوابا لا ينفد ولا يزول ويمكث فيه أبدا لأنه اتبع الوارث الأعلى فتجلى عليه بالصفة نفسها فأورثه النعيم المقيم الذي يدوم دواما سرمديا، وهذا الدوام السرمدي والنعيم المقيم المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}[٥٧٨].

٧- الوراثة الحقيقية تكون للخليفة المتصف بالآتي:

أ- الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى أنه الوارث الذي يملك الملك بالمطلق وهو لم يرثه من سابق حيث لا سابق قبل سبق الله، قال تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٥٧٩].

ب- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يتخذ صاحبة ولا ولدا لأنه الغني عن ذلك فهو الباقي الذي لا يفنى، وذلك فالفناء مخلوق زائل، والله خالق باقي يرث كل شيء خلقه حيث لا احد من قبله ولا بعده ولهذا الملك لله الواحد القهار.

---

[٥٧٨] الكهف ١٠٧ . ١١٠ .

[٥٧٩] الحديد ١ ـ ٣.

ج–إتباع النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم الذي لا يدعي انه ابن لله ويؤكد أنه بشر أرسله لينذر الناس من شر أنفسهم بدعواهم أن الله ثاني اثنين أو أنه له زوجة أو ولد تعالى الله على ذلك علوا كبيرا. قال تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ}[٥٨٠].

د– الخليفة الوارث الذي يعمل الصالحات ويعمر الأرض ليرث الثواب والفردوس الأعلى. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ}[٥٨١].

والخلافة ليست لفرد بل يمكن أن تكون لأمة أو أي عدد من أفراد الجنس البشري بشرط الإيمان بالمبدأ والعمل على تحقيقه ومن هنا تتحقق الخلافة ويكون الميراث الحقيقي وهذا الميراث لا يكون إلا لمن تتحقق فيه هذه الصفات الواردة في قوله تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٥٨٢].

---

[٥٨٠] إبراهيم ١١، ١٢.

[٥٨١] الروم ٩ ـ ١٥.

[٥٨٢] المؤمنون ١ ـ ١١.

وبتحليل صفات الوارث نجد أنها تتلخص في الآتي:

١ – الإيمان بالله وما أمر أن نؤمن به من غيب. قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٥٨٣]، والمستخلفون في الأرض أخوة في طاعة الله وتوحيده ولذا فلهم الدرجات العلا ولهم المغفرة والرزق الكريم قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٥٨٤].

وعليه فالوارثون هم:

. الذين يذكرون الله قولا وعملا.

ـ وهم يزدادون إيمانا برؤية آيات الله المسموعة سمعا والمقروءة لسانا والمشاهدة بصرا والمدركة بصيرة والمجوهرة روحا.

. وهم يتوكلون على الله باستخدام الأدوات التي منحها لهم لوراثة الأرض في عالم الاختبار، ووراثة الفردوس في عالم الحساب، ولسان حال المؤمنين الوارثين يتمثل في قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[٥٨٥].

. وهم يقيمون الصلاة لدوام الصلة بالله تعالى.

ـ وهم ينفقون من فضل الله عليهم لأنهم يعلمون أن ما في أيديهم إنما هو من فضل الله سبحانه وتعالى.

والخليفة هو المؤمن الصادق فبصدق القول والعمل سيرث الخلافة في الأرض والدرجات العلى في الآخرة وهذا ما أكده الوارث عز وجل في قوله تعالى:

---

[٥٨٣] الأنعام ٥٩.

[٥٨٤] الأنفال ٢. ٤.

[٥٨٥] الأنفال ٥١.

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[٥٨٦].

فالله سبحانه وتعالى الوارث لأنه المالك، ولتأكيد ملكه للكون ومن فيه يقول الله تعالى مخاطبا النبي ومن سار على نهجه لينال الخلافة والميراث الحقيقي: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٥٨٧].

وجاء في تفسيرها: {مالك الملك} أي مالك جنسِ المُلك على الإطلاق مُلكاً حقيقياً بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إيجاداً وإعداماً وإحياءً وإماتة وتعذيباً وإثابةً من غير مشارِك ولا ممانعٍ {تُؤْتِى الملك} بيان لبعض وجوه التصرفِ الذي تستدعيه مالكيةُ الملك وتحقيقٌ لاختصاصها به تعالى حقيقةً وكونِ مُلك غيرِه بطريق المجاز كما ينبئ عنه إيثارُ الإيتاءِ الذي هو مجردُ الإعطاء على التمليك المؤذِن بثبوت المالكيةِ حقيقةً.

(مَن تَشَاء) وذلك لملكه حق الاختيار والتقدير بالميزان الحق {وَتَنزِعُ الملك مِمَّن تَشَاء} نزعه للملك ممن أتاه إياه بأسباب ومبررات هو يعلمها مما يجعل النزع حق يجب أن يُفعل ولذلك فهو الفعَّال لما يُريد، والملك جاءت مطلقة فهي قابلة للتقدير فهي تأتي بمعنى النبوءة، وتأتي بمعنى الحكم، وتأتي بكل معاني التصرف.

(وَتُعِزُّ مَن تَشَاء) أن تُعِزَّه في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر والتوفيق والعزة هي الأخرى جاءت مطلقة دون تحديد بموضوع أو قضية، وذلك بأسباب مطلقية الوارث فيما يورث (وَتُذِلُّ مَن تَشَاء) أيضا المستهدف بالإذلال غير محدد وذلك لارتباط من يجب أن يذل بأسباب موضوعية تستوجب أن يُذل عليها، (بِيَدِكَ الخير) تعريفُ الخير للتعميم، وتقديمُ

---

[٥٨٦] الحجرات ١٥.

[٥٨٧] آل عمران ٢٦ ، ٢٧.

الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخيرُ كلُّه لا بقدرة أحدٍ غيرِك تتصرف فيه قبضاً وبسطاً حسبما تقتضيه مشيئتُك، وتخصيصُ وبيدك الخير تخصيص الخير المطلق بيد الوارث المطلق.

وعليه فالخليفة وحده يدرك الحق فيتبعه فهو يعلم أنه مورَّث من الوارث الأعظم، وأن ما يورث فيه زائل بعد زواله من الوجود الحي، ويؤمن أنه لن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام، ولهذا الإيمان يملاه بمستوجبات الطاعة.

أمّا ما يخص الخلافة وهي لب ومحور الرؤية التي ننطلق منها في النظر في أسماء الله الحسنى فهي ذات صلة وثيقة بهذا الاسم الشريف لأنه يلخص فكرة الخلافة ويمحورها في سؤال بسيط في الكلمات عميق في المعنى والدلالة ألا وهو "ما الميراث ؟، ومن يستحقه؟ ومن يملك على وجه الحقيقة وعلى وجه المجاز؟ ومن سيئول إليه الميراث في النهاية؟.

إن كل ميراث مادي على الأرض هو على سبيل الأمانة التي عرضها الله على المخلوقات لتعمير الأرض فرفضت جميع الخلائق وخافت من هذا الحمل الثقيل، ولكن الإنسان قد قبل هذا الحمل جهلاً منه بتبعاته قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٥٨٨].

والإنسان لم يتأن في قبول الأمانة وعليه فهو قد يحسن التصرف في الميراث الذي ورثه هبةً من الله أو قد يسئ وهذا هو جوهر الخلافة، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٥٨٩]، وقال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٥٩٠].

وفي قوله عز وجل: (إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال) قال مجاهد: لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام عرض عليه الأمانة فحملها، فما كان بين أن حملها،

---

[٥٨٨] الأحزاب ٧٢.

[٥٨٩] فصلت ٤٦.

[٥٩٠] النحل ٩٦، ٩٧.

وبين أن أخرج من الجنة، إلا كما بين الظهر والعصر. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة) يعني: الفرائض على السماوات والأرض والجبال. فقال لهن: يأخذن بما فيها. فقلن: وما فيه يا رب؟ قال: إن أحسنتن جوزيتن. وإن أسأتن عوقبتن. فقلن: يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد، وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد[٥٩١].

الأمانة: هي ما يوضع مؤقتا، عند من يعتقد أنه محل لها، وخير خلق خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان، ومع أنه خلق على أحسن تقويم، إلا أنه لم يخلق على الكمال، ولهذا كان ظلوما جهولا بما حُمِّل.

والبعض يفسر الأمانة بأنها الطاعة وهذا القول لا يتناقض مع ما نذهب إليه بأن الأمانة هي الخلافة المثلى على الأرض، لأنه لا طاعة دون تحقيق الغرض الذي من أجله أنزل الله الإنسان على الأرض، فمن يطع الله يحسن توظيف الأدوات التي منحها الله له لغرض الخلافة من نعم لا تعد ولا تحصى. يقول الله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[٥٩٢].

وهذه الأدوات التي وهبها الله للإنسان وغيرها من عقل وإرادة ونفس وروح، فقد أكملها الله بتسخير الكون لينتفع به الخليفة في تعمير الأرض وإصلاحها يقول الله تعالى: {حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آَيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آَيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ اللَّهُ الَّذِي

---

[٥٩١] بحر العلوم للسمرقندي ، ج ٣ ، ص ٤٢٤.

[٥٩٢] الإسراء ١٣٦.

سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٥٩٣].

فالله سبحانه وتعالى قد سخر السماء لتحمل الأمطار التي هي سبب الحياة وكذلك سخر الريح للتلقيح، وسخر الليل والنهار للعمل والراحة والعبادة والتأمل فيما خلق، وسخر الأرض لينتفع بها الإنسان لأنه الخليفة إن سار وفق المنهج المرسوم له وهذه الأدوات وغيرها هل هي ميراث على وجه الحقيقة أو ميراث على وجه المجاز للاختبار؟ يقول الله تعالى في النعم التي وهبها تسخيرا للإنسان: {المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٥٩٤].

فالله سبحانه وتعالى يؤكد في الكتاب الحق أن ما أنزله إلى رسول الإنسانية حق، وهذا الحق فيه حقائق لابد أن يعيها كل مخلوق ومنها:

١ – أن القرآن حق ويحتوي على المنهج الحق للوارث الذي يريد تحقيق الخلافة.

٢–أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الحقيقة، وعليه فهم لا يستحقون الخلافة ولا الميراث في الدنيا ولا الآخرة، فيقول الله لهؤلاء موضحاً لهم جزاء من آمن وأحسن، وجزاء من كذّب وأساء وظل: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

---

[٥٩٣] الجاثية ١ . ١٣.

[٥٩٤] الرعد ١. ٥.

فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[٥٩٥].

٣ . تأكيد أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق دون شريك فهو الذي رفع السماء بدون عمد يراها الإنسان، وأنزل منها الماء الذي هو سر أسرار الحياة على الأرض.

٤ – سخر الله الوارث العزيز الشمس والقمر في ميزان الكون واعتداله لخدمة الإنسان الخليفة فلا الشمس تقترب من الأرض فتحرقها ولا تبعد فتجمدها، ولا القمر يبعد أو يقرب فيؤثر في مستوى الماء في البحار فتغرق الأرض أو تتوقف حركة الملاحة قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٥٩٦].

---

[٥٩٥] يونس ٢٦ . ٣٣.

[٥٩٦] الأنعام٩٦ . ١٠١

٥ – الله قد جعل الجزاء من جنس العمل، فالذين كفروا لا يرثون الأرض وليس لهم نصيب في الخلافة، والذين آمنوا يقول الله عنهم: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ}[٥٩٧].

وهؤلاء الذين قال سبحانه وتعالى لهم: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٥٩٨].

ويقول تعالى مخاطبا للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على وجه الخصوص ومخاطبا كل إنسان على وجه العموم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ

---

[٥٩٧] إبراهيم ٢٧. ٣٣.

[٥٩٨] النحل ١٠ . ١٤.

كَفُورٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٥٩٩].

ومن نعم الله التيّ أورثها للإنسان ليحقق الخلافة على الأرض الماء العذب ومصدره الأنهار والأمطار والمياه الجوفية، والماء المالح ومصدره المحيطات والبحار، وفي كل منهما فوائد جمة، وهذه النعم وهب ومنح لا ميراث وإن ورثّت فعلى سبيل الانتفاع لا الامتلاك الدائم حيث لا دائم إلا وجهه، وكذلك الشمس والقمر والليل والنهار، وهذا ما يدعو إلى الإيمان بأن الله هو الوارث لملكه ويمنح من يشاء من عباده ما يشاء، ونعتقد أن كلمة الميراث في حق الخلق على سبيل التقريب والمجاز لا على سبيل الحقيقة فلا وارث إلا الله عز وجل فيقول الله تعالى موضحا لنعمه التي لا تعد ولا تحصى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[٦٠٠].

إذا فما منحه الله للإنسان ليس ميراثا بل هبة أو أمانة ليرى مدى طاعة الإنسان من خلال استخدام هذه النعم في تحقيق الخلافة المثلى على الأرض، التي يود الله إصلاحها مصداقا

---

[٥٩٩] لقمان ٢٩ ـ ٣٤.

[٦٠٠] فاطر ١٢ ـ ١٨.

لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٦٠١]، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[٦٠٢].

وفي قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة} في معناها تحمُّل المسؤولية ذات العبء الكبير، التي حملها الخليفة بالطاعة التامة لأمر الوارث، إنه قبول بتحمَّل ما يترتب على المسؤولية مع التصميم على النجاح مع كبر العبء وجسامة المسؤولية.

وكان عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال (إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا) الإيباء الامتناع، والامتناع لا يعني الرفض بالمطلق، بل يعني مما يعني إظهار المخافة منها اجتنابا لما هو متوقع وهو الفشل في حملها، وهذا لا يعني الرفض بالمطلق، بل يدل على قبول الحوار أمام التخيير لا التسيير. ولهذا كانت الشفقة منها ظاهرة، وفقا لما هو مترتب عليها.

وَحَمَلَهَا الإنسان، الذي علمه الله الأسماء، والأسماء هي الأسرار، ولهذا عندما عرف الإنسان الأسرار عرف أنه كان جهولا بأمرها؛ ولأنه الخليفة حمل مسؤولية الأمانة وارتضى ذلك فكرمه الله في البر والبحر مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ

---

[٦٠١] الأعراف ٥٥ ـ ٥٧.

[٦٠٢] الأعراف ٨٥ ـ ٨٧.

فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا}[٦٠٣].

وجاء في تفسيرها أيضا ما يتفق مع التفسير السابق"{إِنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن اللّه عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنك إن قمت بها وأدَّيتِهَا على وجهها، فلك الثواب.

وقوله: (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)، أي: خوفًا أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لربهن، ولا زهدًا في ثوابه.

وبالنسبة للخليفة دائما أمامه الأمانة، وهو دائما معرض للاختبار والابتلاء في الدار الدنيا التي جعل الوارث فيها الإنسان خليفة له في أرضه مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا

---

[٦٠٣] الإسراء ٩ ٦ـ ٧٥.

فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٦٠٤].

والأمانة المنصوص عليها هي ذات الأعباء والمسؤوليات الجسام وهى في حالة تتابع ثلاثي:

الأول: الأمانة التي عُرضت من بداية الخلق على أبينا آدم صلى الله عليه وسلم: وتلك الأمانة نحن لا نعلم أمرها إلا اجتهادا، فهي التي عرضها اللّه على الإنسان، فحملها طاعة لله في ما عرضه بغض النظر عما تحتويه من صعاب ومسؤوليات جسام، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

الثاني: الأمانات المتعددة التي نزلت على الرسل عليهم الصلاة والسلام: والغرض منها واحد وهو البلاغ بالوحدانية والإيمان بها تسليما مطلقا، وهذه الرسالات كانت ذات أعباء على المصطفين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، فانقسم الناس من حولهم بين خمسة فئات:

١ ـ **الفئة الكافرة:** وهي الفئة التي لا تؤمن بوجود من خلق الوجود والحياة والممات: وكأن الطبيعة هي التي ولدت كل شيء، وهؤلاء ماتوا على كفرهم قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[٦٠٥]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ}[٦٠٦].

٢ ـ **الفئة المشركة:** وهي الفئة التي تؤمن بالله وتشرك آخرين معه، والمشرك كافر بما أمر الله وهو لا يؤمن بالحق في قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٦٠٧]، وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ

---

[٦٠٤] البقرة ٣٠ ـ ٣٧.

[٦٠٥] آل عمران ٩١ .

[٦٠٦] البقرة ٨٧ ، ٨٨.

[٦٠٧] الإخلاص ١ ـ ٤.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٦٠٨].

٣ ـ **الفئة المنافقة**: وهي التي تظهر الإيمان وتبطن الكفر أو الشرك، وهؤلاء هم الذين يقولون ما لا يفعلون مصداقا لقوله تعالى: {وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآَخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآَخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٦٠٩]، وقال تعالى: {وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا}[٦١٠].

٤ ـ **الفئة المسلمة**: وهي التي تُقِر بوجود خالق عظيم، فتؤمن به وتؤمن بالرسول الذي جاء مبشرا ونذيرا، وتؤمن بجميع الأنبياء والرسل كما في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة الخاتمة، حيث إن المسلمين بذلك لا يفرقون بين أحد من رسله مصداقا لقوله تعالى: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ

---

[٦٠٨] المائدة ٧٢ ـ ٧٦.

[٦٠٩] التوبة ١٠١، ١٠٢.

[٦١٠] الأحزاب ١٢ ـ ١٥.

مُسْلِمُونَ}[٦١١]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٦١٢]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آَذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ}[٦١٣].

٥ . **الفئة المؤمنة:** وهي التي دخل الإيمان قلبها بعد أن أسلمت فلا ظن ولا شك فيما تعبد، وهي التي تُسلِّم بالمطلق بأنه لا وارث إلا الله ولا مغفرة أو مثوبة إلا منه، والجنة حق لأصحاب الحق، والنار حق لأصحاب الكفر والشرك والذين لا يتقون فيما يقولون ويفعلون، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آَيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٦١٤]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٦١٥]، وقال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

---

[٦١١] البقرة ١٣٦.

[٦١٢] آل عمران ٦٤ ـ ٦٧.

[٦١٣] . الأنبياء، ١١٢.

[٦١٤] الأنفال ٢ . ٤.

[٦١٥] الأنفال، ٧٥.

غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ}[٦١٦].

وبناء على ما تقدم، فلكل فئة حسابها وعقابها أو ثوابها قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا رَبَّنَا آَتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آَذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٦١٧].

فالله هو الوارث لأنه الأول ولآخر والظاهر والباطن والمنعم والمتفضل ومالك الملك بلا منازع لا عن وراثة.

وهو ملك الكون ووارثه أي الحاكم فلا يرده أحد فيما أراد ، يقول الله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[٦١٨].

وهو الباقي الذي يبقى ليري الخلق أن ميراث السماوات والأرض لله لا لغيره فهو الوارث بلا مشاركة لأحد في ملكه وميراثه، و"الوارث صفة من صفات الله عز وجل لأنه الباقي الدائم الذي يَرِثُ الخلائقَ ويبقى بعد فنائهم والله عز وجل يرث الأَرض ومَن عليها وهو خير الوارثين أَي يبقى بعد فناء الكل ويَفْنى مَن سواه فيرجع ما كان مِلْكَ العِباد إِليه وحده لا شريك

[٦١٦] الحجرات، ١٥.

[٦١٧] الأحزاب ٦٧ ـ ٧٣.

[٦١٨] يونس ١٠٧ . ١٠٩.

له قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٦١٩].

الثالث: أمانة المستخلفين بعد الرسل والأنبياء: وهم المؤمنون حقا فلا يفرقون بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[٦٢٠]، وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[٦٢١]. لقد انتهى زمن الرسل والأنبياء ولم يبق إلا زمن الصالحين والمؤمنين الذين التزموا بحمل الأمانة وهي عبء يستوجب التبشير به والإنذار به والتحريض به، حتى تعم المعمورة وتلون بالدين الخاتم لكل الأديان بالرسالة الخاتمة في اللوح المحفوظ.

وعليه من يغفل عن أداء الأمانة التي بها التزم وحمل العبء، سيكون من الخاسرين، ومن يعمل صالحا ويصلح في الأرض التي استخلفه الله فيها سيكون من الوارثين في الدارين الذين يرثون الأرض والجنة. اللهم اجعلنا من الوارثين في الدارين وأرضى عنا وعن البنين

---

[٦١٩] المؤمنون ١ ـ ١١.

[٦٢٠] المائدة ، ٧، ٨.

[٦٢١] النور ٥١ ـ ٥٣.

والزوجات والوالدين فإننا بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فارحمنا فأنت خير الراحمين والوارثين.

ولذا فالوراثة استلام لاحق من سابق، ثم أخيرا استلام السابق من اللاحق بحق الوراثة المطلق، وفي سنن الأنبياء والرسل مثال: فقد ورث سيدنا يحيي سيدنا زكريا عليهما الصلاة السلام. وورث سيدنا سليمان سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام، وهكذا كانت وراثة الرسل من أبينا آدم إلى سيدنا نوح وإبراهيم ثم إلى سيدنا موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ثم إلى أن اختتمت بمحمد ورسالته عليه الصلاة والسلام.

فقال الله تعالى إخباراً عن زكريا عليه الصلاة والسلام ودعائه إيّاه: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}[٦٢٢] أَي يبقى بعدي فيصير له ميراثي قال ابن سيده: إِنما أَراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أَن يكون خاف أَن يَرِثَهُ أَقرباؤُه المالَ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا معاشرَ الأَنبياءِ لا نُورثُ ما تركنا فهو صدقة"[٦٢٣].

وقوله: (وورث سليمان داود) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث[٦٢٤].

قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ

---

[٦٢٢] مريم ١ . ٧.

[٦٢٣] تفسير النسفي ، ج ٢ ، ص ٢٦٢.

[٦٢٤] تفسير النسفي ، ج ٣ ، ص ١.

لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[٦٢٥].

وأما قوله تعالى: (الحمد الله الذي فَضَّلَنَا على كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ المؤمنين} ففيها:

أحدها: أن الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علماً أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير.

وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم.

وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع.

ورابعها: أن الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إن هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سبباً لفضيلتهم على المؤمنين فإذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جلياً بحيث يصير المرء مستغرقاً فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات.

أما قوله تعالى: (وَوَرِثَ سليمان دَاوُودُ) فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن المال؛ لأن النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضاً عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمناً ولا يرث إذا كان كافراً أو قاتلاً، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سبباً لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته ومما يبين ما قلناه أنه تعالى لو فصل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله: (وَقَالَ يا أَيُّهَا الناس عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطير) معنى، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك: لأن تعليم منطق الطير يكون داخلاً في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى:

---

[٦٢٥] النمل ١٥ ـ ١٩.

(وَأُوتِينَا مِن كُلّ شَيء)؛ لأن وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله: (إِنَّ هذا لَهُوَ الفضل المبين) لا يليق أيضاً إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال[٦٢٦].

أما ا لنبي محمد صلى الله عليه وسلم فقد قال: "اللهم أَمْتِعْني بسمعي وبَصَري واجعلهما الوارثَ مني قال ابن شميل: أي أَبْقِهما معي صحيحين سليمين حتى أَموت، وقيل: أَراد بقاءَهما وقوَّتهما عند الكبر وانحلال القُوى النفسانية فيكون السمع والبصر وارِثَيْ سائر القُوى والباقِيَيْنِ بعدها وقال غيره أَراد بالسمع وَعْيَ ما يَسْمَعُ والعملَ به وبالبصر الاعتبارَ بما يَرى ونُور القلب الذي يخرج به من الحَيْرَة والظلمة إِلى الهدى، وفي رواية واجعله الوارث مني فَرَدَّ الهاءَ إِلى الإِمْتاع فلذلك وَحَّدَهُ وفي حديث الدعاءِ أَيضاً وإِليكَ مآبي ولك تُراثي، والتُّراثُ ما يخلفه الرجل لورثته والتاءُ فيه بدل من الواو وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه قال بعث ابن مِرْبَعٍ الأَنصاري إِلى أَهل عرفة فقال: اثْبُتوا على مَشاعِركم هذه فإِنكم على إِرْثٍ من إِرث إِبراهيم"[٦٢٧].

وعليه فالميراث أنواع:

١- ميراث مادي: أموال وعقارات وغير ذلك في الدنيا، وميراث الجنة في الآخرة.

٢-ميراث معنوي: في الدنيا والآخرة مثل ميراث العلم والنبوة والفوز برضا الله في الجنة.

٣- ميراث مادي ومعنوي كما هو الحال مع سيدنا سليمان الذي ورث سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام.

وهذه الأنواع من الميراث كما أسلفنا وهب من الله لمن يستحق وفق إرادة الله عز وجل من خلال تطبيق المنهج الصحيح لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

---

[٦٢٦] تفسير الرازي ، ج ١٢ ، ص ٢٠.

[٦٢٧] تفسير الرازي ، ج ١٢ ، ص ٢٠.

وليس أدل وأوضح من آيات الله لتوضيح معنى الوارث والميراث قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}[٦٢٨].

فالميراث الحقيقي لله وحده دون شريك أو منازع فهو جل وعلا ذكره يؤكد بصيغة التوكيد والعظمة وبصيغة الجمع التي تدل على الكبرياء والشموخ أن الميراث الحقيقي المؤكد لله وحده فهو الذي سيرث الأرض ومن عليها، وجميع من في الأرض سيرجعون إليه ليحاسبهم على الميراث المؤقت الذي منحه لهم في الدنيا لتحقيق الخلافة، وسيرجع الكل لله كما خلق أول مرة يقول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[٦٢٩].

فمن جاء لله ورجع إليه بقلب خاضع خاشع سليم من الشرك والكبر هو الذي يزفه الله إلى الجنة لأنه جاء بميراث العمل لا ميراث زائف من مال فان أو ولد لا يملك نفعا ولا ضرا لأبيه، فيبشر الله هؤلاء الصنف من المتقين، وينذر المجرمين، بأن لكل جزاء من جنس عمله مع تأكيد أن الجميع لابد أن يرجع عبدا لا يملك شيئاً ويعود فردا مجردا من المال والولد والجاه والسلطان يعود لا ملك له إلا ما سيمنحه الله له يوم القيامة، فيقول الله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[٦٣٠].

والجنة هي ميراث الخليفة ومن سار على نهجه من عباد الله الذين اتقوا الله وحققوا ما أراد في أرضه ومع عباده فكانوا أهلاً للميراث الحقيقي الدائم الذي لا يزول.

---

[٦٢٨] مريم ٤٠.

[٦٢٩] الشعراء ٨٨ ، ٨٩.

[٦٣٠] مريم ٨٥ . ٩٥.

فقال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آَدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آَيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}[٦٣١].

أما ميراث الكافرين فهو لا محالة يليق بهم وبما عملوا وبما أسلفوا قال الله تعالى:

{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآَتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٦٣٢].

والميراث الحقيقي لعباد الله الذي اتقوه وخافوه في الدنيا ولا يخافوا من غيره فأمنهم من المفسدين في الأرض وأمنهم من الخوف الأكبر يوم القيامة ويزيد الله على ذلك بوهبهم الجنة فيقول الله تعالى: {يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا

---

[٦٣١] مريم، ٥٨ ـ ٦٣.

[٦٣٢] الأعراف ٣٨ . ٤٣.

مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ}[٦٣٣].

وميراث الآخرة يسبقه ميراث في الأرض ولا يمنع ذلك ولا تلك إلا المعصية والبعد عن منهج الخلافة الذي ارتضاه الله للخلافة في أرضه والله يحذر الذين سيرثون الأرض من شر ذنوبهم لأن الذنوب تحجب العبد عن خير الله في الدنيا والآخرة، فيقول الله تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}[٦٣٤].

والذين يؤمنون بالله ربا ويخشعون له في صلاتهم ويعرضون عن لغو الكلام بذكره الدائم ويؤدون الزكاة وينفقون عن حب في الله دون بخل، ويحفظون فروجهم إلا عن الحلال ويحفظون العهد بعبادة الله وحده وعدم الشرك به يصلون إلى مقام القرب ويرثون أعلى الجنان يرثون الفردوس وهذا أعلى وأغلى ميراث وهذا هو الفلاح الحقيقي، فقول الله تعالى في الوارثين من هذا الصنف:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٦٣٥].

ومن الميراث ما هو للعلم والنبوة وهذا الميراث هو الميراث الحقيقي الذي يسعى إليه من أراد أن يكون خليفة لله في أرضه وهذا النوع نجده في كتاب الله مع سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما الصلاة والسلام فيقول الله تعالى: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي

---

[٦٣٣] الزخرف ٦٨ . ٧٣.

[٦٣٤] الأعراف ١٠٠.

[٦٣٥] المؤمنون ١ . ١١.

خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا}[٦٣٦].

ومن الميراث المادي والمعنوي ميراث الملك والعلم والنبوة ما حدث مع سيدنا سليمان وسيدنا داود عليهما الصلاة السلام وهذا الميراث وغيره يحق للخليفة من الأمة المحمدية؛ لأنها التي ورثت الكتاب والنبوة والعلم من خلال إتباع شريعة سيد الخلق وحبيب الحق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول الله تعالى في ذلك النوع من الميراث: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}[٦٣٧].

والذين يرثون العلم والنبوة ويتبعون المنهج الصحيح لإعمار الأرض وعدم الفساد فيها يخاطبهم الله بقوله: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ

---

[٦٣٦] مريم ١ – ١١.

[٦٣٧] النمل ١٥ _ ١٦ .

بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[٦٣٨].

وقال الله تعالى الخالق الملك المالك الوارث للناس في كتابه الخاتم: {آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[٦٣٩].

وقال عز وجل: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[٦٤٠] الإنفاق عطاء بدون منة، وفي هذه الآية الكريمة استغراب من أمر الذين يملكون ولا ينفقون مما يملكون ابتغاء وجه الله تعالى، ولذا فإن الإنفاق طاعة لأمر الله تعالى وهذه طاعة المستخلفين الذين يؤمنون بالله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبكل ما أمر ونهى، فله الحمد على ما أعطى وأغنى.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السماوات والأرض، يعني: إلى الله يرجع ميراث السماوات والأرض ولا أحد غيره يرثهما، ولأنه الوارث لكل شيء، إذاً لماذا لا تنفقون، لتكونوا من بعد ذلك من الوارثين في الجنة؟. وقوله: (وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُواْ) والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة. ويقال: أنفقوا ما دمتم في الحياة، فإنكم إن بخلتم، فإن الله هو يرثكم، ويرث أهل السماوات. فأنفقوا قبل أن

---

[٦٣٨] آل عمران ١٧٤ . ١٨٠.

[٦٣٩] الحديد ٨ . ١١ .

[٦٤٠] الحديد ١٠.

تفنوا، وتصير كلها ميراثاً لله تعالى بعد فنائكم، وإنما ذكر لفظ الميراث، لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثاً، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم[٦٤١].

عَنْ السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قالت: "أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثْنَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَيَسْأَلْنَهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ لَهُنَّ عَائِشَةُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ"[٦٤٢].

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ السيدة عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ السيدة فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَالَتْ وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكٍ وَصَدَقَتَهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْبَرُ وَفَدَكٌ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَتَا لِحُقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ قَالَ فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ"[٦٤٣].

---

[٦٤١] بحر العلوم للسمرقندي ، ج ٤ ، ص ٢٤٩.

[٦٤٢] موطأ مالك ، ج ٦ ، ص ١٤٣.

[٦٤٣] صحيح البخاري ، ج ١٠ ، ص ٣٣٠

عَنْ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ جُبَيْرٍ ذَكَرَ لِي ذِكْرًا مِنْ حَدِيثِهِ ذَلِكَ فَانْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى مَالِكِ بْنِ أَوْسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكٌ بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي أَهْلِي حِينَ مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا رَسُولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْتِينِي فَقَالَ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى عُمَرَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى رِمَالِ سَرِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ مُتَّكِئٌ عَلَى وِسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ يَا مَالِ إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ أَهْلُ أَبْيَاتٍ وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرَضْخٍ فَاقْبِضْهُ فَاقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرْتَ بِهِ غَيْرِي قَالَ اقْبِضْهُ أَيُّهَا الْمَرْءُ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَهُ أَتَاهُ حَاجِبُهُ يَرْفَا فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْتَأْذِنُونَ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا ثُمَّ جَلَسَ يَرْفَا يَسِيرًا ثُمَّ قَالَ هَلْ لَكَ فِي عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا فَسَلَّمَا فَجَلَسَا فَقَالَ عَبَّاسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا وَهُمَا يَخْتَصِمَانِ فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ فَقَالَ الرَّهْطُ عُثْمَانُ وَأَصْحَابُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْضِ بَيْنَهُمَا وَأَرِحْ أَحَدَهُمَا مِنْ الْآخَرِ قَالَ عُمَرُ تَيْدَكُمْ أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ قَالَ الرَّهْطُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدُكُمَا اللَّهَ أَتَعْلَمَانِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَا قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ خَصَّ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ ثُمَّ قَرَأَ[٦٤٤]

(وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ إِلَى قَوْلِهِ قَدِيرٌ).

فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهِ مَا احْتَازَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ قَدْ أَعْطَاكُمُوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ حَتَّى بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنْفِقُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةَ سَنَتِهِمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلَ مَالِ اللَّهِ فَعَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ قَالُوا نَعَمْ ثُمَّ قَالَ

---

[٦٤٤] صحيح البخاري ، ج ١٠ ، ص ٣٣١.

لِعَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمَانِ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَنَا وَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَضَهَا أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ فَكُنْتُ أَنَا وَلِيَّ أَبِي بَكْرٍ فَقَبَضْتُهَا سَنَتَيْنِ مِنْ إِمَارَتِي أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ جِئْتُمَانِي تُكَلِّمَانِي وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ جِئْتَنِي يَا عَبَّاسُ تَسْأَلُنِي نَصِيبَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ وَجَاءَنِي هَذَا يُرِيدُ عَلِيًّا يُرِيدُ نَصِيبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا فَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ فَلَمَّا بَدَا لِي أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْكُمَا قُلْتُ إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنَّ عَلَيْكُمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ لَتَعْمَلَانِ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَبِمَا عَمِلْتُ فِيهَا مُنْذُ وَلِيتُهَا فَقُلْتُمَا ادْفَعْهَا إِلَيْنَا فَبِذَلِكَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا فَأَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ قَالَ الرَّهْطُ نَعَمْ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدُكُمَا بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا بِذَلِكَ قَالَا نَعَمْ قَالَ فَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا أَقْضِي فِيهَا قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ فَإِنِّي أَكْفِيكُمَاهَا"[٦٤٥].

إذا فماذا يكون ميراث النبي صلى الله عليه وسلم الذي به تتحقق الخلافة؟.

هذا السؤال يجيب عليه قول النبي صلي الله عليه وسلم:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ولفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، إنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر"[٦٤٦].

وهذه قصة رواية أبي الدرداء للحديث:

---

[٦٤٥] صحيح البخاري ، ج ١٠ ، ص ٣٣١.

[٦٤٦] أخلاق العلماء للآجري ، ج ١ ، ص ٩.

عن أبي الدرداء قال: جاء رجل من أهل المدينة وهو بمصر قال فقال له أبو الدرداء: "ما أقدمك يا ابن أخي ؟ قال: حديث بلغني عنك أنك تحدث به عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أما قدمت بتجارة؟ قال: لا قال: أما قدمت لطلب حاجة؟ قال : لا قال: فما قدمت إلا لطلب هذا الحديث قال: نعم قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله عز وجل به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان جوف الماء، ولفضل العالم على العامل كفضل القمر على الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر"[٦٤٧].

اللهم اجعلنا من الوارثين للعلم الذي هو ميراث النبوة واجعلنا من الوارثين للفردوس الأعلى الذي هو مطمح عباد الله في الميراث الحقيقي، واجعل لنا في الدنيا نصيب ولا تجعلنا من المحرومين، واجعلنا على الطاعة ما حيينا وافتح علينا أبواب الخير بالعزة والتوبة والمغفرة حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان.

وعليه لكي يكون الإنسان من الوارثين وله نصيب في الدارين عليه بالآتي:

أولا: الطاعة: والطاعة تستوجب شيئين:

١ . **إتباع ما أمر به:** قال تعالى: الخليفة دائما طائعا لله تعالى فيما أمر به، والطاعة عبادة يجب العمل بها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ}[٦٤٨]، وقال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٦٤٩]، وقال تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ

[٦٤٧] أمالي المحاملي ، ج ١ ، ص ٣٦١.
[٦٤٨] آل عمران ٦٢، ٦٣.
[٦٤٩] الأنعام ، ٥٠، ٥١.

لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ}[٦٥٠]، وقال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٦٥١].

إتباع الأمر طاعة لمصدره، واعتراف بأنه يقع في دائرة الوجوب والفرض، وللطاعة غايات قريبة وبعيدة منها:

أ . الغايات القريبة:

. نيل الرضا الآني.

. نيل الجزاء الآني.

. الإتباع بمستوجبات الإيمان.

. أخذ النصيب من الدنيا.

. الاستخلاف والوارثة في الأرض.

ب . الغايات البعيدة:

. نيل المغفرة.

. نيل التوبة.

. نيل الرضا الدائم.

. الفوز بالجنة والوراثة فيها.

٢ . الانتهاء عما نهى عنه: وهذا الأمر يستوجب شيئين:

. تجنب القول السوء. والسوء يؤدي إلى الفتنة والفرقة التي تفرق بين المرء وزوجه والأب وأبنائه والأخ وإخوته، والجار وجيرانه، والقول السوء فيه بهتان وزور فيؤدي إلى الغضب والصراع والصدام وقد يؤدي إلى الاقتتال وكل ذلك يعد زريعة سوء، مما يتطلب اجتنابه، ولهذا من زرع خيرا حصد خيرا، ومن زرع شرا حصد شرا.قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

---

[٦٥٠] الأنعام ١٠٦، ١٠٧.

[٦٥١] القصص ٥٠.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}[٦٥٢]، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ}[٦٥٣]، قال تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[٦٥٤]، وقال تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[٦٥٥]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ}[٦٥٦].

ـ **تجنب فعل السوء:** الفعل هو الذي يتم الإقدام عليه من عاقل، أي بعد تصميم وقرار، والفعل من المؤمن لا سوء فيه ومن غير المؤمن قد يلم به السوء المسبب في الضرر، فالسرقة فعل سوء، والزنا فعل سوء، التآمر على الناس فعل سوء، وهكذا كل فعل ضلال فيه من أفعال السوء، قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا}[٦٥٧]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ

---

[٦٥٢] البقرة٢٦٢، ٢٦٣.

[٦٥٣] محمد ٢٠ ـ ٢٣.

[٦٥٤] هود ٤٦، ٤٧.

[٦٥٥] الإسراء ٣٦.

[٦٥٦] البروج ١٠، ١١.

[٦٥٧] الإسراء ٣٧ ، ٣٨.

شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}[٦٥٨]، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٦٥٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآَمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٦٦٠].

وعليه فالخليفة هو الوارث بالإضافة وذلك بالإصلاح في الأرض قولا وعملا وفعلا وسلوكا، ولذلك فمن عمل عملا صالحا فلنفسه قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[٦٦١]، وقال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[٦٦٢].

ثانيا: الصدق: الصدق قول حق وفعل حق، فمن تبعه كان من الوارثين، ومن لم يكن على الهدى كان من الضالين، والصدق لا يحدث ولا يتم إلا بالتقرُّب لله وطاعته فيما أمر، وتجنب ما نهى عنه، والأخذ بما أتى به الرسول والانتهاء عما نهى عنه، قال تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ

---

[٦٥٨] فاطر ١٠.

[٦٥٩] . المائدة ٧٧ ـ ٨١.

[٦٦٠] المائدة ٩٠ ـ ٩٣.

[٦٦١] فصلت ٤٦.

[٦٦٢] الجاثية ١٥.

أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٦٦٣]، وقال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٦٦٤]، وقال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٦٦٥].

الصدق هو المبرئ من الذنب والمرسخ للحق، وفاكك للظلم ونازع للغبن وقاهر الماكرين والمكيدين بغير حق، ولهذا جاء قول الله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٦٦٦]، ولهذا الحق يجب أن يقال ولو كان على النفس، وبقول الحق لا تكتم الشهادة، وبدونه تُخفى، قال تعالى: {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٦٦٧].

ثالثا: العدل: العدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين، أو الشركاء والخلطاء، ولذا فالعدل صفة من صفات الله في خلقه الوارثين في الدارين، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ

---

[٦٦٣] الحشر ٧ ـ ٩.

[٦٦٤] الإسراء ٨٠، ٨١.

[٦٦٥] الشعراء ٨٤ ـ ٩٠.

[٦٦٦] الإسراء ٨٠، ٨١.

[٦٦٧] البقرة ٢٨٣، ٢٨٤.

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[٦٦٨]، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٦٦٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٦٧٠]، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٦٧١].

رابعا: التبشير والتبليغ: من مهام الخليفة المورَّث في الدار الدنيا والآخرة أن يبشر بما جاءه من الوارث المطلق على أيدي الرُسُل صلوات الله وسلامه عليهم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ

---

[٦٦٨] ص ٢٣ ـ ٢٦.

[٦٦٩] الأنعام ١٥٢، ١٥٣.

[٦٧٠] البقرة ٢٨٢.

[٦٧١] النساء ٥٨، ٥٩.

أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}[٦٧٢]، وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ}[٦٧٣]، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٦٧٤].

التبشير فيه نقل رسالة من رسول مرسل، فمن تبعه اهتدى ومن لم يتبعه فقد ضل، والناس بين مهتدٍ وضالٍ وعالم وجاهل وصادق وكاذب تفرقوا، إلا المستخلفين يرثون الأمانة وهم طائعون لحَمْلِها ولحِملِها.

والبشير هو الآتي بالخبر الخير، الذي فيه بُشرى يأتي عظيم مفرح، يأمله الناس الذين يتعلق الأمر بهم، وبهذا كان محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا مبشرا بالخير للخير، وداعيا للحق وزاهقا للباطل وفاعلا وعاملا على الحق بالتي هي أحسن حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي. وهذه رسالة الخليفة وهي التبشير بالتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٦٧٥].

والتبليغ التزام بمهمة مع عدم التقصير في تبليغها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

[٦٧٢] الزمر ١٧، ١٨.

[٦٧٣] المائدة ١٩ ـ ٢١.

[٦٧٤] البقرة ٢١٣.

[٦٧٥] البقرة ٢٥٦.

الْكَافِرِينَ}[٦٧٦] وفي التبليغ مجاهرة بالحق مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٦٧٧].

خامسا: الإنذار: الإنذار فيه تفطين لشيء يستوجب الحيطة والحذر والاجتناب، وهذا الفعل لا يقوم به إلا رسول لله رب العالمين أو مصلح يحب الخير ويعمل من أجله، وهو أيضا لا يتم إلا من مدرك وعالم يعلم ما هو كائن وما يمكن أن يكون وما هو في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}[٦٧٨]، وقال تعالى: {يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[٦٧٩]، وقال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ}[٦٨٠]، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ}[٦٨١].

وعليه فالإنذار رسالة بذاته يرشد لما هو صواب وخير، وفيه تحذير واضح من مخاطر تلم بمن لم يتعظ ويجتنب، والوارثون هم المعنيون بالبلاغ والإنذار، أما أولئك الذين يوجه الإنذار

---

[٦٧٦] المائدة ٦٧.

[٦٧٧] المائدة ٦٨.

[٦٧٨] يونس ٢.

[٦٧٩] ياسين ١ ـ ٧.

[٦٨٠] الأحقاف ، ٢١ ـ ٢٣.

[٦٨١] ص ، ٦٥ ـ ٧٠.

إليهم فهم لم يكونوا من الخلفاء بعد، ولكن بإمكانهم أن يصبحوا من المستخلفين فيها إذا ما استغفروا واجتنبوا كل فعل من الأفعال الآثام.

سادسا: التحريض: بالنسبة للمستخلفين الوارثين فإن في أفعال التحريض حث على الأعمال الحسان، أما غيرهم فيمكن أن يحرضوا على ما هو بغير الأفعال الحسان، ولهذا فالأعمال دائما بالنيات ولكل إنسان ما نوى مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآَتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}[٦٨٢]. وقال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا}[٦٨٣].

إذاً التحريض في قاموس المستخلفين في الأرض هو على كل فعل من أفعال الخير والأعمال الحسان، كالتحريض على الجهاد في سبيل الله، وطاعة الوالدين في غير معصية الله، وأداء الصلاة وإتاء الزكاة، وهكذا يكون الإخلاص في العمل مثل الإخلاص في أداء العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقدام على كل ما من شأنه أن يحقق فوزا للحق وهزيمة للباطل، وكل عملٍ يحول بين سيئة وفاعلها.

سادسا: مُذكرٌ: لا تذكير إلا بأسباب الغفلة؛ ولأن الإنسان خُلق على التمام ولم يخلق على الكمال، فهو من طبعة ينسى ويتذكر ويغفل ويتفكر، ولهذا فالذكرى نافعة لمن آمن مصداقا لقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}[٦٨٤]، وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا

---

[٦٨٢] الأنعام ١٣٢ ـ ١٣٥.

[٦٨٣] النساء ٨٤، ٨٥.

[٦٨٤] الذاريات ٥٥.

حِسَابَهُمْ}[٦٨٥]، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آَيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٦٨٦]. إذن الذكرى نافعة للإيقاظ من الغفلة والسهو والجهل، وترشد إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن، وفيها أجران:

الأجر الأول: لمن أرشد إلى السبيل المستقيم.

والأجر الثاني: لمن استجاب واهتدى.

سابعا: الإحسان: الوارث المطلق جعل في الأرض وارث مستخلف، يرث الأرض والجنة بالعمل الصالح طاعة في مرضاة الله تعالى، ولهذا في الإحسان أفعال جميلات، وإتقان يستوجب الجزاء الأوفى، وذوق رفيع على موازين الحياة العادلة. قال تعالى: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٨٧]، وقال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ}[٦٨٨]، وقال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}[٦٨٩]. وعليه فالإحسان من عمل الخليفة، وبه يورث في الأرض ويفوز بالجنة، ولهذا فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثى والقريب والغريب، وهي من الأعمال الصالحة التي قال عنها الوارث جل جلاله: {مَنْ عَمِلَ

---

[٦٨٥] الغاشية ٢١ ـ ٢٦.

[٦٨٦] الأنعام ٦٨.

[٦٨٧] الرحمن ٦٠ ، ٦١.

[٦٨٨] البقرة ٨٣.

[٦٨٩] الأحقاف، ١٥، ١٦.

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٦٩٠].

الإحسان عمل الخير لِمن هم في حاجة إليه. إنه جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقق الرضاء النفسي لِمن تُقدّم له (المحتاج أو القاصر) ولِمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقين لها.

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر على ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية المؤسس الأساسي لهيئات الخدمة الاجتماعية

ثامنا: التصدق: التصدق نتاج ملك وإحساس بحاجة الآخر، وعطاء بدون منة، ولذا فأجره كسب وفير، يجازى به المتصدق من عند الوارث مالك الملك، الذي من ملكه أعطى لمن يُعطي فيزيده عطاء. قال تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٦٩١]، وقال تعالى: {وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٦٩٢].

عاشرا: التزكي: الزكاة فرض على المالك القادر، وهي رحمة بين الناس، وهي الحق المعلوم للسائل والمحروم، وهي الحق البين في الرزق الحلال. قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}[٦٩٣]، وقال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[٦٩٤]، وقال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى

---

[٦٩٠] النحل ٩٧.

[٦٩١] المائدة، ٤٥.

[٦٩٢] البقرة ٢٨٠، ٢٨١.

[٦٩٣] المعا رج، ٢٤، ٢٥.

[٦٩٤] فاطر ١٨.

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى}[٦٩٥].

حادي عشر: الاحترام: الاحترام سيادة الشعور المُفضَّل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ومن يناله يشار إليه بالمحترم، ولذا فالاحترام صفة أخلاقية مفضلة ومرغوبة لدى الناس. وكلما سادت بينهم ساد التقدير والنظام والأدب في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم.

قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا}[٦٩٦].

الاحترام شعور يتبادل بين الوارثين على أساس الاعتبار لكل منهم، ولذا فإن الاحترام قيمة إنسانية واجتماعية تتبادل على أساس من المودة مع مراعاة أسباب العلاقة التي تجمع بين المحترمين، والوارث إن لم تكن قيمة مؤسسة على الاحترام فلن يحترم الأرض والناس الذين يعيشون عليها، ولذا فبالإصلاح في الأرض تنال الأرض الاحترام، وبعدم سفك الدماء تحترم الخلائق التي تعيش فيها، وبالعدل بين الذين يتعلق الأمر بهم يكون الاحترام سيدا سائدا بين المستخلفين في الأرض.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[٦٩٧].

ثاني عشر: التقدير: التقدير قيمة تتبادل بين الكبير والصغير والآباء والأبناء والراعي والرعية، قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ

---

[٦٩٥] الليل ١٧ ـ ٢١.

[٦٩٦] النساء ٨٦.

[٦٩٧] الأحزاب ٥٣، ٥٤.

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[٦٩٨]، وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٦٩٩].

وعليه في التقدير تتعدد الأدوار وتتنوع من مجتمع لآخر، ومن ثقافة إلى أخرى باختلاف المعتقدات والأعراف، وفي مجملها تتكامل وتتمم بعضها البعض عندما تلتقي أطراف الحوار بمختلف حاجاتها وأساليب إشباعها، وهذه تجعل أطراف الحوار في مستويات غير متساوية إذا لم تُقدّر أثناء الحوار ومن بعده أيضا فلن يكون للحوار أهمية، فمنطق الحوار يحسسك بأهميتك في الوجود، وأهمية إطارك المرجعي، وأهمية قضيتك قيد البحث والحوار، فعندما يتم الحوار المؤسس على المنطق، تجد نفسك في حالة تقدير، ولهذا كل الناس تسعي لنيل التقدير من الآخرين. تقدير الظروف بين المتحاورين أساسي، وإن لم تقدر الأطراف ظروف بعضها البعض، لا تتمكن من الاستيعاب الذي يؤدي إلى التفاهم.

ثالث عشر: الاعتراف: الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإن

---

[٦٩٨] الإسراء ٢٣ ـ ٢٧.

[٦٩٩] الجاثية ١٨ ـ ٢٢.

جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من أبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شذّ. قال تعالى: {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}[٧٠٠]، وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٧٠١].

ولذا فإن الاعتراف منطق التسليم بالحقيقة، وهو حاجة لكل إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ومن لم يتم الاعتراف بوجوده وبإمكاناته، وبقضيته، سيكافح حتى النصر، والنصر هنا تحقيق الاعتراف من قبل الآخر الذي كان يرفضه، ولهذا يرى كل من هيجل وفرنسيس فوكوياما في أن رغبة الإنسان في نيل الاعتراف ككائن بشري له كرامته التي زجت به في فجر التاريخ في معركة دامية من أجل المنزلة وهي المطلب الذي ينبغي أن تتم تلبيته من الآخر. السيد دائما يود من العبد أن يعترف له بالسيادة، وذلك باعتباره عبدا في منزلة دنيا، وحتى الذي يرتضي العبودية نتيجة الحاجة، يود من سيده أن يعترف له بدوره المخلص في خدمته وخدمة أبنائه وحيواناته من بعده، فالاعتراف يزيد من درجة الإخلاص والتفاعل بين أطراف الحوار حتى ولو كان بين عبدٍ وسيده، وهكذا كل من يجد ويجتهد يود

---

[٧٠٠] يوسف، ٥٨ ـ ٦٣.

[٧٠١] الحجرات ١٠، ١١.

من ذوي العلاقة والآخرين أن يعترفوا لـه باجتهاده، وتفانيـه في العمل والإنتاج، وأن يعترفوا بأنه المتفوق على أقرانه الذين لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي تمكن من تحقيقه، والأب الذي أشرف على تربية أبنائه بنجاح يود من المجتمع أن يعترف له بقدراته على تحقيق هذا النجاح، وأطراف الحوار هي الأخرى إذا لم يعترف كل طرف إلى الطرف الآخر بأنه ذو خصوصية تستوجب التقدير، يصبح كل طرف يسعى تجاه الآخر إلى أن ينال منه الاعتراف بقدراته وإمكاناته واستعداداته وثقافته التي تميزه عن غيره، وعندما يتم الاعتراف والتقدير يصبح التفاعل ميسرا عن ذي قبل بين أطراف الحوار. اعتراف الإسرائيليين بحق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم على أرض آبائهم وأجدادهم فلسطين، جعل الفلسطينيين هم الآخرون يبادلون الإسرائيليين نفس الاعتراف بأن لهم الحق في إقامة دولتهم على نفس التراب الذي تواجدا عليه أبناء العمومة الأعداء، وجعل الطرفين يقبلون الجلوس المعلن على موائد حوار التقسيم الجغرافي للدولتين، وهذا الاعتراف جعل الآخرين يعترفون بأنه الحل، ويدعمونه بالأساليب السياسية والاقتصادية، التي تتأثر بين الحين والحين بمخططات السياسة الدولية.

وعليه فإن المنطق الذي يؤدي إلى نشوب الحرب أو الصدام والاختلاف أو الاتحاد أو الانفصال، هو في معظمه لأجل نيل الاعتراف. كبسولة تنشيط الجهاز التناسلي عند الرجال (ألفياجرة) التي صُنعت لتمكين الذكور من ممارسة الجنس الذي فقدوه نتيجة ضعف وعدم مقدرة، أصبحت هذه الكبسولة في معظم الأحيان تؤخذ لأجل الاعتراف بالمقدرة والتفاخر بإثبات الرجولة وليس بالذكورة فقط. الاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بإرادة.

رابع عشر: الاعتبار: الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر فيها لا يُغض بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرء وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُغيِّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم تحملها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفى أبدا، ولذا فهي تُقدّر. والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك.

قال تعالى: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}[٧٠٢]، وقال تعالى: {كَذَّبَتْ قَوْمُ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ}[٧٠٣].

الاعتبار هو الذي يجعل طرفي الحوار في حالة مساواة، وأن كل منهما في حاجة للآخر، وأنهما لن يكونا مثالا ما لم يعملا معا، وأن لكليهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضر كل منهما بالآخر، ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار. {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[٧٠٤]. والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي نستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميين. إذن الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة عندي، وأن لا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه.

---

[٧٠٢] هود ٧٨ ـ ٨١.

[٧٠٣] الشعراء ١٠٥ ـ ١١١.

[٧٠٤] آل عمران ، ٦٥.

خامس عشر: الأخذ بما جاء به الرسول: الرُسُل صلوات الله عليهم هم الخلفاء الأوائل بالإضافة، وهم الوارثون في الدارين، وهم الذين وجب إتباعهم وطاعتهم من قبل المستخلفين من بعدهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٧٠٥]، وقال تعالى: {وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٧٠٦]، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}[٧٠٧].

سادس عشر: لا يفرق بين رُسُلهِ: الرُسُل صلوات الله عليهم جميعا مبعوثون بقيم وقواعد الاستخلاف في الأرض، ومن يؤمن بها كما نزلت سيكون من المستخلفين بالاختيار الإرادي. ولذلك فإن الاستخلاف في الأرض مؤسس على قاعدتين:

القاعدة الأولى: استخلاف الرُسُل: استخلافهم صلوات الله وسلامه عليهم ليس بالاختيار الإرادي بل هو اصطفاء من عند الله وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو جل جلاله، أي أن اشتراطات كثيرة لا تكون إلا في القلة الصالحة المؤمنة التي عبر الزمن تظهر ويتم تكليف من يكون على رأسها إصلاحا وتقوى نبيا أو رسولا لله تعالى. قال تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[٧٠٨]، وقال تعالى: {هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا

---

[٧٠٥] النساء ٥٩.

[٧٠٦] الحشر ٧.

[٧٠٧] النساء ٦٤، ٦٥.

[٧٠٨] ص ٢٦.

مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آَيَةً قَالَ آَيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}[٧٠٩].

وقال تعالى: {وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآَبٍ}[٧١٠].

ولذلك فالمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله فمثل عيسى كمثل أبينا آدم الذي اصطفاه الله على من خلق ملائكة وجان وعلمه الأسماء جميعها قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آَدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[٧١١].

ولهذا فالمسافة بين محمد وآدم هي المسافة بين آدم وعيسى صلوات وسلامه عليهم، ولذلك لا يجب أن نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٧١٢].

قال تعالى: {قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ

---

[٧٠٩] آل عمران ٣٨ ـ ٤٥.

[٧١٠] ص ٤٥ ـ ٤٩.

[٧١١] آل عمران ٥٩، ٦٠.

[٧١٢] البقرة ٢٨٥.

وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٧١٣]، وقال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٧١٤]، وقال تعالى: {قُلْ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧١٥].

القاعدة الثانية: استخلاف المؤمنين: ولأن الوارث خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرسالة، ولأن له رسالة أُستخلف بها في الأرض، ليُصلح فيها ولا يفسد ويسفك الدماء بغير حق، ولهذا فإن الله أصطفى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على قاعدة إصلاح الأرض التي استوجبت مخلوقا في أحسن تقويم، وبما أنه لا رسول إلا برسالة، إذن لا استخلاف بالقوة إلا بها، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلا برسالة، ولأن رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلا ويكون على الرسالة، ولهذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقدْ فَقَدَ شرطا رئيسا للاستخلاف وهو الرسالة.

وعليه بالرسالة كان استخلاف الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى الرسالة الخاتمة يكون الاستخلاف. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧١٦]، وقال تعالى:

---

[٧١٣] البقرة ١٣٦، ١٣٧.

[٧١٤] البقرة ٢٨٥..

[٧١٥] آل عمران ٨٤ ـ ٨٩.

[٧١٦] الأنعام ١٦٥.

{وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٧١٧]. إذن القاعدة مؤسسة على ما (آتاكم) والذي أوتينا به هو الرسالة المحمولة في الكتاب المحفوظ، فمن تبعها فقد اهتدى السبيل إلى الاستخلاف والوراثة ومن ضلَ ضلْ. وفي هذا الأمر قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آَمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[٧١٨]، الأمة المشار إليها في الآيتين السابقتين هي الأمة المستخلفة برسالتها، ولكن من ضل منها فلا يعد من المستخلفين.

سابع عشر: أخذ النصيب من الدنيا: بما أننا خلقنا فيها فلابد من نصيب منها، وإلا لماذا الاستخلاف فيها لو لم يكن لنا فيها نصيب لنأخذه؟. ولأن النصيب حق، والحق يؤخذ بالعافية أو بغيرها، إذن لا مفر من أن يأخذ المخلوق نصيبه مما خلق الله له في هذه الحياة الدنيا، وأخذ النصيب يعني بطبيعة الحال عدم أخذ ما ليس بنصيب، ولأن الإنسان مستخلف على قاعدة أخذ الحقوق وأداء الواجبات إذن أخذ الحقوق هو أخذ النصيب. أما أولئك الذين يمدون أياديهم إلى ما ليس لهم فيه حق، فإن أمرهم أمر معصية للطاعة بأخذ النصيب. أي أنهم خالفوا قاعدة الاستخلاف والوراثة في الأرض التي تأسست الحياة فيها على القواعد التالية:

القاعدة الأولى: الحقوق تؤخذ وتمارس.

والقاعدة الثانية: الواجبات تؤدي في مقابل حقوق تؤخذ.

والقاعدة الثالثة: المسؤوليات تمارس في مقابل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات.

قال تعالى: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[٧١٩].

---

[٧١٧] الحشر ٧.

[٧١٨] آل عمران ١٠٩، ١١٠.

[٧١٩] القصص ٧٧.

فقوله تعالى: (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) تعني: خذ حقوقك منها، والحقوق دائما مكفولة لكل من خُلق حتى ولو لم يكن إنسانا، ولهذا جعل الله لكل مخلوق نصيب في الدنيا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والنصيب كحق بمقدار الحاجة، من مأكل ومشرب وجنس وملبس، وصلاحيات واختصاصات وفقا للرسالة المشرعة لذلك، ولهذا فلا تنس نصيبك من الدنيا، ومن ينس نصيبه يعد مخالفا لما أمر الله به وهو (خذ) أي قوله لا تنس نصيبك بمعنى (خذه) من الدنيا.

قال تعالى: {مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٧٢٠]، طاعة الرسول في هذه الآيات الكريمة جاءت لأخذ النصيب من ألفيء، ولهذا ما يؤتى من الرسول صلى الله عليه وسلم يؤخذ، وهو الحق الذي اعتبرناه نصيب لا ينبغي أن يُنسى أو لا يؤخذ من الدنيا.

وأخذ النصيب فرض من لا يأخذه يعد تخلى عن نصيب له مفروض من عند الله، وبذلك فمن الطاعة التامة أن يأخذ الوارث حقه مما وُرِّثَ فيه، لكي يكون من المستخلفين الأخيار.

قال تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}[٧٢١]، فكلمتا: (نصيبا مفروضا) تعني: نصيبا مقررا من عند الله، ولأنه الحق المقرر من الحق المطلق جل جلاله، إذن أداؤه وأخذه فرض لا ينبغي الإغفال عنه، ومن تركه ترك فرضا.

ولأن الله تعالى خلقنا في أحسن تقويم، وهو يريدنا أن نكون المستخلفين في الأرض والوارثين فيها وفي الجنة، فهو بهذا المعنى لا يود أن تكون حياتنا مقصورة على الحياة الدنيا، فجعلنا الوارثين في الدارين، ولذا فلا ينبغي أن يقبل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم بالحياة الدنيا فقط، وإن قبل بذلك فلا يكون من الوارثين في الجنة، ولهذا أعمل لأخرتك كأنك تموت

---

[٧٢٠] الحشر ٧.

[٧٢١] النساء ٧.

غدا وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، وعليه قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}[٧٢٢]. ولأنه لا جنة إلا بعد الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا فانية، والحياة الآخرة هي الحياة الحيوان، وأنه لا دخول للجنة إلا برسالة أو على رسالة وعمل صالح في الحياة الدنيا، لذا فلا يجب أن تنسى نصيبك من الدنيا، لتكون من الوارثين في الجنة، ومن نسي نصيبه منها فلن يكون له في الجنة من نصيب.

ثامن عشر: الفوز بالجنة: الفوز بالجنة مشروط بالقول اللين الذي يُصلح ما بين المرء وزوجه، وبه يعدل بين المحتكمين بالحق، ولا يشهد به شهادة زورا، ولا يلوك كذبا بين الشفتين، ولا ينطق كفرا وشركا وبهتانا ذلك الحق من ربك، وإلى جانب القول الحق، الفعل الحق فلا يسرق ولا يزنى ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يسفك في الأرض دما بغير حق، ولا يخمر مع الخمارين، ولا يأكل ما حرم، وأن يصلي لله تعالى واحد أحد لا شريك له، وأن يكون مؤمنا بمن أرسل وبما أنزل.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٧٢٣]، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٧٢٤]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا}[٧٢٥]، وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٧٢٦]، وقال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

---

[٧٢٢] الشورى ٢٠.

[٧٢٣] البقرة ٨٢.

[٧٢٤] آل عمران ١٨٥.

[٧٢٥] النساء ١٢٤.

[٧٢٦] الأعراف ٤٣.

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآَخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ}[٧٢٧].

اللهم يا الوارث اجعلنا من الوارثين المستخلفين الفائزين في الدارين ولا تجعلنا من المحرومين والمغضوب عليهم ولا تجعلنا من المعذبين، اللهم اجعلنا من الذين ملكوا الشهادة لك بالوحدانية وهم طائعين لما جاء به رسولك الكريم وبه مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاتحين كل سبيل من أجل السلام، اللهم يا الوارث اجعلنا من العالمين ولا تجعل أبناءنا من الجاهلين، اللهم اجعلهم وارثين للحُجَّة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل، ومالكين للحكمة التي بها تصلح أحوالهم وفيها ما يحقق لهم طموحاتهم وآمالهم في طاعتك لا في معصيتك، اللهم اجعلهم الوارثين للعلم الذي ينفع والعمل الذي يرفع والقلب الذي يخشع والعين التي تدمع والدعوة التي يستجاب لها والحُجَّة التي يُنْساقُ إليها، اللهم أورثنا من ميراث النبوة العلم والنور وشفاء الصدور، واجعلنا في الآخرة من ورثة جنة النعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

---

[٧٢٧] الأعراف ٤٤ ـ ٥١.

الرشيد

الرشيد: يُرشِد ولا يُرشَد، والرشيد هو الكامل الذي لا يلحقه النقص، وغيره على النواقص ما جعل الحاجة تحفهم من كل زاوية وجانب، ولهذا من يكون في حاجة فهو منقوص فيحتاج لمن يرشده إلى ما يهديه للحق وإتباعه. وعليه فمن اهتدى بما أرشد إليه أصبح مرشدا لغيره بالحق للحق.

الرشيد "الله تعالى أرشد الخلق كلهم إلى مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلى الجنة وطرق الثواب"[٧٢٨].

الرشيد، هو الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها على سنن السداد من غير إشارة مشير وتسديد مسدد وإرشاد مرشد وهو الله سبحانه وتعالى ورشد كل عبد بقدر هدايته في تدابيره إلى ما يشاكل الصواب من مقاصده ودينه ودنياه[٧٢٩].

الرشيد هو فعيل في معنى مفعل والله تعالى أرشد الخلق كلهم إلى مصالحهم وأرشد أولياءه خاصة إلى الجنة وطرق الثواب فهو الرشيد[٧٣٠].

الرشيد "المصيب الحقّ، لا من هداه غيره، فإن الهداية بيده"[٧٣١].

وفي النونية:

وهو الرشيد فقوله وفعاله*** رشد وربك مرشد الحيران

وكلاهما حق فهذا وصفه*** والفعل للإرشاد ذاك الثاني[٧٣٢]

---

[٧٢٨] تفسير أسماء الله الحسنى ، ج ١ ، ص ٦٥.

[٧٢٩] الغزالي، المقصد الأسنى ص ١٤٩.

[٧٣٠] الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٦٥.

[٧٣١] تفسير الطبري ، ج ١٧ ، ص ٥٥٩.

[٧٣٢] القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ج ٢ ، ص ١٧.

الرشيد اسم من أسماء الله الحسنى وهو يدل على مطلق الكمال والحكمة والهدى، والرشيد معناه بالغ الرشاد ومنتهاه في التدبير والتوجيه إلى الصواب والحق والسداد، فمن القواعد الجلية والأشياء المنطقية في إثبات الصفة للموصوف هي ضرورة التلازم بين الدال والمدلول حتى يصح لنا أن نستدل بوجود الدليل على وجود المدلول، وهو نوع من التلازم الضروري كدلالة وجود الخلق على وجود الخالق كما بينا ذلك في مواضع كثيرة، فلما ثبتت أدلة الخلق على أن لها خالق فهو دليل على أن الخلق لم يتركوا هملا، وإنما كان لهم منافع ومعارف ومصالح ومعايش توجهوا إليها خدمة لحاجاتهم كل حسب طبيعة خلقه بالإرشاد من الرشيد جل جلاله فقد جاء في لسان العرب من أَسماء الله تعالى: "الرشيدُ هو الذي أَرْشَد الخلق إِلى مصالحهم أَي هداهم ودلهم عليها، وهو الذي تنساق تدبيراته إِلى غاياتها على سبيل السداد من غير إِشارة مشير ولا تَسْديد مُسَدِّد، والرُّشْد والرَّشَد والرَّشاد نقيض الغيّ"[٧٣٣]، فهو عز وجل أرشد الخلق إلى مصالحهم وفق تدبيراته، ولا يخرج الخلق مما نعلم عن أنواع ستة:

١ . الإنسان.

٢ . الملائكة.

٣ . الجن.

٤ . الحيوان على اختلاف أنواعه من الطير والمواشي والزواحف والسوابح.

٥ . النبات من العشب والشجر والجذور.

٦ . الجمادات من الصلب والسائل والغازات.

وهذا يعني أنه إرشاد فطري من الله تعالى لخلقه إلى مصالحهم التي تكمن فيها منافعهم وحاجاتهم التي يكون فيها خيرهم ومعاشهم في دينهم ودنياهم على مستوى الخلق العاقل، أو بطريق الوحي كما هو حال النحل والحمام الزاجل وكثير من الطيور في هجرتها المعروفة صيفا وشتاء وهو نوع من البرمجة وليس وحيا عن طريق الملائكة التي تبلغ الرسل، إما بطريق التسخير كما هو حال كثير من الحيوانات في إرشاد هذا النوع من الخلق خدمة لخلق

---

[٧٣٣] لسان العرب ، ج ٣، ١٧٥ص

آخر، وإما بالطاعة كما هو حال السماوات والأرض بإرشادها لمشيئته فيما أراد من رشد جل شأنه، حيث نتبين صفة الرشيد من خلال ما أرشدت إليه هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأوصافها وصفاتها بما تحمل من التباين والمتناقضات وبما تتفق من إتباعها للرشاد.

الله سبحانه وتعالى رشيد في أفعاله ورشيد في صفاته وأسمائه الحسنى فهو رشيد بقربه وبعده وظهوره وبطونه وتقديمه وتأخيره، ورشيد بكونه حيا وقيوما، فهو رشيد في تأخيره الجزاء من الثواب والعقاب وإن كان الخلق يرونه بعيدا فهو بالنسبة إلى رؤية الله قريب وقد يكون بالنسبة إلينا بعيداً مثل قوله: {إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا}[٧٣٤] وهو الرشيد الحيّ لنفسه لتحقيق ما نسب إليه مما لا يتصف به إلا من شرطه أن يكون حيا قيوما حيث قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٧٣٥] لقيامه على كل حال نفس بما آتاها من رشاد، وهو الواجد لما طلب فلحق، فلا يفوته هارب كما لا يلحقه في الحقيقة طالب، معرفته الواحد من حيث ألوهيته فلا إله إلا هو الصمد حيث قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ}[٧٣٦] الذي يُلجأ إليه في الأمور ولهذا اتخذناه وكيلا، والتوكل عليه هو طريق الرشاد، وهو القادر النافذ الاقتدار في القوابل الذي يريد فيها ظهور الاقتدار حيث قال تعالى: {أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٧٣٧] فإن الاقتدار لله فهو تعالى قادر بنفسه ولهذه القدرة نطلب منه الرشاد، وهو المقدم المؤخر برشده من شاء لما شاء ومن شاء عما شاء، وهو الأوّل الآخر بالوجوب وبرجوع الأمر كله إليه، والظاهر الباطن لنفسه، ظهر فما زال ظاهرا أو عن خلقه بطن فما يزال باطنا، ولذلك يطلب منه الرشد أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، وهو البر أبدا بإحسانه ونعمه وآلائه التي أنعم بها على عباده لأنه

---

[٧٣٤] المعارج ٦، ٧

[٧٣٥] البقرة ٢٥٥

[٧٣٦] الإخلاص ١، ٢

[٧٣٧] البقرة ١٤٨

رشيد، وهو التوّاب لرجوعه على عباده ليتوبوا ورجوعه بالجزاء على توبتهم ليرشدهم لما فيه خير دينهم ودنياهم، وهو المنتقم ممن عصاه تطهيرا له من ذلك في الدنيا بإقامة الحدود ليعفو عنه في الآخرة فهو الحليم الرشيد، فهذه الآلام كلها انتقام وجزاء خفي لا يشعر به كل أحد حتى إيلام الرضيع جزاء العفو لما في العطاء من التفاضل في القلة والكثرة وأنواع الأعطيات على اختلافها لا بد أن يدخلها القلة والكثرة فلا بد أن يعمها العفو فإنه لا بد من الأضداد كالجليل والرؤوف بما ظهر في العباد من الصلاح والرشاد، وهو المقسط بما أعطى بحكم التقسيط حيث قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}[٧٣٨] وهو التقسيط الجامع بوجوده لكل موجود فيه وهذا التنزيل بالقدر المعلوم هو إصلاح وإرشاد للخلق، وهو الغنيّ عن العالمين والمغني لهم، من أعطاه صفة الغنى بأن أوقفه على أن علمه بالعالم تابع للمعلوم فما أعطاه من نفسه شيئاً فاستغنى عن الأثر منه فيه لعلمه بأنه لا يوجد فيه إلا ما كان عليه لرشده، وهو البديع الذي لم يزل في خلقه على الدوام بديعا لأنه يخلق الأمثال وغير الأمثال ولا بد من وجه به يتميز المثل عن مثله، ولا يتميز إلا بالإرشاد، وهو الضار النافع بما لا يوافق الغرض وبما يوافقه بما أرشد كل مخلوق إليه، وهو النور الذي يرشد من الظلمات لما فيه خير الخلق ومصالحهم، وهو الهادي بما أبانه للعلماء به مما هو الأمر عليه في نفسه ليستبينوا سبل الرشاد، وهو المانع لإمكان إرسال ما أمسكه وما وقع الإمساك إلا لحكمة ورشاد اقتضاه علمه في خلقه، وهو الباقي حيث لا يقبل الزوال كما قبلته أعيان الموجودات بعد وجودها فله دوام الوجود ودوام الإيجاد، والوارث لما خلفناه عند انتقالنا إلى البرزخ خاصة، وهو الرشيد بما أرشد إليه عباده في تعريفه إياهم بأنه تعالى على صراط مستقيم في أخذه بناصية كل دابة فما من أحد إلا هو على ذلك الصراط والاستقامة مآلها إلى الرحمة فما أنعم الله على عباده بنعمة أعظم من كونه آخذ بناصية كل دابة، وهو الصبور برشده على ما أوذي به حيث قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا

---

[٧٣٨] الحجر ٢١

وَالْآَخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا}[739] فما عجل لهم في العقوبة مع اقتداره على ذلك وإنما أخر ذلك ليكون منه ما يكون دلالة على أنه رشيد لجميع أنواع خلقه[740].

وهذا الخلق الذي ينقسم إلى هذه الأنواع سوف نحاول أن نفصل القول في كل واحد منهم في إرشاد الرشيد له وفق مشيئة الله تعالى وإرادته التي أرادها لخلقه بحكمته واحدا بعد الآخر، إرشاد الإنسان ومن شاركه بصفاته أو بعضها من الجن والملائكة بصرف النظر عمن أطاع أو عصى، فالله سبحانه وتعالى أرشد وأمر بالرشد كونه رشيدا، فمن اتبع سبيل الرشاد الذي بينه الله لخلقه فقد استمسك بالعروة الوثقى، وأما من أبى فلا يلومنّ إلا نفسه، فالله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام بيده وأسكنه الجنة مع زوجه وأرشده لما فيه خيره وصلاحه وصلاح ذريته حيث قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[741] لقد أرشد الله آدم عليه الصلاة والسلام وزوجه إلى العيش في جنة النعيم بأن اسكنه هو وزوجه جنة الخلد يأكلان منها ما يشاءان أكلا هنيئا وافرا من أي مكان ومن أي ثمر يريدانه، ولكن الله ذكر لهما شجرة معينة وحذرهما الأكل منها وقال لهما: لا تدنوا من هذه الشجرة ولا تأكلا منها، وإلا كنتما من الظالمين العاصين، وإذا فعلا ما نهاهما عنه كانا بعيدين عن الرشاد، لقد نهى الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام عن تلك الشجرة وهو نهي إرشاد وتوجيه كانت فيه مصلحة لآدم وزوجه حتى لا تبدو لهما سوءاتهما وهذا إرشاد إلى الستر، والنهي يكون عادة ما يتوجه إلى أكثر من اتجاه، فمنه ما يكون نهي تأديب، ومنه ما يكون نهي تحريم، وقد جمع هذا النهي الجانبين معا، ولم نجد شيئا قد نهي عنه إلا بحق، وذلك أن ضرره راجع إلى بعده عن سبيل الرشاد فإن سبيل الرشاد مستقيم إلى الله تعالى لذلك فإن الله تبارك وتعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام بالدعوة إلى الرشاد حيث قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا

---

[739] الأحزاب ٥٧

[740] طرق حديث الأسماء الحسنى ، ج ١ ، ص ١٠٨.

[741] البقرة ٣٥

وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٧٤٢] ومن زاغ فإنما يزيغ عن طريق الهدى وسبل الرشاد الذي أمر به الله تعالى، فالاستقامة تقرب العبيد إلى الله والطاعة تجعله رشيدا، وأن الله تبارك وتعالى دعا آدم إلى دار الخلود وأعلمه طريق الرشاد، لذلك فقد بين الرشيد جل شأنه لآدم عليه الصلاة والسلام طريق الرشد بأسلوب المنع والنهي لما فيه من خير له ولزوجه، فوجدنا النهي على ضربين: منه نهي تأديب، ومنه نهي تحريم، فمن ترك الأدب انحط عن درجته، ومن وثب على التحريم سقط في التهلكة، ورحمة من الله الرشيد فقد أرشد آدم عليه الصلاة والسلام مرة أخرى ليتوب عليه حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٧٤٣]، وهذه التوبة أصلها الرجوع إلى الرشد بعد أن علم وعرف ضرر الذنب الذي أبعده عن الرشاد الذي يكمن فيه الخير له ولذريته، لذلك استشعر الندم بفوات ذلك النعيم الذي كان فيه، وما من طريق إلى النجاة إلا الترك والتدارك والعزم على عدم العودة إلى المعصية بأن يسلك طريق الرشاد الذي أمر به الرشيد جل شأنه وطريق تحصيل الرشد وتكميله إنما هو بترك المعاصي لما فيها من ضرر الابتعاد عن الرشاد، لذلك كانت التوبة رجاء العفو عن الذنب والمغفرة ابتغاء العود إلى السبيل الذي أمر به الرشيد الحكيم، فقد عرَّف الله تعالى حقيقة التوبة لآدم عليه الصلاة والسلام بأنه ابتعد عن طريق الرشاد، فلا بد أن يعرف ماهية التوبة ويتمكن بفعلها من تدارك ما بدر منه، وذلك بأن نبهه على المعصية الواقعة منه على وجه صار آدم عليه الصلاة السلام عند ذلك من التائبين المنيبين العائدين إلى الرشد، وأنه تعالى عرفه وجوب التوبة وكونها مقبولة لا محالة على معنى أن من أذنب ذنبا صغيرا أو كبيرا ثم ندم على ما صنع وعزم على أن لا يعود فإنه قد أخذ بنصيبه من رشاد الرشيد الذي يهدي إلى صراط مستقيم، وأحس آدم عليه الصلاة والسلام هو وزوجه بخطئه وظلمه لنفسه ولزوجه وندم على الابتعاد عن الرشد، فألهم الله تعالى آدم كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فتقبَّل الله منه وغفر له، فحين تلقى آدم عليه

---

[٧٤٢] يوسف ١٠٨

[٧٤٣] البقرة ٣٧

الصلاة والسلام الكلمات من الله الرشيد استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها فكان بذلك من الراشدين، وهنا يجدر بنا القول أن آدم عليه الصلاة والسلام هو أول خليفة يستخلفه الله تعالى في الأرض فقد جعل رشاده وإرشاده سنة للخلفاء من بعده، فالخليفة رشيد بالإضافة في قوله وعلمه وعمله، أما في قوله فإنه لا يتكلم إلا بالحكمة والموعظة الحسنة التي تهدي إلى الرشد وطريق الخير والسداد وسبل الهدى والرشاد، وأما في علمه فإنه أوتي من العلم الرشيد ما لم يؤتَ غيره مثله وذلك لنقاء قلبه وصفاء ذهنه وطيب سريرته فقد جعل اللّه تعالى القلوب كالآنية، فالقلوب آنية اللّه في أرضه فأحبها إليه أرقّها وأصلبها وأصفاها، فقلب الخليفة أضاء بالرشد من الإيمان ذلك أن مصباح نور الإيمان في قلبه، كالشجرة المباركة، وهي شجرة الوحي والإلهام المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها، والنور على النور نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد الخليفة نوراً على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة والرشد قبل أن يسأل، ثم يبلغه بمثل ما وقع في قلبه وينطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه طريق الرشاد وسبيل الهدى الذي أمر بهما الرشيد، فهما يتصادقان ويتوافقان في قلبه، فهذه علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون فهي في صدره كما قال تعالى: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[٧٤٤]، فهنا نتبين من هذه الآيات الاختلاف والفروق بين الرشاد والغي، حيث اشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان: أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الرشد أمر به الرشيد جل شأنه وبعث به أنبياءه ورسله ومن هؤلاء يكون الخليفة، وأن كل ما عارضه فشبهات تشتبه على من قل نصيبه من العقل والعلم فيظن أنه حصل له شيء ينتفع به، فهو كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

[٧٤٤] النور ٤٠

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}[٧٤٥]، فلا هم في علمهم إلا من أهل الخوض الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم فلذلك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة، وأولئك هم الخاسرون حيث أضاء لهم نور الرشد المبين، فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتمتعون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، بعيدين عمّا بعث اللّه تعالى به أنبياءه ورسله من الحكمة وفصل الخطاب الذي يهدي إلى الرشاد، فتركوا ما أمر به الرشيد جل شأنه واتبعوا الغي والضلال ورضوا به واطمأنوا إليه وقدموه على الرشد الذي يكمن فيه الخير والفوز بالدنيا والآخرة، لأن في صدورهم كبر أوجبه لهم إتباع الهوى واسترسالهم في غيّهم يعمهون. وأما الخليفة وأهل الهدى ودين الحق، أصحاب العلم النافع والعمل الصالح والطريق الرشيد والسبيل السديد، الذين صدقوا الله في ما أرشدهم إليه، ولم يعارضوا الرشد والهدى بالشبهات، وأطاعوه في أوامره، ولم يضيعوها بالشهوات، وكانوا صادقين في رشدهم وإرشادهم لذلك خصهم الله تعالى بقوله: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٧٤٦] وهذا لصدق رشادهم بما علموا، وأما عمل الخليفة فيكون خالصا لوجه الله تعالى، داعيا إلى سبيله، فيكون بذلك من العمل الصالح الذي ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، بنور الإيمان الصادق الذي يقذفه الله في قلب الخليفة، مع العمل الصالح الذي أرشد إليه وبما يحمل من العلم النافع، فكلما اتسع العلم انشرح الصدر واتسع، فالخليفة يبذل ما بيديه من العلم النافع الدال على العمل الصالح ولا يكتم منه شيئا لأنه من الراشدين، فهو يسدي الإحسان إلى الخلق بأنواع الإحسان والنفع لهم بما يمكن لهم رشدهم لأنه رشيد، وهو

---

[٧٤٥] النور ٣٩، ٤٠

[٧٤٦] المائدة ١١٩

برشده أشرح الناس صدرا، وأطيبهم نفسا، وأنعمهم قلبا لما تمتع به من اليقين في رشده الذي اهتدى به إلى الحق ودعا بهذا الرشد إليه.

وأما سبب ابتعاد بعض الخلق عن الرشد والفضيلة فلا يخلو من أمور هي: إما أن تكون نقصا في أصل أخلاقه وعجزا مركبا في طبعه يتقاعس به عن تحصيل القوة وجمع الإرادة التي يتوصل بها إلى الرشد كالذي تضعف عزيمته أمام الشهوات فيترك الفضيلة ويتبع الرذيلة وبهذا يكون قد عمد إلى مخالفة سنة الله في خلقه، فإذا رأى طريق الرشد لا يتخذه سبيلا وإن رأى طريق الغي يتخذه سبيلا، وإما أنه يؤجل طلب الرشد وهو يدرك حقيقته ولكن لانشغاله بأمور يظن أنه بعد فراغه سيسعى إلى الرشاد فلا يجد هاديا يرشده، فيدركه الأجل ويكون من الهالكين، وإما أن يكون مصابا بعقله فلا يميز بين الغي والرشاد فذاك مرفوع عنه القلم، وإما أنه غير عاجز عن ذلك فعلم الرشد وسعى إليه وانعقدت نيته على ذلك فلم يمهله عمره من ساعته فقد وقع أجره على الله لما قال الله تعالى: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٧٤٧] حيث أن الهجرة إلى الله ورسوله هي إتباع طريق الرشاد، وإما أن يتفق له مربٍ ومعلمٌ مضل فيضله عن الطريق، فقد غوى وما رشد، وأما أن يكون ترك الرشد واتبع الغي والضلال من جهة نفسه لا من جهة شيء مما ذكرنا وذلك هو المتوعد بالعذاب، فمن أزاح الله علته بالفهم والكفاية والعلم الناصح فرغب عن الاهتداء وترك طريق الرشاد، يكون كمن وصفه الله تعالى بقوله: {وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آَيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى}[٧٤٨]، وأكثر من ذلك ضلالا وغيا من وعى الرشد وعرف الحق وعلم السبيل وسلك من طريق الخير مراحل ثم ارتد عنها راجعا فيكون قد استبدل الرشد بالغي والهدى بالضلال فما له من رشيد. وأحوال الخلق ومراتبهم في الإقبال على الرشاد والابتعاد عنه إنما يكون على أنواع أيضا فمنهم من له المعرفة بما يجب أن يفعل ليسلك طريق الرشاد وله مع ذلك

---

[٧٤٧] النساء ١٠٠

[٧٤٨] طه ٥٦

قوة العزيمة على العمل به، ومنهم من له المعرفة في طريق الرشد وليس له قوة العزيمة على إتباعه، فهو في مرتبة الجاهل بل هو شر منه، لأن العلم يكون شر من الجهل عندما يعلم العالم ولا يعمل بما يعلم، ومنهم من ليس له المعرفة والعلم لكن له قوة العزيمة، فهذا متى انقاد لأهل العلم والمعرفة وعمل بقولهم أصبح من الراشدين، ومن الناس من يقول لا نستطيع أن نميز بين الرشد والغي وإذا عرض لنا أمران لا ندري في أيهما الرشاد، فلينظر أيهما أقرب إلى هوى نفسه فليخالفه، لأن الرشد في مخالفة الهوى والصبر على المكاره، وليس لمن قل صبره عن الهوى حظ من بر ولا نصيب من رشاد، ومن لم ير لنفسه صبرا يكسبها الهدى، ويدفع عنها الغي، كان ذلك من سوء اختياره، وبعيدا من الرشاد حقيقا بالضلال. ولذلك فإن التفهم في الخير زيادة ورشد، وإن الرشيد من رشد عن الغي، وإن الخائب من خاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكون مصيبا، وإن المعجل مخطئ، أو كاد أن يكون مخطئا، وإنه من لا ينفعه عقله في الدلالة على الرشد كمن لا عقل له، فالرشيد من يختص بإصابة المقصود من الخير الذي يكون له ذخر الدارين في الدنيا والآخرة، ومع ذلك فالرشيد أيضا يجب أن يكون راشدا ومرشدا، أي راشدا في قوله وعلمه وعمله، ومرشدا إلى القول والعلم والعمل، لأن الله الرشيد أضفى عليه من هذه الصفة فوجب عليه أن يكون راشدا ومرشدا، لذلك كان الخليفة رشيدا بالإضافة لأنه لم يحتفظ بهذا الرشد لنفسه وإنما استخدمه في إرشاد الآخرين إلى طرق الهدى ومنابع الخير والفوز العظيم في إرشاد الرشيد من الخلق للخلق كما قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٧٤٩] فهنا الإرشاد إلى تجارة عظيمة تنجي من اتبع الرشد من عذاب شديد الألم، وهذه التجارة هي أن تثبتوا على الإيمان بالله ورسوله، وتُجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك الذي يرشدكم إليه خير لكم إن كنتم تعلمون، وهذا الإرشاد له ثمن وهو

---

[٧٤٩] الصف ١٠، ١٢

أن تؤمنوا وتجاهدوا فى سبيل الله كي يغفر لكم ذنوبكم، ويُدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار، ومساكن طيبة فى جنات عدن، وذلك نتيجة الرشاد وهو الفوز العظيم، وعلى هذا فالخليفة هو أحق الناس بالدعوة إلى الرشاد لأنه رشيد فيعلم مكامن الرشد ونتائجه وثوابه وأجره، فالله سبحانه وتعالى رشيد بأن أرشد الخلق إلى طرق الهدى والصلاح فأرسل أنبياءه مرشدين، فهم مبشرون بجنة عرضها السماوات والأرض ومنذرون بنار جهنم التي أعدت لمن حاد عن طريق الرشاد الذي أمر به الله سبحانه وتعالى، وما من نبي إلا أرشده الرشيد جل شأنه بحكمته إلى طريق الهدى والصلاح والتقى ليكون ذلك سببا لخير الخلق ومدعاة للنجاة ورحمة لهم ورأفة بهم حيث قال تعالى: {تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[٧٥٠] فيؤتيه رشده ليرشد الخلق لما فيه خيرهم وصلاحهم لأن الله سبحانه وتعالى حرم الظلم على نفسه وحرمه بين عباده لذلك كان حقيقا على الله تعالى أن يكون رشيدا ومرشدا وراشدا لأنه نفى الظلم عن نفسه جل جلاله فآتى الرشد لخلقه ليكون حجة على من ترك الرشاد واتبع سبيل الغي والضلال وكان من الذين قال فيهم جل شأنه: {سَأَصْرِفُ عَنْ آَيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[٧٥١] فالله تعالى منع الرشد عن هؤلاء وصرفهم من التفكير في دلائل قدرته القائمة في الأنفس والأفاق، أولئك الذين يتطاولون فى الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب بغير وجه حق، فإن رأوا آيات الله التي تدل على صدق المرسلين الراشدين أعرضوا عنها كبرا وطغيانا وكفرا، لذلك فإن شاهدوا طريق الهدى وسبل الرشاد لا يسلكوه، وإن شاهدوا طريق الغي والضلال سلكوه واتخذوه سبيلا لهم مبتعدين عن الرشد الذي أمر به الرشيد الحكيم. والله سبحانه مع كونه رشيدا فهو يمنع الرشد أيضا عن أولئك الذين يتطاولون في الأرض

[٧٥٠] آل عمران ١٠٨

[٧٥١] الأعراف ١٤٦

ويتكبّرون عن قبول الصواب بغير الحق مخالفين الفطرة السليمة التي فطر الله تعالى عليها خلقه لذلك استحقوا طريق الضلال لأنهم صدوا عن الرشاد وغفلوا عن الاهتداء به.

والرشد هو نقيض الضلال، وهو الذي يصيب وجه الأَمر والطريق الصحيح والسبيل الواضح الذي ليس فيه غيٌّ ولا عوج بحيث يرشد إلى الجادة الواضحة وطريق النجاة في الدين والدنيا مما يترتب عليه الصلاح والهداية للذي يأخذ في طريق الرشد وسبيله فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي وعضوا عليها بالنواجذ"[٧٥٢] وإنما جاء الأمر في التفضيل بإتباع الخلفاء لما هم عليه من الرشد الذي اتبعوا به هدى الله تعالى وهدى رسوله عليه الصلاة والسلام، وهو معقول تأكيد النبوة وتأكيد الرسالة الراشدة من الحكيم الرشيد بأن الذي جاء من الله تعالى هو الصراط الحميد الذي يهدي إلى الرشد، فكانت النبوة مخالفة للملك حيث جاءت الخلافة على غير سيرة الملوك من استخلاف أبنائهم وأهل بيتهم، وقد أجمعت الأمة على ذلك، ومعنى هذا هو إخراج الخلق من المألوف ورفع سكونهم عن المعهود، بأن سنّ الله لهم الرشد في إتباع الخليفة لما تمتع به من صفة الرشيد بالإضافة فكان رشيدا ومرشدا.

لقد بعث الله أنبياءه بالهدى والرشاد وأضفى عليهم من الرشد ما يمكنهم من إرشاد خلقه إلى ما أمر به الله تعالى من الخير والبر والنفع الذي فيه رشدهم ونجاتهم من الشر والغي والضلال فقد قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ}[٧٥٣] لقد أرسل الله تعالى نوحاً إلى قومه وجعله رشيدا مرشدا فقال لهم: إني محذركم من عذاب الله، ومبين لكم طريق النجاة والرشاد الذي أمر به الرشيد الحكيم

---

[٧٥٢] مشكل الآثار للطحاوي ٣، ١٨٣

[٧٥٣] هود ٢٥، ٢٨

لما فيه من صلاح وهدى فجاءهم يوم عيد لهم وكانوا يعبدون الأصنام ويشربون الخمور ويواقعون النساء كالبهائم من غير ستر فنادهم ودعاهم إلى الرشد ففزعوا من صوت الحق ثم استمروا في غيّهم بعيدين كل البعد عن طريق الهدى وسبيل الرشاد، ثم نسبوا نوحا عليه الصلاة والسلام إلى الجنون وكذبوه، ولكونه رشيدا فقد احتمل كل أنواع الأذى من قومه ذلك أن الرشيد حليم وحكيم وصبور وشكور لذلك لم يطلب منهم إلا أن يتبعوا الرشد الذي أرسل به، وأول الرشد هو التسليم بالوحدانية لله تعالى وذلك لخوفه عليهم وحرصا منه على نجاتهم، ولأنه رشيد فقد بذل كل جهده في دعوتهم وأفنى عمره في نصحهم وإرشادهم مخافة أن يحل عليهم ما هو أعلم به منهم، ألا وهو عذاب أليم في الدنيا وخلود في نار جهنم في الآخرة، ولقد اتضحت صفة الرشيد في نوح عليه الصلاة والسلام بما كان يصدر من قومه من سفاهة وابتعاد عن طريق الرشاد، فعلى الرغم من نبوته كانوا يقولون: ما نرى إلا أنك بشر مثلنا، فليس فيك ما يجعل لك ميزة خاصة، وفضلاً يحملنا على الإيمان بأنك رسول من عند الله، وما نرى الذين اتبعوك من بيننا إلا الطبقة الدنيا منا، وما نرى لكم من فضل علينا، بل إنا نعتقد أنكم كاذبون فيما تزعمون، فنوح عليه الصلاة والسلام مكث في قومه ألف عام إلا خمسين وهو يدعوهم إلى الحق وسبل الخير، فأية حكمة وأي رشد وأي هدى هذا الذي أتاه الله حتى صبر كل هذا الصبر على السفيه والمتكبر وأراذل الناس ممن كانوا يستهزؤن ويسخرون مما كان يدعوهم إليه، فلولا الحكمة البالغة التي أيده بها الحكيم، والحلم العظيم الذي امتن عليه به الحليم العليم، والهدى الذي هداه إليه الهادي الكريم، والرشد الذي منحه إياه الرشيد جل شأنه وعزت قدرته، لما كان رشيدا ومرشدا لقوم لا يفقهون، فهو لا يريد منهم جزاء ولا شكورا إلا إتباع سبيل الهدى والرشاد وما يطلب على ذلك من أجر إلا من الرشيد الذي أوكله بإرشاد قومه حيث قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ

الظَّالِمِينَ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}[٧٥٤] ويا قوم ، فهو لا يطلب على تبليغ رسالة ربه من أجل إرشادهم مالا ولا أجرا، وإنما يطلب جزاءه من الله، وما هو بطارد الذين آمنوا بربهم عن مجلسه ومعاشرته لأنهم أرشدوا إلى الحق ولأنهم سيلاقون ربهم يوم القيامة، فيشكونه إليه إن طردتهم لفقرهم أو أبعدهم عن سبيل الرشاد، غير أن قومه يجهلون ما يصح أن يتفاضل به الخلق عند الله بين من هو راشد إلى الحق وبين من هم في الغي والضلال يعمهون، فمن لم يأت إلى طريق الرشاد وسبيل الخير لا أحد يستطيع منع عقاب الله عنه، فهو لأنه رشيد ولأنه رسول، فلا يقول عنده خزائن رزق الله يتصرف فيها كما يشاء، فيجعل من يتبعنه غنيا ولا يقول إنه يعلم الغيب، فيخبرهم بما اختص به علم الله، بحيث لا يعلمه أحد من العباد، وكذلك فهو ليس ملك ردا على قولهم: ما ذاك إلا بشر، ولا يقول عن الذين يحتقرونهم إن الله لن يؤتيهم خيرا إرضاء لرغبات الذين أبوا إلا الضلال والغي والابتعاد عن الرشد، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما فى أنفسهم من إخلاص، فإنه إن قال لمن اتبعه ما يحب أصحاب الغي والضلال خرج من الرشد إلى غيره من الصفات التي لا تليق بمن أرشده الله وجعله رشيدا في نفسه ومرشدا لغيره، فهذه صفة الظالمين لأنفسهم ولغيرهم، فالمبتعد عن الرشد لا يرى نور الهدى مهما تحاول معه من النصح والإرشاد، فهم لا يرون الدعوة إلى الرشاد إلا جدلا لا طائل من ورائه، لذلك ضاقوا ذرعا بهذه الدعوة حتى ملّوا منها ولم يعودوا يحتملوا إرشاد الرشيد لهم وما كان منهم إلا أن قالوا، فأتنا بهذا العذاب الذي تهددنا به، إن كنت صادقا فى أن الله سيعذبنا إذا لم نؤمن لك. غير أن نوحا عليه الصلاة والسلام كونه رشيدا وهاديا وحكيما أجابهم بأن هذا الأمر بيد الله

---

[٧٥٤] هود ٢٩ . ٣٧

وحده، فهو الذي يأتيكم بما يشاء حسب حكمته، ولستم بمفلتين من عذابه إذا جاء، لأنه سبحانه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ولأن الله الرشيد يرشد من يشاء إلى صراطه المستقيم كما قال تعالى: {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}[٧٥٥] فلم ينفعهم نصحه لمجرد إرادته الخير لهم، إن كان الله يريد أن يضلوا لعلمه وتقديره فساد قلوبهم حتى صارت لا تقبل الرشد، وهو سبحانه ربهم، سيرجعكم إليه يوم القيامة، ويجازيهم على ما كانوا يعملونه، ثم إن الله الرشيد أرشد نوحا عليه الصلاة والسلام إلى أن يصنع الفلك لأنهم مغرقون، وأرشده لأن يحمل معه من كل زوجين اثنين من أجل استمرار الحياة حتى لا تهلك جميع الحيوانات والبهائم، وهذا الإرشاد لا ينحصر في نوح عليه الصلاة والسلام ومن آمن معه، وإنما هو من عموم الخصوص، أي أنه خص به نوحا عليه الصلاة والسلام، وعمومه يشمل من يأتي بعده من ذرية البشر دلالة على إرشادهم بما يفعلون إذا نزلت بهم النوازل أو أحاطت بهم الكوارث، فهذا سبيل رشد للخلق جميعا، وكذلك فالله تعالى آتى إبراهيم رشده وصلاحه وهداه ليكون مرشدا، لقد آتى الله الرشيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام رشده من قبل وكان به عالما بفطرة الله التي فطره إيّاها على الرشد والاسترشاد حتى ساقه الدليل إلى معرفة فاطر السماوات وخالق العباد، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام رأى كوكبا فقال هذا ربي ثم تبين له أنه ليس بإله فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين فتبين له أنه ليس بإله فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريئ مما تشركون وهذا إشارة إلى الرشد الذي أتاه الله من قبل بدء أمر نبوته حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ

---

[٧٥٥] الجن ٢١

فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ}[٧٥٦]. فالله سبحانه وتعالى هو الرشيد الذي أرسل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام راشدين ومرشدين للبشرية يبينون لهم طرق الهدى وسبل الرشاد، بالعدل والحق ليأخذوا بأيدي الناس إلى الرشاد بما أرشدهم الله تعالى، فما أحل الله تعالى من شيء إلا وفيه رشد للخلق، وما حرم عليهم من شيء إلا وفيه رشد لهم أيضا، وما نهى عن شيء أو أمر بشيء إلا وفيه الرشد والصلاح والهدى والاستقامة، وأول ذلك هي العبادات إذ ليس هناك عبادة إلا وفيها خير الناس وصلاح أمرهم فالصلاة الكاملة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر لأنها تقوي الإيمان بالله تعالى وتعمق في نفس المصلي تعظيمه سبحانه والخوف من عذابه ورجاء ثوابه وهذا كله من الرشاد، وإذا تعمق هذا الشعور الإيماني في قلب الإنسان فإنه يتكون لديه الوازع الديني الذي يدفعه إلى الفضائل ويردعه عن الرذائل، وبالتالي يكون حكما على تصرفاته وسلوكه في هذه الحياة وهذا معنى إرشاد العبادة، ولقد فهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام دعوته إلى هذه المزية من مزايا الصلاة فذكروا ذلك له بأسلوب من السخرية والإنكار وذلك فيما حكاه الله سبحانه عنهم بقوله: {قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ}[٧٥٧] فقوم شعيب عليه الصلاة والسلام ينكرون عليه أن أمرهم بالصلاة لله تعالى التي تمنعهم من السجود للأوثان ومن التصرف في أموالهم بما لا يرضي الله تعالى وبعبارة أخرى أنهم رفضوا سبيل الرشاد وقد كانوا يطففون في المكاييل والموازين ويبخسون الناس أشياءهم، ومن مفهوم السياق العام للحوار الذي دار بين شعيب عليه الصلاة والسلام وبين قومه أن الصلاة التي كان يؤديها هي التي تدفعه إلى منعهم ما يفعلون، وهي بالتالي كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر فإنها تأمر بالمعروف والرشد الذي أمر به الرشيد، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام راشدون بما هداهم الرشيد إليه، وهم حلماء كرماء أصحاب قلوب صافية وأخلاق عالية ونفوس مطمئنة، وهذه الصفات يتحلى بها الخليفة كونه رشيدا ومرشدا، ومن

---

[٧٥٦] الأنبياء ٥١، ٥٨

[٧٥٧] هود ٨٧

خلال ما ذكرنا نتبين أن الرشيد أيضا صاحب نفس مطمئنة، وهذا الاطمئنان يعود إلى رشده على الرغم مما يلاقي من منازعات وخصومات وطموح من أصحاب الغي والباطل، ليثبوا بغيهم وضلالهم على رشده وحكمته، لذلك فالرشيد بالإضافة حكيم حليم راجح العقل صائب الرأي كامل النفس، لأن في تكميل النفس المطمئنة اكتساب الرشد لها وإبعاد الغي عنها، وهذا ما يستوعب أضعاف العمر كما رأينا، فكيف إذا كان العمر قصيرا، وكان ما يدعو إليه الهوى كبيرا من شأن النفس الأمّارة بالسوء السادرة في الغي والبعيدة عن الرشد، ومتى تكررت المساوئ على تلك النفوس انتقلت إلى القلوب وتطرقت إلى اللسان، وانتشرت في المحافل، والتفت بها بعضهم إلى بعض وهذه مكسرةٌ للهيبة، وقلة الهيبة رافعة للحشمة، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة، والوثبة غير مأمونةٍ من الهلكة، وما يخلو الخليفة من طامع راصد يناوئ الحلم بالجهل والهدى بالضلال والرشد بالغي، وليس ينبغي للخليفة الحازم أن يظن أنه لا ضد له ولا منازع، وقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب، وهنا أعظم ما يكون الخليفة رشيدا في استيعاب أهل الغي بمبادرتهم بالرشاد الذي أمر به من الرشيد الجليل، ويسلم أمره للذي أرشده ولسان حله يقول اللهم هذا الجهد، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، أسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود فما ينبغي للخليفة إلا أن يكون أهلا بما استخلفه الله فيه.

والرشيد يرشد إلى الرشد الذي هو نقيض للغي ومنافٍ له، ذلك أن الغي يؤدي إلى الضلال، والضلال يؤدي إلى التهلكة، لذلك فإن الله تعالى أمر بالرشد ونهى عن الغي والضلال والتهلكة حيث قال تعالى: {أَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٧٥٨] فسبيل الله تعالى هو الرشاد وهو متعدد الأسباب والأبواب فمنها ما يكون ببذل النفس، ومنها ما يكون ببذل المال، فإن ترك ذلك إنما هو الابتعاد عن الرشد والاقتراب من الغي المؤدي إلى الهلاك، وعلى هذا فهو أمر من الله بأن يتبع الخلق سبيل الرشد الذي أمر به الرشيد بإحسان وإتقان، فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يحسنه

---

[٧٥٨] البقرة ١٩٥

ويتقنه حتى يكون رشيدا، ومن أمثلة الرشد التي لابد من التوجه لها بعقل واع إرشاد الأم للحنو على وليدها والوليد لمعرفة أمه ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى عن موسى عليه الصلاة والسلام {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٧٥٩].

كان قَتادة يقول، في معنى ذلك (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى) : قذفنا في قلبها. وحيًا جاءها من الله، فقذف في قلبها، وليس بوحي نبوة، أن أرضعي موسى[٧٦٠].

(فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي) هناك أراء في الفترة التي بقي فيها موسى عليه الصلاة والسلام مع أمه فهناك من يقوا بعد ميلاده بأربعة أشهر وذلك حال طلبه من الرضاع أكثر مما يطلب الصبيّ بعد حال سقوطه من بطن أمه، وهناك من يقول: بعد ميلاده أُمِرت أن تلقيه في اليمّ بعد ولادها إياه، وبعد رضاعها[٧٦١].

فها هو الرشيد الخبير يوحي إلى أم موسى بالرشاد حين خافت على وليدها من القتل أن تقذفه في اليم ويرشد أعداءه لالتقاطه، والالتقاط هو وجود الشيء من غير طلب وهذا من إرشاد الله لآل فرعون في التقاط هذا الطفل ليكون لهم عدوا ولغيرهم مرشدا وعاقبة أمرهم إلى ذلك لأنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا و لم يشعروا أنه الذي سيذهب بملكهم، وذلك

---

٧٥٩ القصص ٧ . ١٣

٧٦٠ تفسير الطبري ، ج ١٩ ، ص ٥١٩.

٧٦١ المصدر السابق، ج ١٩ ، ص ٥١٩.

بسبب إرشاد امرأة فرعون التي جعلت هذا الطفل قرة عين لها ولزوجها ومنعتهم من قتله لأنهم سوف ينفعهم باتخاذه ولداً لهم، بعد أن أخطأ الذبح هذا الغلام، وكان من إرشاد آسية امرأة فرعون أنها كانت أمّا للمساكين ترحمهم وتتصدق عليهم فقالت لفرعون وهي قاعدة إلى جنبه هذا الوليد أكبر من ابن سنة وأنت أمرت أن تذبح ولدان هذه السنة فدعه يكون عندي فاستحياه فرعون وأرشد إلى محبة هذا الطفل وألقى الله محبته عليه، ثم إن الله تعالى أرشد أمه بأن ترسل أخته في أثره عن بعد فكانت تمشي جانبا وتنظره اختلاسا، ثم أرشد الله الطفل إلى ثدي أمه حيث كلما أتوا بمرضعة لم يأخذ ثديها وهم في طلب من يرضعه لهم، فالله تعالى حرم عليه المراضع، تحريم منع، لا تحريم شرع وهو منعه من أن يرضع ثديا غير ثدي أمه، وكان لا يقبل ثدي مرضع حتى أهمهم ذلك، فأرشد الله أخته إليهم كي تدلهم على من يرضعه فقبلوا ذلك منها، فانطلقت إلى أمها بأمرهم، فجاءت بها، والصبي على يد فرعون يُعلله شفقة عليه، وهو يبكي ويطلب الرضاع، فحين وجد ريحها استأنس والتقم ثديها، فقال لها فرعون: ومن أنتِ منه، فقد أبى كل ثدي إلا ثديك، فقالت: إني امرأة طيبة الريح، لا أُوتَى بصبي إلا قَبِلَني، فدفعه إليها وأجرى عليها مؤنة الرضاع، وذهبت به إلى بيتها وأنجز الله لها وعده في الرد، فعندها ثبت واستقر في علمها أنه سيكون نبيا رشيدا ومرشدا، لأن الرشيد حفظه بعناية إلهية كونه مكلفا بإرشاد غيره. وطرق الرشد من الرشيد لا تنقضي أوقاتها ولا تتقطع أسبابها في كل وقت وحين، أما ترى الجنين في بطن أمه كيف تجلت فيه حكمة الرشيد جل جلاله حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٧٦٢] فإذا أردنا أن نعرف رشد الرشيد ونقف عليه من قرب علينا أن ننظر إلى أصل تكوين الخلق من البشر وما هو منّا ببعيد، فإنه من دلائل الرشد، القدرة الموجبة للإيمان بالله الرشيد، فإنه خلق الإنسان من خلاصة الطين، ثم خلق نسله فجعله نطفة من ماء فيه كل عناصر الحياة الأولى التي

---

[٧٦٢] المؤمنون ١٢، ١٤

تستقر فى الرحم، وهو مكان مستقر حصين منيع، ثم صيَّر هذه النطفة بعد تلقيح البويضة والإخصاب دما، ثم صيَّر الدم بعد ذلك قطعة لحم، ثم صيرها هيكلا عظميا، ثم كسى العظام باللحم، ثم أتمّ خلقه فصار فى النهاية بعد نفخ الروح فيه خلقاً مغايراً لمبدأ تكوينه، فتعالى شأن الله فى عظمته وقدرته، فهذا الخلق لا يشبه أحدا فى خلقته وتصويره وإبداعه، ثم توّج ذلك كله بالعقل الذي هو مستودع الرشاد الذي ميزه به عن جميع مخلوقاته، فهو الدلالة الواضحة على رشد الرشيد لمَّا أنْ كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين، ثم لما انفصل سلط الحب والشفقة على الأم لتتكفل به شاءت أم أبت اضطراراً من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار المحبة له، ثم لما لم يكن له سن يمضغ به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى المضغ، ولأنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انفصاله على حسب حاجته، أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم، إذ صار بحيث يوافقه الغذاء الكثيف أنبت له أسناناً قواطع وطواحين لأجل المضغ وأرشده لذلك، فإذا كبر واستقل يسّر له أسباب التعلم وسلوك سبيل الرشاد، فابتعاده عن الرشد بَعد البلوغ جهل محض لأنه ما نقصت أسباب معيشته ببلوغه الرشد، فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب، فالآن قد قدر فزادت قدرته بإرشاده إلى طرق الرزق وأسباب العيش، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقته مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرتين وكان إطعامه بإرشاد الله تعالى وتسليط الحب والشفقة على قلبه، فكذلك قد سلط الله الشفقة والمودة والرحمة والرقة على قلوب الراشدين من خلقه الذين اختصهم بالرشاد، حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعثت له داعية إلى إزالة حاجته، فقد كان المشفق على الطفل واحداً والآن المشفق عليه جميع من أرشدهم الرشيد إلى الشفقة والرحمة والمودة، وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص فما رأوه محتاجاً، فإذا رأوه يتيما سلط الله داعية الرحمة على واحد من هؤلاء الراشدين أو على جماعة منهم حتى يأخذونه ويكفلونه، وبسبب من رشد الراشدين الذين اختصهم الرشيد بهذا

الفضل العظيم، فقد انتشرت الفضيلة واندحرت الرذيلة وعم الخير وانحسر الشر، لأن الرشيد أوتي من الحكمة وفصل الخطاب وحسن المعاملة ما يستطيع به أن يقف طودا منيعا في وجه الغي والضلال الذي هو نفسه يرشد إلى الشر، ولذلك كان الخليفة رشيدا بهذه الصفات التي اختصه بها الرشيد جل شأنه، ومن هنا كان الخليفة أيضا علما تشخص إليه الأبصار وتطمئن إليه القلوب مهتدية بهديه ومستنيرة برأيه ومسترشدة برشده، فهو الضامن لصواب الرأي والثقة في القول والعلم والعمل.

وأما إرشاد الرشيد الجليل للملائكة فهو أعظم من أن نحصيه في ما نتناول من صفة الرشيد، ولكننا سنأخذ غيضا من فيض من الأدلة الواضحة الدلالة على إرشاد الملائكة ورشدهم، لاسيما أن الملائكة الكرام يختلفون في صفة خلقهم عن الإنس والجن بأنهم خلقوا راشدين، بإرشاد الله تعالى لهم فيما كلفوا به من عبادة وتسبيح وتنزيه، وقيامهم بأمر الله فيما كلفوا به من أمور لا يستطيعها أحد من الإنس أو الجن لذلك عندما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٧٦٣] لم يذكر من ضمنهم الملائكة ليس استثناءً من العبادة لله تعالى، ولكن استثنائهم من الذكر مع الإنس والجن دليل على أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، على العكس من الجن والإنس، فإن منهم المطيع ومنهم العاصي على الرغم مما أمروا به، ولذلك فهم لا يأكلون ولا يشربون بدليل قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ}[٧٦٤] فالملائكة ليسوا ذكورا ولا إناثا ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون ولا يتوالدون وإنما أرشدوا للطاعة والعبادة، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى

---

[٧٦٣] الذاريات ٥٦

[٧٦٤] هود ٦٩، ٧٠

الصعدات تجأرون إلى الله لوددت أني كنت شجرة تعضد"[٧٦٥] صوتت حتى كادت أن تتكسر وتقع من شدة ثقل الملائكة عليها، وحق لها أن تصوت لأن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت وهو إيذان بكثرة الملائكة كثرة لا يسعها عقل البشر وإن لم يكن ثم أطيط وإنما هو تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل، وهذه الأدلة جميعها بأنهم راشدون في طاعة الله. فالله تعالى هو الرشيد الذي أرشد الملائكة إلى ما أمروا به من الرشاد وأول رشدهم أنهم كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}[٧٦٦] فالرشيد الذي أبدع البشر وخلقه من طين يابس، له صوت إذا نقر عليه، فهو متغير اللون وله صورة حيث أمر الله تعالى ملائكته إذا أكمل خلق الإنسان ونفخ فيه الروح التي هي ملكه عز وجل وبهذه النفخة العلوية فرق بينه وبين سائر الأحياء، وشرّفه على سائر المخلوقات ومنحه خصائصه الإنسانية، حيث تصله بالملأ الأعلى، وتجعله أهلا للاتصال بالله، أن يقعوا بوجوههم ساجدين له تحية وإكراما، وتعظيما ومهابة لقدرة الله على الخلق، ولأنهم راشدون سجدوا جميعاً خاضعين لأمر الله، فالسجود هنا ليس سجود عبادة، وإنما هو سجود تحية للمخلوق وإذعان للخالق طاعة لأمره، لأن العبادة لله وحده، وبهذا هداهم الله إلى رشدهم في الامتثال للأمر. ولو كان من باب الموازنة بين الملائكة وبعض بني البشر في مجال الرشد الذي آتاه الرشيد لخلقه، فهل أن بعض البشر أكثر رشدا من الملائكة وهذا أمر فيه كثير من الحذر عندما نتناول رشد الرشيد لخلقه، ولكننا لا نخرج عن النصوص التي جاءت من خلالها الدلالة القطعية التي تنفي الاجتهاد والإدلاء بالرأي، ووجه التفصيل في ذلك أن سجود الملائكة لآدم تعظيما وتكريما، هذا من جانب ما أمر به الرشيد لإرشاد الملائكة للسجود، ومن جانب آخر أن الملائكة منزهون عن الخطأ، وآدم عليه الصلاة والسلام انصاع لوسوسة الشيطان وعصى أمر ربه حيث قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

[٧٦٥] سنن الترمذي، ج ٨، ص ٢٨٨

[٧٦٦] الحجر ، ج ٢٨، ص ٣٠

أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[٧٦٧].

وأما تعليم آدم عليه الصلاة والسلام، للملائكة الأسماء كلها فهو نوع خاص من الرشد حظي به من الله الرشيد، ونحن نرى أن موازنة المفاضلة بالرشاد لا تقوم بين مخلوقين مختلفين في الأعراض والصفات فالله سبحانه وتعالى اختص جبريل عليه السلام من بين الملائكة وجميعهم لم يرتكب معصية، غير أن نصا قطعيا يثبت فضل بعض البشر على الملائكة وبهذا يثبت فضل رشدهم حيث قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٧٦٨] والملائكة من جملة العالمين وأن طاعات الأنبياء على قهر دواعي النفس أشق وعبادة الملائكة على موجب طباعهم أسهل والأشق أفضل ونسأل الله العفو عن الزلل فإن قال قائل إن للملائكة في مقابلة عمل البشر صفات فاضلة يضمحل فضل العمل في حقها، نقول هذا الادعاء مما لم يقبل في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأما تقديم الملائكة على غيرهم من الخلق فيما ذكر معهم من خلق الله تعالى في الآيات من أنه تقديم الأفضل على الفاضل في باب اللغة، وبهذا يفضلون غيرهم من الخلق كونهم أكثر رشدا، فالأمر هنا ليس كذلك على ما نرى، وإنما هو التسلسل في علم الإلهيات والغيبيات وصولاً إلى اليقينيات وستجدني مضطرا لذكر عدد من الشواهد القرآنية ليتضح الأمر، فقد قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}[٧٦٩] فسياق الآيات جميعها يبدأ بلفظ الجلالة للذات الإلهية، ثم يأتي بعد ذلك ذكر الملائكة، وسبب تأخر ذكر جبريل عليه السلام عن ذكر

---

[٧٦٧] طه ١١٦ـ ١٢٢

[٧٦٨] آل عمران ٣٣، ٣٤

[٧٦٩] البقرة ٩٨

الملائكة، ليس هنا من باب تقديم الأرشد على الرشيد، وإنما هو من باب ما سبق ذكره في الغيبيات، لأن جبريل عليه السلام معروف ومعلوم للبشر أكثر من غيره من الملائكة الكرام، قال تعالى: {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ}[٧٧٠]، وهنا تأخر ذكر الملائكة عليهم السلام عن اليوم الآخر لأنه أكثر غيبية منهم وكذلك في قوله تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٧٧١]، فآخر ما جاء ذكره هم أولو العلم لأنهم آخر السلسلة في التدريج الذي ذكرناه من الأعلى إلى الأدنى، فكانت شهادة الله تعالى لنفسه بالأولهية والتفرد والوحدانية والرشاد كافية، ولكن الذين اتصفوا بالرشد شهدوا لله بهذا الحق، وهو توحيد الله الذي هو أعلى درجات الرشاد، حيث شهدت الملائكة قبل أولي العلم بذلك والرسل من بعدهم قد وحدوه قبل أن يكونوا أنبياء ورسلاً فإن الرسول ما أشرك قط بسبب أنه رشيد وهو من أولي العلم، فقال شهد الله والملائكة وأولو العلم ولم يقل وأولو الإيمان، فرتبة العلم المحاط بالإيمان قوة ترسخ الحقيقة في النفس فتكون مع العليين، وفي هذا السياق الذي نتناوله بين الرشيد والإرشاد، فشهادة الله من الرشيد، وشهادة الملائكة وأولو العلم ومن ضمنه وأولهم الرسل هي من قبيل الإرشاد من الرشيد المطلق وتصبح رشيدا بالإضافة، وأولو العلم يدخل ضمنهم الأنبياء والأولياء والخلفاء، وعلى الرغم من أن العلم أعلى درجة من الإيمان، إلا أن الإيمان شرط للشهادة، إذ لا يمكن لغير المؤمن أن يشهد شهادة الحق، وشهادة الحق دليل على الرشاد، ومع هذا فهناك كثير من المؤمنين ولكنهم من غير أولي العلم، ومع ذلك فهم راشدون كونهم أرشدوا إلى الإيمان، ورشد النبوة الذي هو مقام القربة من الرشيد أكثر وأعظم من رشد الأفراد، فرشد الأفراد دون رشد نبوة التشريع والوحي، ولكن الخليفة يترفع عن الأفراد متصلا بسلسلة الرشد كونه من أولي العلم، وهي في المنزلة عند الله من الدرجة الثانية بعد الملائكة، وكذلك يكون رشد الخليفة على مستوى البشر أيضا في الدرجة الثانية بعد الأنبياء لقوله تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

---

[٧٧٠] البقرة ١٧٧

[٧٧١] آل عمران ١٨

وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[772] فمن يطع الله ورسوله فهو رشيد لا محالة، وأول الراشدين هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويأتي بعدهم الصدّيقون في المنزلة عند الله لأنه خصهم بالرشد من لدنه وهم المشار إليهم بالخلافة للسر الذي وقر في صدورهم من الرشيد، فليس ما بين النبي والخليفة من رجل أكثر من الخليفة رشدا لأنه من الصديقين، ومن الأولياء الراشدين أيضا، الشهداء رضي الله عنهم، فقد تولاهم الله وأرشدهم إلى الشهادة وهم من المقربين وهم من أهل الرشد لأنهم ببذل أنفسهم وأرواحهم شهدوا شهادة الحق، فجمعهم مع الملائكة في بساط الشهادة فهم راشدون عن حضور إلهي وعناية أزلية فهم الموحدون وشأنهم عجيب وأمرهم غريب والإيمان فرع عن هذه الشهادة فإن بُعث رسول وآمنوا به أغنى هؤلاء الشهداء فهم المؤمنون العلماء الراشدون، ولهم الأجر التام يوم القيامة وإن لم يؤمنوا فليس هم الشهداء الذين أنعم الله عليهم في قوله {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}[773]

اختلف في معنى: الصديقين، فقال بعضهم: "(الصديقون)، تُبَّاع الأنبياء الذين صدّقوهم واتبعوا منهاجهم بعدهم حتى لحقوا بهم، والصدِّيقين هم المصَّدِّقون، والصديق"، أن يكون معناه: المصدِّق قوله بفعله، و(الصالحين) هم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته"[774].

وفي تسمية الشهيد قولان:

أحدهما: لقيامه بشهادة الحق، حتى قتل في سبيل الله.

والثاني: لأنه يشهد كرامة الله تعالى. في الآخرة.

وأما الصالحون فجمع صالح وفيه قولان:

---

[772] النساء ٦٩

[773] النساء ٦٩.

[774] تفسير الطبري ، ج ٨ ، ص ٥٣٠.

أحدهما: أنه كل من صلح عمله.
والثاني: هو كل من صلحت سريرته وعلانيته.
وأما الرفيق ففيه قولان:
أحدهما: أنه مأخوذ من الرفق في العمل.
والثاني: أنه مأخوذ من الرفق في السير"[٧٧٥].

وعليه لولا قوله وحسن أولئك رفيقا ألحقنا هؤلاء الشهداء بحصول النعمة التي لأصحاب هذه الآية فإنهم وإن كانوا موحدين غير مؤمنين مع وجود الرسول إليهم لم تحسن مرافقتهم للمؤمنين فإنهم يشوشون على المؤمنين إيمانهم وهؤلاء الأعداء الذين تعمهم هذه الآية هم العلماء، والشاهد ليس برسول فلابد أن يتأخر فلم يبق إلا أن يكون في الرتبة التي تلي الصديق فان الصديق أتم رشدا من الشهيد لأنه صديق من وجهين:
الوجه الأول: من وجه التوحيد.
والوجه الثاني: من وجه القربة.

فالرشد من الرشيد إنما هو نور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده لأمر أراده تعالى، والرشد يجده المؤمن في قلبه ولا يقدر على دفعه، فالرشيد من الخلق من آمن عن دليل يرسّخ الرشد في قلبه ويقينه بإيمانه أن الرشيد المطلق إنما هداه إلى هذا الرشد ليس لنفسه فقط، وإنما ليكون رشيدا ومرشدا أيضاً، ويلزمه تبيين ما أعطي من الرشد الذي جاء به حتى يفهمه للآخرين، وهو أن يخاطبهم بالتأسي والرفق واللين، لأن حاجة الخلق إلى معرفة أسماء الله وصفاته من أعظم الحاجات، فكانت طرق معرفتهم له أعظم من طرق معرفة ما سواه، ولهذا كان ذكرهم لأسمائه أيضا أعظم من ذكرهم لأسماء ما سواه، ومن اللطائف في هذا المجال أن الرشيد جل شأنه أرشد الخلق لمعرفة أسمائه وصفاته بطرق كثيرة ومختلفة تهدي إلى الرشد، فالقرآن الكريم مرشد إلى الرشيد، فالحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل حيث قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ

[٧٧٥] النكت والعيون ، ج ١ ، ص ٣١١.

تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[٧٧٦] حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور، ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمعتصم الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير، لا تنقضي عجائبه ولا تتناهى غرائبه، لا يحيط بفوائده عند أهل العلم تحديد، ولا يخلقه عند أهل التلاوة كثرة الترديد، هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين حيث قال تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}[٧٧٧]، فكل من آمن به فقد وفق ورشد ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدي ومن عمل به فقد فاز، وهكذا أرشد الله تعالى فريقا من الجن ليستمعوا القرآن ويبلغوا قومهم فكان أمر هؤلاء أن اهتدوا إلى الرشد وكانوا راشدين ومرشدين، إذ أنهم أهل لذلك ففتحت لهم أبواب الهدى وذللت لهم سبل الرشاد، وبما أن الجن نوع خاص من الخلق أقرب بصفاته إلى الملائكة منه إلى الإنسان فقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى إفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ورشادا لهم، ثم أخبر أن له عبدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين الذي أرشده فالتزم رشده، وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين، ويبغض الآخر واسمه إبليس فأرشده الله الرشيد ولكنه أبى، وهو اللعين المنظر إلى يوم الدين، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[٧٧٨] وقال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ}[٧٧٩] وأحال الإغواء على إبليس فقال

---

[٧٧٦] فصلت ٤٢

[٧٧٧] الجن ١، ٢

[٧٧٨] النحل ١٠٢

[٧٧٩] غافر ١٥

تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[٧٨٠] فالله تعالى أنكر عليه عصيانه بعد أن دله على طريق الرشاد بقوله: ما منعك عن تعظيم آدم وقد أمرتك به؟ أجاب إبليس فى عناد وكبر: أنا خير من آدم لأنك خلقتني من نار وخلقته من طين، والنار أشرف من الطين فكان بذلك من الغاوين الذين ضلوا سبل الرشاد، فجزاه الله على عناده وكبره بطرده من دار كرامته، و أهبطه من جنة الخلد ، بعد أن كان فى منزلة عالية ، فما ينبغي له أن تتكبر وتعصى فيها، فخرج منها محكوماً عليك بالصغار والهوان بعد أن ترك سبيل الرشد، ولحقده على آدم وحسده له، بسبب الحكم عليه بالغواية والضلال، أقسم ليضلنّ بني آدم ويصرفهم عن طريق الرشاد، متخذاً فى ذلك كل وسيلة ممكنة من أجل إغوائهم، والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة والرشاد، فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الذي أحبه، وعندك في الحياة له مثال، فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يقدم له الطعام وينظف فناء منزله وكان له عبدان فلا يستخدم للتنظيف إلا من هو أقل منزلة من الآخر، ولا يفوض حمل الطعام الشراب والطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه وأرشدهما للحق، فالله تعالى رشيد في تدبيره وأموره وشؤون خلقه، فهو جل شأنه يعطي الرشد حينا ويعطي أسباب الرشد حينا آخر، ويجمع بين الاثنين فيعطي الرشد وأسبابه لمن يشاء من خلقه، فإن رشده تارة يتم بأمور لا مدخل لنا فيها، وتارة يتم بنا فإننا أيضا من أفعاله، فقدرتنا وعلمنا وعملنا ورشدنا وسائر أسباب حركاتنا في التعبير هو فعله الذي رتبه الرشيد ترتيبا تصدر منه الأفعال الرشيدة، إلا أننا لا نرى إلا أنفسنا فنظن أن ما يظهر علينا في عالم الشهادة ليس له

---

[٧٨٠] الأعراف ١٢، ١٨

سبب من عالم الغيب والملكوت، فلذلك نضيفه إلى أنفسنا، وأما العقلاء فإنهم يعلمون أن ذلك تقدير الرشيد الحكيم، ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله، والذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الخليفة الرشيد الذي أوتي من الرشد ما لم يؤتى لغيره، إلا العارفون والعلماء الراسخون الراشدون فإنهم أدركوا بحدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة، وإنما بيقين القلوب وطرق الهدى وسبل الرشاد التي تفضل بها الرشيد على خلقه كي يسلكوا طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلاً فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية فكانت إجابة الحق إياهم حين دعوه ونهاية طريقهم إلى ما فرحت به نفوسهم، فالله تعالى برشده يؤلف بين قلوب الراشدين كي يجمعهم على الحق والعدل والصدق، فانظر كيف ألف الله تعالى بين قلوبهم وأرشدهم إلى أمور الخير وسبل الهدى وطرق الرشد وسلط الأنس والمحبة عليهم بالرشد فيما بين الخلق حيث قال تعالى: {لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[٧٨١] فلأجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا وائتلفوا وبنوا المدن والبلاد ورتبوا المساكن والدور متقاربة متجاورة ورتبوا الأسواق وسائر أصناف البقاع مما يطول إحصاؤه، ثم هذه المحبة تزول بأغراض يتزاحمون عليها ويتنافسون فيها، ففي جبلة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة، وذلك مما يؤدي إلى الصدام والصراع والتناحر والتقاتل، فالله تعالى بحكمته وعلمه وكونه رشيدا، اختار الخليفة الرشيد وأمده بالقوة والعدة والأسباب وألقى هيبته في قلوب الناس حتى أذعنوا له لأنه رشيد، والرشيد هدى الخليفة وأرشده إلى طريق إصلاح العباد حتى رتبوا أجزاء البلاد كأنها أجزاء شخص واحد تتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم وانضباطهم تحت إرشاد الخليفة ورشده، كما يتعاون جميع أعضاء البدن، وينتفع بعضها ببعض. فالراشدون هم المصلحون لأنفسهم ولغيرهم في نشر الخير وحفظ العدل بين الخلق، فعرفهم برشده الحق من الباطل، ولولا رشده

---

[٧٨١] الأنفال ٦٣

لهم إلى الخير والعدل والحق ما اهتدوا به إلى إصلاح الدنيا فضلاً عما أرشدهم إليه من إصلاح الدين، والله سبحانه وتعالى رشيد، أرشد الأنبياء بالملائكة، وأرشد الخلفاء بالأنبياء، وأرشد الملائكة بعضهم ببعض إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله، وعلى هذه السلسلة من الرشد المتصل إلى الرشيد الحكيم كانت مشيئة الرشيد، فالأنبياء يرشدون الخلفاء، والخلفاء يرشدون العباد إلى ما يهديهم إلى الحق، والملائكة يرشدون الأنبياء حتى يعود كل ذلك إلى الرشيد الذي هو ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ كل ترتيب وتأليف، وكل ذلك نعم من الرشيد الحكيم الهادي، ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[٧٨٢] لما اهتدينا إلى هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى، ولولا عزله إيانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوفنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء، ولكنه تعالى عزلنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[٧٨٣] فإن تكلمنا فبإذنه بسطنا القول، وإن سكتنا فبقهره انقبضنا، وهكذا الحال في الدار الآخرة، قال تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا}[٧٨٤] إذ لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، لأننا في كل لحظة نحن نحتاج إلى الرشيد الذي يرشدنا على الصلاح ويدلنا على الهدى، كي نستطيع أن نصلح أمور حياتنا ومعاشنا ومن أجل ذلك فقد أوجد الله تعالى كل ما في العالم للإنسان وأرشده إليه و نبه عليه بقوله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٧٨٥] فالله سبحانه وتعالى مهد الأرض بقدرته، وبسط رقعتها ليسهل على الخلق الرشاد والإقامة فيها والانتفاع بها، وجعل من السماء وأجرامها وكواكبها كالبنيان المشيد، وأمد خلقه

---

[٧٨٢] العنكبوت ٦٩

[٧٨٣] إبراهيم ٣٤

[٧٨٤] النبأ ٣٨، ٣٩.

[٧٨٥] البقرة ٢٢

بأسباب الحياة والنعمة وهو الماء الذي أنزله من السماء فجعله سببا لإخراج النباتات والأشجار المثمرة التي أرشد خلقه إلى فوائدها ومنافعها، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٧٨٦] فالرشيد جل شأنه أرشد السحاب بإنزاله من جهة السماء ماء منه شراب، وبعضه ينبت منه الشجر، وإلى هذا الشجر أرشد الأنعام لتأكل منه، وأرشد الناس إلى ألبانها ولحومها، وإلى الأصواف والأوبار والأشعار التي ينتجها كل نوع من هذه المخلوقات، ثم أرشد الخلق إلى الفائدة مما ينبته هذا الماء الذي ينزل من السماء من الزرع الذي يخرج منه الحبوب والزيتون والنخيل والأعناب، وغيرها من كل أنواع الثمرات التي فيها حياة الناس ومعاشهم، إن في إيجاد هذه الأشياء لعلامة هادية للرشد لقوم ينتفعون بعقولهم ويفكرون كيف أرشدوا إلى هذه الأشياء في القدرة التي أوجدتها، وقد أرشد الخالق عز وجل كل مخلوقاته لما خلقت له فسخر الليل إذ جعله مهيئا للنوم والراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، وأرشد الشمس في مسارها ودورانها وما تمد الأرض بالدفء والضوء، وأرشد القمر في فلكه ومساره ودورانه شكل يختلف عن الشمس لمعرفة عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر اللَّه تهتدي في الظلمات ويرشد الذي يضل الطريق في البر والبحر، إن فى ذلك لعلامات وأدلة لقوم يجب أن يكونوا راشدين بما وهبهم اللَّه من عقل يدرك هذه الأشياء، ثم أن الله سبحانه وتعالى أباح للخلق الانتفاع بما أرشدوا إليه حيث قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[٧٨٧] فالله سبحانه و تعالى لم يحرم الزينة التي خلقها لعباده وأرشدهم إليها، إذ كيف يحرم الله الحلال الطيب من الرزق الذي أرشد عباده إليه بهديه، فهذه الطيبات نعمة من الله ما كان

---

[٧٨٦] النحل ١٠، ١٢

[٧٨٧] الأعراف ٣٢

ينبغي أن يتمتع بها إلا الذين آمنوا فى الدنيا، لأنهم يؤدون حقها بالشكر والطاعة، ولكن رحمة الله الواسعة شملت الكافرين والمخالفين في الدنيا الذين علموا الرشد ولم يتخذوه سبيلا، وستكون هذه النعم خالصة يوم القيامة للمؤمنين الراشدين خالصة لهم لا يشاركهم فيها غيرهم. لقد أرشد الله الإنسان إلى هذا الرزق الذي خلقه له وكل ما حصل عليه الإنسان من فائدة إما في غذائه أو في دوائه أو في ملابسه ومشموماته ومركوباته، وزينته والالتذاذ بصورته، أو رؤيته والاعتبار به، وباستفادة علم منه والاقتداءِ بفعله فيما يستحسن منه، والاجتناب عنه فيما يستقبح منه، فقد نبه الله تعالى إلى منافع جميع الموجودات وأرشد إليها، واطلع الخلائق عليها إما بألسنة الأنبياء عليهم الصلاة السلام، أو بإلهام الأولياء والخلفاء والصالحين رضي الله عنهم، وكما أنَّ حق الإنسان أن يعرف رشد الحيوانات في ذواتها فيرشد إليها في المطاعم والملابس والأدوية، فحقه أن يرشد إلى أخلاقها وأفعالها فينتفع بها في اجتناء ما يستحسن، واجتناب ما يستقبح منها، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك في إرشاد النحل فقال: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٧٨٨] فألهم الله النحل أسباب حياتها، وأرشدها إلى وسائل معيشتها، بأن تتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف ومن فجوات الشجر، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا، ثم هداها الرشيد للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها مذللة سهلة، فيخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس وأرشدهم أن في هذا الشراب غذاء ودواء، إن فى ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم، ينتفع بها قوم يستعملون عقولهم بالتأمل، فنبه على أن الإنسان حقه أن يقتدي بالنحل ويسترشد به مراعاة لوحي الله عزَّ وجل، فكما أن النحل لا يتخطى وحي الله في تحري المصالح التي هي من طباعه التي أرشده الله إليها، كذلك يجب على الإنسان أن

---

[٧٨٨] النحل ٦٨، ٦٩

لا يتخطى وحي الله اختيارا بما أرشد إليه، وعلى هذا الأساس كان الخليفة مهتديا طائعا لله رب العالمين بما أرشده به وما أرشده إليه.

ومن أعاجيب الإرشاد ما جاء ذكره في القرآن الكريم عندما بعث الله تعالى الغراب ليرشد الإنسان العاقل، وذلك ما أخبر به عز وجل من خبر ابني آدم، حين قربا قربانا فحسد الذي لم يتقبل منه المتقبل منه، فقال عندما هم به من قتله، وعند إمساكه عنه، والتخلية بينه وبين ما اختار لنفسه: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ}[٧٨٩] فلولا أن للغراب فضيلة وأمورا محمودة، وآلة وسببا ليس لغيره من جميع الطير لما وضعه الله تعالى في موضع تأديب الناس، ولما جعله الواعظ والمذكر بذلك، فأخبر أنه مبعوث، وأنه هو اختاره لذلك من بين جميع الطير وأرشده ليرشد الإنسان ما يجب عليه فعله في أمور يجهلها، فاختصام ابني آدم وقتل أحدهما للآخر، وإرشاد أحدهما للخير والآخر للشر حيث أخبر بذلك قوله تعالى: {إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}[٧٩٠] الذي أرشد للخير منهما لم يقاوم أخاه ولم ينازعه بسبب هداه واستقامته ومعرفته لسبيل الرشاد الذي بينه الرشيد له كي يحتمل الآخر الذنب وينال جزاءه، والذي اتبع الغي والضلال فيما اقترفه من ذنب بابتعاده عن طريق الرشد في ارتكاب فعلته بقتل أخيه فاستحق أن يكون في الآخرة من أهل النار، وذلك جزاء عادل من الله الرشيد لكل ظالم. فقد سهّلت له نفسه أن يخالف فطرة الرشد وأن يقتل أخاه ، وقتله ، فصار فى حكم الله من الخاسرين، إذ خسر رشده فخسر إيمانه وخسر أخاه، بعد قتله أصابته حسرة وحيرة، ولم يدر ما يصنع بجثته، فأرسل الله غرابا مرشدا ينبش تراب الأرض ليدفن غرابا ميتا، حتى يُعَلِّم ذلك القاتل كيف يستر جثة أخيه ، فقال القاتل مُحِسّا بوبال أمره وما ارتكب من جرم ، متحسرا على جريمته بأنه أعجز من أن

---

[٧٨٩] المائدة ٢٩

[٧٩٠] المائدة ٢٩، ٣١

أكون مثل هذا الغراب فيستر جثة أخاه، فصار من النادمين على جرمه ومخالفته دواعي الفطرة الرشيدة.

ومن إرشاد الرشيد أيضا ما جاء عن النملة التي أرشدت قومها لدخول مساكنهم حتى لا يحطمهم جنود سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[٧٩١] حتى إذا بلغوا وادي النمل قالت هذه النملة يا أيها النمل ادخلوا مخابئكم، لكيلا يميتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم فأرشدت قومها إلى النجاة وخلصتهم من الهلاك بما أوحى إليها خالقها الرشيد كما أوحى إلى غيرها من المخلوقات من أمثالها كالنحل والعنكبوت، ثم أن سليمان عليه الصلاة والسلام تفقد ما حشر الله له من الجند حيث قال تعالى: {تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ}[٧٩٢] وتَعَرَّفَ جنوده من الطير فلم يجدوا الهدهد، فتعجب وقال: مالي لا أرى الهدهد، أهو بيننا ولم يقع عليه نظري، أم هو غائب عنا ليس بيننا، وتوعد به عذابا شديدا يردعه، أو ليذبحنه إن كان الذنب عظيما إلا أن يأتي بحجة بيِّنة تُبرر غيابه عنه، وكان الهدهد قد مكث فى مكان غير بعيد، ثم جاء إلى سليمان عليه الصلاة والسلام يقول له: قد أحطت علما بما لم يكن عندك علم به، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن به، فأرشد الهدهدُ نبي الله إلى شيء لم يكن يعلمه، ولذا فمهما أتي الإنسان من العلم فلم يؤتى منه إلا قليلا، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[٧٩٣] ولوجود قوم لا يسجدون لله، وسليمان عليه الصلاة والسلام مكلف بإرشادهم، فأرشده الهدهد إليهم كي يرشدهم بأن أرسل لهم كتاب يدعوهم فيه إلى الرشد مع الهدهد الذي أرشده الله حيث قال تعالى: {إنِّي

---

[٧٩١] النمل ١٨

[٧٩٢] النمل ٢٠، ٢٢

[٧٩٣] الإسراء ٨٥.

وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فأنظر مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}[٧٩٤] فأراد أن يختبر رشد الهدهد ويتحرى صدقه فأرسله بكتاب يوصله إلى تلك المرأة وقومها، ووصل الكتاب إليها فجمعت أشراف قومها، وذوي مشورتها وأخبرتهم الخبر أنه أيها الملأ إني قد وصل إليَّ كتاب عظيم الشأن، ثم تلت الكتاب عليهم قائلة: إنه من سليمان وإنه مفتتح باسم الله الرحمن الرحيم الذي يفيض برحمته دائما على خلقه، فكانت المرأة رشيدة في فعل ما يجب عليها فعله من المحافظة على حياة قومها وهدايتهم ورشدهم بعد أن فوضوا أمرهم إليها، فهي لم ترمِ بهم إلى التهلكة وإنما أخذت بأيديهم إلى طريق النجاة حيث قال تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٧٩٥] فلما رأت الآيات التي تهدي إلى سواء السبيل وطريق الرشاد استمسكت بها ودعت قومها إلى ذلك فكانت من الراشدات وكان قومها من الراشدين، وهذه المسألة سلسلة من الرشد المتبادل بين مخلوقات الله فيما أرشدهم إليه. واسترشاد الإنسان بمخلوقات أخرى لا يعني انتقاصا من قيمته أو علمه أو عقله، فعلى مستوى البشر نجد أن الصغير يسترشد بالكبير، والجاهل يقتدي بالعالم، ومن ليس له خبرة، يأخذ من أصحاب التجارب، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أشياء لا يكون لجنس البشر، وإنما اختص بها الله تعالى خلقا آخر لدلالة القدرة، بمعنى أن هذه المخلوقات التي لا تتمتع بما يتمتع به الإنسان من العقل، فالإنسان بحاجة إليها، وبعبارة أدق فالإنسان بحاجة إلى الخلق

---

[٧٩٤] النمل ٢٣، ٣١

[٧٩٥] النمل ٤٤

الرشيد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه لما خلق إليه، فعلى الرغم من تفاوت الناس واختلافهم، فإن الأشياء كلها متساوية غير متفاوتة من حيث أنها مصنوعة بالحكمة الرشيدة، وعلى ذلك نبه الله تعالى حيث قال: {مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ}[٧٩٦] بحكمة الله تعالى في خلقه وإرشاد كل خلق لما يتناسب مع طبيعة ذلك الخلق، ومختلفة من حيث أن كل نوع يختص بفائدة، وكل نوع وأن اختلف فما من شيء أكثر اختلافاً من الناس، كما قال الله تعالى: {وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا}[٧٩٧] أي طوراً بعد طور و تارة بعد تارة وأن الإنسان على حالة منافية لما هو عليه بالكلية وهو أنه يعلم أن الله تعالى خلقه وقدره تارات أي مرات، حالا بعد حال من عناصر ثم أغذية ثم أخلاطا ثم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ولحوما ثم أنشأه خلقا آخر فان التقصير فى توقير من هذه شؤونه فى القدرة القاهرة والإحسان التام مع العلم بها مما لا يكاد يصدر عن رشيد عاقل، وقال تعالى: {وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ}[٧٩٨] فالله تعالى برشده تولى تدبير الخلق معيشتهم لعجزهم عن ذلك، وفضل بعضهم على بعض فى الرزق والجاه، ليتخذ بعضهم من بعض أعوانا يسخرونهم فى قضاء حوائجهم، حتى يتساندوا فى طلب العيش وتنظيم الحياة وما يتبعها من سعادة، لأن الرفع والخفض هما من سنة الرشيد لاستمرار الحياة حيث قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٩٩] فالله سبحانه وتعالى برشده جعل خلفاء من الأمم لأجل عمارة الكون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات فى الكمال المادي والمعنوي لمن أخذ فى أسباب الرشد، وكذلك ليختبر الخلق فيما أعطاهم من النعم، هل يرشدون إلى شكرها، وكل من جاء بعد من مضى فهو خليفته بالمعنى العام لأنه يخلف من سبقه، وليس بالمعنى الخاص المقصود بالخلافة، والخلافة بالمعنى العام هو أن الله جعل كل

---

[٧٩٦] الملك ٣

[٧٩٧] نوح ١٤

[٧٩٨] الزخرف ٣٢

[٧٩٩] الأنعام ١٦٥

واحد من بني آدم خليفة ربه في الأرض وسر الخلافة أنه صوره على صورة صفات نفسه حيا قيوما سميعا بصيرا عالما قادرا متكلما مريدا وهي صفات جزئية قياسا للخالق عز وجل، فمن أخذ بها فقد رشد، ومن تركها وابتعد عنها فقد ضل وغوى، ومن هنا جاء الاختلاف بين الخلق في الهدى والضلال، والرشد والغي، لذلك قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ}[٨٠٠] فلو شاء الله تعالى لأرشد جميع الخلق إلى الخير ولجعل الناس على صراط مستقيم، مطيعين الله بطبيعة خلقتهم، كالملائكة، فلو كان ذلك كذلك، لكان الخلق غير هذا الخلق، ولكان العالم غير هذا العالم، ولكنه سبحانه بين لهم سبل الهدى وطرق الرشاد وتركهم مختارين، لذلك فلا يزالون مختلفين في كل شيء، حتى فى أصول العقائد، كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، مما لا يجوز الخلاف فيه، تبعا لميولهم وشهواتهم وتفكيرهم، يتعصب كل فريق لرأيه، وما ينبغي هذا لمن بين له الله تعالى طرق الرشاد، لكن الذين رحمهم الله لسلامة فِطَرِهم، فإنهم اتفقوا على حُكم الله فيهم، فآمنوا بجميع رسله وكتبه واليوم الآخر عندما سلكوا مابيّن لهم من الرشد ما هم أهل له فاتبعوه، وهكذا اقتضت مشيئة الرشيد وحكمته في نظام الخلق فمنهم شقي وسعيد، ولو أنهم أخذوا بما أمروا به لكان خيرا لهم، إذ أن الإنسان بحاجة إلى الرشد في أموره كلها، وبحاجة إلى من يدله على الرشد في المأكل والملبس وكثير من أحوال الدنيا وأمورها حتى في اختيار مستلزمات حياته اليومية، وفي تفضيل طعام على آخر، أو شراب على غيره كما قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٨٠١] فالأرض ذاتها فيها عجائب الرشاد ما لا يخفى على عاقل مدرك، ففيها قطع من الأرض يجاور بعضها بعضا، وهى مختلفة التربة مع ذلك، بعضها قاحل، وبعضها خصب، وإن اتحدت التربة، ففيها حدائق مملوءة بكروم العنب، وفيها زرع يحصد، ونخيل مثمر، وهي مجتمعة

---

[٨٠٠] هود ١١٨، ١١٩

[٨٠١] الرعد ٤

ومتفرقة، ومع أنها تسقى بماء واحد يختلف طعمها، وإن فى هذه العجائب لدلائل واضحة على قدرة الله لمن له عقل يفكر به كيف أرشدت هذه العناصر التي شكلت الثمار إلى أشكالها وطعومها وألوانها ففي الثمر شكلا وقدرا وطعما ورائحة فمنها بياض وسواد وصغير وكبير وحلو ومر وحامض وجيد ورديء، وذلك أيضا مما يدل على الصانع الحكيم الرشيد، وقدرته في إنبات الأشجار بالثمار المختلفة الأصناف والأشكال والألوان والطعوم والروائح مع اتحاد الأصول والأسباب، فهذا لا يكون إلا بتخصيص قادر مختار رشيد، لأنه لو كان ظهور الثمار بالماء والتراب لوجب فى القياس أن لا يختلف الألوان والطعوم ولا يقع التفاضل فى الجنس الواحد إذا نبت في مغرس واحد بماء واحد، فكل هذه المخلوقات التي أبدعها الخالق إنما هي لحاجة مخلوق آخر يرشد إليها، ويرشد إلى جنسه أيضا ليستطيع العيش، ودلائل الرشد من الرشيد الحكيم لا تنقضي في الكائنات من نبات وحيوان وإنسان، النبات من الذي أرشده لاختيار العناصر التي تجعل نوعا منه حلوا والآخر حاراً والآخر حامضاً وهذا بلون وذاك بآخر ، فهذه وغيرها من دلائل رشده التي تثير في النفس إجلال الرشيد ولم يفطن إليها الكثير ولم يدرك كنهها إلا من تحلى بروح صافية وعقل مستنير وقلب مفعم بالنور وهذا كله في المستحق لخلافة الله الرشيد ولا أدل وأوضح من قول ربنا في كتابه العزيز حيث يرشد إلى هذا المعنى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٨٠٢] فمن الذي أرشد كل صنف من النبات لاختيار المواد التي تلائم نوعه من حيث الشكل واللون والفائدة، لا إله إلا الله الذي أرشد الكل إلى ما فيه الفائدة له ولغيره، فهو الذي أنزل من السحاب ماء أخرج به نبات كل صنف، فأخرج من النبات شيئاً غضّا طريا، ويخرج منه حبا كثيرا بعضه فوق بعض، ومن طلع النخل عرا جين يخرجها محملة بالثمار سهلة التناول مختلفة الشكل واللون والرائحة والفائدة، ويخرج الله الرشيد كذلك بالماء جنات من

[٨٠٢] الأنعام ٩٩

الأعناب والزيتون والرمان، ومنها ما هو متماثل الثمر فى الشكل وغير متماثل فى الطعم والرائحة ونوع الفائدة. وهنا دعوة تأمل كيف أرشد الله هذه العناصر إلى تشكيل هذه الثمار المختلفة في الشكل واللون والطعم والرائحة، وهي نظرة في تدبير الرشيد وما في ذلك من اعتبار في تكوين ثمره حين يثمر، وإلى نضجه كيف تم بعد أطوار مختلفة؟ إن في ذلك لدلائل لقوم ينشدون الحق ويؤمنون به ويذعنون له، فالراشدون هم الذين يستجيبون للرشد من خلال التأمل في خلقه المتنوع المتباين، وهم المتخلقون بأخلاق الهدى واستبيان سبل الرشاد وهذا من الدلائل على كمال إرشاد الله تعالى وعلمه وحكمته ورحمته ووجوه إحسانه إلى خلقه، وهذه الدلائل هي أيضاً نعم بالغة في الرشد والتأمل والاعتبار وهي إحسانات كاملة، فالكلام إذا كان دليلا من بعض الوجوه، وكان إنعاما وإحسانا من سائر الوجوه، كان تأثيره في القلب عظيما، وعند هذا يظهر أن المشتغل بإرشاد الخلق إلى طريق الحق لا ينبغي أن يعدل عن هذا السبيل في تبين الرشد من الدلائل التي بثها الله في مخلوقاته، فهي آيات دالة على وجود الرشيد القادر الحكيم وتوحيده، فإن حدوث الأجناس المختلفة والأنواع من أصل واحد ونقلها من حال إلى حال لا يكون إلا بإحداث رشيد قادر يعلم تفاصيلها، ويرجح ما تقتضيه حكمته مما يمكن من أحوالها ولا يعوقه عن فعله ند يعارضه أو ضد يعانده، ولا يفطن إليها إلا ذو عقل رشيد، ذلك أن الكمالات على المستوى الإنساني هي إرشاد الخلق بعضهم لبعض بما تفاضلوا به مما أنعم الرشيد على البعض منهم بالرشد، والحكمة المقتضية لذلك هو أن الإنسان لما كان غير مكتفٍ بتفرده في بقائه، فإن أول ما يحتاج الإنسان إليه ما يواريه وما يغذيه، وليس يجد ما يواريه مصنوعا، ولا ما يغذيه مطبوخا، كما يكون لكثير من المخلوقات الأخرى التي أرشدت إلى طعامها، بل هو مضطر إلى إصلاحهما، وإصلاح ذلك يحوجه إلى آلاتٍ غير مفروغ منها، والإنسان الواحد لا توصل له إلى إعداد جميع ما يحتاج إليه ليعيش العيشة الحميدة، فلم يكن بُدٌّ للناس من تشارك وتعاون، فأرشد كل قوم إلى صنعة وهيئة مفارقة للصنعة الأخرى ليقتسموا الصناعات بينهم، فيتولى كلٌّ منهم صنفا من الصناعات فيتعاطاه باعتزاز، كما قال الله تعالى: {فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا

لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ}[٨٠٣] فاقتضت حكمة الرشيد أن تختلف ألسنتهم وأشكالهم وألوانهم وقواهم وهممهم وأعمالهم، فيكون كلٌّ ميسرٌ لما خلق له، فتكون معايشهم مقتسمة بينهم، كما بيناه في الآيات المتقدمة. والاختلاف الحاصل بين الناس إنما هو من رشد الرشيد، فالناس إذا اعتبر اختلاف أغراضهم وهممهم فهم في صناعاتهم في حكم المسخرين وإن كانوا في الظاهر مختارين، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يتعلق من المصلحة بتباينهم واختلاف أحوالهم وطبقاتهم فقال: "لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا استووا فذاك حين هلاكهم"[٨٠٤].

و الرشد هو من الرشيد الذي يوجه العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}[٨٠٥] وهو الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الرشد الكامل ونعني به الاهتداء إلى وجوه الصلاح في الدين والدنيا والإرشاد بالنواميس الإلهية، فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة ومحركة إليها، فالإنسان الذي يملك مالا على سبيل المثال واستطاع أن يحفظه وينميه في الطرق المشروعة التي أحلها الله تعالى، ولكنه مع ذلك يبذر، وهذا التبذير هو مضيعة لبعض المال فهو لا يسمى رشيدا لا لعدم هدايته، بل لقصور هدايته عن توجهه لما أرشد إليه، وحتى يكون رشيدا فيجب أن يكون كما قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا}[٨٠٦] فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنه يضره فقد أعطي الهداية وميز بها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره، ولكنه لم يعطَ الرشد، فالرشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة. وأما التسديد فهو توجيه الرشد إلى صوب المطلوب واتجاهه من أجل إصابة الصواب في أسرع وقت، فإن الهداية بمجردها لا تكفي، بل لا بد من هداية محركة للتسديد نحو الرشد، والرشد لا يكفي، بل لا بد من تيسر

[٨٠٣] المؤمنون ٥٣

[٨٠٤] شعب الإيمان للبيهقي، ج ١٩، ص ٨٤

[٨٠٥] الأنبياء ٥١

[٨٠٦] الإسراء ٢٩

الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات والجوارح حتى يتم المراد مما انبعث عليه الرشيد، والرشد أيضا هو تنبيه الرشيد ليستيقظ ويتحرك نحو السداد، والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد، ومن هنا يكون التأييد للرشيد الذي أرشد فكأنه جامع لأسباب الرشد، وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من الداخل ومساعدة أعضائه من الخارج، وهذا مل يقربه من العصمة، وهي عبارة عن عناية إلهية تسبح في الباطن، فيقوى بها الإنسان على تحري الخير وتجنب الشر كما كان حال يوسف عليه الصلاة والسلام حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[٨٠٧]وهنا نتبين رشد يوسف عليه الصلاة والسلام عندما عزمت امرأة العزيز أن تخالطه ونازعته نفسه إليها، لولا أن رأى نور الله الحق نصب عينيه قد استضاء به، ولم يطاوع ميل النفس، وارتفع عن الهوى، فامتنع عن المعصية والخيانة وثبت على طهره وعفته. فهذه هي مجامع النعم، ولن تثبت إلا بما يخوله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير ومن ملك ذلك كان من الراشدين، فالذين يتبصرون في آيات الله تعالى طالبين منها التمييز ما بين الخير والشر لعلهم يرشدون أي يسلكون طريق الرشد كما يفعل الموفقون الذين إذا رأوا سبيل الرشد اتخذوه سبيلا فيمشي بهم إلى السعادة الأبدية فإن اللّه يمكنهم من أسباب الخير ويهون عليه الشدائد ويرفع عنهم الأمور المحرجة ويخرجهم من الظلمات إلى النور ومن الضيق إلى السعة ومن الغيّ إلى الرشد كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[٨٠٨] فالذين بذلوا جهدهم، واحتملوا المشقة فى نصرة في التبصر سوف يرشدون إلى طريق الهداية و الخير والحق، والمجاهدة غض البصر وحفظ اللسان وخطرات القلب ويجمعها كلها الخروج عن العادات البشرية، فمن أعطي ذلك كان من المستخلفين الراشدين، ولا يتوقف الرشد على خلق دون خلق، فالله سبحانه

---

[٨٠٧] يوسف ٢٤

[٨٠٨] العنكبوت ٦٩

وتعالى قال: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}[٨٠٩] ويدخل في ذلك الإنسان والحيوان وجميع المخلوقات على السواء في الهدى والرشاد الذي أراده الخالق، فكيف كان الحيوان مرشدا للاختراع فيما يعمل مما لا يستطيعه الإنسان، حيث يصدر من العنكبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يتحير فيه عقول ذوي الألباب فكيف انفردت هي باختراعها دون إرشاد الرشيد لها، وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب، فالله تعالى هو المتفرد بالخلق ومتفرد بإرشاد خلقه الذي خلقه، فإن انفراد الله سبحانه بخلق الخلق وأعماله وحركات لا يخرجها عن كونها مقدورة لهذا المخلوق أو ذاك على سبيل الاكتساب والإرشاد، بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعا وخلق الاختيار والمختار جميعا وهدى كل مخلوق إلى رشده، إن الخالق عز وجل لا تنقضي عجائبه في إرشاد خلقه مما كبر منها أو صغر، ومما عظم منها أو هان وضعف فقد قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[٨١٠] فبيتها أوهن البيوت وأبعد عن الصلاحية للاحتماء ولكن مع هذا على ما نسج فله حقيقة وانتفاع فلو رأينا العنكبوت حين تبني بيتها لشاهدنا رشدا قد يعجز المهندس في صنعته، فهي إنما تطلب موضعين متقاربين، بينهما فرجة يمكنها مد الخيط إليها، ثم تلقي لعابها على الجانبين، فإذا أحكمت المعاقد ورتبت القماط والركائز اشتغلت باللحمة، فيظن الظان أن نسجها عبث، وإنما هي شبكة للبعوض والذباب والحشرات، وإنها إذا أتمت النسيج انزوت إلى زاوية ترصد رصد الصائد، فإذا وقع في الشبكة شيء قامت تجني ثمار كسبها، فإذا أعجزها الصيد طلبت لنفسها زاوية، ووصلت بين طرفيها بخيط آخر، وتقف في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها رمت نفسها إليها فأخذتها، واستعانت على قتلها بلف الخيط عليها، وهذه الصنعة أرشدها المرشد جل جلاله إليها، أفلا ننظر إلى حكمة الرشيد الذي أرشدها

---

[٨٠٩] طه ٥٠

[٨١٠] العنكبوت ٤١

وعلمها وفهمها. فها هي عجائب المخلوقات على نفسها ترشد الغافلين إلى باب الرشيد وهم عن التبصر بعيدون.

فمن أعظم نعم الله تعالى على الخلق هو الرشاد، فهو يرشد الإنسان ويطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره والمؤثرون على أنفسهم قليل جدا وذلك من صفات الراشدين الذين مدحهم الله تعالى بقوله: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٨١١] فالإيثار من درجات الرشد العالية لما فيه من الكرم والصدق والأمانة والتواضع الذي هو رأس الحكمة والحلم حيث يبعد الغضب ويقوي الصبر ويقهر الكبر والخيلاء، ومن قدر في نفسه عجبا أو ظن أن له على سائر الناس فضل فلينظر إلى صبره عندما يدهمه همٌّ أو نكبة أو وجع أو مصيبة، فإن رأى نفسه قليلة الصبر، فليعلم أنه بعيد عن الرشد قريب من الغي ومصروف عن الخير حيث قال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[٨١٢] فالله تعالى وهو الرشيد يمنع الرشد عن المتكبرين بأن يصرفهم من التفكير فى دلائل قدرته القائمة فى الأنفس والأفاق، أولئك الذين يتطاولون فى الأرض ويتكبرون عن قبول الصواب غير محقين، وإن يروا كل آية تدل على صدق لا يصدقوها، وإن يشاهدوا طريق الهدى لا يسلكوه، وإن يشاهدوا طريق الضلال يسلكوه، يحدث ذلك منهم بسبب أنهم كذبوا بآيات الله وغفلوا عن الاهتداء بها فابتعدوا عن سبيل الرشاد. إن الإنسان رأى نفسه صابرة، فليعلم أنه قد هدي إلى الرشد، وكذلك من أراد أن يعلم أنه على طريق الرشد أو الغي، فلينظر إلى سيرته وعدله أو جوره فيما خوله الله من نعمة أو مال أو صحة أو جاه، فإن وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر للذي أرشد إليه هذه النعم، فقد ضل وغوى مبتعدا

---

[٨١١] الحشر ٩

[٨١٢] الأعراف ١٤٦

عن سبيل الرشاد، وإن كان غير ذلك فليأخذ بما هو فيه لأنه على جادة الصواب في موازين الأخلاق ومقاديرها من الخير والهداية والتواضع، فالرشيد بعيد عن العجب بنفسه، لعلمه بموازين الأشياء، ومقادير الأخلاق، والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال، فإن أعجب فلم يعدل ولم يرشد، بل قد مال إلى الإفراط في أموره، والرشد حصن يلجأ إليه كل إنسان في المواقف التي تظهر للعيان أمام الناس، وذلك أننا نرى الرشيد وغير الرشيد، يدعو إلى الرشد إن لم يأخذ به لما علم هذا وذاك من فضائل الرشد، ولم نرى أحدا يمدح الغي والضلال وإن عمل به، فمن أعمال الرشد الكثيرة حسن المجاورة، والنصح عند المشاورة، والبر في المجاورة، ومن عمل بهذه الأخلاق فهم كما قال تعالى: {فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا}[٨١٣]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك شكر نعمتك وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب"[٨١٤].

اللهم يا الرشيد يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، نسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفون بالعهود، إنك الرحيم الودود، وأنت تفعل ما تريد، اللهم إن هذا اليوم من خلقك جديد، فافتحه علينا بطاعتك واختمه لنا بمغفرتك ورضوانك، وأرشدنا فيه إلى حسنة تقبلها منا، وزكها وضاعفها لنا، وما عملنا فيه من سيئة فاغفرها لنا، إنك الرشيد، والودود الكريم، اللهم أرشدنا إلى حسن دعائك الذي أمرتنا به، ووعدتنا إجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا، فأجبنا كما وعدتنا، اللهم بلغنا سبل الرشاد بهديك، وامنن علينا بمغفرة ليس بعدها ذنب، ورشادا ليس بعده ضلال، اللهم أرشد قلوبنا إلى طريق الصلاح، ونوّر عقولنا بسبل الهدى، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

---

[٨١٣] الجن ١٤

[٨١٤] مسند أحمد ٣٤، ٤٧٨

الصبور

الصبور جل جلاله؛ هو الذي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه بل ينزل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدود لا يؤخرها على آجالها المقدورة لها تأخير متكاسل ولا يقدمها على أوقاتها تقديم مستعجل بل يودع كل شيء في أوانه على الوجه الذي يجب أن يكون وكما ينبغي وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة.

الصبور: "المعتاد الصبر القادر عليه و اسم من أسمائه تعالى ومعناه أنه لا يعاجل العصاة بالانتقام مع القدرة عليه"[٨١٥]

الصَّبُورُ في صِفَةِ اللهِ عَزّ وجلّ: "الحَليمُ الَّذِي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالنِّقْمَةِ بل يَعْفُو أو يُؤَخِّرُ"[٨١٦].

في أَسماء الله تعالى الصَّبُور هو "الذي لا يُعاجِل العُصاة بالانْتقامِ، ومعناه قَرِيب من مَعْنَى الحَلِيم، والفرْق بينهما أَن المُذنِب لا يأْمَنُ العُقوبة في صِفَة الصَّبُور كما يأْمَنُها في صِفَة الحَلِيم"[٨١٧].

وأما صبر العبد فلا يخلو عن مقاساة لأن معنى صبره هو ثبات داعي الدين أو العقل في مقابلة داعي الشهوة أو الغضب فإذا تجاذبه داعيان متضادان فدفع الداعي إلى الإقدام والمبادرة ومال إلى باعث التأخير سمي صبورا إذ جعل باعث العجلة مقهورا وباعث العجلة في حق الله سبحانه معدوم فهو أبعد عن العجلة ممن باعثه موجود ولكنه مقهور فهو أحق بهذا الاسم بعد أن أخرجت عن الاعتبار تناقض البواعث ومصابرتها بطريق المجاهدة[٨١٨].

اسم من أسماء الله يدل في معناه على التأني وينفي صفة العجلة والتسرع عن الخالق عز وجل، والذي يعطينا معنى تأخير العقوبة على من يستحقها من البشر على ما قدموه في الحياة الدنيا، أي أن هذا التأخير بأجل محدود ومقدّر لا يعلمه إلا هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى

---

[٨١٥] المعجم الوسيط ، ج ١ ، ص ١٠٤٩.

[٨١٦] تاج العروس ، ج ١ ، ص ٣٠٤٦.

[٨١٧] لسان العرب ، ج ٤ ، ص ٤٣٧.

[٨١٨] الغزالي، المقصد الأسنى ، ص ١٤٩.

فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[819]، فتأخير العقاب على مستحقيه لا يعني إسقاطه عنهم بل وجوب وقوعه عليهم في وقت معلوم ومحدد من الخالق جل جلاله لا دخل للإنسان بهذا التوقيت ولا علم له به، ولولا صبر الله المطلق على المجرمين والعصاة لكان العقاب فورياً، لكنه لا يعجّل إنزال العقاب عليهم ليمهلهم.

الصبور: مصدر لكل صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه جل جلاله، ولذا فالصبر دليل قوة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصبر في حق الله تعالى يكون درساً في التوازن والنظام، أي أنه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته جل جلاله هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عباده.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[820]، فصبره دائماً على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر بالكاف والنون ولكنه يُمهل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كل نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل؟.

وكل شيء عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدرّه الخالق مسبقاً مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب، فمثلاً نجد أن الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عز وجل يدلنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمده منه جل جلاله.

---

[819] النحل ٦١.

[820] البروج ١٦.

فالصبور تبارك وتعالى يعلّمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيمنته الكاملة على كل شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كل الأمور يقلّبها ويدبّربها حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٨٢١]، إذن هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كل شيء مطلقا فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، وصبره نابع من ذلك الكمال كله، ولو تأملنا جيداً في هذا الاسم لوجدناه الخير كله يجمعه ويوزعه على الخلق بكرمه ورحمته وحكمته، بالرغم من أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد ينزّل عقابه سريعاً ويرسله كعبرة للبشر وموعظة، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}[٨٢٢]، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزل العقاب والعذاب ليكي يُحدث التوازن في إحقاق الحق والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: {كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}[٨٢٣]، فعلمه المطلق عز وجل والمسبق أدرك مسبقاً أن الخير والنفع للعباد سيكون على هذا الشكل، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويُظهرون.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكل شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}[٨٢٤].

الصبور جل جلاله في صبره إبداع، وفي إبداعه صبر عظيم، فهو الخالق المبدع لكل شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون، فهو سبحانه دائم الخلق والإبداع حيث أنه الخلاق، قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا

---

[٨٢١] يس ٨٢، ٨٣.

[٨٢٢] هود ٦٧، ٦٨.

[٨٢٣] القمر ٤٢.

[٨٢٤] الروم ٦٠.

أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٨٢٥]، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هذه الأرض؟ وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء، فنستشعر هنا بالصبور الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، إذ أنه بوحدانيته المختص الأوحد في فعل كل ذلك سبحانه الأحد الصمد، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ}[٨٢٦]، ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درساً ومثلاً لتعليمه أنبيائه ورسله الصبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابراً على أموره وثابتاً لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

ولله المثل الأعلى: فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولاً عنه نجده في يومٍ من الأيام متذمراً منه ضائقاً به، ولابد أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه، فيؤثر ذلك على سير عمله بالاختلال أو النقص، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته على ضبط العمل والعودة إلى سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث، لكنّ الخالق عز وجل منزه عن كل نقصٍ أو عيب أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كل شيء في آن واحد، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عز وجل، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حق المولى عز وجل، حيث أنه:

. ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والإبداع وإحقاق الحق بعدله المطلق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٨٢٧].

---

[٨٢٥] يس ٨١ . ٨٣.

[٨٢٦] ق ٣٨، ٣٩.

[٨٢٧] يونس ٤٤.

. المنتقم من الظالمين على مر الزمان، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[٨٢٨].

. الرحيم بعباده دون انقطاع لهذه الرحمة، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٨٢٩] .

. الودود الذي لا يمل من تقديم الود والحب لعباده، قال تعالى: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}[٨٣٠].

. الغفور لذنوب عباده المذنبين، فلا يتعب من كثرة ذنوبهم ولا يملل من الغفران وقبول التوبة، قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[٨٣١].

. الخالق في استمراره الدائم للخلق ومراقبتهم وتسجيل أعمالهم تجسيد عظيم للصبر، فقد قال عز وجل: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٨٣٢].

إذن فالخالق الصمد هو وحده الصبور في ملكوته على القيام بكل شيء وباستمرار دون انقطاع أو خلل، فكيف لا يلجأ إليه العبد الضعيف الذي لا تنقطع حاجته إليه جل جلاله.

فالله هو الصبور وهو الواحد الأحد وهو الملجأ الوحيد لكل عباده، فلا يكون مثله أحد في صمديته ووحدانيته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[٨٣٣]، فقد يسّر الله كل هذا الكون لخدمة خليفته في الأرض، فكان هذا النسق وهذا النظام البديع في الكون بأسره، قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا

---

[٨٢٨] إبراهيم ٤٧.

[٨٢٩] البقرة١٦٣.

[٨٣٠] البروج ١٤.

[٨٣١] الملك ١، ٢.

[٨٣٢] الأنعام ٥٩.

[٨٣٣] الإخلاص ١ . ٤.

وَهُوَ حَسِيرٌ}[٨٣٤]، فبهذا يختص سبحانه وتعالى بالوحدانية التي ترتبط بالصبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده جل جلاله بكل ذلك وبالشكل المتقن الدائم المستمر، كل عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن هنا نستطيع القول أنه الصبور في أحكامه لأنه يعلم كيف وأين ومتى يفعل وينفذ، ولاشيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيء قدّره الواحد الأحد.

إنه الصبور على ما يقولون وعلى ما يفعلون، وصفة الصبر تنبع منه أساساً جل جلاله، حيث أن كل شيء إيجابي وكل ما هو حق وكل ما هو جميل، منبعه منه أولاً وأخيراً عز وجل.

وتكمن صفة القوة في الصبر، حيث أنه لا قوة بلا صبر، ولا صبر إلا عند قوي متين، فالصبر الحقيقي يكون متحداً وملازماً للقوة، تلك القوة التي تحتاج إليها عملية الخلق، فكان حقٌ لله على خلقه توحيده وعبادته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[٨٣٥].

والصبور في حق الله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها:

١- صبره عز وجل عن قوة وقدرة مطلقين:

فصبر الخالق المطلق على عباده يدعمه القوة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٨٣٦]، فمن يملك كل هذه القدرة بالتأكيد هو بغنى عن كل ما خلق وصوّر، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[٨٣٧]، فبما أنه عز وجل الغني عنا فهو القوي القادر على كل شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزاً أو ضعفاً أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عز وجل، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

---

[٨٣٤] الملك ٣، ٤.

[٨٣٥] الذاريات ٥٦ . ٥٨.

[٨٣٦] النحل ٤٠.

[٨٣٧] لقمان ٢٦.

ولكن بالرغم من قدرته المطلقة إلا أنه صبورٌ على أخطائهم مفسحاً لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنه عز وجل لا يمكن أن يظلم أحداً بسبب خطيئة غيره، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[٨٣٨].

٢- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[٨٣٩]، فالله تعالى ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أي أمر، وصبره لا يعني أنه غافلاً عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة جل جلاله وعلمه اللذان يقدّمان ويؤخرّان الأمور حسب مشيئته وإرادته عز وجل، فالغفلة تتنافى مع علم الله المطلق بكل شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافعٌ وضار بهم.

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة الله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقوه بظلمهم، فمن كان على علم بالعقاب كيف يكون غافلاً عن العمل المستحق لهذا العقاب؟.

الله جل جلاله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكل شيء لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لهذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهذا يدل على انتباهه لأصغر وأدق الأمور، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ }[٨٤٠].

---

[٨٣٨] الأنفال ٣٣.

[٨٣٩] إبراهيم ٤٢.

[٨٤٠] سبأ ١، ٥.

٣- صبره عز وجل على عباده لا يعني إسقاط العقاب:

العقاب قائم بإذنه تعالى على من يستحقه كما سبق وأخبرنا الله تعالى بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: {مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[٨٤١]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[٨٤٢]، إذن فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر الله تعالى عليهم، ولكن هذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة.

فقد حذّر الله تعالى عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ}[٨٤٣]، وهذا تأكيد على أن العقوبة قائمة رغم الصبر عليهم، فلا يلغي الصبر على كفر الكافرين العقاب الشديد، الذي يستحقونه دون نقصٍ أو زيادة.

بذلك لابد أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضاً لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملاً الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}[٨٤٤]، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند

---

[٨٤١] آل عمران.

[٨٤٢] آل عمران ٩٠، ٩١.

[٨٤٣] البقرة ١٧٤، ١٧٥.

[٨٤٤] الأنعام ٣٣.

غيره من البشر، ويكون في صبره شعوراً يحرّك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدي به إلى اليأس والإحباط.

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}[845]، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}[846]، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين؟.

واسم الله الصبور على الخلق جميعاً مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، تائبهم ومذنبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحق الثواب.

والله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصبره وحلمه على العباد العصاة، بالرغم من شدة كفر هؤلاء الناس وإشراكهم به عز وجل، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرحمة، فصبره هو الذي أخّر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاءاً لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين وهذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أن الصبور يمسكهما بصبره وحلمه عز وجل.

---

[845] إبراهيم ٤٦.

[846] فاطر ٤٠ ـ ٤٢.

فعلى خليفة الله أن يكون صابراً امتثالاً لأمر الخالق في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٨٤٧]، لأن الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم النتائج.

الصبور جل جلاله: يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم، ويجعلهم يتحلون به ليعينهم على تحمل ما يلاقونه من مشاق ومصاعب في الحياة الدنيا، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الدنيا الذي رضي المولى عن سلوكه، وقد وهبهم الله الصبر لحبه فيهم مظهراً لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هذا الحب الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالى، قال عز وجل في كتابه الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}[٨٤٨]، من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ غالي على الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه، علماً بأن الخالق جل جلاله بعلمه المسبق وخبرته بخلقه جميعاً يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولكنه أيضاً علم أنه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على الظالمين وقرّب المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر مما يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمَّل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنه مخلوق مكرّم وغالي عند ربه، والدليل على ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحياناً ساتراً له لا يفضحه بين الناس بل يستره، وهذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه جل جلاله وبين خلقه، وصبره على خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة على العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهذا المخلوق.

لذلك فلابد لخليفة الله تعالى أن يكون عاشقاً لله مستشعراً بمكانته عنده، فلا يفرّط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا الخليفة لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله

---

[٨٤٧] آل عمران ٢٠٠.

[٨٤٨] البينة ٧، ٨.

تعالى وخشيته والإخلاص له والصبر على حكمه، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٨٤٩]، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[٨٥٠].

والصبر ليس شعوراً يزرعه الصبور فينا فقط، بل هو منهج حضاري راقٍ يصل بالبشرية إلى الهدف الأسمى وهو سيادة المحبة والعدل والنظام، والدليل على ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه، فالشمس مثلاً تشرق رويداً رويداً وتغرب كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدرة بنظام ودقة، وكذلك فقد خلق الله السماوات والأرض على مراحل وأيام ولم يكن خلقها في لحظة مع إمكانية تحقيق ذلك بالنسبة لقدرة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٨٥١]، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[٨٥٢]، فالسماء والأرض كان في خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة، وكذلك لو تأملنا إلى خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنين في رحم أمه، فينمو شهراً بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيداً لنوعين من الصبر أولهما صبر الأم تسعة أشهر ممزوجة بالمعاناة والألم والتعب، وكذلك رضاعته لم يجعلها الله أياما أو ساعات بل امتدت لعامين كاملين، قال

---

[٨٤٩] النحل ٩٦، ٩٧.

[٨٥٠] الملك ١٢.

[٨٥١] الأعراف ٥٤.

[٨٥٢] الحديد ٤ . ٦.

تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[٨٥٣].

والنوع الآخر صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا}[٨٥٤]، إذن فالصبر له صور متعددة وواضحة في حياتنا ولكننا لا نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكاً ومنهجاً لنا.

فوائد الصبر على خليفة الله في الأرض عديدة منها:

أ- قهر الشهوات والتحكم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبداً لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهيه فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأنى ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} [٨٥٥]، فالشهوات متعددة في الدنيا وكثيرة وكل نوع منها يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند الله تعالى ومد البصر إلى النعيم الأخروّي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمام إغراءاتها المتنوعة.

ومنهم الخليفة الذي كان مالكاً لشهواته مسيطراً عليها بصبره وجلده، لعلمه بأنها خُلقت لكي تكون عوناً للإنسان في نيل رضا رب العالمين، ولا تكون فتنة ودمار للإنسان في الدنيا

---

[٨٥٣] لقمان ١٤.

[٨٥٤] الحج ٥.

[٨٥٥] آل عمران ١٤.

والآخرة، فالخليفة المحب لله تعالى تجده صابراً على هذه الزينة البالية لعلمه بأن صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها، فالعلم يمنح الإنسان اتساعاً في مداركه وفهمه للأمور وإذا توصل هذا الإنسان للفهم الصحيح لأمور دينه ودنياه وصل إلى معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنساناً مترفعاً عن الرذائل مسيطراً على نفسه ومعتزاً بها، فيصل إلى حدود حب الله وطلب رضاه وعفوه.

ب- التوكل على الله واللجوء إليه:

في هذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أنها دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[٨٥٦]، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هذه الامتحانات والابتلاءات، فكثيراً ما نجد أنه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز الناس لدينا، فنشعر بالعجز وعدم القدرة على تحمل الألم وصعوبة الفراق، ولكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هذه الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية، فكيف يحدث ذلك؟.

يحدث ذلك بأن الله تعالى خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من الله على ما أصابه ولا يستجيب الله تعالى له، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقه ويطلبه، فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرى للنسيان وتجاوز محنته وحزنه، كما يحدث مع بعض الناس الذين يبتعدون عن الله فيبتعد عنهم الله، نجدهم يلجئون إلى وسائل أخرى للغرق فيها ونسيان ما هم فيه، كأن يتجه بعضهم لشرب الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع، لأنه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته على نسقٍ مرتب وتقوى نفسه على المصاعب فيكون مستحقاً لحمل أمانة الخالق له وهي إصلاح الأرض، ولا أروع من

---

[٨٥٦] المائدة من ٤٨.

الاحتذاء بالرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم- فقد كان دائم لطلب الصبر والعون من الله على ما مر به من محن ومصاعب في سبيل تبليغ رسالته للبشرية، فها هو مع صديقه أبو بكر الصديق في غار ثور عندما أوشك المشركين اللحاق والفتك بهم، فقد استعان بالله وتوكل عليه فألهمه الله الصبر والثبات ونجا منهم، وكذلك في خروجه للطائف وتحمله الأذى العنيف من أهل الطائف لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام مستعيناً إلا بخالقه يتصبر بحبه له على ما بلاه، وقد كان الصبر أمراً لازماً لكل الرسل ليستعينوا به على شدائد الأمور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}[٨٥٧].

فلتكن يا خليفة الله في الأرض صابراً متوكلاً على الله الذي لا يمنحك الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عز وجل الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد ولا تسفك الدماء بغير حق.

فلابد إذن أن تفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٨٥٨]

ج – الصبر يأتي بالنصر:

بما أن حياة الإنسان كلها كانت ابتلاء وامتحان من الله جل جلاله كان لابد أن يخلق معه الصبر، ولا يكون الصبر إلا بالحق وللحق، فعندما يدرك الإنسان المؤمن أنه على حق يستمد قوته على التحمل وصبره على الأذى ليقينه بأنه على حق ولهذا فإن الله سينصره لأن الحق دائماً هو المنتصر ولو بعد حين، فالصبر إذن يأتي بالنصر أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة على ذلك كثيرة فمن كان يصدق أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والصحابة رضي الله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة وتجلجل دعوته في الآفاق لولا صبرهم

---

[٨٥٧] الأحقاف ٣٥.

[٨٥٨] يونس ١٠٧.

على الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإخراجه إلى شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحق المتمثل في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كل بقاع الأرض وانتصارهم على جبابرتها.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحق من صبره على الوصول والنضال فيكون بذلك عبداً صبوراً منتصراً على الظلم والباطل والفساد، لأن من شأن الخليفة أن يكون معمّراً للأرض ولا يتحقق ذلك إلا بانتصار الحق وزوال الباطل والشر من عليها وهذا يتطلب منه الصبر الكثير والقرب الشديد من الخالق عز وجل.

واسم الصبور ينطوي على أسماء وصفات لله تعالى مثل:

الصبور هو العليم:

صبر الخالق على عباده منبعه علمه المطلق بهم فهو خالقهم والعالم به، فيؤخر عنهم العذاب لعلمه المطلق بما هو أصلح وأنفع، وعلمه يتعدى الظواهر إلى البواطن والخفايا، قال تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى}[٨٥٩]، لذلك فقد كان صبره على عباده على أساس ثابت ومتوازن ووفق قانون إلهي عادل، فعلم الخالق بعباده الصادق منهم والمنافق، الكافر منهم والمؤمن، العاصي منهم والمذنب علمٌ حق فيوزع على حسب علمه صبره على كل منهم ما يستحقه بلا زيادة ولا نقصان، وهو بالتالي يعلم مقدماً من الذي من عباده سيصمد ويثبت أمام الشدائد ومن هو الذي سينهار ويضيع.

وبالرغم من علم الخالق المطلق بعباده إلا أنه لا يعجّل لهم العقاب أو الثواب، فشدة جحود الكافرين وعصيانهم وظلمهم لم تجعل العليم يغير في توقيت وقوع عقوبته عليهم، وكذلك حبه القوي لعباده المؤمنين الصالحين لم يجعل الخالق يتعجل في منحهم الثواب والخير الكبير والنعيم الدائم، فكان صبره على جميع العباد ولكنهم افترقوا في نتيجة هذا الصبر فمنهم من كان عاقبته سيئة ومنهم من كان عاقبته خير ونعيم، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آَمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ

---

[٨٥٩] الأعلى ٧.

مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[٨٦٠].

فعلى خليفة الله أن يصبر على تلقي العلم المفيد الذي من شأنه أن يجعله مدركاً للأمور وعواقبها، عالماً بما هو نافعٌ له في دينه ودنياه، فلا يغفل عن السعي لطلب العمل، ولا يتكاسل عن تنمية حب المعرفة والفائدة، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى التحلي بالصبر وهو جاهلٌ بمزاياه ونتائجه، فالإنسان يصل بالعلم إلى حدود فهم الصبر فهماً صحيحاً فينأى بنفسه عن العجلة والتهور، لأن علمه يكون رادعاً له عن التسرع المذموم، ولكن بالعلم نصبر على الأمور وبالعلم نصل إلى معرفة هذا الخلق الكريم، ومن هنا كان لابد للخليفة أن يصبر على تلقي العلم مهما كانت طريقه صعبة وغير ميسرة له.

الصبور هو الحكيم الخبير بعباده:

الله الصبور سبحانه وتعالى على ما يصدر من عباده من ذنوب وأخطاء أحياناً يتبادر إلى أذهاننا فوراً أنه سبحانه يترك عبده المسيء الظالم دون أن يعاقبه على ما يقترفه، ولكن في حقيقة الأمر فإن الله تعالى بصبره يعطينا درساً رائعاً في التعامل مع بعضنا البعض، فهو يترك العبد أحياناً يسيء ويخطي في حقه عز وجل ومع ذلك نجده عز وجل يعطيه ويهب له وذلك لأمرين:

أولهما كي يتمادى في كفره وعصيانه فيستحق بذلك العذاب الأشد، كما حدث مع قارون إذ أن الله أعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده فقد تجبَّر وأخذه الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ولكن الله لم يمنع عنه نعمته مباشرة بل صبر عليه وتركه يزيد في غروره وظلمه إلى أن علم المولى عز وجل بخبرته في تسيير أمور العباد أنه لابد من إنزال عقوبته به، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى

---

[٨٦٠] النساء ٥٥ . ٥٧.

فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[٨٦١]، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلقة أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ثانيهما: كي يرجع هذا المخطئ عن خطئه ويتوب:

الخالق عز وجل بخبرته المطلقة يعلم أن من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتيحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[٨٦٢]، فيصبر بخبرته على هؤلاء المذنبين متيحاً الفرص لهم، وقد يعود البعض إلى ارتكاب الذنوب والأخطاء فيصبر عليه الله عز وجل لعلمه المسبق بما سيكون عليه حال هذا الإنسان بعد حين، لذلك كان صبر الخبير على عباده المذنبين.

---

[٨٦١] القصص ٧٦ . ٨٢.

[٨٦٢] الشورى ٢٥ .

فصبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة لما كان ذلك علاج لأمور كثيرة، فالله المثل الأعلى: فقد نجد إنساناً صبوراً لكنه بالرغم من ذلك لا يرى أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكل صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضياً أو مدركاً، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرى ويحسب ويدقق ويدرك الأمور بروية تامة لا تأخذه العجلة ولا التسرع، لذلك لابد أن يجتمع في نفس خليفة الله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلة بحكمة ولابد أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحياناً في المجتمع أن يقف أمام مشكلة ما بعد أن يستنفذ جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حل واضح وإيجابي، فلابد وقتها لهذا الإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاجها يكمن في المزيد من الصبر، فتأخذ المشكلة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلة بالتلاشي بعد أن كانت ذات تأثير كبير في نفوسنا، ومثال ذلك حينما يتوفى الله تعالى أحب الناس إلى قلوبنا، هذا الأمر يكون صعب الاحتمال لشعور الإنسان وقتها أن الموت أمر يصعب تحمله للإحساس المذهل ساعة الفراق، ولكن هذا الأمر الذي كان عظيماً كبيراً نشعر أنه مع طول الفترة الزمنية يبدأ بالتضاؤل والصغر في النفوس شيئاً فشيئاً، وذلك باحتساب الأجر والثواب عند الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الحزن ساعة الموت هو من أكبر الأشياء التي نمر بها في حياتنا الدنيا ويأتي الصبر لكي نقوى عليها ونتجاوزها، فما بالك بمشاكل وهموم الحياة الأخرى.

إذا من الأكيد أننا لو استعنا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل كافة المشاكل الاجتماعية التي تحيط بنا، ولأمكننا القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أي ظاهرة اجتماعية سلبية، فمثلاً لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكياً وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكل الدوافع لهم التي من شأنها أن تدفع بهم للوصول لذلك لكنا قد وصلنا إلى حلول أكثر إيجابية

من تلك الموجودة الآن، لأن الصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغنينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقى به إلى مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرى، وكذلك نلحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة على الإبداع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك، وذلك لا يحتاج من المربيين والمشرفين إلا قليل من الصبر والمراعاة لأولئك الطلبة المميزين، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة، وهذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود على الإنسان وعلى من حوله.

الصبور هو الرحيم:

نستشعر أن في صبره رحمة لعباده منهم الكافر والمسيء والمذنب، فبالصبر تتولد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلى الحق أو تتوب عما كانت فيه، فتكسب بذلك آخرتها، حتى مع عباده المؤمنين فإن في تعليمهم للصبر والثبات رحمة لهم، إذ أنه ما من صابرٍ على ابتلاء ومحتسب أمره لله إلا وكانت الجنة جزاءاً له على صبره، فتتجلى هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٨٦٣]، فقد خلق الله الصبر ليكون عوناً للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأن ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم أحداً من عباده بل هو العادل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير، فرحمة الله في صبره تتجلى فيم يلي:

١ . عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

[٨٦٣] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كل مستحقٍ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عز وجل في تشكيكهم في وجوده أصلاً مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هذا الكون للطبيعة منكرةً بذلك وجود الخالق عز وجل، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلى الله جل جلاله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا}[٨٦٤] ، وكذلك قوله تعالى: {قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ}[٨٦٥]، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرسل والأنبياء لهدايتهم وإرجاعهم للحق ولكي يصلوا إلى اليقين المثبت في حق الله تعالى، مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يخسف بهم الأرض في أي وقت، لكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للإصلاح.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزّل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}[٨٦٦]، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ}[٨٦٧]، فالخالق عز وجل قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا، ومن يتمادى في كفره فإن عذاب جهنم ستكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت من رجع للحق كان له الفوز والنجاة، فقد نلاحظ حتى في أيامنا هذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرى يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه

---

[٨٦٤] الإسراء ٤٠.

[٨٦٥] يونس ٦٨، ٦٩.

[٨٦٦] الرعد ٣٢.

[٨٦٧] الأعراف ١٨٢، ١٨٣.

من الباطل، قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}[٨٦٨].

٢- خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقترفون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإن الرحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، قال تعالى: {وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[٨٦٩]، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحّح من سير المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحق والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٨٧٠]، وقوله عز وجل أيضاً في كتابه الكريم: {وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٨٧١]، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحاً له الفرصة لتغيير مسار حياته أحياناً بكلمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

٣- ضرب الأمثال للعباد بصبر رسله:

من كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجاً لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عز وجل الرسل صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة

---

[٨٦٨] الكهف ٥٨، ٥٩.

[٨٦٩] النساء ٢٧، ٢٨.

[٨٧٠] المائدة ٣٩، ٤٠.

[٨٧١] التوبة ١٠٢.

للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعّم فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين والأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ}[٨٧٢]، وقوله تعالى أيضاً: {وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا}[٨٧٣]، وكأن أمر الله بالصبر لرسله علاجاً يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مماطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرسل والأنبياء يرتكزون عليه في تحمل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحاً قوياً يدعم شعور النصر فيهم وليس شعور بالضعف والاستسلام والهزيمة، بل أن صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقرب الناس إليهم كان نابعاً من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على رضاه، فهذا كان حد مبتغاهم مرضاته عز وجل، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور جل جلاله وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٨٧٤]، فهنا يتجلى لنا الحب المتبادل وهو أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له هذه الدرجة من الحب إلا وتجد الله تعالى قد أهداه بين جنبيه قلباً صابراً على الشدائد مما يجعل المؤمن صابراً لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله جل جلاله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائماً لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره

---

[٨٧٢] النحل ١٢٧، ١٢٨.

[٨٧٣] المزمل ١٠.

[٨٧٤] المجادلة ٢٢.

أبداً، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ}[٨٧٥]، من هنا يتضح لنا حب الله لعباده الصابرين، ومن هنا أيضاً نستطيع أن ندرك مصدر القوة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعاً لصبره، محتذياً بالصالحين والأنبياء والرسل من قبله، فلا ينكسر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضرب مثل بصبره فلا يستطيع أيٍ كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا يبنيه ولا يعمّره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه جل جلاله.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودنياه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أولاً وعلى من يؤذيه ثانياً فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

الصبور هو الصمد:

الله هو الصمد جل جلاله وهي صفة دائمة لله تعالى تنطوي تحتها علمه وحكمته وصبره وحلمه، فهو الذي يعطي كل محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها فالعطاء سواء كان عاجلاً أم آجلاً هو دائماً لخير العبد ومصلحته، قال تعالى :{ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ }[٨٧٦]، وبما أنه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه فهو القادر على كشف الضر والأذى عن الإنسان، بالرغم من أن الكثير من البشر يفتقدون إلى الوصول إلى هذا الحد من اليقين الذي يخلق الصبر في نفوسهم قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

---

[٨٧٥] آل عمران ١٤٢.

[٨٧٦] الإخلاص ١ . ٤.

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٨٧٧].

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون معيناً لغيره وملجأ لهم عند حلول الأزمات، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تعين الإنسان نفسه وتجعله معينا لغيره.

واسم الله الصبور يعطينا معنى التسليم له عز وجل بكل شيء، لأن الإنسان حينما يصبر على مكروه أو أذى فهو بذلك يسلّم أمره بالكامل لله القوي العزيز، وهنا تتجلى طاعة العبد لخالقه جل جلاله، وكذلك لرسله وأنبيائه المكلفين بتبليغ رسالاته للبشرية، لما كانوا عليه من صبر وحب لله تعالى ويحضرني هنا كمثل لطاعة وحب الله والصبر على الشدائد قصة سيدنا إسماعيل عليه الصلاة والسلام مع أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فبمجرد رؤية رآها سيدنا إبراهيم بأنه يذبح ولده بأمرٍ من الله تعالى وبالرغم من حبه الشديد لابنه إسماعيل إلا أنه أخبره بما رأى وامتثل ابنه لأمر الله، ففي هذا الموقف نستشعر مدى عظمة الصبر والتضحية، وعظمة مكافأة الصبور لهما جزاء صبرهما على ذلك الأمر، قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فأنظر مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}[٨٧٨]، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حباً كبيراً لكنه أحب الله أكثر فصبر على أمره وأطاعه، وصبر سيدنا إسماعيل على مصيره لعلمه برحمة الله وحبه، فكان الله رؤوفاً رحيماً بهما مكافأً لهما على صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحداً أبداً.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يسلّم أمره لله تعالى، ليتعلم كيفية الصبر على البلاء، لأن نفوسنا البشرية أحياناً تخوننا عند حلول الأزمة أو وقوع البلاء، فإن لم يستطع الإنسان الصبر

---

[٨٧٧] يونس ١١، ١٢.

[٨٧٨] الصافات ١٠٢ ـ ١١١.

فعلى الأقل يجب أن يحاول التصبر، وأن يدرب النفس على الصبر ويهيئها لتحمل الشدائد والمصاعب، فلو أن كل مسلم تعرض للأذى والبلاء على يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام، فمثلاً لو أن أهل بيت المقدس تركوها من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثراً للإسلام هناك ولا مطالباً بعودتها للمسلمين، ولكن بصبر أهلها وجلدهم وإيمانهم بالله تعالى جعل الأمر أسهل على قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كل شيء.

فلو أن كل إنسان عوّد نفسه على الاستسلام لله فقط والطمأنينة والراحة في ظله عز وجل لأراح نفسه من مسألة الغير والاعتماد على بعض الناس في حل أموره، فيصبح بذلك حراً معتزاً بنفسه راضياً بنصيبه، ولما كنا سند هذه الدرجة من القلق والتوتر اللذان يسودان المجتمعات المسلمة هذه الأيام، فنجد الخوف يتصاعد في النفوس وعدم الإحساس بالأمان وتصاعد القلق النفسي بين الشباب بصفة خاصة مع أنه لابد أن يكونوا مثالاً للصبر والجلد والقدرة على الاحتمال.

وقد حبا الله عباده المتقين بصفة الصبر، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبِت صفة الإيثار والتضحية، فالإنسان يصبر أحياناً على أذىً يأتيه من أحب الناس إلي قلبه وأقربهم إليه، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلّم هذا المخطئ أن يكون متسامحاً عطوفاً، فيقابل هو بدوره الأذى بإحسان، فكثيراً ممن يسيئون لأقربائهم وفي المقابل حين احتاجوا أولئك المسيئين للعون وجودوا من أساؤوا إليهم يمدون يد المساعدة والعون لهم على طبق من الحب والتسامح، والأمثلة في الدنيا وبين البشر على ذلك كثيرة، فمثلاً أروع ما يمكن أن نضرب به المثل في هذه الحالة هي الأم، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالاً وكباراً على السواء، ولكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هذا الآن الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود، فيتجسد الصبر على هذا الشعور في شخص الأم، في احتمالها لهذا الأذى النفسي الذي من شأنه مثل هذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها، حيث إن ولدها جزءٌ منها لا يمكن الاستغناء عنه، سواء

كان بيولوجياً أو عاطفياً، فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له، وأن يرزقه الله ويوفقه ويعطيه من نعمه، فهنا الأم تجسد الصبر على شديد الاحتمال وصعب التحمُّل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية، فبذلك نخلص إلى أن صبر الأم على أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا على أذى من تحب، إذن الصبر هنا يعكس فوائده الصحية على نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها الله به لكان عقلها لا يحتمل هذا الجحود، لأنه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أغلى الناس على قلبها في الدنيا، فهذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هذا الأمر الذي أصبح أكثر شيوعاً في عصرنا هذا.

فالصبر بالأساس هو عنوان التضحية والإيثار على النفس والدافع هنا راقٍ جداً، فكم من صابر في الدنيا على كثير من أذى الأحبة لأنه يؤثرهم على نفسه، والصبر هو الذي أعطاه هذا الارتياح والرضا، فيصبح إنساناً متصفاً بالكرم والعطاء اللا محدود، ويجعله واثقاً بالله عز وجل فيستشعر بقربه منه دائماً ودعمه له مما يمنحه القوة والمناعة ضد أي مرض نفسي يؤدي في نهايته للدمار أو الفساد أو الضياع، كما نلاحظ في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة تزايد نسبة الانتحار، إذ أنهم يصلون لمرحلة يأس وضيق ووحدة لا يمكن أن يشغلها إلا حب الله والقرب منه، على عكس عباد الله الصالحين الذين حتى مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب، مثلما ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٨٧٩]، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم، ولكن من كان يبتغي وجه الله وهم عباده المخلصون فإنهم بالرغم من

---

[٨٧٩] الحشر ٩.

ضيق الحال تجدهم يكرمون غيرهم ويؤثرونهم على أنفسهم لما تحلوا به من صبر على ضيق الحال.

ومن هنا نستطيع أن ندرك أن الصبر يجعل الفرد يشعر بقيمة أخيه في المجتمع بعطائه وحبه، والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان معطاءاً كريم النفس، لا يبخل حتى ولو كان ما يعطيه هو آخر ما عنده أو هو بحاجة إليه، فعندما هاجر مع الرسول – صلى الله عليه وسلم– فسأله الرسول عليه الصلاة والسلام ماذا أبقيت لأهلك؟ قال رضي الله عنه : أبقيت لهم الله ورسوله. مع علمه بما في نفوس مشركي مكة من حقد وضغينة على الرسول عليه السلام وعلى من اتبعه، ولكن نفسه الصادقة وروحه الطيبة المؤمنة صبرت على ذلك وتحملت في سبيل حبه لله ورسوله الأذى الشديد.

وخليفة الله في الأرض عليه أن يصل بتفكيره إلى أنه إذا كان الله تعالى هو الصبور مع قدرته وغناه عن الخلق، ومع هذا فهو الذي يصبر على أذاهم وعصيانهم وتجبرهم، فما بالك بالإنسان.

فلو كل إنسان استوعب هذا الاسم بالشكل الصحيح لتخلق بأحسن خلق ولحمل أروع قلب وأصفى نفس ولكان معلماً لغيره، فيسود الصفاء والنقاء بين الأفراد ولأصبحنا وسط كون فاضل وليس مجرد مدينة فاضلة كالتي نادى بها بعض من الفلاسفة، ولكن لنقص فهم وإدراك الكثير من البشر لهذا الاسم الفاضل، فإن اسم الصبور لابد أن يكون موعظة لنا ودرساً في الحياة، فلو استوعبت الأمة هذا الدرس جيداً وصبر كل فرد على أذى الآخر فبذلك يعطيه الفرصة للندم والتراجع عن ذلك، بل وقد يصبح صديقاً له على مدى الأيام، قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}[٨٨٠]، فالفرد هو مخلوق يحمل بين جنباته قلباً ولابد أن يكون في داخل هذا القلب ولو نقطة نور وضياء بجانب

---

[٨٨٠] فصلت ٣٤، ٣٥.

الكثير من السلبيات والظلام، فمن الممكن أن يكون صبرنا عليه بمثابة فرصة لاتساع هذه النقطة إلى أن تعم القلب بأكمله، ولا ضرر من المحاولة، ولكن أصبح لدينا نحن المسلمون بفضل هذا الاسم العظيم مجتمعاً متسامحاً متحاباً لا مكان للعداوة والبغضاء، فيزرع المسلم الصبر ويحببه في قلوب المسلمين عندما يصبر على أذاهم ولا يستطيع أن يصل المسلم لهذه الدرجة إلا بالتقرب إلى الله تعالى بالصلاة والطاعات والصدقات، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٨٨١]، وكذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[٨٨٢]، فمن الأمور التي تعودنا الصبر هي :

أ- حب الله:

إذا انغرس حب الله في نفس المؤمن فإنه يستطيع أن يواجه العالم بأسره وينتصر، وقد بشّر الصبور المطلق الصابرين لعلمه بصعوبة الصبر، فوعد الصابرين بالجزاء العظيم مكافأةً لهم على ما كابدوه وعانوه ليصلوا إلى إمكانية الصبر، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٨٨٣]، فكم من مبتلٍ في هذه الدنيا منحه حبه لله الصبر على معاناته ومحنته، وأروع مثال على ذلك

---

[٨٨١] الأنفال ٢ . ٤.

[٨٨٢] الرعد ٢٠ . ٢٤.

[٨٨٣] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

صبر آل ياسر على أذى وعذاب كفار قريش، فقد تجلى فيهم أروع صورة للصبر والتضحية في سبيل الله، إذ أن الله تعالى بشّرهم بموعدٍ في جنة الخلد على لسان رسوله الكريم حين خاطبهم قائلاً وهم تحت وطأة العذاب: (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة) ، فاستحقوا بصبرهم هذا الوعد وهذا التكريم من الصبور الذي أمدهم بالصبر والثبات في قلوبهم، فانتصروا بهذا الثبات على جميع كفرة قريش وجبابرتها.

وعندما يصبر الإنسان فمعنى ذلك أنه قد فوّض أمره لله تعالى وتوكل عليه، ولابد أن يكون الخالق عند حسن ظن عبده به، فإذا سأله النصر أعطاه، قال تعالى: {بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ}[٨٨٤].

ب- الصلاة:

فالمداومة على الصلاة من شأنها أن تعوّد المؤمن الصبر، فلا يتذمر من تكرار الصلاة ولا يتثاقل عنها ولا يكسل بل يقوم إليها بحب ويصبر على كل أمور الدنيا لكي لا يتلهى عنها، بعكس المنافق الذي لا يملك حبها أو الصبر عليها، قال تعالى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا}[٨٨٥]، فالصلاة من الأمور التي من شأنها أن تعوّد النفس على الخشوع والطاعة لأمر الله وتقرّب بين العبد وربه، وهذا القرب هو الذي يولّد الصبر في النفس المؤمنة الراضية بقضاء الله، فالصلاة إذن هي بمثابة تمرين للنفس على الصبر والخشوع، وقد أوصى لقمان ابنه بالمداومة على الصلاة لما وهبه الله من حكمة وصواب رأي وبعد نظر فكان حكيماً صائب الرأي، قال تعالى: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}[٨٨٦].

---

[٨٨٤] آل عمران ١٥٠.

[٨٨٥] النساء ١٤٢، ١٤٣.

[٨٨٦] لقمان١٧.

ج- الصوم:

من المعروف أن الإنسان محب للطعام ومستحق له، والتنوع في الأطعمة جعلت الإنسان يشتهي ويتلذذ بها، بل ويكثر من طلبها كحاجة ضرورية له، وقد فرض الله عز وجل الصيام وهو ترك الطعام من الفجر إلى غروب الشمس، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٨٨٧]، وهذا بالتأكيد توقيت طويل بالنسبة للإنسان الذي اعتاد الأكل في أكثر من مرة في اليوم، وهذا الركن فيه تعوّد وتصبير لشهوة الطعام في الإنسان، إذ بصبره على الأكل حبُ لله وطاعةُ لأمره مع الاحتفاظ بهدوء النفس وعدم التذمر والضيق والعصبية، ففي كلمة (اللهم إني صائم) عند مواجهتنا لأمر يستفزنا من شأنها أن تعوّد أنفسنا على مقابلة الإساءة والصبر عليها باللجوء إلى المولى عز وجل، فننأى بأنفسنا عن الانحطاط الأخلاقي، ولذا فقول الصائم عندما يرى ما قد يضعفه (اللهم إني صائم) تعني التمسك بقرار الصبر على إتباع الحق، وذلك لأجل الفوز بما هو أعظم.

ففي الصيام تدريب جسدي ونفسي للصبر، فلابد أن نصبر على الطعام طاعةً لأمر الله تعالى، وأن نصبر على أذى غيرنا يكبح النفس عن رد الإساءة، وكذلك الصبر على شهوة الجنس طوال ساعات عديدة، قال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٨٨٨]، فالصبر الجنسي من شأنه

---

[٨٨٧] البقرة ١٨٣، ١٨٤.

[٨٨٨] البقرة ١٨٧.

أن يعوّد المؤمن على كبح شهواته والتحكم فيها، فمن يستطيع أن يكتم ويسيطر على شهوته ورغبته الجنسية طوال ساعات وأيام يستطيع أن يصبر العمر كله أمام مغريات الشهوة.

الصبور المطلق: هو معطي الفرصة لمن انحرف عما يقول وقوله الحق جل جلاله، والصبور بالإضافة هو الذي خلقه الله قوة وخلق فيه الحاجة التي تضعفه إن لم يتحصَّن بالصبر، فبالرغم من خلقه له في أحسن تقويم، إلا أنه خلقه على الحاجة التي تتعدد وتتنوع وتتطور، أي خلقه في حاجة للهواء والماء والأكل والجنس، وغيرها كثير، ويريده أن يكون صبورا، من أجل بلوغه الهواء الذي له الحق فيه، والماء الذي له الحق فيه، والأكل الذي له الحق فيه، والزواج الذي له الحق فيه فسبحانه الصبور الذي جعلنا على الصبر وبالصبر نبلغ غاياتنا ونحن في عزة وعلى مكرمة منه جل جلاله.

د- الصدقات:

في الإنفاق عدة مزايا تعود على صاحبها وعلى غيره، فالمتصدق يعوّد نفسه على حب الله أكثر من أي متاع آخر من متاع الحياة الدنيا، فيتحرر بالإنفاق والتصدق من سيطرة حب المال والشح عليه، ومتحرراً من هذا النوع من العبودية كان صابراً في حال فقدانه لما يملك من أموال ومدخرات، فلا نراه فاقداً للعقل أو متزعزع الثقة بالله عند حلول هذا الأمر عليه، بل نراه ثابتاً محتسباً أمره لله لعلمه أنها أمانة ووديعة تركها الخالق لديه وأراد استرجاعها، فبتعوّده على الإنفاق يسهل عليه المال فلا يتعلق به، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٨٨٩]، فالخالق يحبّب عباده المخلصين في الإنفاق بأن يضاعف لهم الحسنات ويدخلهم نعيمه الدائم.

[٨٨٩] التغابن ١٦ . ١٨.

فالصدقات وحب الإنفاق من شأنها أن تعوّد الإنسان على الصبر على فقدان ما يملكون من مال دون أن يكون ذلك له أثر سلبي في نفوسهم التي امتلأت بحب الله الذي يمنحهم الصبر على فقدان متاع الحياة الدنيا.

وهناك نوعان من الصبر، منه الصبر الطيب الذي يملأ القلب بالرضا والطاعة للخالق عز وجل، قال تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}[٨٩٠]، فمن شأن هذا النوع من الصبر أن يُشعر الإنسان بالراحة النفسية والطمأنينة، فيصبر الإنسان على ما يصيبه وهو راضٍ ومطيع، فالصبر الطيب هو الذي لا يصحبه حزن أو هم ولا يرافقه اليأس أو الإحباط، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}[٨٩١].

وقد كان الله صبوراً على أفعال البشر الإيجابية والسلبية، فلو أخذنا مثلاً صبره على أفعال عباده الإيجابية لوجدنا أنه عز وجل يقابل كل ما هو طيب صادر عن عباده من قول أو فعل بالجزاء الأوفى، قال تعالى: {إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[٨٩٢]، وذلك درسٌ وعبرة لخليفة الله لكي يصبر فيكون في صبره هذا شكر للمولى عز وجل، فيجتمع هنا الصبر مع الشكر، حيث قال الله تعالى: {اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ}[٨٩٣]، لأنه من الصعب اجتماع الصبر مع الشكر في قلب الإنسان العادي الذي تشغله الدنيا فيسعى خلفها لاهياً غافلاً لا يهمه إلا الحصول على مبتغاه، ولكن عند خليفة الله في الأرض يجتمع الصبر مع الشكر فيقوى الإيمان، حيث أن الخليفة يصبر على الشدائد وهو شاكر لله فضله يكون بذلك قد نأى بنفسه وارتقى بها إلى أعلى درجات الحب والطاعة للخالق تعالى، وهذا الأمر الذي يشق على كثير من المسلمين وخاصة في وقتنا هذا، ولكن الشكور المطلق يكون أكثر كرماً من الإنسان وأكثر عطاءاً إذ أنه يرد على شكر الخليفة وصبره بالنعيم الخالد الذي كان يتمناه في الدنيا، بالرغم من غنى الصبور عن شكر

---

[٨٩٠] المعارج ٥.

[٨٩١] النحل ١٢٧.

[٨٩٢] هود ١١.

[٨٩٣] سبأ ١٣.

وصبر الإنسان، لكنه كريم صبور في عطاياه ورد الشكر للخليفة، فعطاؤه لا ينتهي فهو إذن صبور في تكرار واستمرار منح وعطاء ورد الشكر والمحبة.

هذا هو النوع من الصبر الذي يجتمع فيه الأمل بالفرج والرغبة في المحاولة للوصول إلى ما يطمح إليه الإنسان ولا سبيل لأن يصل إلى مبتغاه إلا بالتوكل على الله والصبر الجميل، قال تعالى: {اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[٨٩٤]، فقد قرن الله تعالى في الآية الكريمة السابقة بين الاستعانة به والصبر وبين خلافة الإنسان للأرض الذي هو الهدف الأساسي لخلق الإنسان في الأرض، فبالصبر والتوكل على الخالق عز وجل نكون قد حققنا الغاية من خلقنا وبذلك تكون حياتنا كما أرادها الخالق عز وجل، فيكرمنا من عنده بمدنا بالصبر والجلد، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : "مَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَا أَجِدُ لَكُمْ رِزْقًا أَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ"[٨٩٥].

وهناك نوع من الصبر يكون مصحوباً بالتذمر والضيق، أي يكون على عدم رضا من الإنسان فيضيق صدره بما حل به أو نقص عليه، فتراهم لا يحتملون الشدائد ولا المحن التي من الطبيعي أن يمر بها الناس في حياتهم الدنيا وكأنهم الوحيدون الذين أصابهم الحزن والهم.

وقد خص الله تعالى الصابرين الراضين والمطيعين بمزايا منها:

١- ينزّل الله رحمته عليهم فيصيبهم بالأمن والطمأنينة، قال تعالى: {الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٨٩٦]، فرحمة الله تعالى تكون بمثابة الطمأنينة والسكينة التي تسكن قلوب الصابرين حباً في الله.

---

[٨٩٤] الأعراف ١٢٨.

[٨٩٥] مسند أحمد، ج ٢ ، ص٢١٤.

[٨٩٦] البقرة ١٥٦، ١٥٧.

٢- استحقاق البشرى:

فبصبرهم استحقوا بشراه كهدية لهم جزاء صبرهم، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}[٨٩٧]، فطوبى لمن استحق بشرى الخالق جل جلاله، لما فيها من مكرمة ورفعة للإنسان عند ربه، فالصبور لا يمنح بشراه إلا لأقرب عباده.

٣- مد الله الصابرين بالعون والمساعدة، قال تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٨٩٨].

٤- الجزاء الكبير المجزي:

فقد خص الله تعالى عباده الصابرين بالجزاء العظيم، قال تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٨٩٩].

٥- تعليمهم الدعاء:

قال سبحانه وتعالى: {وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آَمَنَّا بِآَيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ}[٩٠٠].

فيجب على خليفة الله أن تكون حياته صبراً جميلاً يملؤه الأمل في أن يكون ممن استحقوا بشرى الخالق بالجنة والنعيم الدائم، فينتصر على اليأس بإيمانه بالقدر والقضاء من عند الله تعالى، فيتقبل الفرح والحزن والضيق والفرج بكل حب وطاعة، فلا يأخذه الغرور عند العطاء ولا يأخذه الحزن واليأس عند الضيق والنقص، فيكون ممن ذكرهم الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ

---

[٨٩٧] البقرة ١٥٥.

[٨٩٨] آل عمران ١٤٦ . ١٤٨.

[٨٩٩] النحل ٩٦.

[٩٠٠] الأعراف ١٢٦.

وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}[٩٠١].

٦- زرع الطمأنينة في قلب الصابر:

الإنسان بطبيعته عجول لا يحب الانتظار ولا يطيق أن يطول به الوقت عند عزمه لقضاء أمرٍ ما، وبطبيعته أيضاً أنه مخلوق لا يهدأ ولا يستكين بسهولة ولا تنقطع متطلباته في الدنيا، فلا يقنع بأي شيء ولا يرضى بأي حال، قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا}[٩٠٢]، لكنّ المؤمن الحق لا تكون من صفاته الخوف والجزع واليأس بل يهبه الله تعالى الصبر والرضا ويملأ فؤاده بالطمأنينة التي يبحث عنها ملايين الناس الذين يبتعدون عن خالقهم فيبتعد هو بالتالي عنهم، فلا يأتي الشعور بالأمن والطمأنينة من إنسان مشغول قلق كل همه جمع ما يرغب في الدنيا متناسياً أنها زائلة وفانية، فيتملكه اليأس والجزع لضياع ما كان له وكأنه تناسى أنه من عند الله الخالق القادر على كل شيء.

وللصبر ثلاثة أنواع هي:

أولاً: صبر على ممارسة الطاعات والعبادات:

قد يتبادر على ذهن المؤمن أن في المداومة على القيام بالعبادات اليومية كالصلاة والاستغفار وقيام الليل والحمد والصيام هو أمر هيّن على كل النفوس المسلمة ولكن هذا غير صحيح لأن من شأن هذه العبادات والطاعات أن تجعل من بعض المسلمين في ضيق وملل منها، فنرى البعض يهملها أحياناً أو يقوم بها وكأنها عادة يومية أو غرض عليه الخلاص منه، فتكون صلاته عبارة عن عبارات وحركات يؤديها في اليوم ويكررها، ولكن في الوقت نفسه نجد هناك من المؤمنين من يقوم بها بكل صبر وحب في نيل رضا الله تعالى عليه، فيسارع إلى القيام بكل ما عليه من فروض وواجبات دينية ويتعداها إلى النوافل بل ويداوم

---

[٩٠١] الرعد ٢١ . ٢٤.

[٩٠٢] المعرج ١٩ . ٢١.

عليها حباً في الله ورسوله الكريم – صلى الله عليه وسلم– فلا يؤخره هطول المطر عن الخروج لصلاة الفجر ولا يتكاسل عن قيام الليل بحجة النعاس أو التعب أو البرد الشديد، وهذه الأعمال تحتاج إلى الصبر الطيب للمداومة عليه وعدم قطعها.

ثانياً: الصبر عن الخطيئة:

حياة البشر في الدنيا مليئة بالإغراءات التي من شأنها أن تؤدي بالإنسان إلى الهلاك، وخاصة أنه مخلوق ضعيف أمام الشهوات والأهواء لوجود الشيطان الذي يزيّن له هذه الأمور ويحببها لنفسه، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[٩٠٣]، فمن الناس من يسيطر عليه حب المال فلا يملك الصبر لفراقه أو الإنقاص منه، يفوق حبه في قلب صاحبه عن كل حب، وأحياناً نجد من يضعف أمام النساء فلا يملك نفسه أمام إحداهن فيقع في الرذيلة، قال تعالى: {وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[٩٠٤]، مع أنه لو صبر وثبت لكان الله أثابه ووهب له الخير الكثير، وتارة نجد من يعشق اكتناز الذهب والفضة وكأن حياته موقوفة على ذلك، فلا يبحث عن الأمان والهدوء إلا في ظل وجودها، لذلك فقد كانت حياة المؤمن تعدد وتكرار لامتحانات وابتلاءات عليه تجاوزها بالصبر والجلد عليها، فيكون الإنسان في جهة ورغبته في جهة أخرى يعارضها ويقف أحياناً ضدها إذا أمرته بالسوء والفساد، ولا يسيطر

---

[٩٠٣] آل عمران ١٤.

[٩٠٤] النساء ٢٥، ٢٦.

المؤمن عليها إلا إذا كان متعاداً على الصبر ومتمرس على الجلد والثبات في وجه كل مفسدة ولا يدعم هذا الموقف الثابت إلا حب المؤمن لخالقه وسعيه لطلب رضاه ومغفرته.

ثالثاً: صبر على القضاء والقدر:

القضاء والقدر أمر من الله جل جلاله يقع على الإنسان، ولكل إنسان قدره وقضاؤه يقدّره الله عليه حسب علمه المسبق وحكمته المطلقة في خلقه، لذلك لا يجب على المؤمن أن يوقع نفسه في مقارنة بينه وبين أي مؤمن آخر أعطاه الله ومنحه من نعمه الكثير الكثير، فلابد أن يكون الإنسان المؤمن على يقين بأن الله تعالى عادل في توزيع نعمه وعطاياه على خلقه، سواء كانت صحة أو مال أو جمال أو قوة أو سلطان أو غيرها، فالصبر على القضاء والقدر يُخلق في نفس المؤمن ويكون من دعائم ثبات الإيمان واليقين بحب الله ورحمته بنا، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٩٠٥]، فيكون الرضا هنا نابع من طاعتهم لله وإيمانهم بحبه لهم، آملين في نيل رضاه وجنته، ونستطيع أن نرى تجسيد هذا النوع من الصبر في أسرى المسلمين الذين يقبعون في سجون الأعداء يلاقون أشد أنواع التنكيل والعذاب، لا ذنب لهم إلا أنهم يدافعون عن الحق ويتمسكون به، فنراهم أكثر صموداً من غيرهم وأشد صبراً على البلاء، فلا يضيق صدرهم ولا يتنازلون عما آمنوا به، بل نلاحظ أن إيمانهم يزداد ويكبر في ظل هذه الظروف فيزدادوا شدة وصبراً وقوة منبعها أن هذا هو قدرهم الذي كتبه الله عليهم.

والخليفة يكون صبره لشيئين عما يحب ويرغب، وصبره عما يبغض ويكره، وهناك فرق بين النوعين، لأن الصبر عما نحب يستوجب منا جهداً نفسياً شديداً وجهاداً صعباً لا يحتمله إلا أصحاب القلوب الشديدة الإيمان والمطواعة لله جل جلاله، كأن يصبر المؤمن على فقدان أعز أحبابه سواء بالموت أو حتى في الحياة، وهناك النوع الآخر من الصبر وهو الصبر على ما نكره إذ لا خيار لنا إلا الصبر كأن نصبر مثلاً على المرض والنقص وغيرهما، ولا

[٩٠٥] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

يمكن للخليفة في الأرض أن يسلك طريق الجنة بسهولة ويسر ذلك لأن طريقها مليء بالشدائد والمصاعب والابتلاءات، فالمحب لهذه الجنة ومن يرغب في الوصول إليها منحه الله الصبر على تخطي هذه الطريق، لأنه بدون الصبر والثبات لما استطاع إنسان أن يصل إلى جنة الخلد.

وخليفة الله عليه أن يكون ثابتاً صابراً، لكي يحيا بسلام وأمن فلا يصاب أي هزة نفسية أو عقلية عند تعرضه لمحنةٍ ما فيُهْزم أمامها وينحني، بل عليه أن يسلك طريق الصابرين ويتعلم من الخالق الصبر الحق الذي يملك معه المقدرة والقوة ولكنه يلجأ إلى الصبر في علاج أغلب الأمور، وعلى خليفة الله أن يكون بعيداً كل البعد عن العجلة والتسرع لأنهما طريقا الشيطان ينتهيان به إلى الندم والدمار، فلا مبرر للعجلة ولا مبرر لوقوع ضررها عليه، كالذي يبرر وقوعه في الزنا لتأخيره في الزواج، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا}[٩٠٦]، فلو كان هناك مبرراً لوقوعه فيه لما استحق عقاب الله عليه، وكذلك من يزهق حياة إنسان بحجة العصبية والتهور والغضب، وغيرها من الشرور التي يقع الإنسان فيها بسبب التهور والعجلة، والمتهور دائماً ضعيف بعكس الإنسان الصبور الذي يمتلئ بالقوة والثبات، لأن الإنسان الضعيف سينتهي حتماً بالفشل والدمار، لأنه لم يستطع التحمل وانسحب من مواجهة الحياة والقدر وحتى من مواجهة نفسه.

من هنا يتضح لنا نتاجه النفسي بأنه يحقق التوازن النفسي بأن يصبح الفرد لديه قدرات هائلة، لأن الصبر بحد ذاته طاقة جبارة علينا أن نستفيد منها داخل أنفسنا لتشكل في المجتمع النفوس السليمة الصحيحة السوية، التي تبعد كل البعد عن اليأس والإحباط، الذي من شأنه أن يدمر الأفراد ويزداد في بعد العبد عن خالقه عز وجل.

وخليفة الله في الأرض هو من أدرك أن الصبر من مكارم الأخلاق ومتمماته، فلا يكمل الخُلُق إلا إذا تحلى المرء به، وجعله رأس خُلُقه وبذلك من المستحيل أن تفسد روحه أو تضيع

---

[٩٠٦] الفرقان ٦٨، ٦٩.

في الحياة الدنيا، فلا ضير من أن يحبس الإنسان شهوته في غير وقتها أو أن يسيطر على نفسه فيمتلكها ويستطيع البذل كأن يكون قائداً لها يقودها إلى النصر في كل معركة يدخل فيها مع المحن والشدائد والبلاء.

والصبر في حق الخالق ليس محدوداً في الدنيا ومقتصراً عليها، بل إنه صبور حتى يوم يقوم الحساب، إذ أنه سيحاسب كل من خلق منذ بدء الحياة إلى منتهاها، ولن يكون الحساب جماعياً بل أن كل فرد مسؤول أمام الله عن أقواله وأفعاله مهما صغرت أو كبرت، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٩٠٧]، أي أنه جل جلاله صبور في حسابه لا يعجّل العقاب على مذنب إلا بعد حسابه حساباً دقيقاً، ويُدخل جنان الخلد من وعدهم بها إذ أن وعده هو الحق.

وهو صبور حيث إنه ستَّار يستر زلات المسلمين يوم القيامة، كما ستره في الحياة الدنيا فكم من عظمة وقوة تتجلى في صبره المطلق!

لذلك لابد أن يكون ذلك دافعاً لخليفة الله في الأرض أن يتميز عن باقي البشر بالصبر الطيب في كل تفاصيل حياته اليومية، بدءاً من التعامل مع زوجته وأبنائه وجيرانه ورحمه وصولاً إلى تعامله مع أصدقائه في العمل ورؤسائه فيه، فيكون صبره نابعاً حقاً من عمق إيمانه فيعزز ويقوّي الخليفة في كل أوجه الحياة، لأنه يكون قد وصل إلى درجة الإبداع في الأرض لما يملكه من علو الهمة، ويشكّل صبره وقتها حافزاً ودافعاً قوياً للوصول إلى أهدافه، فلا تقهره الحياة فلولا الصبر على التعب لما أحسسنا بروعة الراحة ولما وصلنا إليها، ولولا الصبر على المرض لما أدركنا نعمة الصحة، ولولا الصبر على الحزن لما انبثق النور في جنباتنا من مفاجأة الفرحة لنا، ولولا الصبر على جهد ومشقة العمل اليومي لما توفر لدينا المعيشة الكريمة، ولولا الصبر على نعم الخالق في حياتنا لما استطعنا شكره وحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ

---

[٩٠٧] الأنبياء ٤٧.

رَحِيمٌ}[٩٠٨]، وكلما زادت النعم تطلب ذلك من الإنسان الشكر والحمد الكثير، على عكس ما تُحْدثه هذه النعم في نفوس كثير من البشر، إذ أنها تلهيهم وتجعلهم متجبرين وظالمين بها لغيرهم، وهذا منبعه الجهل باسم الصبور وبصفة الصبر، التي هي رأس المكارم فلا يصل المؤمن إلى مكرمة أو مكانة سامية إلا بالصبر الطيب الذي من شأنه اعمار وإصلاح كل نفس فتصلُح بذلك الأرض ونصل إلى رضا المولى عز وجل علينا بتحقيق الغاية السامية من خلقنا.

والصبر لا يكون فقط على أصحاب الحاجة أو من نقصت عليهم نعمة من النعم، بل الصبر يكون حتى على أصحاب النعم والخيرات، ولعلهم أشد احتياجاً للصبر من ذوي الحاجات، ذلك مثل ما هو آتي:

١ . الفقر والغنى:

الفقير الذي يحتاج إلى عون غيره لكي يستطيع العيش فعليه بالصبر على حاجته للناس، إذ أنه لا يمكن أن يستغني عنهم لعدم قدرته على الاعتماد على نفسه، وهذا بحد ذاته يتطلب صبراً كبيراً يعينه على تحمل هذا الوضع، لأن البشر ليسوا سواء في حب الإنفاق والتصدق، ومن هنا كان لابد للفقير من أن يصبّر نفسه عن ارتكاب الجرائم أو اللجوء للطرق غير الصحيحة للعيش أو حتى أن يكون حاسداً للغني على غناه، بل عليه أن لا يتذلل للخلق ويصبر على قدره، قال تعالى: { لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[٩٠٩]، فبالصبر يتمكن حتى الإنسان الفقير المحتاج إلى كسب احترام الناس ورضا الله الكريم الخبير، في حين أنه في حالة الإنسان الذي أكرمه الله تعالى بالمال والخير الوافر فهو يحتاج إلى الصبر أكثر من الفقير.

---

[٩٠٨] النحل ١٨.

[٩٠٩] البقرة ٢٧٣.

لذلك فإن الغني أشد احتياجاً للصبر من الفقير، نظراً لامتلاكه أسباب التمتع واللهو في الدنيا، فعلى خليفة الله في الأرض ولو أنه امتلك المال والجاه والسلطان أن يتذكر صبر الله على عباده مع امتلاكه القدرة والسلطة والهيمنة عليهم، فيصبر بذلك الخليفة ويجعل من هذه النعم طريقاً ممهداً أخضراً يوصله لفضيلة الصبر لا الجبروت والتكبر والظلم.

٢ . المرض والصحة:

في العادة الإنسان لا يشعر بقيمة صحته إلا إذا الَمَّ المرضٍ به، فيتذكر شكر الله على ما كان فيه من نعمة كبيرة، ولا يكون أمام المرء عند نزول المرض به إلا الدعاء لله والرجاء بزوال هذا المرض عنه، وأن يمنحه الصبور الصبر من عنده لتحمُّل الآلام والمعاناة، فالمرض من شأنه أن يعوّد الإنسان على الصبر والأمل في فرج الله تعالى، ولذلك يكون الإنسان الصحيح بحاجة إلى الصبر أكثر من العليل ذاته، فيكون صابراً على مداومة شكر الله على الصحة فلا ينقطع ولا يغفل عن ذلك.

فالمرض والصحة كلاهما بحاجة للصبر والثبات، وخليفة الله بالإضافة هو من كان صابراً على الألم مستحضراً سيدنا أيوب ورحلة معاناته مع الألم الذي رافقها الصبر والثبات عليه، ومستحضراً جزاء الخالق له، وكذلك أن يكون شاكراً للمولى عز وجل على دوام الصحة وحامداً له عليه ليل نهار.

٣ . الضعف والقوة:

البشر يتفاوتون بين ضعيف وقوي، سواء كان هذا الضعف في الجسد أو في المكانة الاجتماعية، فالإنسان الضعيف جسدياً يحتاج إلى الصبر على من هو أقوى منه على أن يكون هذا الصبر خالي من التذلل والمسكنة، فيستعين بالله على من ظلمه وقهره، ويصبر على هذا الأذى حتى يأتيه الفرج من الله تعالى، وفي حالة الإنسان القوي جسدياً فإنه يحتاج إلى الصبر أكثر من الضعيف نفسه، لأنه يملك القوة التي يستطيع أن يظلم بها ويتجبر ويتكبر، لذلك فهو بحاجة إلى الصبر لكي لا يستعمل قوته الجسدية في أذية الآخرين حتى دون أن يقصد، فمثلا كما نعلم في قصة سيدنا موسى الذي عُرف عنه قوته البدنية فبخطأ

دون قصد تسبب في موت إنسان، قال تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ}[٩١٠]، فالقوة الجسدية أحياناً تجعل من الإنسان إذا أساء استعمالها يصل إلى التعدي على غيره فهي بذلك بحاجة إلى الصبر الشديد على كبح جماحها والسيطرة عليها واستعمالها في وجوه الحق والخير.

وكذلك الأمر بالنسبة لمن يملك قوة الجاه والسلطان فالعبء يكون عليه أكثر من فاقدها، لأن الأول يكون لديه ما يستطيع أن يكون متحكماً ومسؤولاً عن غيره الذين هم أقل منه سلطة وجاه، ومثال ذلك فرعون ملك مصر الذي أعطاه الله السلطان والملك والمال، فلم يكن مستوعباً لهذه النعم ولم يستطع الصبر على استغلالها فظلم نفسه، قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآَيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآَخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى}[٩١١]، فقد طغى لوجود كل تلك النعم التي كان عليه أن يكون حامداً شاكراً لله عليه.

ومن مزايا الصبر إذا انغرس في نفس المؤمن أن يجعله متوكلاً على الله وحده، الذي لا يخيّب ظن عباده به، فهناك رابط بين الصبر والتوكل على الصبور المطلق، حيث أنه

---

[٩١٠] القصص ١٤ . ١٧.

[٩١١] النازعات ١٥ . ٢٦.

سبحانه وتعالى وكيلنا نحن المسلمون، قال تعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[٩١٢]، فهو سبحانه وتعالى وليّنا ووكيلنا الذي نوكله بكل أمورنا ونحن مطمئنون وراضون بحكمه وقضائه، ولو أن كل مسلم وكّل أمره للخالق وفي نفس الوقت بذل كل طاقاته في الحياة فبالتأكيد سيمدنا البصير المطلق الذي يرانا ويعلم ويقدّر أمورنا بالنجاح والأمل والفرج من كل ضيق.

فهو الوهاب لعباده بصبره لأنه يعلم ما تكابده نفس العبد وهي صابرة محتسبة أمرها له عز وجل، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[٩١٣]، فيهب الوهاب لمن استحق كرمه سواء في الدنيا أو في الآخرة، وعلى قدر صبر المؤمن تكون درجة الرضا في نفسه والسعادة التي أصبحت حلم يراود الكثير من المسلمين في وقتنا هذا، إذ أنهم يبحثون عنها وكأنها كنز ثمين وهو لا يدركون أنها قد تكون في ساعة صبر على ابتلاء أو في توكله على خالقه والتقرب منه، فلن يجد السعادة كل من كان بينه وبين الله قطيعة أو جفاء، أو من كان عجولاً على متاع الدنيا ولا يعنيه أمر الآخرة، فكلما حصل على شيء من أمور الدنيا زادت لهفته على متاعٍ آخر وتدور حياته داخل دائرة الشهوات والرغبات الفانية التي لا تستطيع أن تغنيه عن رضا المولى عز وجل عليه، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[٩١٤]، وكذلك قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٩١٥]، فالصبر طريق للوصول للسعادة والطمأنينة والأمان، وهو جدار أمام التوتر والقلق واليأس، لأن الصبر الإيجابي الطيب هو الذي لا يشوبه إحباط أو يأس بل يكون مفعماً بالأمل في المولى عز وجل، ومليء بالقوة والعزة.

---

[٩١٢] آل عمرا ١٧٣، ١٧٤.

[٩١٣] المائدة ٧.

[٩١٤] البقرة ١٠٣.

[٩١٥] القصص ٦٠.

فكيف يكون صبرنا مختلطاً باليأس ونحن نستمده من الخالق جل جلاله، ونطيع أمره في التحلي به، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ}[٩١٦]، فلا يمكن أن يتصف الله بصفة نقص أو عيب لأنه الكمال والتمام في صفاته وأفعاله.

لذلك فعلى خليفة الله أن يكون صبوراً عن قوة وأمل لا عن ضعف وهزيمة، فليس من الخلفاء في الأرض من كان مهزوماً مقهوراً بل إن الله مع صبره قوي عزيز، والخليفة لابد أن يكون مع صبره قوياً، إذ أنه في بعض الحالات يكون العقاب فيها مسموح كما جاء في قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[٩١٧]، فقد وضّح الله أنه قد يكون هناك أكثر من طريقة للتعامل ولكن الصبر هو أفضلها وفيه الخير للمعاقِب والمعاقَب، فليكن خليفة الله في الأرض ملازماً للصبر في صغير أموره قبل كبيرها لأنه من تعوّد الصبر على صغائر الأمور فقد أدرك الصبر على كبائرها، لأن الصبر جزء واحد لا يمكن تجزئته أو الفصل بينه.

قال تعالى: {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[٩١٨]، العجول دائما قلق، ولهذا لا يدرك الأمور كما هي عليه، سريع التصرف، ولهذا لا يحسنه، فكثير من الأمور تحتاج إلى تأني وصبر، وذلك لأجل التدبر الحسن والتصرف الأحسن، ولهذا قال تعالى: (وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) فالذي يكرهه البعض بأسباب الاستعجال والقلق، قد يكون فيه الخير الكثير، ولذا قال (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) أي لماذا هذا الاستعجال الذي بأسبابه قد تضيع ما هو أهم.

---

[٩١٦] النحل ١٢٧.

[٩١٧] النحل ١٢٥، ١٢٦.

[٩١٨] البقرة ٢١٦.

وقوله تعالى: (وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ) أي ليس دائما كل ما تحبونه نافع ومفيد، فقد يكون ما تحبونه فاسداً أو يؤدي إلى المفاسد، وقد يكون شرا وأنتم بحكمكم المستعجل ظننتم أنه محبب ومفضل، ولهذا فتبينوا قبل أن تقرروا، وعليه فالصبر كما يقولون هو (مفتاح الفرج).

اللهم يا الصبور اجعلنا من الصابرين بالحق على الحق، واجعلنا من الصابرين بالعدل على العدل، واجعلنا من الصابرين على توحيدك وعبادتك واحدا أحدا، واجعلنا من الطائعين والمصلحين في الأرض ولا تجعلنا من المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق، اللهم اجعل ألسنتنا ناطقة بالحق، وقلوبنا مؤمنة به، وجوارحنا فاعلة وعاملة عليه، واجعلنا صابرين على نيل العلم وصابرين على محبة الخير وطاعة الوالدين ورضاك. اللهم اجعلنا صابرين على الكفر بالقول الباطل والفعل العمل الباطل، بأبالسة الجن والإنس، ولا تجعلنا لهم طائعين ولا منهم خائفين، واجعلنا من الراكعين الساجدين لك ولا تجعلنا من الراكعين والساجدين لسواك.

اللهم صلي وسلم على صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة.

اللهم يا الصبور اجعل الصبر فينا رحمة واجعله طاعة لك بها تفرج الكرب وتمحى الخطايا وتغفر الذنوب وتستر العيوب وبها تتطهر أنفسنا وأبداننا وأرواحنا، اللهم إنك الصبور على ما يقول الكفرة والمشركين فاجعل الصبر فينا حتى يؤمنوا، نسألك اللهم أن تلهمنا صبرا تحجب به طرفنا عن معصيتك، وتملأ قلبونا بخشيتك، ولا تجعلنا ممن يشتغل بغير طاعتك، وامنحنا من الصبر ما نغض به طرفنا عن النظر إلى المحرمات وتمنع به أنفسنا من تناول الشهوات في غير حق، وتجعلنا نخلو بطاعتك وعبادتك في الليالي المظلمات. اللهم ألهمنا الصبر وأعينا عليه، اللهم يا الصبور إذا ابتليتنا اجعلنا من الصابرين، واجعلنا من الشاكرين بما أنعمت علينا، اللهم يا الصبور إننا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار، واكتبنا مع الصابرين الذين يرثون الفردوس من الجنة يا الصبور يا الله.

دعاء الموسوعة

الحمد لله بجوامع الكلم والصلاة والسلام على النبي الأكرم وآله وصحبه وسلم ، الحمد لله الذي أمر بالدعاء فقال: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}[٩١٩] فدعونا، ودنا من الداعين فقال: (فَإِنِّي قَرِيبٌ) فدنونا، ووعد بالإجابة فقال:(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) فاستجبنا وآمنا تصديقا لقوله تعالى{فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي}[٩٢٠] رجاءَ لا تمنٍ أن نكون من الراشدين.

[٩١٩] الإسراء:١١٠

[٩٢٠] البقرة ١٨٦

ولا رشد إلا بسبيل ولا سبيل إلا بدليل ولا دليل إلا بخبير ولا خبير إلا وهو أسوة ولا أسوة إلا من عرّفنا طريق الحق وبينه،وحذرنا من طريق الباطل وعيّنه، قال الله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[921] فلا دعاءَ مستجابٌ إلا بالحذو حذوه، والسير على منهجه، والنهل من منهله، ومعرفة اللهَ به وسؤاله عنه (وإذا سألك عبادي عني) فلما سأل العباد رسول رب العباد، رد الربُّ فقال: (فإني) سرعةً وتوكيدا وتخصيصا، وكيف لا والمسئول مَنْ وصفه ربه (حريص) فقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[922]

فسألنا خير من يسأل، ودعونا من فيه الرجاء والأمل، الذي يعلم وسوسة الصدور، ويرى فينا ما لم نره، و يحيط ما ستؤول إليه الأمور {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ}[923] فبدعائه رجوناه أن يقبلنا.

ودنونا تلبية: (قل ادعوا) لأن البعد –لا شك – منّا، فهو القريب لمن ناداه، المجيب بما ينفع الداعي مع طمس الحكمة عن العبد فيما قضاه، فيا الله {إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ}[924] في خلقك وفي حكمك وفي إجابتك.

والخليفة هو الذي يستمد من ربه آداب الدعاء، ويسلك لذلك سبيلا لا اعوجاج فيه قال الله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[925].

فالسبيل المستقيم واحد، وسبل التفرق كثيرة، كما أن الله واحد ومن أشركوهم معه كثر، فلا نصل للواحد الأحد إلا بسبيل واحدة، بالبصيرة لا بالبصر وبالتوحيد لا بالشرك {وَأَنَّ هَذَا

---

[921] الأحزاب: ٢١.

[922] التوبة ١٢٨.

[923] ق:١٦

[924] هود :٤٥

[925] يوسف ١٠٨.

صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٩٢٦].

فبالسبيل نصل وبالدعاء نتصل وباليقين والتسليم نستمد نعماً تُمَدُّ ولا تعد، عطاء ربانيا {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[٩٢٧] يُمَدُّ المستخلفُ الذي له بصيرة، ويملك يقينا، ويرجو لقاءَ حسنا ، ويؤمن بالله ربا فردا لا شريك له فيثبت في الحياة الدنيا بالعمل الصالح توفيقا.

ويمد الأعمى الذي آثر الغي على الرشد بما يبهم رؤيتَه، ويغلق أقفال قلبه ،حينئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى فيقول {قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى}[٩٢٨].

فلمّا دعونا الله في الموسوعة كان هدفنا تشييد موقف، لا رص كلمات، موقف ينطلق من التوحيد مجردا والإقرار بصدق النبوة الخاتمة، إذ لا يستقيم توحيدٌ دون إقرارٍ، مع وحدة القصد لله وقد{أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ}[٩٢٩] دعما لحوار روحي ... عقلي .... وجداني... إسلامي بالحكمة والموعظة الحسنة:

على الله الكريم يكون قصدي رضيت الله والإسلام دينا
هو السند الذي صرنا إليه هو النور المعظم يحتوينا[٩٣٠]

فكان دعاء الموسوعة مؤسسا على أن كل اسم من أسماء الله له من الخصوصية الذاتية في الدعاء وهذه الخصوصية مستمدة من القرآن الكريم، فبذا التقى الداعي على سبيل المدعو(توحيدا، وإقرارا، وتسليما).

---

[٩٢٦] الأنعام:١٥٣

[٩٢٧] الإسراء ٢٠.

[٩٢٨] طه ١٢٥، ١٢٦

[٩٢٩] آل عمران ٢٠

[٩٣٠] ديوان شراب الوصل لسيدي فخر الدين: ١٧٥

رؤوس مثلث متساو في القيمة، تنفرج أركانه بالخير كلما آوى إليها الداعي لأنه لجأ لركن شديد، **بتوحيد، وإقرار، وتسليم.**

توحيدا: (لا إله إلا الله) ذاتا واسما وصفة.

والتوحيد لا ينفك عن الإقرار فبهما تتحقق العبودية الخالصة التي ترقى بصاحبها أن يكون عبدا للرحمن، فيجرد قلبه مما سوى خالقه ،وينجذب بالكلية إلى أنس الدعاء ،وينفر فطريا من وحشة الشرك ليبقى مع (الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ).

وهذا المتعلق بربه، المؤتنس بنوره، المجبول لتوحيده مدعوا، من أشرف النوع الإنساني الذي لا تعمر الأرض إلا به،ولم تكن الخلافة إلا له، وهذا الفرد الكثير له نعوت قد ميزه بها (الذي هو في الأرض إله وفي السماء إله) فقال {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا}[٩٣١]

فقد خص الغني عن الشرك، الواحد المعبود، لفظة العبودية وربطها باسم الرحمن المرتبط باسم الذات (الله)، وله من رطب الذكر على ألسن الداعين شئون(الرحمن)!!

---

[٩٣١] الفرقان:٦٣:٧٧

فأيقنا بدعم من النص القرآني أن هذه الصفة الجامعة (عباد) من أشرف صفات المكلفين بالخلافة ومن نعوتها:

الأول:

قوله تعالى: (الذين يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً) وهذا وصف سيرهم نهارا رفقا ولينا ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمنون هينون لينون كالجمل الأنف، إن قيد انقاد، وإن أنيخ استناخ على صخرة"[٩٣٢] فمشيهم لين وسكينة ووقار وتواضع، في غير غطرسة ولا خيلاء تفاعلا مع قوله تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا}[٩٣٣]

الثاني:

{وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً} لا جهلا بجهل ولا إفساداً بإفساد، وهذا قوة الحلم في مواجهة ضعف الجهل، والسلام للتوديع لا للتحية، وهو سلام القوي الذي يملك ويصفح ويعفو ويمنح .

الثالث:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وقياما) ففي النهار ينفرون من الأذى بترك الإيذاء، فـ(يَمْشُونَ على الأرض هَوْناً) ويتحملون التأذي (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُواْ سَلاَماً) فهذا نعتهم مع الخلق نهارا، أما نعتهم مع الخالق ليلا: فـ{تتجافى جُنُوبُهُمْ عَنِ المضاجع}[٩٣٤] فـ(يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ) مصلين ليلهم، يفرشون وجوها، ويجرون دموعا على خدود حفرت عليها معالم العبودية.

يفرحون بربهم وبفضله، يكبرونه لأن السماء ما تزينت إلا لهم، والأرض ما بسطت إلا لأقدامهم، ولسان حالهم:

الله أكبر ما تزينت السما   والأرض فوق جبينها الأفراحُ

---

[٩٣٢] شعب الإيمان للبيهقي – (ج ١٧ / ص ١٦٩)

[٩٣٣] الإسراء : ٣٧

[٩٣٤] السجدة : ١٦

أنعم سويعاتِ الوصالِ ويا لها　　　　أيَّامُ سعدٍ لُيْلُهُنَّ صباحُ

طوبى لعبد يستقي من راحها　　　　طيبَ الوصال فطيبُها فواحُ[٩٣٥]

فالليل مهبط الأنوار وتجل الأسرار وتنزل الرحمات من رب الأرض والسماوات لذا قال لحبيبه {يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}[٩٣٦] وناشئة الليل قيامه، روي البخاري في صحيحه:"قامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ فَقِيلَ لَهُ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا "[٩٣٧] فالدعاء ليلا له من الأسرار التي لا يعلمها إلا من ألصق جبينه بالتي خلق منها، ورَوَّاها بالذي يجعل كل شيء حي، هنا تتفجر ينابيع القلوب وتغسل الأعين من قذى الذنوب، وليس الرائي كالسامع، ولا من ذاق كمن رأى، ولا من شهد بالعين كمن شهد بالكل.

الرابع:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) دعاء وايقان يسبقه عمل ويلحقه عمل.

الخامس:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) صفة ملازمة للخليفة الذي يقبل على الخير عملا بعلم، ويدبر عن الشر حلما بفهم.

السادس:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ) سر أسرار النجاح، وسبيل أنوار الفلاح.

السابع:

---

[٩٣٥] شراب الوصل :ص٩٧

[٩٣٦] المزمل :١ . ٩.

[٩٣٧] صحيح البخاري، ج ٤، ص ٢٩٢.

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) قوة بحق، وقصاص بصدق، ليعطي رحم الحياةِ الحياةَ.

الثامن:

(وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) ذنب وتوبة، وباب لا يغلق، وأمل في إصلاح شرط أن تلجأ لله الذي يقبل التوبة عن عباده، وليس من.

التاسع:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا).

العاشر:

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا).

عندما يرون آية يدعون وهذا من باب أدب الدعاء فلما رأي النبي زكريا عليه الصلاة والسلام خيرا عند العذراء {قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٩٣٨]

فالخير تسأله عند أهل الخير:

إذا فتحت أبواب خير فأقبلوا   موائد أهل الله خير الموائد[٩٣٩]

{هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ}.[٩٤٠]

---

[٩٣٨] آل عمران (٣٧)

[٩٣٩] شراب الوصل، ص ٢١٣.

[٩٤٠] آل عمان ٣٨

فلما دعا دنا القاصي وتحقق -بعلم أهل الأرض- العاصي، وسمع نداءَ ليس من ملك بل من الملائكة. {فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ}[٩٤١]

فخاطب بلغة البشري وعلم الأرضي {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ} فبلا مناقشة لما ذكره كانت الإجابة{ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ }[٩٤٢] ولا تعليق، فمن كانت له حاجة وإن عظمت فليدعو بتوحيد وإقرار وتسليم.

الحادي عشر:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا).

جزاؤهم عند الله: (أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) بفضل الدعاء الذي هو مخ العبادة قال الله تعالى: (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ).

إقرارا:

بأن نشهد له صلى الله عليه وسلم حتى يشهد علينا{ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا}[٩٤٣].

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[٩٤٤].

والإقرار والشهادة مرتكزا الاستخلاف، إذ بنفي أحدهما تنتفي الخلافة البتة، بالإضافة إلى المنهج الذي به تتمة (خليفة) .

---

[٩٤١] آل عمان ٣٩

[٩٤٢] آل عمران، ٤٠.

[٩٤٣] النساء ٤١ ، ٤٢.

[٩٤٤] النحل:٨٩

والمنهج العملي لـ{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً}[945] محصور في قوله تعالى: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ}[946] فالكتاب للمقرين، للشاهدين، للمسلمين.

تسليما:

بالوثوق فيما عند الله لأن ما عند الله (رَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ).

والتسليم قلبا كما عند أبي الأنبياء وصاحب الملة الخالصة {إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[947]، والذي كان نهجه الدعاء، ومنه نستقي أن سلامة القلب سبب في قبول الداعي قال الله عز وجل في دعاء سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[948]، وسلامة القلب خلوه من الشرك.

والتسليم الأكمل كما هو عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى:

{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[949].

لذا فالدعاء ضرورة ملّحة لكل مؤمن يدعو هو بنفسه أو يسأل غيره أن يدعو له حتى أن يسأل الأعلى الأدنى أن يشركه في الدعاء كما طلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن

---

[945] البقرة: ٣٠

[946] النحل :٨٩

[947] الصافات ٨٤

[948] الشعراء:٨٤:٨٩

[949] الأنعام،١٦١ ـ ١٦٥

يذكره عمر في دعائه، والمعلوم أن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مجاب، ولكن ليعلمنا صلى لله عليه وسلم أن نسأل الله وأن نسأل من يسأل الله ألا ينسانا في دعائه ،" فعَنْ سُفْيَانَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ سَالِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ عَنْ عُمَرَ،أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُمْرَةِ فَقَالَ أَيْ أُخَيَّ أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ وَلَا تَنْسَنَا"قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.[٩٥٠] فنسأل الله أن يستجيب لنا ويفعنا وإياكم بم دعوناه إنه نعم المولى ونعم النصير المجيب فكلما قرأتم أمنوا لعل الله يستجيب لنا بتأمينكم.

الدعاء

اللهم إنك أنت الله العظيم في كل مكان وحين، لا إله إلا أنت واحداً أحداً، لم يلد ولم يكن له كفوا احد، سبحانك عما يصفون. نوحدك يا الله ونستغفرك ونتوب إليك، ونتوكل عليك في كل أمر، فنعم المولى ونعم النصير، تعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير لا شريك لك سبحانك جل جلالك، الحمد لك على رحمتك يا الرحيم يا الله يا مالك يوم الدين، اللهم إننا إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اللهم إننا نتضرع إليك لتهدنا الصراط المستقيم صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ، اللهم إننا نسألك باسمك العظيم أن تُعَظّم الإيمان في قلوبنا والطمأنينة في أنفسنا حتى نخشاك ونتقيك ونعمل صالحا ترضاه، اللهم إننا نركع

---

[٩٥٠] سنن الترمذي ، ج ١١، ص ٤٧٤.

ونسجد إليك واحدا أحدا لا شريك لك فجنبنا الركوع والسجود لسواك، اللهم إنك الحق بك آمنا فاجعلنا للحق طائعين.

اللهم يا الله أسألك باسمك العظيم أن تبدّل سيئاتنا حسنات وأن تجعل القرآن ربيع قلوبنا ونبراس دربنا فلا نضل أبداً يا الله، اللهم سدّد خطانا إلى الخير والمعروف والإصلاح، وابعدها عن الفساد والرذيلة، اللهم إنك اخترت لنا الإسلام دينا فلا تُمتنا إلا عليه.

اللهم يا الرحمن عمَّنا بواسع رحمتك في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الوارثين، الذين يكنزون الطاعة ولا يكنزون المعصية، والذين يكنزون سلامة البصر والبصيرة وسلامة البدن والروح والنفس والمُلك، اللهم يا الرحمن إننا في حاجة لرحمتك فارحمنا بكل ما يرضيك عنا، اللهم يا الرحمن قلت وقولك الحق: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى) اللهم بأسمائك الحسنى ندعوك أن ترحمنا في أنفسنا وأزواجنا وآبائنا وأبنائنا وإخواننا، اللهم برحمتك اكسُنَا سترة وقوة وقدرة وحكمة ومال حلال، اللهم برحمتك أحفظنا وأحطنا من كل سوء وابعد عنا شرور الوسواس الخناس من الجنة والناس، إنك أنت الرحمن الرحيم فالحمد والشكر لك.

اللهم يا الرحمن يا من أنزلت القرآن رحمة، وبعثت رسولك الكريم رحمة، وجعلت الطريق إلى الفوز بجنتك رحمة اجعلنا راحمين في أنفسنا وفيمن حولنا، يا من خلقتنا برحمة وعلمتنا الرحمة ارحمنا في الدنيا والآخرة، اللهم يا الرحمن منك الرحمة فلا رحمن سواك اجعلنا من المرحومين برحمتك والراجين والطامعين بها وأن تغلّبنا على النفس بأن تبعث فيها النقاء والصفاء لتسعى إلى الخير والإصلاح، اللهم اجعلنا من الذين وضعت الرحمة في قلوبهم فنشروها في الأرض كما أردت يا الرحمن، اللهم إليك نشكو حالنا وضعفنا فارحم ضعفنا واجعلنا نرحم الضعيف فينا يا الرحمن.

اللهم أنت الرحيم وأمرتنا بالرحمة، فنسألك اللهم أن تجعلنا من الرحماء المرحومين، ونسألك وأنت الرحمن في السماوات والأرض ورحيمهما، أن تنزل علينا وعلى والدينا وأزواجنا وذريتنا ومن علمنا ومن أحسن إلينا ومن أسأنا إليه، شآبيب رحمتك عدد القطر والندى، اللهم أجعلنا

برحمتك من الرحماء الذين تلين قلوبهم، وتقشعر جلودهم رحمة للآخرين، ونسألك بالرحمة المهداة محمد صلى الله عليه وسلم أن تدخلنا في رحمتك، إنك أنت الغفور الرحيم، اللهم آتينا كفلين من رحمتك، واجعل لنا نورا نمشي به، وارحمنا رحمة من عندك ننال بها رضوانك، وتدخلنا بها الفردوس الأعلى من الجنة، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

اللهم يا الرحيم أنت ربنا إنا ندعوك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا إنك لا تخلف الميعاد، {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنَّا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولنا فانصرنا على القوم الكافرين}[٩٥١].

اللهم يا الرحيم يسر لنا من أمرنا رشدا ولا تعسره تعسيرا، اللهم يا رحيم إنك بِالنَّاسِ لَرَؤوفٌ الرَحِيمٌ فارحم عبادك المؤمنين بالهداية ولا تجعلهم على معصية، اللهم أنك الغفور الرحيم فاغفر لنا ذنوبنا وخطايانا وتجاوز عن سيئاتنا وأهدنا إلى الحق ولا تجعلنا من المستضعفين، اللهم يا الرحيم ارحمنا بالأعمال الصالحات التي ترضيك حتى ترضى عنا.

اللهم يا الرحيم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وهم يقولون: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

اللهم يا الرحيم يا من سبقت رحمته عقابه اجعلنا سبَّاقاً إلى الخير والرحمة، اللهم اجعلنا رحماء بأنفسنا فلا نقودها إلى الهلاك حتى نكون رحماء بأمانتك ومحافظين عليها، اللهم اجعل من اسمك الرحيم باب استجابة لدعائنا كما أجبت به من قبل نبيك أيوب في قولك تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[٩٥٢] ، ربنا اكشف عنا الغم والهم واجعلنا ممن تستمع لدعاهم فتستجيب لهم.

---

[٩٥١] البقرة، ٢٨٦.

[٩٥٢] الأنبياء ٨٣، ٨٤.

اللهم إننا ندعوك باسمك الرحيم الذي يملأ الفؤاد بالأمل والرجاء فالحمد لك على رحمتك يا الرحيم.

اللهم يا الملك يا رب العرش العظيم، نسألك الفردوس الأعلى من الجنة مع الأنبياء والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحَسُن أولئك رفيقا يا رب العالمين، لنا ولوالدينا وذرياتنا وللمؤمنين والمسلمين، اللهم ملك السماوات والأرض ومليكهما، نسألك بملكك الكبير واسمك العظيم وسلطانك القدير، وأنت المجير، أن تجيرنا من عذاب السعير، ومن دعوة الثبور، وأن تظلنا بظلك يوم النشور، اللهم يا الملك يا الوهاب يا الغفور يا التواب، ويا رب الأرباب، نسألك أن تجعل بيننا وبين النار حجاباً، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب، اللهم إنا نعوذ بسلطانك ونلوذ بإحسانك، فلا إحسان إلا وأنت جابره، ولا سلطان إلا وأنت قاهره، ولا جبار إلا وأنت داحره، عنت الوجوه لعزتك، وخشعت القلوب لهيبتك، اللهم إنا نعوذ بعفوك من انتقامك، وبرضاك من سخطك، وبغفرانك من معصيتنا، إنك أنت التواب، اللهم أنت الملك الذي لا تضره معصية خلقه، ولا تنفعه طاعتهم، فتجاوز عنا اللهم إنك أنت الملك الوهاب.

اللهم يا القدوس اجعلنا ممن يقدسون قولك ويطيعونك واجعلنا من الطاهرين المقدسين، ويا القدوس طهر أعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وقلوبنا من النفاق، وأنفسنا من الشح والبخل، واختم لنا بخاتمة السعادة واجعلنا يا القدوس مع الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين في الفردوس الأعلى.

اللهم إننا نقدسك طاعة تامة فاجعل أقوالنا وأعمالنا مقدسة بصلاتنا وسلامنا على النبي عليه الصلاة والسلام، ومقدسة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبتجنب ما أمرتنا اجتنابه واتباع ما أمرتنا إتباعه.

اللهم يا السلام اجعلنا على السلام بالإسلام، وسلمنا من الأقوال والأفعال والأعمال التي لا ترضاها وارضى عنا وعن زوجاتنا وأولادنا وآبائنا وأخوتنا وصحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمهاتنا زوجات الرسول اللهم صل وسلم عليه كما صليت وسلمت وباركت على سيدنا إبراهيم إنك سميع مجيب.

اللهم يا السلام سلم عقولنا من الظن فإن بعض الظن إثم، اللهم سلم أبصارنا من رؤية مالا ترضاه وسلم أسماعنا من الإنصات إلى ما لا ترضاه، وسلم أفكارنا من كل ضلالة وأبداننا سلمها يا سلام من عذاب جهنم إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا.

اللهم يا السلام عمنا بسلامك في الدنيا وفي الآخرة، وأملأ قلوبنا ونفوسنا بالسلام والطمأنينة، فأنت السلام الذي نحبه ونحتاجه ونرجوه، اللهم إنك جعلت تحيتك السلام فاجعلنا على الإسلام في سلام دائمين، اللهم سلّمنا من كل سوء ورذيلة وذنب، واجعلنا يا السلام من الذين إذا حُيّوا بتحية فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا.

اللهم يا السلام اجعلنا في حياتنا آمنين بالسلام وفي آخرتنا متنعمين بالسلام، اللهم اجعلنا من الذين دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخر دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللهم يا السلام أهدنا الصراط المستقيم واجعلنا عندك في دار السلام آمنين أنت ولينا يا نعم المولى ونعم الوكيل.

اللهم سلمنا من كل داء وكل بلاء وابتلاء، وسلمنا في حياتنا ومماتنا ويوم بعثنا وسلمنا من الحساب واجعلنا من الفائزين في جنة النعيم إنك بنا رؤوف رحيم يا الله.

اللهم يا المؤمن أمِّن لنا الحياة والممات والبعث وأمن لنا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك، اللهم اجعلنا من المسلمين لك المخبتين لك، الأوابين الأواهين التوابين، وارزقنا ذكرك آناء الليل وأطراف النهار، اللهم آمنا في أوطاننا، وأصلح ذات بيننا، وتب علينا واجعلنا من المؤمنين الصالحين. اللهم نسألك أن تؤمِّننا يوم تفزع الخلائق، اللهم أمنا يوم البعث والنشور فلا ملجأ إلا إليك يا ارحم الراحمين واحشرنا مع الذين قلت عنهم وقولك الحق: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}[٩٥٣] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

[٩٥٣] – الأنعام ٨٢

اللهم يا المهيمن على الروح اجعل أرواحنا طاهرة، ويا المهيمن على العقول اجعل عقولنا مستنيرة بذكرك ويا المهيمن على النفس اجعل أنفسنا برحمتك مطمأنة، ويا المهيمن على الأبدان اجعل أبداننا مبرئة من العذاب، ويا المهيمن على الحياة اجعل حياتنا في طاعتك، ومماتنا في طاعتك وبعثنا في طاعتك، إنك أنت المهيمن على الكون وعلى الخلق وعلى ما نعلم وما لا نعلم بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، اللهم إنك أنت المهيمن ولا مهيمن سواك فلا تجعلنا تحت المسيطرين، اللهم يا مهيمن اجعل الخير والصلاح والفلاح والعمار مهيمناً علينا، واجعل ديننا مهيمناً على دنيانا فلا نضل سبيلك يا المهيمن يا الله.

اللهم يا المهيمن اجعل الحق مهيمناً على الباطل، والعلم مهيمناً على الجهل والخير على الشر والعدل على الظلم والحب على البغض، حتى نكون خير أمة أخرجت للناس كما أردت لنا.

اللهم يا العزيز نشهد أن لك العزة، ولرسولك العزة، وللمؤمنين العزة، اللهم يا العزيز عزَّنا بقوتك وقدرتك وغناك وكرمك وعلمك وحكمتك وحفظك وسلامك، اللهم إن العزة بالحق فلا تجعلنا يا العزيز من الذين أَخَذَتْهُم الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ واجعلنا يا الله للحق مُحقِين، وإذا حكمنا بين الناس نحكم عادلين، ولا تجعلنا من المطففين الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ.

اللهم يا العزيز عز الإسلام بزيادة عدد المؤمنين الذين إذا عاهدوا أو نذروا أوفوا والذين يَقِيمُون الصَّلَاةَ وَيأتُون الزَّكَاةَ ويقرِضُون اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ويَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

اللهم يا العزيز يا من له العزة وبه العزة ومنه العزة أعزنا ولا تجعلنا أذلاء، اللهم يا العزيز يا رافع الشأن ارفع شأننا وقدرنا واجعلنا من حملة راية دينك عزيزة واجعلنا أعزاء بنصرك يا العَزِيزُ يا الرَّحِيم، اللهم اجعلنا أعزاء في أنفسنا قبل أن نكون في غيرنا، اللهم يا العزيز اجعلنا وبنينا وأهلينا في حماك ورعايتك، فلا نكون ممن قلت عنهم: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا}[٩٥٤] فلا نطلب سواك ولا نلجأ لغيرك يا العزيز ولا تجعلنا أذلاء خائفين.

اللهم يا الجبَّار اجبر أنفسنا على الطاعة التامة والطمأنينة التامة، ولا تجعلها مع الأهواء والضالين، اللهم أجبرنا على طاعة الوالدين في غير معصيتك، اللهم أجبرنا على الصلاة والصوم والزكاة والحج إننا نلبيك واحدا أحدا لا شريك لك ونصلي ونسلم على سيدنا محمد الرسول الخاتم بالرسالة الكافة كما نصلي ونسلم على جميع أنبيائك ورسلك، اللهم أجبر خواطرنا وخواطر أبنائنا برضاك ولا تجعلنا في حاجة لسواك، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك. اللهم أجبرنا مع العدل على العدل الحق، واجعلنا من المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها فنعم المولى ونعم النصير.

نسألك يا الله يا المتكبر أن تكبر فينا كل ما يقربنا منك فيجعلنا متكبرين بك متكبرين بعبادتك وبالتذلل إليك اللهم أكْبِرْ العلم فينا عن الجهل وأكبر الخير في نفوسنا عن الشر واجعلنا متكبرين عن الظلم وعن الإفساد في الأرض وكل ما يقلل من شاننا من أقوال أو أفعال لا ترضى عنها ولا ترضيك واجعلنا متكبرين عن المعصية بفعل الطاعة ومتكبرين بك عمن سواك مما يُعبد بغير حق، اللهم يا متكبر لا تجعل الغرور كبرياء في نفوسنا واجعلنا غير متكبرين على الطاعة والهداية فلا نطغى ولا نتكبر على من أمرتنا بخفض جناح الذل من الرحمة لهم ولا نظلم أحدا، اللهم أجعلنا ليّني القلب رحماء يحبون الرحمة وإذا حيوا بتحية يحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ يرُدُّوهَا إِنَّك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا.

اللهم يا الخالق لَقَدْ كَرَّمْتنَا وَحَمَلْتنَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْتنَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْتنَا عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْت تَفْضِيلًا فاجعلنا يا الخالق في أحسن تقويم واجعلنا من أبناء أمة يهدون بالحق وبه يعدلون.

---

[٩٥٤] النساء١٣٩.

اللهم إنك قَدْ خَلَقْت فَوْقَنا سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّت عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِ فلا تجعلنا يا الخالق من الغافلين، اللهم إنك خلقت السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بالحق فاجعلنا على الحق مصلحين لا ظانين بالإثم ولا مفسدين.

اللهم إنك قد خلقتنا وَتَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ أَنَفْسنا وما تفكر فيه عقولنا فاجعل أنفسنا بذكرك آمنة مطمئنة وعقولنا بعلمك على الصراط المستقيم ولا حول ولا قوة إلا بك رب العالمين.

اللهم إنك خلقت من كل شيء زوجين فاجعلنا وأزواجنا على حبك وحب رسولك محمد عليه الصلاة والسلام متلاقين متحابين، واجعلنا من الذين يتذكرون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم يا البارئ الخلق برئنا فلا براءة بعد براءتك ولا فضل إلا فضلك فبرئنا اللهم بفضلك عن الشرك بك وبرئنا من عبادة غيرك بهدايتك لتوحيدك والانصياع لك عن طيب خاطر.

اللهم برئنا من الظلم بإلهامنا العدل، ومن الخطايا والسيئات بإرشادنا إلى الطاعات. كما نسألك اللهم أن تبرئنا من الإفساد في الأرض بالأفعال والأقوال لنستحق بذلك رضوانك ونكون خلفاؤك في الأرض.

اللهم برئنا من سخطك وعقابك بعفوك ورضاك، وبرئ عقولنا من نسيانك والتلهي عنك بما سواك، وبرئ قلوبنا وألسنتنا عن الانشغال بغيرك، اللهم برئنا من الكذب والإساءة لرسلك، وبرئ المسيئين إليهم من نعيمك ورحمتك واجعل النار مستقرهم الأخير، اللهم برئنا من المرض والهم والغم والفقر والحاجة والبلاء وبرئنا من الهموم والدنس بلطفك ورحمتك أنت الرحمن سبحانك جل جلالك. اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد كما صليت وسلمت على سيدنا إبراهيم.

اللهم باسمك المصور جعلت لنا الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَتنا فَأَحْسَنَت صُوَرَنا وَرَزَقَتنا مِنَ الطَّيِّبَاتِ فاجعل لنا الطيبات في كل حين واجعلنا على أحسن التقويم يا من بيده الأمر والمصير يا الله.

اللهم إنك خلقتنا وسويتنا وعدلتنا في أي صورة ما شئت ركبتنا نحمدك ونشكرك فلا تجعل أولادنا من بعدنا من المكذبين وكن بنا وبهم رؤوف رحيم واجعلنا من الأبرار في النعيم ولا تجلنا من الفجار في الجحيم.

اللهم إنك المصور فصورت لنا الجنة حق لمن اهتدى وأحسن عملا، وأنت المصور فصورت لنا النار حق لمن ضل وأفسد فاجعلنا من الذين يستمعون القول ويتبعون أحسنه واجعلنا من المصلحين لا من الضالين والمفسدين فيها وسافكي الدماء.

اللهم يا الغفَّار أغفر ذنوبنا واستر بالأعمال الصالحات عيوبنا، أنت مولانا فنعم المولى ونعم النصير، اللهم إنك الغفار الكريم فأكرمنا بواسع مغفرتك، اللهم إنك تعلم بحالنا وبما يلم بنا وبما تهواه أنفسنا فاغفر لنا في ما نظرنا إن كان لا يرضيك ولِما سمعنا إن كان لا يرضيك وما عملنا إن كان لا يرضيك فنحن ما قصدنا وإن قصدنا بأسباب غفلة أو ضعف أنت تعلمه فأنت الغفَّار الذي نتضرع إليه أن يغفر لنا فاغفر وارحم واجعلنا من التائبين، اللهم يا الغفار إن قصَّرنا في طاعة الوالدين في غير معصيتك فاغفر، وإن قصرنا في رعاية الأبناء فاغفر، وإن ارتكبنا الخطايا فاغفر وها نحن نعترف إن الكمال لك وحدك فاغفر.

اللهم يا القهَّار اقهر العصيان فينا بالطاعة، والضعف بالقوة، والقلق والاستعجال بالطمأنينة والصبر، واقهر الجهل بالعلم الذي يؤتى منك وآتينا الحكمة حتى لا نضل، واقهر الخوف من غيرك بالخوف منك، اللهم اقهر المرض بالشفاء والداء بالدواء يا من به آمنا وعليه توكلنا، اللهم يا القهَّار اقهر أعدائنا وحاسدينا، واقهر الظلم بالعدل والإحسان، واقهر الطغاة بسيادة العباد في البلاد، واقهر الفساد بالإصلاح واقهر سافكي الدماء بغير حق بالقصاص، واقهر الكره بيننا بالمحبة في غير معصيتك واجعلنا من الوارثين، اللهم اقهر الماكرين ومكرهم والكائدين وكيدهم إنك أنت القهار جل جلالك. اللهم يا القهَّار هب لنا القوة والقدرة التي بها نتمكن من مغالبة وقهر الأعداء ومعرفة الدواء لكل داء، اللهم إنك قلت وقولك الحق (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) سبحانك مالك الملك الواحد القهَّار.

اللهم يا الوهاب هب لنا الرزق الحلال والملك الحلال وهب لنا الصحة والعافية وهب لنا القوة والبركة في كل قول وفي كل فعل وعمل، اللهم هب لنا سلطان العلم والحكمة والتقوى والهيبة، وهب لنا القدرة على تفادي المخاطر وكيد الكائدين وحسد الحاسدين ومكر الماكرين وسحر الساحرين إنك أنت ربنا الوهاب سبحانك ما أعظم شأنك سبحانك جل جلالك.

اللهم هب لنا نور ينير دروبنا وبصائرنا، وهب لنا قول يكون حُجة لنا لا حُجَّة علينا، وهب لنا سمع لا تضيق به أنفسنا، وبصر لا يغفل عن رؤية جمالك، وعقل لا يقصر عن معرفة معجزاتك، ولسان يذكرك كثرا ويسبح بحمدك وشكرك كثيرا، اللهم هب لنا الفطنة التي تمكننا من قول الحق وفعل الحق وتجنب الزلات إنك سميع قريب مجيب الدعوات سبحانك أنت الوهاب جل جلالك، اللهم هب لنا الفوز على وسوسة الشياطين من آبالسة الأنس والجن أجمعين، وهب لنا حفظة كرام يحيطون بنا وبما نملك، اللهم هب لنا الثقة التي بها نكون ثابتين على طاعتك وعبادتك وهب لنا من الصالحين أعواناً وهب لنا صحة الأنفس والأبدان وسلامة العقل واللسان وسلامة العمل والفعل. نحمدك يا وهاب يا من جعلتنا من الذين يدعونك واحدا أحدا ولا يشركون بك شيئا، وندعوك يا وهاب باسمك الأعظم (الله) أن تجعل في ألسنتنا القوة والقدرة وفي سمعنا القوة والقدرة، وفي بصرنا القوة والقدرة، وفي جميع حواسنا ومشاعرنا أنت القوة والقدرة سبحانك جل جلالك.

اللهم يا الرزاق ارزقنا الطاعة التامة لك، ولا تجعلنا طائعين لوسوسة الشياطين من الجنة والناس، وارزقنا العلم والحكمة وارزقنا بحلالك عن حرامك، وجنِّبنا عمَّا نهيت عنه وانزل علينا الحفظة الكرام يحفظوننا من كل شر وضيق وجهل ومرض وفقر، وارزقنا رضاك ورحمتك لنكون على ما تحبه وترضاه. اللهم يا الرزَّاق لا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم من الدنيا ولا تفتنا فيها، وارزقنا نعيم الجنة ولا تحرمنا منها، اللهم إنك قلت وقولك الحق: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرزَّاق ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) اللهم يا الرزَّاق إن رزقنا عليك فاجعلنا من الأغنياء الوارثين ولا تجعلنا من الفقراء لغيرك ولا تجعلنا محتاجين، اللهم ارزقنا يا الرزاق بالأبناء الصالحين واجعلنا في مرضاتك لآبائنا محسنين، اللهم إنك ترزق من تشاء بغير حساب ارزقنا يا الرزَّاق كما تشاء بغير حساب عليك توكلنا يا نعم المولى ونعم النصير.

اللهم أنت الرزاق تهب لمن تشاء ما تشاء، اللهم ارزقنا نصراً كبيراً وعلماً مفيداً وصبراً جميلاً.

اللهم ارزقنا ألسناً شاكرة وقلوباً ذاكرة وعقولاً تتذكر ما كان وتفكر فيما يكون، وارزقنا حبك وحب رسولك الكريم محمد – صلى الله عليه وسلم- وارزقنا محبة الصحابة والصالحين، اللهم ارزق أسرانا فرجاً ميسرا ومرضانا شفاءً عاجلا وطلابنا علماً نافعاً ومظلومينا نصراً قريباً.

اللهم إنك الفتَّاح فأنر عقولنا بالعلم النافع وأنر نفوسنا بما تطمئن به، وافتح علينا أبواب السماء رحمة، وافتح علينا بالحكمة التي بها نُعمِّر الأرض ونستخلف فيها ونرث الجنة، قلت يا الفتَّاح وقولك الحق: (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) اللهم يا الفتَّاح افتح علينا رحمة لا ممسك لها إلا أنت وأنت خير الفاتحين، اللهم افتح صدورنا للإيمان، واجعلنا من الذين يَسِيرُون فِي الْأَرْضِ ولَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا وآَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا، اللهم اجعلنا من الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، ولا تجعلنا من الضالين وأرضى عنا إنك أنت الفتَّاح العليم عليك توكلنا والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الفتّاح افتح أبواب الأمل والرجاء في حبك وقربك، اللهم إننا ندعوك يا الفتّاح أن تفتح لنا من العلم واليقين ما يكفينا لأن نصل إلى جنتك فترضى عنا ونرضى عن أنفسنا، يا الفتّاح اجعلنا فاتحين لعمل الخير فلا نغلق أبوابه في وجه عبدٍ من عبادك، وفاتحين للكلمة الطيبة التي تسعد النفوس، وفاتحين للعلمِ النافع الذي يرقى بالعقول.

اللهم يا الفتّاح افتح بيننا وبين من ظلمنا بالحق كما فتحت على عبادك المؤمنين في قولك: {عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}[٩٥٥].

اللهم إنك العليم بأمر الغيب والشهادة فاجعلنا في الأمرين من المحسنين الوارثين، اللهم إنك قلت وقولك الحق (ومَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) فزدنا يا العليم علما من علمك الواسع به نكسب ولا نخسر وننفع ولا نضر ونخافك ونتقيك ولا نغتر، اللهم يا العليم اجعلنا وأبنائنا على علم من علمك، اللهم إنك العليم السميع المجيب فنمد أيادينا إليك ونشد قلوبنا إليك وعقولنا إليك وأنفسنا إليك فأجبنا بعلمك حتى لا تكون لنا حاجة إلا إليك سبحانك لا إله إلا أنت جل جلالك لا عزة لنا إلا بك، اللهم يا العليم اجعلنا من أولي الألباب الذين يستمعون القول فيتبعون

---

[٩٥٥] الأعراف ٨٩.

أحسنه، والذين يعلمون الحق فلا يشركون فيه الباطل، وإذا ما علموا بالباطل دمغوه فإذا هو زاهق سبحانك جل جلالك أنت العليم العظيم.

اللهم يا القابض أسألك أن تقبض على كل هم وغم حتى تفرج الكروب عنا وتمحى الذنوب، اللهم اقبض على المرض والألم حتى يأتي الشفاء وتستريح الأبدان وتطمئن الأنفس، اللهم إنك القابض على الظلم فاقبض حتى يعم العدل، وأنك القابض على الكره فاقبض حتى تسود المحبة.

اللهم إنك القابض للحياة الدنيا والباسط للحياة الآخرة فاجعل لنا نصيب في الدنيا ونعيم في الآخرة، اللهم إنك تقبض لتبسط فاقبض على أسباب التعب والعناء والضيق وابسط اللهم لنا العمل الصالح والرزق الحلال.

اللهم إنه لا قابض للحسد والحقد والكره والضغينة إلا أنت فاقبض لتسود بيننا المودة والمحبة والرضا والتسامح إنك سميع قريب مجيب الدعاء يا الله.

اللهم إنك القابض على الشر والحياة فاقبض على كل شر وعلى كل حياة شرك وكفر وذل وخيانة إنك أنت القابض سبحانك جل جلالك.

اللهم يا القابض نسألك أن تقبض ما نهيتنا عنه، وتبسط لنا ما أمرتنا به، حتى نفوز برضاك والجنة، وننجو من غضبك والنار، اللهم أنت القابض فاقبض عنا الفتن والمحن، اللهم يا القابض أقبض عنا الكفر والفسوق والعصيان وابسط في قلوبنا محبتك ومحبة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام.

اللهم ابسط لنا ما تحب واقبض عنا ما تكره، بحق ما بسطت من نعم على من أحببت من الأنبياء والمرسلين وعبادك الصالحين الذين استخلفت. اللهم أبسطنا بالإيمان وأحفظنا بآيات القرآن، وابسط أنفسنا بالأمن والاطمئنان، اللهم إنك أنت الباسط للحق فاجعل لنا الحق بساطا لا نحيد عنه ولا يحيد عنا، وأجعل لنا الرزق بساطا كما تشاء يا من ترزق من تشاء بغير حساب، اللهم اقبض عنا العناء والشقاء والبلاء والغفلة عن ذكرك وحبك يا من بعث المرسلين والأنبياء منذرين ومحرضين ومبشرين بما تحب وترضى. اللهم ابسط مكرك وكيدك بالماكرين

والكائدين بغير حق، اللهم ابسط النور في أبصارنا وأسماعنا وجميع حواسنا وفي أنفسنا واجعله ربيع قلوبنا إنك أنت الباسط جل جلالك. اللهم ابسط الرعب والخوف والذل في أعدائنا وحسادنا وابسط في نفوسنا القوة والهيبة في طاعتك أنت ربي سبحانك جل جلالك، اللهمَّ يا باسط يا الله لا تجعلنا من الذين نسوا نصيبهم من الدنيا واجعل لنا هذا النصيب مفتاح من المفاتيح المدخلة للجنة، ولا تجعله قفلاً بيننا وبين أبوابها ونعيمها، أنت ولينا نفوض أمرنا إليك يا الله يا البصير بالعباد.

اللهم يا الخافض إنك تملك القوة التي بها تخفض الطغاة والمتجبرين والمتكبرين بغير حق فاخفض جناحهم بقوتك وذلهم وكد كيدهم وامكر بمكرهم إنك الحق الذي يعلو ولا يعلى عليه، اللهم اجعلهم في خفضه واجعلنا في رفعة يا الله.

اللهم يا من خفضت تجبُّر فرعون وزهو هامان، أن تخفض كل من طغى وتجبّر على امة محمد.

اللهم إنك الخافض بعدلك فاجعل حكمك في من غدر بخير أمة أخرجت للناس آية، اللهم إنك الخافض للتوتر فاخفض كل توتر بين أبناءها، اللهم إنك الخافض لأهل المعصية فاجعلهم أسفل سافلين واجعل المسلمين على طاعتك عليين.

اللهم إنك لا تخفض حال ولا درجة ولا قوة إلا بسبب فاجعل لنا الأسباب والقوة التي بها تقضى الحوائج وتُرفع الدرجات وتتحسن الأحوال.

اللهم اجعلنا خافضين جناح الذل من الرحمة لآبائنا واجعلنا محسنين إليهم، وارحمهم يا الله على رعايتهم وحسن تربيتهم لنا ويسِّر لهم ولنا من أمرنا رشدا.

اللهم يا الرافع ارفعنا محبة في رضاك واجعلنا في عليين ولا تجعلنا مظلومين، ولا مهمومين ولا محسودين، ولا تجعلنا في أسفل سافلين، اللهم يا الرافع ارفع أعمالنا في موازين رضاك، ولا تخفضها في موازين غضبك، اللهم إنك رفعت السماوات العلا بدون عمد نراها فارفع عنا ذنوبنا وخطايانا وارفع عنا المظالم حتى لا نراها ولا بها نُدان، اللهم إنك جعلت الحق رافعا للظلم فاجعلنا في رفعة الحق نُزهِق الباطل، اللهم أرفع عنا الابتلاء واجعلنا في الرضا يا باسط

الأرض ورافع السماوات العلا، اللهم ارفع الضيم عن المضيومين والسجن عن المسجونين، واجعلنا من الطائعين التائبين المستغفرين، اللهم يا الرافع ارفعنا قدرة وقوة ولا تجعلنا من المستضعفين ولا المفسدين واجعلنا من المصلحين فيها ولا تجعلنا من سافكي الدماء بغير حق، اللهم ارفعنا بالعلم والحكمة في الدارين واجعلنا فيهما من الوارثين ولا تجعلنا من المحرومين إننا نؤمن بك ونتقيك سبحانك جل جلالك.

اللهم يا الرافع الهم والظلم والبغي ارفع عن عبادك المسلمين كل كرب وغم، اللهم ارفع راية أمتنا عالية وارفع فينا الهمة والنخوة، اللهم يا الرافع آتنا علما وارفعنا به درجات إنك سميع قريب مجيب الدعوات، اللهم اجعلنا من أولئك الذين رفعتهم بالإيمان فتكون لهم الرفعة في الدنيا والآخرة.

اللهم إننا ندعوك باسمك الرافع أن ترفع همتنا فنكون من خلفائك الرافعين لكتابك الكريم وسيرة رسولك محمد – صلى الله عليه وسلم – وأن نكون رافعين للجهل عن العقول والغم عن القلوب والضيق عن الأنفس والظلم عن العباد.

اللهم ارفع مقتك وغضبك وسخطك عنا برضاك وطاعتك، وارفع عنا الجهل بالعلم، وارفع عنا المرض بالعافية، وارفع عنا الكفر بالإيمان، فنكون بذلك من المترفعين عن كل ما يغضبك، ويرفع عنا رضاك.

اللهم يا المعز إنك تعز من تشاء متى ما تشاء فأعزنا كما تشاء بالإيمان والعلم والحكمة والملك والغنى والصحة والعافية يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى يا الله.

اللهم عزنا بتدبُّر القرآن وطاعة الوالدين في رضاك والإحسان، واتباع الصدق وتجنب الخذلان، وعزنا بقول الحق وفعل الحق وإزهاق الباطل، اللهم إنك تعز أهل الطاعة بالطاعة فاجعلنا لك طائعين لا نقدم على شيء لا ترضاها ولا نتخلف أو نتأخر عن شيء ترضاه.

اللهم يا المعز عزنا بصفاء النية والإخلاص في العمل وأداء الفرائض، اللهم عزنا في معاركنا مع الباطل بجند من جندك كما أعززت سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في معاركه حتى أحق الحق وأزهق الباطل وبلَّغ الرسالة.

اللهم يا المعز نسألك أن تعزنا في ديننا وفي أوطاننا وفي أبنائنا وأهلنا، اللهم يا المعز نسألك أن تعزنا على أعدائنا بعزك الذي لا يضام، اللهم يا المعز أعز في أنفسنا التقى والهدى والطاعة لك والإيمان بك لا إله إلا أنت المعز سبحانك.

اللهم يا المذل ذلل لنا السحب بالأمطار والغيث النافع، وذلل لنا الصعاب من أجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وذلل لنا العلم حتى نتقيك في كل كبيرة وصغيرة وذلل لنا رضاء الوالدين حتى نفوز برضاك والجنة، وذلل لنا الحماية والحفظ من كل شر وفي كل بر، وقنا من شرور الحادثات وأمطر رحمتك علينا رحمة في الدارين ولا تجعلنا نعمل ما يثير غضبك علينا وقينا عذاب النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار واستغفر الله العظيم من كل ذنب والحمد لك واحد أحد لا شريك لك، لك الملك، ولك الحمد، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا المذل أذل الشرك والمشركين وأعز الإسلام والمسلمين، اللهم انصر جنودك في مشارق الأرض ومغاربها، اللهم انصرهم نصرا عزيزا تعز به عبادك المؤمنين، وتذل به الكفر وأتباعه.

اللهم أذل من يريد أن يذل الضعفاء، اللهم أذل من يريد أن يذل المسلمين، اللهم أذل من يريد أن يذل الإسلام، اللهم أذل من يريد أن يذل المصلحين في الأرض، اللهم أذل العابثين والمفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق. اللهم أذل الذل في نفوسنا حتى نكون على طاعتك أقوياء، اللهم أن بعض الظن إثم فاجعله ذليلا أمام حجَّتك التي بها نتقيك، اللهم أذل من يريد بنا ذلا، اللهم أذل المستعمرين الذين يريدون أن يخرجوا العباد من ديارهم بغير حق.

اللهم يا السميع إنَّ إليك راجعون، وعن ذنوبنا تائبون، فتقبل منا إنك أنت السميع العليم، اللهم يا السميع نسألك باسمك السميع الذي سمعت به يونس في قلب الظلمات، أن تُسمع عنا دعوة الحق لخلقك، وتجعل أجر ذلك عفوك ورحمتك وغفرانك لنا ولوالدينا ولأصحاب الحقوق علينا، ونسألك باسمك السميع الذي سمعت به أيوب إذ مسّه الضر، أن تسمع دعاءنا، وتكشف الضر عنا، وعمّن أحسن إلينا، وعمّن أسأنا له يا سامع الدعاء ويا ناصر الضعفاء، أن تنصرنا على الأعداء، ونسألك باسمك الذي سمعت به دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، أن تجعل هذا العمل خالصا لوجهك الكريم، وأن لا تحرمنا أجره، ولا تفتنا من بعده.

اللهم إنا سمعنا فأطعنا فأغفر لنا وأرض عنا لك الحمد والشكر لا إله إلا أنت سبحانك ما أعظم شأنك نستغفرك ونتوب إليك.

اللهم يا البصير نسألك أن تبصر حالنا، وتتقبل دعائنا وتختم بالصالحات أعمالنا وتتوفنا وأنت راض عنا، نحن الضعفاء وأنت البصير القوي، نحن الفقراء وأنت البصير الغني، اللهم إننا نسألك يا البصير أن تقلب قلوبنا نحو عبادتك، وارزقنا الخير كله، واجعل الحياة لنا دارا للإيمان، والآخرة دارا للخلود في جنتك يا البصير بنا وبأحوالنا.

اللهم إنا نسألك النظر إلى وجهك الكريم، والشوق إلى لقائك فلا تحرمنا يا ارحم الراحمين.

اللهم يا البصير، سبحانك وبحمدك، توكلنا عليك في أمورنا كلها وأنت بصير بها فاغفر لنا وعافنا وارزقنا واقض حاجتنا ويسر أمرنا يا لله.

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا، واجعل بصرنا يا البصير مشغولا بالنظر إلى عظمتك وقدرتك ورحمتك. ومكنا يا البصير بالنظر الذي أنعمت به علينا أن ننظر إلى آياتك العظام حتى نعرف ونحن مؤمنون كيف خلقت الإبل ونصبت الجبال ورفعت السماء وسطحت الأرض، اللهم اجعلنا مذكِّرين ومتعظين بكل أمر آمرتنا به واجعلنا من العاملين عليها ولا تجعلنا من الجاهلين، واجعلنا من الطائعين ولا تجعلنا من العاصين، ومن المسبحين بحمدك الذاكرين لأسمائك وصفاتك الحسان لا من الغافلين.

اللهم إنك الحكم ونحن الطائعين لحكمك فاجعلنا بحكمك على الصراط ثابتين، اللهم إنك الحكم العليم بما أعلنّا وما أخفينا، والمحيط بما لم نأت وما أتينا، اللهم لا تسلّط عدوّك وعدوّنا علينا، وأنت أرحم من أن تؤاخذنا بما جنينا، فالحمد لك يا أحكم الحاكمين الذي خلق كل شيء فأحسن التقدير، ودبر الخلائق فأكمل التدبير، وقضى بحكمته على العباد بالسعادة والشقاوة فريق في الجنة وفريق في السعير، ربنا إليك أنبنا وإليك المصير.

اللهم إنك الحكم وسعت كل شيء عِلْمًا عليك تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ اللهم إنك الحكم تفصل بين الحق والباطل فاجعل الحق لنا حُجَّة وتفصل بين الخير والشر فاجعلنا من أهل الخير ولا تجعلنا من أهل الشر، وتفصل بين الحلال والحرام

فاجعلنا من أهل الحلال ولا تجعلنا من أهل الحرام، وتفصل بين الجنة والنار فاجعلنا من أهل الجنة، اللهم يا الحكم بحكمك عمَّرت الأرض رزقا وخلقا فاجعلنا فيها أغنياء مطمئنين آمنين ومصلحين لا مفسدين، اللهم وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ فاجعلنا من الذين يحتكمون بشريعتك ويطيعون أمرك طوعا لا كرها، اللهم إنك الحكم وحكمك نافذ فاجعلنا من المقسطين الذين يخافونك ويتقونك ولا تُسلِط علينا ظالما لا يخافك ولا يتقيك، اللهم إننا عبادك وأنت اللطيف الخبير.

اللهم إن اسمك العدل وقولك العدل وفعلك العدل وغايتك العدل، فاجعلنا باسمك وقولك وفعلك وغايتك على العدل ثابتين وأهدنا صراطك المستقيم إنك بنا رؤوف رحيم يا الله.

اللهم إننا نشهد أن العدل حق، فاجعله لنا حق حتى لا نُظلم، واجعله بيننا حق عنه لا نغفل، اللهم اجعلنا من الذين يؤدون الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل، واجعلنا على طاعة قولك: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[٩٥٦]

اللهم اجعلنا من المستخلفين المصلحين وغير سافكي الدماء فيها بغير حق واجعلنا للمتقين إمام واجعلنا من الوارثين في الجنة أنت مولانا بك أمانا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فالحمد لك.

اللهم إنك اللطيف بودِّك وعفوك ورحمتك فاعفو عنا وارحمنا بلطفك ودّك، اللهم إننا نعلم يقينا إنك تعذب من تشاء وتعفو وترحم من تشاء وتحاسب وتعاقب من تشاء اللهم اجعلنا من عبادك الذين أنت بهم لطيف ولا تجعلنا من المعذبين في النار يا الطيف يا القهار يا عالم الأخبار والأسرار، سبحانك ما أعظم شأنك لطيف بالجنين في بطن أمه ترزقه من أحشائها ولطيف به

---

[٩٥٦] النحل ، ٩٠ . ٩٢.

رضيع تغذيه من لبنها، ولطيف بشبابه تمده برزق وقوة من رزقك وقوتك، ولطيف بعجزه تمده بالرعاية والعناية من غير ما يحتسب، اللهم ألطف بنا وأبنائنا وأزواجنا رعاية وعناية تامة ورزقا حلال، اللهم إنك اللطيف تعلم ما تخفي صدورنا وما تبديه وتعلم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ فألطف بحالنا وأحوالنا وارزقنا وارحمنا إنك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ سبحانك يا من لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ. اللهم يا الطيف اجعلنا من الذين يقيمون الصَّلَاةَ وَيأْمُرُون بِالْمَعْرُوفِ وَينهون عَنِ الْمُنْكَرِ واجعلنا من الصابرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم يا الخبير بأحوال العباد، يا من لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، اجعلنا متواضعين بعلم مفيد وبخبرة تفيد، إننا نخافك ونخجل منك لعلمك السر والعلن، اللهم اجعل خبرتنا وعلمنا المحدودين منبهاً لنا لخشيتك وحبك.

اللهم يا الخبير يا من لا يخفى عليه ضعفنا وفقرنا وحاجتنا إليه ارحمنا بواسع رحمتك، ويسر لنا أمورنا واقضِ عنا دَيننا وبارك لنا يا الخبير في أولادنا وأزواجنا وأهلنا وعقولنا وصحتنا وأمتنا يا الله على دين الإسلام إنك بنا رؤوف خبير.

اللهم يا الحليم يا من كان حلمه رحمة ووداً يمده معينا لنا على التوبة والاستغفار، استر عيوبنا بحلمك علينا ورحمتك بنا، واجعل من قلوبنا وعقولنا مواطن الحلم والصبر، اللهم اجعلنا نتملك من الحلم ما نطفئ به نار الغضب والتهور فلا نكون من النادمين.

اللهم يا الحليم اجعل لنا من صفتك نصيباً نترفع به عن الصغائر والرذائل والنقائص والعيوب فنكون من عبادك الطائعين المتقربين إليك بالخيرات والمكارم.

اللهم يا الله يا الحليم اجعلنا ممن يحلمون في التعامل مع الآخرين، فلا نتسرع في أحكامنا على من نتعامل معهم ويسيئون إلينا، ومكِنّا اللهم من الصبر حتى نمتلك القدرة على الحلم على من يظلموننا فنقابل أذاهم بإحسان فنكون بذلك ممن يتصفون بصفاتك ويدعون إلى سبيلك بالقول والفعل، ومن أرادنا بعد ذلك يا الحليم بمكر فامكر به ومن أرادنا بكيد فكده وكد كيده، ومن أخطأ فينا وندم واستغفر فأنت التواب الرحيم.

اللهم باسمك العظيم نسبِّحُك ونحمدك ونشكرك كثيرا، اللهم يا العظيم عظّم أقوالنا بالحُجَّة التي تحق الحق وتدمغ الباطل حتى يزهق، وعظّم أعمالنا بكل ما يسبب إصلاحا في الأرض ويقضي على الفساد ويحرِّم سفك الدماء بين الناس بغير حق، اللهم إنك العظيم بوحدانيتك فنشهد إنك الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك جل جلالك، ونشهد أن محمدا عبدك ورسولك فنصلي عليه ونسلم تسليما ونشهد أنك العظيم بخلقك فخلقت الإنسان في أحسن تقويم فتبارك الله أحسن الخالقين، ونشهد إنك العظيم بعذابك فالويل للكافرين الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ.

اللهم إنك الغفور العظيم بمغفرتك تغفر الذنوب لمن تشاء من عبادك فاغفر ذنوبنا، واستر عيوبنا وفرج كربنا وأنر دربنا وارحمنا بدوام المغفرة يا الله.

اللهم إننا نستغفرك ونعوذ بك من كل شر ومن كل بلاء فاغفر، اللهم إنك الغني بالمغفرة ونحن الفقراء فاغفر، اللهم إنك مالك الرحمة فلا تجعل ذنبا من ذنوبنا يحول بيننا وبينها وأنت الغفور الرحيم.

اللهم إننا نعلم أنك أنت الغفور الرحيم فلا نلتجئ إلا إليك، ونؤمن إنك أنت الغفور الرحيم فلا نركع ولا نسجد إلا إليك، ونعلم أنه من ظلم نفسه وأستغفرك تغفر له، اللهم إننا نسألك المغفرة فاغفر.

اللهم يا الغفور يا من جعلت الملائكة يسبحون بحمدك ويستغفرون لمن في الأرض فاجعل بيننا وبين استغفار ملائكتك صلة واجعلنا من المسبحين والمستغفرين في الأرض باسمك الغفور.

اللهم يا الغفور قلت وقولك الحق: {لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} اللهم إننا نسألك بأسمائك الحسنى أن تغفر جميع ذنوبنا يا الغفار يا الله.

اللهم يا الغفور إنَّ بطشك لشديد وإنك تُبْدِئُ وتُعيد وإنك الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد فاغفر لا غفار للذنوب إلا أنت.

اللهم يا الشكور أجعلنا من الحامدين الشاكرين الذين يقولون الحق ويعملون عليه ويعملون به، ويجتنبون الباطل ويعملون على إزهاقه، ويصلحون في الأرض ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق واستغفر الله العظيم عن أية مخالفة أو خطأ أو ذنب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم لك الحمد والشكر على ما خلقت وأنعمت وحفظت وهيمنت ورحمت وعفوت وسلَّمت من الشرور والأضرار ومن الحاجة والفاقة ومن الألم والعناء يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى، اللهم لك الشكر على خلقك وإحيائك وإماتتك وبعثك لنا مسلمين مؤمنين بك واحداً أحداً لا شريك لك سبحانك جل جلالك، اللهم لك الشكر على خلقك للجنة والنار ليكون الفوز للمتقين بالجنة وتكون لهم عقبى الدار (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آَبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ)[٩٥٧].

اللهم يا الشكور إننا نشكرك على استخلافك لنا في الأرض ونشكرك لخلقك لنا في أحسن تقويم، ونشكرك على أمرك لنا بطاعة الوالدين في غير معصيتك، ونشكرك على وحدانيتك واحداً أحداً لا شريك لك، ونشكرك على كل ما فرضت لنا وفرضت علينا، إنك أنت الشكور فلا تجعلنا جاحدين نعمك، اللهم يا من تفضّلت علينا بالكثير تفضل علينا بنعمة شكرك لأنه ما من فضلٍ أصابنا إلا منك، واجعل شكرنا في الضرّاء والسراء على السواء، فلا نطلب شكراً من سواك بل نطلب رضاك عنا، اللهم اجعلنا شاكرين لك ولآبائنا كما أمرتنا في كتابك الكريم: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[٩٥٨].

اللهم إنك العلي الذي يُدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار والذي يعلم الغيب ولا غيره يعلم الغيب، فاجعل أبصارنا مدركة لمعجزاتك وشاهدة عليها، اللهم إنك العلي وكل شيء هو دونك،

---

[٩٥٧] الرعد ٢٣ ـ ٢٥.

[٩٥٨] لقمان ١٤.

فاجعل إيماننا يعلو في علاك وبالحق أقوالنا تعلو وبالصالحات أعمالنا تعلو، فنعدل ولا نظلم ونكون من الصادقين والمتصدِّقين والمُحسنين والبارين بوالديهم، اللهم إنك العلي في القول والحق والفعل والعظمة فاجعلنا في عليين مع الأبرار في النعيم الذين هم عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ والذين تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ والذين يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ اللهم اجعلنا من المتنافسين في هذا الأمر وكل أمر ترضى به عنا، اللهم إنك العلي فاجعلنا نعلو في الحياة الدنيا بأخذ نصيبنا منها وأن لا نسرق ولا نزنى ولا نتكبَّر ولا نطغى ولا نظلم أحدا، حتى نكون في الآخرة من العليين في جنة الفردوس سبحانك لا إله إلا أنت العلي جل جلالك.

نسأل الله تعالى الكبير المتعال، الذي ثبت الأرض بأوتاد الجبال، وروّى نباتها من السحاب الثقال، أن يرزقنا التواضع لكبريائه، ويرفعنا به إلى الدرجات العلا، اللهم اجعلنا من المتقين الوارثين الجنة، ولا تحرمنا رفدك ورحمتك يا عظيم المنة، اللهم أنت الكبير، ذو الفضل الجزيل، والعز الجليل، نسألك الأمن والأمان، اللهم يا كبير يا واسع الرحمة والمغفرة نسألك أن تتغمدنا برحمتك في الدنيا والآخرة، وأن ترحم ضعفنا بقوتك، وتجبر كسرنا بكبريائك، وتشد أزرنا باعتصامنا بك، وترحم ذلنا بعزتك، وتهدينا سبلنا برشدك، وتسدل علينا ثوب الستر في الدنيا والآخرة، ولا تكلنا لأنفسنا فنشقى، ولا إلى الناس فنضل، اللهم اجعل توكلنا عليك، فأنت الكبير الذي لا تدركه البصائر، ولا تحيط بكنهه الأبصار، تباركت ربنا وتعاليت، لا ملجأ منك إلا إليك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الكبرياء في الآخرة والأولى، فاغفر لنا ما نعلم، وتجاوز لنا عمّا لا نعلم، إنك سميع مجيب.

اللهم إنك الكبير الذي يَكنُّ في الصدور وتطمئن به الأنفس ويعلو في المآذن فيربط علاقة بين الأرض والسماء نشهدك ونوحدك ولا نشرك بك شيئا، اللهم إنك خلقت كل شيء فيه إعجاز كبير وأنت الأكبر فلا تجعلنا نسجد ولا نركع لكبير سواك، ونشهد أنك الأول الكبر الذي ليس قبله شيء وكل شيء منه أصغر، وأنك الآخر الأكبر الذي ليس بعده شيء أكبر، وأنك الكبير الذي لا بداية له ولا نهاية سبحانك جلَّ جلالك. اللهم إن عقابك كبير وحسابك عسير ورحمتك

ومغفرتك تيسير فنحمدك على شدة عقابك للكافرين والمشركين والفاسقين ونحمدك على واسع رحمتك ومغفرتك للمهتدين إنك أنت الرحمن سبحانك جل جلالك.

اللهم إنك الحفيظ من كل شيء في الأرض وفي السماء فاحفظنا من كل شيء يضر في الأرض أو في السماوات العلا، وأحفظ ألسنتنا من الزلات وأفعالنا من المفسدات وأعمالنا من الخطايا إنك سميع قريب مجيب الدعوات، اللهم أحفظ أولادنا من الانحراف عن اتباع الحق ولا تجعلنا ولا تجعلهم من المبذرين فإن المبذرين إخوان الشياطين، اللهم إنك كما مكنت ليوسف في الأرض وجعلته حفيظا على خزائنها مكنا في الأرض لنتبوَّأ منها أماكن خير وفلاح وإصلاح وأحِطنا بحفظك ورعايتك كما أحطته بها، وحِطنا بحفظك في الدارين إننا متقون، اللهم إن اسمك الحفيظ اسم دائم فاحفظنا يا حفيظ على الدوام بكلماتك التامة واجعلنا من الطائعين الحامدين الشاكرين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم أحفظنا من كل شر في كل بر، وأحفظنا برعايتك مؤمنين صالحين يُصلِحونَ في الأرض ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء فيها بغير حق، وأرضى عنا وارحمنا وأرحم أبائنا وأجدادنا الكرام وأحفظ أبنائنا وزوجاتنا وأخوتنا الأعزاء، وأرضى عن صحابتنا ومشايخنا وصحابة رسول الله وأمهاتنا زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

اللهم يا الحفيظ أحفظنا من الوقوع في الزلات والخطايا، وأحفظ عقولنا من فقدان الذاكرة، وأحفظ أجسادنا من المرض والعاهة والعذاب، وأحفظنا من وسوسة وأعمال شياطين الجن والأنس ومن كيد الكائدين ومكر الماكرين والغادرين. اللهم أحفظ أبصارنا وبصائرنا من تتبع ما نهيت عنه وحرمته، وأحفظ ألسنتنا من الزلات واجعلها لا تقول إلا صوابا.

اللهم أجعلنا من الناجين من النار والفائزين بالجنة، وأحفظنا بعينك التي لا تنام وعزك الذي لا يرام لنصل محفوظين إلى دار السلام بالتمام.

اللهم يا مقيت قتنا دائما أبدا بواسع رحمتك وفضلك وجودك وكرمك وعطائك ورزقك، اللهم إنك يا مقيت قد خلقت القوت سابقا على خلقنا فكان قوتك لخلقك رحمة في الدار الدنيا وجعلت الجنة قوتا واسع لمن آمن بربه واحداً أحداً ولا يشرك به شيئا فاجعلنا يا مقيت من الوارثين في

الجنة ولا تجعلنا محرومين في جهنم، (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) اللهم اجعلنا من أصحاب الجنة الذين نادوا أصحاب النار (أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) والحمد لله رب العالمين اللهم إننا على بينة منك نتبعها ولا نتبع الهوى فقتنا في الجنة بأنهار مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى، اللهم قتنا فيها مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ واغفر لنا إنك المقيت ولا تجعلنا كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ.

اللهم يا الحسيب اجعلنا من الذين هم على الصراط المستقيم واجعلنا من الذين رضيت عنهم فزدتهم ثقلاً في الموازين. اللهم يا الحسيب يا من خَلَقَت الْإِنْسَانَ وعَلَّمتَهُ الْبَيَانَ وخلقت الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ بِحُسْبَانٍ وجعلت النَّجْمَ وَالشَّجَرَ لك يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعتَهَا وَوَضَعَت الْمِيزَانَ فاجعلنا من الطائعين المقسطين ولا تجعلنا من المطففين للكيل والميزان، اللهم إنك جعلت الحق بحسبان فاجعلنا من عبادك الطائعين للحق بحسبان، ولا تجعلنا من الذين يميلون عنه كل الميل، اللهم يا الحسيب يا من رفعت السماء عن الأرض بغير عمد نراها ارفع درجاتنا لك طاعة واجعل حسابك لنا تيسيرا لا تعسيرا، واجعلنا من الفائزين بثوابك ولا تجعلنا من الخاسرين في العقاب، اللهم يا الحسيب اجعل في أقوالنا موازين الرحمة ولا تجعلنا من الذين يأكلون أموال اليتامى إسرافا وظلما، اللهم اجعلنا من الذين إذا حيوا بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ ردوهَا سبحانك جل جلالك إِنَّك عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا.

اللهم يا الجليل يا صاحب العزة والجلال، أنت أعلم بحالنا وغني عن سؤالنا، نسألك أن نكون من عتقائك يوم تتجلى لخلقك، اللهم أنت الجليل العظيم، نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك، أن تسدل علينا من نعمتك ثوب المهابة والجلال في الدنيا والآخرة تواضعا لعلوّ شأنك، وأن تجلّنا عن النار وعذابها وتربأ بنا عنها نحن ووالدينا وأزواجنا وذريتنا إنك غني حميد، اللهم أنت الجليل فاجعلنا من الأجلاء عما نهيتنا عنه من المعاصي، واجعلنا من الأجلاء بما أمرتنا

بـه من الطاعات، فسبحان الجليل الذي تعطف بالمجد وتكرم بـه، وسبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا بحمده، سبحان ذي الفضل والنعم، سبحان ذي العزة والكرم، سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه، وسبحان الذي خضع كل شيء لعزته، وسبحان الذي عنت الوجوه لجلال هيبته، نسألك اللهم أن تلبسنا ثوب الجلال في الدنيا والآخرة، والحمد لك على ما رزقت ووهبت لنا من خيرات حسان والحمد لله رب العالمين.

اللهم بجلالك العظيم أن تجعل الرحمة علينا وتجعلنا من الأقوياء الراشدين لا من الضعفاء واجعلنا من العلماء والحكماء لا من الجاهلين، ومن المؤمنين الصالحين المستخلفين في الأرض والمصلحين لا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق.

اللهم يا الكريم ما لدينا من فضل وكرم هو من فضلك وكرمك فاجعل أنفسنا كريمات الدعاء سخيات العطاء فنكون ممن كرّمتهم بالجنة، اللهم اغفر لنا واجعلنا من المكرمين، اللهم يا الكريم أكرمنا بعلمٍ مفيد وعقلٍ سديد ونفسٍ مطمأنة آمنة مستقرة، وأسبغ علينا كرمك فما فضلٍ إلا منك وما من كرمٍ يفوق كرمك يا الكريم. اللهم اكرمنا في الدنيا والآخرة كرماً نكون فيه من السعداء أنت ولينا سبحانك فلا نطلب ولا نسعى إلا إليك متيقنين أن كرمك سيصيبنا لأنك أنت الكريم سبحانك جل جلالك.

اللهم إنك الكريم نسألك أن تكون حياتنا مكرَّمة بكرمك وجودك وفضلك وعزتك وغناك وقدرتك وعلمك وحكمتك، اللهم يا الكريم إننا نتوجّه إليك بالمطالب فلا تجعلنا من الذين يتوجهوا إلى سواك، اللهم أجب مطالبنا بواسع رحمتك فنرفع أيادينا إليك فلا تردها خائبة، وتتوجه قلوبنا إليك فاجعلها راضية مسرورة، وتتوجه أنفسنا إليك فاجعلها آمنة مطمأنة، ونتوجه بحاجاتنا إليك فاجعلها بما يشبعها مجابة.

اللهم إنك الكريم نسألك من خير ما سألك عبدك ونبيك، ونعوذ بك من شر ما استعاذ منه عبدك ونبيك. اللهم إنك الكريم فنسألك الجنة، ونعوذ بك من النار، ونسألك أن تجعل كل قضاء قضيته لنا خيرا، اللهم اجعلنا من الذين أكرمتهم في الدنيا والآخرة ولا تجعلنا من الخاسرين.

نسألك يا الكريم مغفرة كل ما أحاط به علمك من ذنوبنا، والتجاوز عن كل ما كان منا إنك الجواد تحب الجود، اللهم بك نعوذ وبك نلوذ، اللهم اجعل لنا في اللهف إلى جودك والرضا بضمانك مندوحة عن منع البخلاء، وغنى لا عوز من بعده إلا الفوز بالجنة.

اللهم إنك الرقيب الذي لا تأخذه سنة ولا نوم {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٩٥٩] اجعلنا يا رقيب تحت رقابتك محفوظين مما يعمله لنا شياطين الجن والإنس وأحطنا بعنايتك وحفظك.

اللهم يا الرقيب إننا نؤمن بك واحداً أحداً ولا نشرك بك شيئا ونؤمن بثوابك ونرتقبه فلا تجعلنا خائبين ونؤمن بعقابك فنخشاك ونتقيك فجنبه عنا إنك أنت الرحمن الرحيم.

اللهم يا الرقيب اجعلنا على الفطنة كي لا نغتر واجعلنا على الطاعة كي لا نعصي، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم يا الرقيب اجعلنا وآبائنا وأولادنا ونسائنا وإخوتنا تحت رعايتك مسلمين خاشعين لك طائعين وألحقنا بالصالحين الأبرار الذين بروا بما وعدوا من الاستقامة على هذا الإيمان إلى أن قبضتهم إليك وأنت راض عنهم. (وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد) اللهم ارحمنا ولا تعذبنا، ووفقنا، فإنه لا ملجأ لنا إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك.

اللهم إنك الرقيب لا تخفى عليك خافية فطهّر أنفسنا من ضعفها وطهرها من وساوس الشيطان، اللهم يا الرقيب اجعل بيننا وبين الحفظة المكلفين بنا خير علاقة واجعلنا من الذين ثقلت موازينهم ولا تجعلنا من الخاسرين الذين خفت موازينهم.

اللهم يا الرقيب لا ملجأ لنا إلا إليك، ولا معول لنا إلا عليك ولا حافظ ولا نافع ولا رؤوف وعفو وغفور إلا أنت لا إله إلا أنت سبحانك.

اللهم يا رقيب ارحمنا وأكرمنا وآثرنا ولا تؤثر علينا إنك على كل شيء قدير.

---

[٩٥٩] الأنعام ٥٩.

اللهم يا المجيب إنك تعلم ما في أنفسنا ولا تغيب عنك غائبة وتعلم مَا نُسِرُّ وَمَا نعْلِنُ إِنَّك عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ فاجعل رحمتك لنا في الدارين هي الإجابة.

اللهم يا المجيب إنك تملك القوة والقدرة والملك والأمر والموت والحياة وتملك كل شيء فأجب سؤالنا بالرزق الحلال والعلم النافع والصحة الطيبة والزوجة التقية والأبناء الصالحين.

اللهم إنا نسألك يا فارج الهم ويا كاشف الغم يا المجيب لدعوة المضطرين يا رحمن الدنيا يا رحيم الآخرة ارحمنا برحمة تغننا بها عن رحمة من سواك يا ارحم الراحمين.

اللهم آت أنفسا تقواها وزكها يا خير من زكاها أنت وليها ومولاها يا رب العالمين، اللهم إنا نسألك ألا تجعلنا بدعائك اشقياء وكن بنا رؤوفا رحيما يا مجيب الدعاء يا لله.

اللهم يا المجيب اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا سبحانك جل جلالك أنت المجيب عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم.

اللهم يا الواسع النعم يا مزيل النقم نسألك أن تُطهِّر قلوبنا وأن تغفر ذنبنا وأن توسِّع ديارنا بالخير والرزق الحلال، وأن تجعل غنانا في قلوبنا، اللهم بواسع رحمتك اجعلنا نعظِّم شكرك ونكثر ذكرك ونتبع أمرك ونجتنب ما نهيت عنه ونتقيك.

اللهم يا الواسع وسّع صدورنا بذكر أسمائك الحسنى وبالإيمان بك واحدا أحدا لا شريك لك، اللهم يا الواسع وسع عقولنا بالتفكر والتذكر فيما أنزلت واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللهم يا الواسع وسع علينا برزقك الحلال وارزقنا طاعتك وطاعة رسولك والعمل بكتابك.

اللهم يا الواسع بخلقك الروح والنفس والبدن قد وسعت علينا كثيرا فلا تجعلنا في ضائقة، وخلقت لنا الرزق فلا تجعلنا فقراء إلا إليك، ووسعت برحمتك كل شيء فارحمنا.

اللهم يا الحكيم حبب إلينا الإيمان والحكمة التي تعظنا إلى ما يجب القيام به وتنهانا عما يجب الانتهاء عنه، اللهم أجعلنا من المستخلفين في الأرض لنصلح لا لنفسد فيها ونسفك الدماء، وأهدنا في من هديت بجاه أسرار البيت ومن فيه صلى وصليت.

اللهم إنك الحكيم فاجعلنا من الحكماء، واجعلنا من الوارثين، اللهم صل على سيدنا محمد وسلم صلاة تحل بها العقد وتفرج بها الكرب وتصلح بها الأمور، اللهم نسألك يا أحكم الحاكمين أن تهب لنا حكما وأن تلحقنا بالصالحين وأن تجعل لنا لسان صدق في الآخرين وأن ترزقنا جنة النعيم.

اللهم يا الحكيم، فبحكمة منك خلقتنا وهديتنا ورزقتنا فاجعلنا في أحسن تقويم حتى نقوم بحق عبادتك على الوجه الذي يرضيك عنّا، ويا الحكيم نسألك بحكمتك ألا تجعلنا في أسفل سافلين، أو أن نضل بعد أن كنا من المهتدين، وأن تلهمنا الحكمة في كل قول وعمل، فمن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

اللهم أحمدك يا الحكيم على خلقك لنا في أحسن تقويم، وجعلك فينا الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين مبشرين ومنذرين وداعين للخير فاجعل لنا الخير في كل حين، والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الودود يا مصدر كل ودٍ نحن فقراء إلى ودك فلا تحرمنا ودك فيه نحيا وبه نموت وبه نبعث وبه ننجو من العذاب.

اللهم ألق في نفوسنا وداً من ودك حتى تطمئن واجعل بيننا وبين قومنا ودا ورحمة، اللهم اجعلنا بودك نغنى ونفوز في الدارين وبودك نعمل ونصلي ونسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين، اللهم يا الودود حببنا في الطاعات ونفرنا من المعاصي اللهم اجعل بيننا وبين أولادنا وأزواجنا ودا من ودك لا ينقطع ما حيينا، اللهم اجعل بيننا وبين ذكرك ودا واجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَكَ (قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

اللهم يا الودود يا ذا العرش المجيد يا المبدئ يا المعيد يا الفعَّال لما تريد نسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك وبقدرتك التي قدرت بها على جميع خلقك وبرحمتك التي وسعت كل شيء لا إله إلا أنت أن تغفر ذنوبنا وسيئاتنا وأن تبدلها لنا بحسنات إنك جواد كريم رؤوف رحيم.

اللهم يا الودود حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان اللهم يا الودود إننا نسألك حب العمل الذي نبلغ به حبك، اللهم زد أعمالنا بحسنات ودك يا الله.

اللهم يا الودود إنا نسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب توحيدك وحب الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج بيتك المحرم فبلغنا يا الودود ما نويينا.

اللهم يا ودود ألف بين قلوبنا، وفرج كروبنا وأصلح ذات بيننا، واهدنا سبل السلام، ونجنا من الظلمات واجعل لنا نور نهتدي به، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبارك لنا في أسماعنا، وأبصارنا، وقلوبنا، وأزواجنا، وذريتنا، وتب علينا إنك أنت الودود.

اللهم يا المجيد يا فعّال لما تريد بالشكل الذي تريد، افعل بنا ولنا الخير الذي تريد، واجعلنا يا المجيد نفعل ما تريد بالوجه الذي تريد، واقضي لنا الخير حيث كان في الأرض لنقيم عليها ما أردت من خلافة، وفي السماء وما يغيب فيها لنتوجه إليك فتفيض علينا من مجدك الشامخ وملكك الباذخ، اللهم بمجدك يا المجيد نسألك قلوبا أواهة مخبتة منيبة في سبيلك، ونسألك عزائم مغفرتك ومنجيات أمرك والسلامة من كل إثم والغنيمة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم إنك باعث الحياة، وباعث لنا الحياة فيها بعد أن خلقتنا من طين لازب، ثم من نطفة مصداقا لقولك تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ}[٩٦٠] اللهم يا الباعث يا عالم الأسرار يا من خلقتنا من تراب ابعثنا في الجنة ولا تبعثنا في النار، اللهم إنك من تدخل النار فقد أخزيته فلا تدخلنا فيها حتى لا نكون مع المخزيين وادخلنا الجنة حتى نكون مع الوارثين، ولا تخزنا يوم يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

---

[٩٦٠] المؤمنون ١٢ ـ ١٦.

اللهم يا الباعث قد مننت علينا برسول من أنفسنا يتلوا علينا آياتك فبه آمنًا وعليه صلينا وسلمنا كما أنت عليه صليت وسلمت.

اللهم يا الشهيد نشهد إنك أنت الله وإنك على ما نعمل شهيد ونسأل أن تكون أعمالنا خير شاهد على استخلافنا في الأرض وفوزنا في الجنة إنك بنا رؤوف رحيم.

اللهم يا الشهيد إنك على كل شيء شهيد، نية تكمن في الصدور، أو تذكُّر لماضٍ، أو تفكُّر في مستقبل، أو قول ينطقه اللسان في الحاضر أو عمل تؤديه الحواس فاجعل كل ذلك خالصا لوجهك الكريم يا الشهيد يا الله.

اللهم يا الشهيد اجعلنا شهداء بالحق ولا تجعلنا من الشاهدين بالباطل، واجعلنا مؤمنين بقول الحق والشهادة به ولو كان على أنفسنا، اللهم إنك أنت خير شاهد فإن نسينا أو أخطأنا فاغفر.

اللهم إن الشهادة بك تحق الحق فنشهد أنك أنت الحق شاهدا سبحانك.

اللهم يا الشهيد إنك جعلت علينا ألسنتنا شاهدة وأيدينا شاهدة وأرجلنا شاهدة فلا تجعلنا من مرتكبي المعاصي والزلات والخطايا والذنوب والعيوب والكبائر حتى تكون ألسنتنا وأيدينا وأرجلنا شاهدة لنا لا شاهدة علينا يا الله.

اللهم يا الحق لك الحمد كما ينبغي لك، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم إنا آمنا بكتابك الحق، وبكل ما نزل فيه، فالجنة حق، والنار حق ولقاؤك حق، فأغفر لنا يا الحق ما بدر منا من الذنوب والزلل والخطأ والتقصير والعصيان، وألهمنا الحق الذي ينقلنا لطاعتك ومحبتك ورضاك، نحن أمنا بك، أنت ربنا مالنا رب سواك يرحمنا ويغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا، وما أسررنا وما أعلنا، اللهم يا الحق نوِّر بصائرنا بالحق فلا نرى فيها إلا رحمتك ومغفرتك وكرمك وعطفك، فنحن الفقراء وأنت الغني، ونحن الضعفاء وأنت القوي، تباركت وتعاليت يا الحق، يا محق الحق وزاهق للباطل، اللهم إن رسولك محمد حق عليه نصلي ونسلم كما صليت يا حق على سيدنا إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم يا الوكيل على كل شيء في هذا الكون الكبير لا توكل علينا من لا يخافك ولا يخشاك واجعل اللهم يا وكيل الخير وكيلا فينا على الشر فلا يعتري أفعالنا نقصا أو تقصيرا أو ضعفا أو

ظلما أو أي تصرف من التصرفات التي لا ترضيك واجعلنا يا الوكيل ممن وكلتهم على الأرض بالخلافة فيها لا للإفساد.

وسدد يا الوكيل أمرنا إلى ما فيه خيرنا وخير البلاد والعباد ولما فيه عزة ورفعة الإسلام والمسلمين في كل مكان واجعلهم ممن ينصرون دينك الحنيف ضد الشرك والمشركين. اللهم يا الوكيل أعزنا بعزك وانصرنا بنصرك ولا تكلنا لأحد غيرك.

اللهم يا الوكيل بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فاجعلنا ممن تحققوا بمعنى الخلافة فأقاموها متوكلين عليك منيبين إليك مقتدين بكتابك عاملين بسنة نبيك مخالفين من خالفك موالين من والاك، اللهم يا الوكيل لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك اللهم يا نعم المولى ونعم الوكيل والنصير تولنا في الأمور كلها، إنك ولينا والحمد لك.

اللهم يا الوكيل إننا نركع ونسجد لك فلا تجعلنا من الراكعين والساجدين لغيرك، إنك ولِيَّنا لا إله إلا أنت خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ نعْبُدُك وأنت عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُك الْأَبْصَارُ وَأنت تُدْرِكُ الْأَبْصَارَ خالق الأشجار والليل والنهار وعالم الأسرار إنك الواحد القهار وأنك اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ وأنك بنا وكيل.

اللهم يا القوي أنت القوي وحدك ولا قوي غيرك فأنت القادر على كل شيء ولا شيء خارج عن نطاق قدرتك فلا متصرف في الكون إلا أنت اللهم أجعلنا أقوياء بقوتك ولا تجعلنا مستضعفين في الأرض ولا ضعفاء يوم اللقاء.

اللهم اجعل لنا حظا من قوتك حتى نصبر على طاعتك وعبادتك فنتقوى بفضلك من أجل طاعتك فيما أمرتنا والابتعاد عما نهيتنا.

اللهم قوي الفطنة فينا على الغفلة والعقل على السفه والحمق وقوي الحلم فينا على التسرع والتهور الذي لا يليق.

اللهم يا القوي قوي هيبتنا وقوي حجتنا وفرج كربتنا، وانهض غلبتنا وتوّجنا بفرحتنا أنت القوي سبحانك جل جلالك.

اللهم يا المتين يا من جعلت صلاتك رحمة على سيدنا محمد اجعلنا عليه دائما من المصلين والمسلمين، اللهم أنت المتين ذو الاقتدار الكامل وذو القوة التامة، وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بغير حساب، سبحانك رزقك ما له من نفاد، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، فارزقنا قوة منك نكون بها عونا على الخير، ودرءًا للشر، واجعلنا في الخير بنيانا مرصوصا وسدا محفوظا ندفع بأهل الخير إلى الخير، ونمنع أهل الشر عن الشر، حتى تتحقق خلافتك على الأرض.

اللهم يا المتين متن الإيمان في قلوب المسلمين حتى تطمئن قلوبهم، ومتّن القول الحق في ألسنتهم حتى يدمغ الباطل، ومتن العلم في عقولهم حتى تُنار دروبهم وتستقيم أعمالهم، ومتن اسمك في عقولهم وقولك في إنصاتهم حتى يرشدون، إنك أنت المتين جل جلالك.

اللهم يا الولي أنت تتولى الأنبياء والأولياء والخلفاء والصالحين، فكن بنا يا ربنا بارا وليا وحفيا، اللهم إنّا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها، ويا الولي أصلح لنا شئوننا في الأمور كلها، وتولنا من وساوس النفس ومن أرق الضمير ومن غلبة فساد القلوب، ورقّنا إلى منازلَ من اتخذوك وليا وتولّيْتَ أمورهم في الظاهر والباطن، أنت يا الله يا ولي قلت: (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور)[٩٦١] فأخرجنا يا الله من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والعلم، وتولنا بعنايتك وبواسع رحمتك.

اللهم إنك ولينا في الدارين فاجعلنا من المستخلفين الصالحين المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين الضالين وتولنا وأولادنا وزوجاتنا ووالدينا ومن لهم الحق علينا تولنا يا الله بالرعاية والعناية واجعلنا من الفائزين واستغفر الله من كل ذنب والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الحميد لك الثناء والحمد والشكر اللهم إنك أحسنت خلقنا فحمداً لك، وأسبغت علينا نعمك فحمدا لك يا الحميد.

---

[٩٦١] البقرة، ٢٥٧

اللهم أعنا على حمدك وشكرك كما ينبغي ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم اجعلنا من الَّذِينَ يَذْكُرُونَك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ويقولون: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

اللهم إنك خلقت كل شيء يسبح بحمدك فاجعلنا من المسبحين بحمدك ولا تجعلنا من الضالين الغافلين المغضوب عليهم منك المكتوب عليهم سخطك وعقابك.

اللهم لك الحمد على نعمة العقل الذي وهبته لنا وحسن التقويم الذي خلقتنا عليه، والرسول الخاتم الذي اصطفيته لنا ونحن نصلي ونسلم عليه كما أمرت، ولك الحمد على استخلافك لنا في الأرض ولك الحمد على نعمك التي أنعمت بها علينا وأكرمتنا بها، ولك الحمد على الجنة التي وعدتنا بها.

اللهم يا المحصي اجعل أعمالنا كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، وضاعفها لنا يا أرحم الراحمين إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا المحصي لك الحمد والشكر على ما أنعمت به علينا من نعم لا تعد ولا تحصى أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين.

اللهم يا المحصي اجعل صحائفنا يوم العرض عليك رحمة لنا وكل إحصاء فيها اجعله حسنة بقدرتك ورحمتك يا المحصي يا الله.

اللهم يا المحصي اجعل آخر كلمة نقولها ونحن خروج من هذه الدنيا لا إله إلا الله محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اللهم يا المبدئ جعلت بدايتنا على الإيمان بك واحدا أحداً اجعل خير أعمالنا خواتمها، وجعلت بدايتنا حمْل الرسالة فاجعلنا من المبشرين بها ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم إنك تبدئ وتعيد اجعلنا كما خلقتنا من المستخلفين فيها في أحسن تقويم، اللهم يا المبدئ للروح اجعل أرواحنا طاهرة وأنفسنا مطمئنة وأجسادنا محفوظة من عذاب النار.

اللهم يا من جعلت لكل بداية نهاية ولكل نهاية بداية وكتبت على العاقل أن ينظر بعين عقله وقلبه وقلت وقولك الحق: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٩٦٢] فيا المبدئ يا الله يا من تسمع كلامنا وترى مكاننا وتعلم سرنا وعلانيتنا ولا يخفى عليك شيء من أمرنا ونحن الفقراء المستغيثون المستجيرون الوجلون المشفقون نسألك لا تجعلنا بدعائك أشقيا وكن بنا رؤوفا رحيما يا خير الحافظين ويا خير المعطين. وابدأ بالخير أعمالنا وإذا أذنبنا أبدي في قلوبنا توبة يعقبها قبولاً وعملا يتممه توفيق أنك المبدئ والمعيد والفعَّال لما يريد سبحانك جل جلالك.

اللهم يا المعيد أعد للإسلام مجده وللمسلمين العزة والهيبة، وألبسنا ثوب الخيرية الذي ألبسته أجدادنا وقلت فيهم وفينا: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ}[٩٦٣] فأعدنا إلى العمل بكتابك والاقتداء بهدي رسولك محمد عليه الصلاة والسلام، فنعيد الحق بالحق لأهل الحق، ونبطل الباطل بالحق ليعلو الحق، اللهم يا المعيد عيد الحق لأهله وانتصر لعبادك المؤمنين فإنك تعلم ما حلّ بأمة نبيك وليس لها من دونك كاشف للبلوى، واجعلنا ممن حملوا الأمانة وأقاموا الخلافة طاعة لك واقتداءً بأنبيائك وأوليائك.

اللهم اجعلنا من الذين يعودون إليك فيما قلت وبما أمرت حتى نهتدي إلى الصراط المستقيم، اللهم يا المعيد يوم تعيدنا للتراب لا تعيدنا معذبين، ويوم تبعثنا للحياة من جديد فاجعلنا في جنان الفردوس والنعيم إنك بنا رؤوف رحيم.

اللهم يا المحيي اجعل الطمأنينة ملء نفوسنا ومحبتك ملء قلوبنا. اللهم يا المحيي ازرع فينا طاعة الوالدين في غير معصيتك واجعلنا من المحسنين إليهم.

اللهم اجعلنا من الذين يُحيون الأرض بإصلاحها وفلاحها وإعمارها وزرع الخير والأعمال الحسان فيها ولا تجعلنا من المفسدين والعابثين.

---

[٩٦٢] العنكبوت ١٩

[٩٦٣] آل عمران ، ١١٠

اللهم يا المحيي أحينا على الإيمان وامتنا عليه، وأحي في قلوبنا طاعتك وأمت معصيتك، اللهم أحينا حياة طيبة في الدنيا والآخرة، واجعلنا من أصحاب الحياة في الجنة ولا تجعلنا من اصحاب النار، اللهم أحي في قلوبنا ما تحب وترضى، واجعلنا من الساعين في إحياء ما تحب وترضى، اللهم أحينا على طاعتك ولا تحينا على معصيتك إنك مجيب الدعاء محي القلوب.

اللهم أحينا على الإيمان وأمتنا على الإيمان وابعثنا أحياء على الإيمان سبحانك يا المحيي أنت الرحمن الرحيم.

اللهم يا المحي أحينا على ملة الإسلام وأمتنا عليها، وأحينا إن كانت الحياة خيرا لنا، وأمتنا إن كانت الحياة شرا لنا، اللهم يا المحي أحي قلوبنا بالإيمان وبنور معرفتك، اللهم أحي بصائرنا بنورك العظيم لنتبع خطوات عبادك من الأنبياء والشهداء والصديقين وحسن أولئك رفيقا.

اللهم يا المحي اجعلنا من الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقتهم ينفقون، اللهم أكرمنا بعفوك ورحمتك وفضلك يا المحي للنطفة الميتة فتخرج منها النسمة الحية، والمحي للأجسام البالية بإعادة الأرواح إليها عند البعث، والمحي للأرض بعد موتها بإنزال الغيث وإنبات الرزق، أحيينا برحمتك يا المحيي يا الله.

اللهم يا المحيي الأموات ويا مميت الأحياء نتوسل إليك بأسمائك الحسنى ما نعرف منها وما لا نعرف أن نكون من عبادك الطائعين وخلفاؤك المخلصين المتصفين بصفاتك الحسان.

اللهم أمت فينا روح الإفساد والظلم وأمت شهواتنا لمعاصيك ومعصيتك واجعل لنا الموت راحة لنا وخلاص من كل شر واجعل الحياة لنا من كل خير.

اللهم أمت فينا شعور الذل والضعف بعزتك وقوتك وقدرتك وأمت فينا شعور الحقد والكره برحمتك وعفوك وحبك، وأمت فينا النقائص بالتكبر عليها وتركها بحبك وحب ما يقرب إليك من طاعات وأمت فينا اللهم جهلنا بنور علمك وهدايتك وأمت فينا الخوف من غيرك بالخوف منك وأمت فينا الرجاء في غيرك بالرجاء فيك، وأمت فينا الطمع في غيرك بالطمع في رحمتك ومغفرتك.

اللهم اجعلنا مميتين لكل ما يغضبك وما لا ترضاه في نفوسنا وفي أقوالنا وأعمالنا واجعلنا من الشاهدين.

اللهم يا الحي إننا نصلي ونسلم علي سيدنا محمد فاجعل صلاتنا وسلامنا عليه يُحى بها الإيمان والخير في صدورنا، ويمت بها الكفر والشر في أنفسنا وأعمالنا، اللهم يا الحي حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعل يا الحي يا الدائم أجمل أيامنا يوم لقاك فنحيا حياة لا نموت بعدها أبدا في ملكك الذي لا يبلى ونعيمك الذي لا ينفد، اللهم يا الحي يا القيوم برحمتك نستغيث لا إله إلا أنت، أصلح لنا الأمور كلها ولا تكلنا إلى نفوسنا طرفة عين أو أقل وتولنا في الأمور كلها.

اللهم يا الحي أحيي في قلوب عبادك الرحمة والمودة والألفة والمحبة، وأحيي في نفوسهم طاعة الوالدين في غير معصيتك، والإصلاح والفلاح في الأرض التي استخلفتهم فيها إنك رؤوف رحيم، فارحم.

اللهم إنك الحي القيوم فاجعل أعمالنا شاهدة قائمة بالحق يوم لقاك، اللهم إنك الحي الذي أحيانا من لا شيء وجعلنا مستخلفين فارحم وكفِّر واغفر إنك قريب سميع مجيب لا إله إلا أنت سبحانك.

اللهم يا القيوم أكفنا مفتوحة، وأبصارنا شاخصة، وقلوبنا ترتجف خوفا من عقابك، وطمعا في رحمتك، أنت ولينا في الدنيا والآخرة توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، اللهم يا القيوم سخر لنا الحياة الدنيا في طاعتك، واجعلها لنا داراً للإيمان وبابا ندخل منه واسع رحمتك في جنتك التي وعدت بها عبادك الذين استخلفتهم في الأرض وجعلتهم الوارثين، اللهم يا القيوم أصلح لنا شأننا كله، أنت أعلم بحالنا مالنا رب سواك، أنت القائم على كل شيء هيأ لنا أسباب المغفرة والرحمة ولا تجعلنا من القانطين.

اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق ورسولك محمد عليه الصلاة والسلام حق، والجنة حق والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبا وبك خاصمنا واحتكمنا فاغفر لنا ما قدمنا وأخرنا وأسررنا وأعلنا أنت القيوم جل جلالك لا إله إلا أنت.

اللهم يا الواجد يا من أوجدت الوجود من لا شيء اجعل لنا في كل شيء أوجدته خيرا، واحفظنا من كل الشرور، اللهم إنك أنت الواجد للرحمة فارحمنا بفضائها، وأنت الواجد للمحبة فاجعلنا على حبك كما احبك نبيك محمد عليه الصلاة والسلام، وأنت الواجد للمغفرة فاغفر اللهم خطايانا وذنوبنا وأنت الواجد للأرزاق فارزقنا من نعمك الكثيرة، وأنت الواجد للأرض التي أوجدتنا منها فاجعلنا من المستخلفين فيها والمصلحين ولا تجعلنا من العابثين والمفسدين.

اللهم يا الواجد إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار.

اللهم يا الوجد للخلق احشرنا مع أحب الخلق إليك سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، واجعلنا من الفائزين بالجنة بجودك ولطفك وكرمك ورحمتك يا الله.

اللهم يا الماجد اجعل حياتنا على أمجاد ولا تجعلها ساكنة مذلة، واجعلها على الرفعة والرضا ولا تجعلها في هاوية مهانة، اللهم إننا نشهد لا مجد إلا بك، ولا عزة إلا بك، ولا علم إلا بك، ولا حكمة إلا بك، ولا غنى إلا بك، ولا قوة ولا قدرة إلا بك، ولا شيء يمكن أن يكون إلا بك، فارحمنا.

اللهم يا الماجد أكرمنا المنزلة الرفيعة والدار الآمنة في الدنيا والآخرة، واحشرنا مع عبادك أصحاب الدرجات العالية من النبيين والشهداء والصالحين.

اللهم يا الماجد إنّا نسألك رضاك والجنة وما يقرّب إليهما من قول وعمل، ونعوذ بك من سخطك والنار وما يقرّب إليهما من قول وعمل، اللهم زين قلوبنا بزينة الإيمان، وطمئن نفوسنا بزنة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين، اللهم أكرمنا حبك وحب من يحبك يا ارحم الراحمين.

اللهم إنك الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، اللهم إنك الواحد الذي تتعدد صفاته الحسان ولا يتعدد، وتتعدد معجزاته وهو الواحد لا يتعدد.

اللهم إنك الواحد الذي لا بداية إلا منه والآخر الذي لا نهاية إلا له، وإنك الواحد قبل الآحاد والآخر بعد الجموع، والواحد قبل الحياة والواحد بعد الممات والواحد بعد البعث سبحانك لا إله إلا أنت الواحد الأحد.

اللهم إنك الواحد الذي لا شريك لـه في الملك، والواحد الذي لا شريك لـه في العرش، والواحد الذي لا شريك له في الخلق، والواحد الذي لا شريك له في البعث والواحد الذي لا شريك له في الأمر.

اللهم يا الواحد نشهد أنك أنت الواحد القهار، وأنك الواحد العزيز الجبار، وأنك الواحد الملك المتعال، وأنك الواحد الرحمن الرحيم الذي كلما دُعي بأسمائه الحسنى استجاب، اللهم يا الواحد ندعوك بأسمائك الحسنى أن ترحمنا وتطهرنا من كل دنس وتفتح لنا السبل للإصلاح والفلاح والإعمار والكسب الحلال يا الله.

اللهم يا الصمد يا مستغني بذاتك عن الصاحبة والولد اجعلنا وزوجاتنا وولداننا ووالدين صامدين على طاعتك ووحدانيتك واجعلنا منزهين عن الإفساد في الأرض التي خلقتنا منها وارتضيت لنا الاستخلاف والإصلاح فيها. اللهم أنت قاضي الحوائج فأهدنا إلى ما يُمكِّنا من قضاء حوائجنا وبكل ما يفيد وينفع، وبما فيه رضاك عن أقوالنا وأفعالنا وأعمالنا، اللهم يا الصمد نفوض لك الأمر في الظاهر والباطن وفي السر والعلن، فأنت الصمد الذي تَطعِم ولا تُطعَم وأنت تقضي بالحق حتى يحق، وتدمغ الباطل حتى يُزهق، فأطعمنا من لذيذ رزقك وارونا من سائغ رحمتك وأقر عيوننا ببديع نورك.

اللهم يا الصمد نسألك أن تغفر لنا ذنوبنا، وتستر عيوبنا وتجعلنا صامدين على الحق واتباعه، وصامدين على الإحسان واتباعه، وصامدين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللهم يا الصمد اجعلنا مؤمنين طائعين لكتابك الحكيم ولرسولك الكريم الذي صليت وملائكتك عليه وقلت وقولك الحق: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) اللهم صلي وسلم على سيدنا محمد في كل مكان وزمان وسرا وعلانية.

اللهم يا الصمد إنا أطعناك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، فأكرمنا بالجنة وأبعدنا عن النار وأزح عن صدورنا كل هم وغم.

اللهم يا القادر أجعلنا على قدرة نكون بها قادرين على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتجعلنا من الموفين للكيل والميزان إذا اكتلنا أو وزنا وقدرة تجعلنا عادلين إذا حكمنا بين الناس، وأجعل لنا

قدرة تُمكِّنا من مغالبة أي قوة ظالمة أو فاسقة أو فاجرة فاسدة، اللهم أجعلنا على قدرة تحفظنا من الضعف الذي يسببه أبالسة الجن والأنس وأجعل بيننا وبينهم سدا واجعلنا مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حق إنك أنت القادر سبحانك لا إله إلا أنت.

اللهم يا القادر اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوانا ما أحييتنا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا أحد إنك القادر.

اللهم يا القادر قدّر لنا الخير كله واجعله أمامنا حيثما نسير يكون معنا في الدنيا والآخرة.

اللهم يا القادر إنا نسألك الجنة وما يقرّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما يقرّب إليها من قول وعمل. اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم يا القادر إنك على كل شيء قادر فقدر لنا أرزاقاً تغنينا في دنيانا وجنات تغنينا في آخرتنا، اللهم إنك قدَّرت لنا الحياة بماضيها وحاضرها ومستقبلها الذي لا نعلمه فاجعله كله لنا على خيراً ولا تجعل لنا فيه كدرة ولا غفلة ولا ضلالاً ولا شراً.

اللهم إنك القادر الذي لم يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا.

اللهم اجعلنا بقدرتك قادرين على مغالبة من لا يريد بنا خيراً، وقادرين على اتباع أوامرك وتجنب نواهيك، وقادرين على التوجه إليك دون وسائط وأنت السميع المجيب اللهم أجبنا وكن بنا رؤوفا رحيما. اللهم إنك القادر الظاهر والباطن فأظهرنا بقدرتك على علم من علمك الظاهر وعلمك الباطن.

اللهم إنك القادر العظيم فاجعلنا بقدرتك العظيمة من عبادك الصالحين الذين لو اقسموا بك لأبريتهم.

اللهم يا المقتدر هب لنا القدرة التي تُمكنا من الطاعة التامة والاستماع للقول واتباع أحسنه والاحتكام به، اللهم بقدرتك أهدنا في من هديت وهيئنا لما ارتضيت لنقوم به ونحن قادرين ولا

تجعلنا من الَّذِينَ قَالُوا آَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آَخَرِينَ ولا تجعلنا يا المقتدر عاجزين عن إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

اللهم يا المقتدر اجعل لنا من قدرتك حظا نستعين به على عبادتك وطاعتك وندفع به حب الشهوات الدنيوية فلا تكون أكبر همنا ولا تكون مخالفة لأوامرك فنكون بذلك مقتدرين على الدعوة إلى سبيلك بالحق وقادرين على الثبات على شرعك ومنهاجك القويم أمام كل مفاتن الزمان ومغرياته وفتنه فنكون ظاهرين بالحق على الباطل مظهرين له وللعدل في كل أفعالنا وأقوالنا.

اللهم يا المقتدر أجعل لنا القدرة التي بها نتحدى الصعاب ونتجنب الوقوع في الخطايا ونقدم على أفعال الخيرات إنك قريب سميع مجيب الدعاء يا خالق الأرض والسماوات العلا وما بينهما وما تحت الثرى.

اللهم يا المقتدر اجعلنا من المتخلقين المتحققين باسمك المقتدر، فنكون ممن يُقدِّر الأمور بقدرها الصحيح فلا يكون في أعمالنا إفراط ولا تفريط، ولا في أقوالنا زلات وخطايا، ولا في أنفسنا غلظة على من تحب وعلى من يجب الإحسان إليهم في غير معصيتك.

اللهم يا المقدم اغفر لنا ما تقدم منا من خطايانا وما جهلنا وما نسينا، وما أسرفنا في أمرنا، وما أنت أعلم به منا، اللهم يا المقدم قدم لنا من الخير الباقيات والأفعال الصالحات والأعمال المنجيات، اللهم أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيءٍ قدير، فنسألك أن تقدم لنا الحسنات وفعل الخيرات والنجاة من كل ذنب في الحياة ويوم الممات ويوم البعث إنك قريب سميع مجيب الدعوات، اللهم يا المقدم قدم لنا ما قلنا من كلمات مصلحات وأفعال صالحات ونوايا طيبات وتجاوز لنا عن الزلات، اللهم يا مقدم إليك قدمنا عملنا، ولك أسلمنا وبك آمنا وعليك توكلنا وإليك أنبنا وبك خاصمنا وبقولك احتكمنا فاجعلنا من المتقدمين لا من المتخلفين عن الفوز برحمتك ورضاك. اللهم يا المقدم اجعلنا بتوحيدك نتقدم وبذكرك نتقدم وبتسبيحك نتقدم، وبطاعتك نتقدم وبأخذ ما أمرت الأخذ به نتقدم وبالانتهاء عما نهيت عنه نتقدم، اللهم

اجعلنا بذلك نتقدم حتى بلوغ الجنة، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت سبحانك جل جلالك.

اللهم اجعل حسناتنا مقدمة لطاعتك، واجعل طاعتنا مقدمة لرضاك، واجعلنا على ما يرضيك حتى ترضى عنّا، وأن نكون في رضاك خالدين في جنة الخلد، وقدّم حمل أعمالنا ثقلا في موازين رحمتك، نستغفرك ونتوب إليك حتى ترحمنا وتغفر لنا، سبحانك لا إله إلا أنت المقدّم جل جلالك واحدا أحدا لا شريك لك.

اللهم يا المؤخر لا تؤخر عنا المغفرة والفلاح، واجعلنا من الغانمين الفائزين، اللهم أخر عنا العناء والتعب والألم والجهل والمرض والفقر وقدم يا المقدّم لنا الخير في الدارين.

اللهم يا المؤخر إنك تؤخر العقاب ليوم الحساب فلا تجعل لنا من الأقوال والأفعال والأعمال ما يؤدي إلى ذلك، اللهم يا المؤخر برحمتك تؤخر الحساب على الخطايا والذنوب لأجل نيل الرحمة والمغفرة قبل الموت فاجعلنا برحمتك ومغفرتك من الفائزين، اللهم يا المؤخر اجعل لنا الفوز بالجنة هو الفوز المؤخر بعد الممات، ولا تجعلنا من المعذبين بالنار، اللهم يا المؤخر اجعل لنا في ميزانك الحسنات ولا تجعل لنا فيه شيئاً من السيئات، إننا نسألك الرضا بعد القضاء، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك الكريم، وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، ونعوذ بك من الظلم والظالمين والحسد والحاسدين والنفاق والمنافقين والشرك والمشركين والكفر والكافرين والفساد والمفسدين واجعلنا من عبادك المصلحين المعمرين والمفلحين في الأرض، اللهم يا المؤخر نسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، ونسألك قلبا خاشعا سليما وخلقا مستقيما، ولسانا صادقا وعملا متقبلا، ونسألك من خير ما تعلم، ونعوذ بك من شر ما تعلم، ونستغفرك لما تعلم فإنك تعلم ما لا نعلم وأنت علام الغيوب، اللهم اغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا وما أسررنا وما أعلنا، وما أنت أعلم به، فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد، فاجعل اللهم خير أعمالنا خواتيمها، وخير أيامنا يوم لقائك.

اللهم يا الأول يا محب للأوائل وأنت تقول فيهم: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٩٦٤]، اجعلنا من أوائل المطيعين ومن أوائل المخلصين ومن أوائل الساعين في إعمار الأرض وإحقاق الحق عليها إنك مجيب الدعاء.

اللهم يا الأول اجعلنا من الأوائل في قول الحق، ومن الأوائل في فعل الحق ومن الأوائل في الاستماع للحق واتباع أحسنه، ومن المسبحين الأوائل باسمك العظيم ومن المصلين والمسلمين على رسولك الكريم محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

اللهم إنك الأول الذي لا أول قبله والآخر الذي لا آخر بعده نعبدك ونتوكل عليك ونولي أمرنا لك نستغفرك ونتوب إليك، اللهم اجعلنا من الأولين الفائزين بما يرضيك ولا تجعلنا من الضالين ولا الغافلين ولا المنافقين ولا المجرمين والمنحرفين إنك بنا لطيف خبير سبحانك لا إله إلا أنت الأول والآخر.

اللهم إنك الآخر الذي منه البداية وإليه النهاية، فاجعل بدايتنا طاعة وتوبة وآخرتنا مغفرة ورحمة، اللهم أنت الآخر الذي لا أول قبله ولا آخر بعده فأنت قبل القبل وبعد البعد سبحانك لا إله إلا أنت، فيا آخر اجعل خير أعمالنا آخرها وخير أيامنا يوم لقاك، ولا تلهنا بما في الدنيا عن خير باق أخرته لنا في الآخرة، ولا تجعلنا ممن قلت فيهم {إن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذابا أليما}[٩٦٥] فاملأ قلوبنا إيمانا بك يا آخر ونجنا من كل كرب ومن كل عذاب، واجعلنا ممن يقومون الليل الساجدين الذين يحذرون الآخرة ويرجون رحمتك الذين علموا أنك الآخر فعملوا للقائك وعلموا بأنك الآخر الذي لا ينسى ما قدمنا في الأولى.

اللهم إنك الآخر الذي آمنا به الأول، فلا أول نؤمن به غيرك يا الآخر، اللهم إننا نشهد في اليوم الأول بأنك الآخر الذي له الملك فاجعلنا من الشاهدين بملكك في اليوم الآخر يوم تطرح سؤالك: (لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)؟ (لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ).

---

[٩٦٤] التوبة ١٠٠.

[٩٦٥] الاسراء: ١٠

اللهم يا الظاهر على كل شيء وفي كل شيء ومظهر لكل شيء أردته أجعل الحق ظاهرا فينا على الباطل والعدل على الظلم وعبادتك على الشرك بك وطاعتك فينا ظاهرة على معصيتك حتى نكون بذلك ظاهرين بخلافتك في أرضك مظهرين لشرعك وحكمك وكل صفاتك في أنفسنا.

اللهم يا الظاهر أظهرنا على آياتك العظام في الظاهر والباطن، واجعلنا من الناظرين إليها حتى نراك فيها، ومن المفكرين فيها حتى اليقين، ومن المتذكرين حتى تكون لنا العبر.

اللهم يا الظاهر اجعلنا في كل مواقيت الصلاة ظاهرين، وبالمعروف آمرين وعن المنكر ناهين ومنتهين، واجعلنا بالصبر ظاهرين ولك طائعين عابدين.

اللهم يا الباطن يا رب العرش العظيم، يا من لا تراه العيون ولا تدركه الظنون، نسألك بأن تُطهِّر قلوبنا وما يكن في الصدور، ونسألك أن تصلح لنا فساد أنفسنا ليكون في باطنها ما تطمئن به.

اللهم يا الباطن اجعل قلوبنا تنير بنور اسمك الذي لا يخالفه الظاهر فننجو من النفاق في الاعتقاد والرياء في العمل، ونسألك يا الله أن تكون باطنا في قلوبنا بمعرفتك وخشيتك، وظاهرا في أعمالنا بمراقبتك والإخلاص لك، فيكون كل عمل لنا ظاهراً أنت يا ربنا من ورائه الباطن.

اللهم إنك الباطن الذي يعلم ما نسر ونجهر فلا تجعل شيئا مما نسر ونجهر في غير طاعتك، اللهم إنك الباطن الذي يعلم الغيب فاجعل لنا في علم غيبك المكارم والفضائل وما تطمئن به الأنفس إنك أنت الباطن سبحانك جل جلالك.

اللهم إنك الوالي الذي ليس لنا من دونه والي، تنعم بالعطاء وتدفع البلاء فانعم علينا بواسع نعيمك وادفع عنا كل بلاء وكل عناء وكل شقاء وارزقنا من حيث نحتسب ومن حيث لا نحتسب يا الله.

اللهم تولنا بالرعاية والعناية والهداية والحفظ من الدس والحسد والحقد والظلم والكيد والمكر فأنت ولينا وأنت خير الماكرين.

اللهم إنك الوالي الذي لا والي سواه فحل بيننا وبين كل سوء واجعل بيننا وبينه سدا، اللهم إنك الوالي القوي ونحن عبادك نحب القوة ونحب النصر فمدنا بالقوة التي بها ننتصر على الظالمين

والكافرين والمشركين، اللهم يا الوالي إننا عبادك نكره الضعف فلا تجعله لنا رفيقا، واجعل لنا بالحق مع القوة صحبة.

اللهم إنك الوالي الراعي للصادقين المصدقين بالحق فاجعلنا على الصدق ولا تجعلنا وأولادنا وأزواجنا من الكاذبين والمكذبين بالحق ولا تجعلنا من المنافقين.

اللهم إنك الوالي الذي يخرج من يشاء من الظلمات إلى النور اجعلنا على نور من نورك به نهتدي إلى سبل الصلاح ولا تجعلنا في ظلمة بها تغم الأنفس.

اللهم اجعلنا مع الذين قالوا: {رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}[٩٦٦].

اللهم إنك المتعالي رفيع الدرجات تعلوا فوق كل علو فتمتد الأيدي إليك سبحانك لا إله إلا أنت، نسألك أن تجعلنا على الدرجات الحسان نعلوا ولا تجعلنا في أسفل سافلين في ظلمة وغمة وكدر وهم.

اللهم إنك المتعالي بعظمتك وكبريائك فاجعلنا من المتعالين عن اتباع ما نهيت عنه واجتناب ما امرتنا اجتنابه واجعلنا من الطائعين إحقاقا للحق وإزهاقا للباطل والآخذين بما آتنا الرسول الكريم محمد صلواتك وسلامك عليه ومنتهون عما نهانا عنه إنك السميع المجيب.

اللهم إنك خلقتنا أزواجا وتعاليت عن الصاحبة والولد فاجمع بيننا وبين أزواجنا تعالٍ عن الشرك بك واجعل بيننا مودة ورحمة.

اللهم إنك تعاليت عن الصورة وخلقتنا في أحسن صورة وتقويم ورزقتنا من الطيبات واستخلفتنا في الأرض فتبارك الله أحسن الخالقين.

---

[٩٦٦] فصلت، ٣٠ . ٣٤.

اللهم إنك المتعالي عن الشبيه والصورة والمثال نسألك أن ترحمنا علواً بالحق ولا تعذبنا بعلوٍ عليه، إننا نتقيك ونستغفرك ونتوب إليك.

اللهم يا البرّ أجعلنا من المستخلفين الأبرار الأخيار، واجعلنا البارين بوالديهم وبكل ما يرضيك، وأرضى عنا وعن البنين، واجعلنا في الدنيا من المتقين الذين يذكرونك قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وهم يقولون: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)، واجعلنا يا البرّ من الحامدين الشاكرين المسبحين باسمك الأعظم واجعلنا في الجنة من الوارثين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

اللهم يا البرّ افتح علينا أبواب الخير في كل بر، وأحفظنا من كل شر ويسر لنا الأمر وأنت راض عنا في كل ما يفيد وينفع واجعلنا من الطامعين في فضلك وجودك وكرك والفائزين به ولا تجعلنا من الطامعين في سواك، اللهم إنك أنت البرّ الواسع فلا تجعلنا في ضائقة.

اللهم إننا نعلم يقينا أنك أنت التواب الرحيم، فنستغفرك من كل ذنب وغفلة أنت لا ترضاها لعبادك الصالحين، ونتوب إليك، بك آمنا ربا واحدا أحدا لا شريك لك في الملك ولا في كل شيء مما يذكر أو يعد أو يسمى، عليك توكلنا فلا تجعلنا من الخائبين، وأولينا أمرنا إليك فتقبله يا تواب رعاية وعناية وحفظا وسلامة، والحمد لله عليك توكلنا.

اللهم يا التواب اقبل توبتنا واجعلنا من التائبين وطهر نفوسنا من الرياء وطهر قلوبنا من النفاق وألسنتنا من الكذب، وجوارحنا من المعاصي، اللهم وفقنا للتوبة إليك فاجعل لكل ذنب توبة ولكل توبة مغفرة ورحمة، وتب علينا فأنت التواب الرحيم، واجعل أعمالنا وصلاتنا وسلامنا على محمد طمأنة للقلوب ومغفرة للذنوب وسترة عن ارتكاب الخطايا والعيوب، ويسر لنا عمل الخير في الغيب والشهادة، وارض عنا وتب علينا واقبلنا يا تواب.

اللهم طهرنا من الذنوب إنك أنت التواب الرحيم واجعل لنا مع كل شروق توبة ومع كل غروب توبة وتب علينا بنومٍ سباتٍ وليل لباسٍ ونهارٍ معاشٍ، وأملأ قلوبنا بفرحة مغفرتك لذنوبنا.

اللهم لا تغلق باب رحمتك ومغفرتك في وجهنا فإنه لا سبيل للنجاة إلا برضاك عنا وقبولك توبتنا، وبدل يا التواب سيئاتنا حسنات إنك سميع مجيب الدعاء يا الله.

اللهم يا المنتقم اجعلنا على الانتقام من المفسدين في الأرض، واجعلنا قادرين على الانتقام من الذين يريدون الانتقام منا، اللهم يا المنتقم اجعلنا على القوة التي بها نتمكن من الانتقام من ضعفنا وجهلنا وهفواتنا وما يوسوس به الشيطان لنفوسنا، اللهم أنت بيدك الملك، ونحن صنعتك، تعلم ما فيه الخير لنا ما لا نعلمه لأنفسنا، وترى منّا ما لا نراه في أنفسنا، ليس في صفاتك الحسنى شر تعاليت على ذلك علوا كبيرا، فسميت نفسك المنتقم، ونحن نثق أن انتقامك عين نفعك، فنسألك يا الله أن تنتقم لنا ممن بغى علينا وأراد بالإسلام وبنا وبخلقك سوءا، اللهم إن أعداءك يكيدون كيدا فكد بهم كيدا، وأبطل كيدهم، واجعل تدبيرهم تدميرهم، ونعوذ بك من فجورهم وشرورهم، ونجعلك ربنا في نحورهم، وبانتقامك اسلبهم مدد الإمهال، وأرسل عليهم ألوان الوبال إنك أنت المنتقم سبحانك عليك توكلنا ولك الحمد جل جلالك.

اللهم يا العفو اعفو عن غفلتنا بالرحمة ولا تجعلنا من الضالين، واعفو عن كل ما يشبع حاجاتنا في رضاك واجعلنا من المتصدقين المتطهرين والمتزكين، ولا تجعل في رزقنا رِباً ولا تجعل في أبنائنا شقاء ولا ضعفاً ولا فاقةً، اللهم اجعلهم على طاعتك أغنياء أقوياء على سنة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام يحقُّون الحق ويزهقون الباطل حتى ترضى، يا من خلقت الأرض وجعلت فيها خليفة طائعا لك وخلقت السماوات العلا، اللهم بعفوك ترحم وتغفر فارحمنا بطاعتك واغفر لنا خطايانا ولا تجعلنا من الغافلين. اللهم اعفو عن أبصارنا وأسماعنا أن ترى أو تسمع ما نهيت عنه، واجعل قلوبنا مطمئنة بما أمرت به، وعقولنا كافرة بما حرَّمت ونهيت.

اللهمَّ يا الرؤوف برأفتك أن تفك عنَّا كل هم وغم وتفتح علينا أبواب الخير لطاعتك وللعمل الذي ترضى به عنَّا، ووفقنا يا الرؤوف بما يغنينا عن سواك، اللهمَّ يا الرؤوف بحالنا أصلح أحوالنا ولا تشمِّت أحداً فينا، واحفظنا من الخائنين والحاسدين والضالين، عليك توكلنا يا رب العالمين. إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك، اللهم يا الرؤوف اجعلنا من المصلحين في الأرض واجعلنا من الوارثين في الدارين واجعل الرأفة تملأ قلوبنا بالرحمة والمغفرة واجعلنا من المتوكلين عليك في حركتنا ومعاشنا وسكوننا وراحتنا، إنك قريب سميع مجيب الدعاء والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الرؤوف كن بأحوالنا وأحوال آبائنا وزوجاتنا وأولادنا رؤوفاً رحيماً، وكن بأمتنا رؤوفاً حتى تكون بحق خيرَ أمةٍ أخرجت للناس، تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بِك واحداً أحداً لا شريك لك، اللهم يا الرؤوف إننا نسألك أن ترأف بنا وترحمنا، ونسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، اللهم يا الرؤوف كن بنا رؤوفاً وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَكن بنا رؤوفاً فلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين.

اللهم أسألك أن تحفظنا برأفتك من بين أيدينا ومن خلفنا وعن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا ومن تحتنا، وإننا نعوذ بكلماتك التامة من شر خلقك، اللهم أسألك باسمك الرؤوف ألَّا تنزع عنا سترك، ولا تُنسنا ذكرك، ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم يا الرؤوف أنت ربنا سبحانك لا إله إلا أنت خلقتنا ونحن عبادك ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا، اللهم أنت الرؤوف وسعت كل شيء رأفةً ورحمةً، اللهم إننا نلتجئ إليك من التجرؤ عليك، ونعتصم بك من تحليل حرام أو تحريم حلالٍ، يا ذا العفو والأفضال والعظمة والجلال، يا الرؤوف يا الرحيم يا الله.

اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وأنت ربنا المجير، نسألك أن تجيرنا من عذاب السعير، اللهم يا مالك أنفسنا نسألك أن تؤتي نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، فالحمد لك يا مالك الملك يا من تواضع كل شيء لعظمته وملكه، وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه، اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه نشهد أنه لا إله إلا أنت ونعوذ بك من شرور أنفسنا ومن شرور شيطان الجن والإنس، اللهم أنت مالك الملك وخالق الخلق وباسط الرزق، ما من شيء إلا وأنت آخذ بناصيته، فنسألك أن تأخذ بنواصينا التي تملكها إلى الخير، وتُملِكُنا نفوسنا وجوارحنا بكل خير، اللهم أنت مالك الملك، فإننا وجهنا وجوهنا إليك، وفوضا أمورنا إليك، وألجأنا أنفسنا إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنا بكتابك الذي

أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين، اللهم لا تملّك علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا الله يا مالك الملك.

اللهم يا ذو الجلال والإكرام أجلنا بعظمتك وأكرمنا بجودك وكرمك، اللهم إن جلالك هيبة فاجعلنا مهابين الجانب ولا تجعلنا من السفهاء، اللهم اجعلنا من الذين تُبدَّل سيئاتهم حسنات ومن الذين يتوبون إلى الله متابا، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا اللهم اجعلنا من الذين يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، اللهم اجعلنا من المستخلفين الوارثين الذين يجلونك طاعة بالوحدانية والصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيتك الحرام والجهاد في سبيلك عبادة، ونشهد أن جلالك إعجاز وإكرامك إعجاز فآمنا طائعين والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا المقسط اجعلنا عادلين مقسطين مع أبنائنا ووالدينا وزوجاتنا ومن لهم حق علينا، ولا تجعلنا ممن يظلمون الناس ويعتدون على ممتلكاتهم وحرماتهم، اللهم يا المقسط من مكر بالناس فأنت كفيل بالمكر به ومن يكيد للناس أنت كفيل بكيده اللهم إنك أمرت بالقسط فاجعلنا من المقسطين الذين يوفون الكيل ولا يطففون الميزان.

اللهم يا المقسط اجعلنا من الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، اللهم يا المقسط اجعلنا شهداء بالقسط واجعلنا من الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ.

اللهم يا المقسط اجعلنا من القَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ والشُهَدَاءَ لك بالحق وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.

اللهم إنك تحب المقسطين فاجعلنا من أحبائك واجعلنا إن حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ولا نظلم ولا نميل.

اللهم اجعلنا من الذين يوفون الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وهم لعهدك من الموفين. وَلَا نبْخَسُ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا نعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

اللهم باسمك الجامع اجمع شمل أمتنا على الحق وإحقاقه، واجعلنا من العاملين المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء بغير حق، اللهم باسمك الجامع أجمعنا على التقوى واجعلنا على الهداية والصراط المستقيم ولا تجمعنا على الفتنة ولا تجعلنا من الضالين، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك.

اللهم يا الجامع للأقوال والأعمال اجمع أقوالنا مع أعمالنا على أفعال الخيرات، اللهم يا الجامع للروح مع البدن مع النفس اجمعها فينا على الرحمة والمودة والمحبة ولا تجمعها فينا على الشقاء يا خالق الأرض والسماوات والعلا، اللهم أجمعنا على الحق ولا تجمعنا على الباطل، واجمعنا على الشهادة بوحدانيتك وطاعتك وطاعة رسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ولا تجمعنا على الكفر والشرك بك.

اللهم يا الجامع اجمع بيننا وبين الصالحين من عبادك لنكون من خلفائك الذين يصلحون ويأخذون على يد المفسدين، واجمع الخير في قلوبنا وأعمالنا، واجمع بيننا وبين ما تحب، وباعد بيننا وبين ما تكره كما باعدت بين المشرق والمغرب، واجمع بيننا وبين من ساروا في طريق الهداية في الجنة، وباعد بيننا وبين الكافرين والمنافقين الذين ستجمعهم النار الذين قلت فيهم: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[٩٦٧]، اللهم أبعدهم عنّا وأبعدنا عنهم في الدنيا وفي الآخرة.

اللهم إنك جمعت الماء في قلب السماء سحابا وسقته حيث تشاء لمن تشاء فلا تحرمنا من غيثك النافع واجمعنا في الأرض أخوة متحابين حتى ننال رضاك، اللهم إنك جمعت في نفوسنا مشاعر الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذي القربى فاجعلنا بحبلك معتصمين غير متفرقين، اللهم إنك جعلت صلاة الجمعة صلاة جامعة فاجعلنا من الذين يدرؤون البيع ويسعون إلى ذكرك واجعلنا من بعدها من الذين ينتشرون في الأرض إصلاحاً ولا تجعلنا من المفسدين، اللهم إنك جمعت الأحرف في الكلمة فاجمعنا على الشهادة والطاعة ويسر لنا من أمرنا رشدا. اللهم يا الجامع إنك جمعتنا يوم العيدين فلا تجعلنا من بعدهما مفتونين، وجمعتنا على جبل

---

[٩٦٧] النساء ١٤٠

عرفات نشهد لك بالوحدانية فاكتب لنا حَجَّة واجعلنا من بعدها معصومين من الوقوع في الخطيئة.

اللهم يا الجامع قد اجتمعنا في بيتك المحرم الذي جعلته للناس مثابة وَأَمْنًا واتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فاجعلنا آمنين مطمأنين وجمعتنا نسعى بين الصفا والمروة إظهارا للحق فاجعلنا قوة مجتمعة على الحق.

اللهم يا الغني أجعلنا بغناك على القوة ولا تجعلنا على الوهن والضعف، واجعلنا من الذين حاجاتهم مشبعة ولا تجعلنا من المحتاجين لأحد سواك، اللهم اجعل الغنى والطمأنينة في أنفسنا، واجعل العلم يملأ صدورنا، وآتينا الحكمة من خيرك الكثير، وازرع المحبة بيننا أخوة متلاقين على توحيدك يا واحد يا أحد يا مغني عن كل أحد، واروي ظمأنا بمائك العذب الطاهر، الذي تنهمر به السماء على الأرض وتثور به الينابيع وتفيض، وتجري به الأنهار والوديان، اللهم يا الغني إننا في حاجة إليك لا تجعلنا نلتجئ إلا إليك، توكلنا عليك، توكلنا عليك، توكلنا عليك، أنت الغني جل جلالك واحدا أحدا، لك الحمد ولك الشكر يا نعم المولى ونعم النصير.

اللهم إنك الغني عنا وعن أعمالنا ونحن الفقراء إليك وفي حاجة لأن نعمل ما يرضيك حتى ترضى عنا، اللهم يا الغني بالعلم والحكمة والقوة والقدرة والملك والعظمة يا علام الغيوم أغننا بواسع فضلك ونعمك ورحمتك في كل شروق وغروب، وأغننا بشكرك وحمدك في كل حركة وسكون، فإن حمدك وشكرك يزيدنا غننيً، وإن رضاك عنا يجعلنا من المستخلفين ويجعلنا من أصحاب الجنة فلك الحمد والشكر يا الغني يا من لا غنيٌّ غيرك.

اللهم يا المغني أغننا بحلالك عن حرامك، وبك عمن سواك، واجعلنا من المستعففين الذين تعفهم، واكتبنا من المستغنين الذين أغنيتهم، اللهم لا غنى لنا عن رزقك ورحمتك وإحسانك، وأنت الغني عن العالمين، والمغني للأولين والآخرين، فنسألك أن تغننا بكل خير وتمنع عنا كل شر في كل سماء وبحر وبر، اللهم يا الغني أغننا بتوحيدك وبالصلاة والسلام على رسولك محمد عليه الصلاة والسلام، واحشرنا في زمرته غير ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين فنسألك هذا الغنى يا المغني، واجعل اللهم غنانا من لدنك في

نفوسنا، واغرسه في قلوبنا، فمن كان غناه في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا، إنك الغني الحميد، اللهم يا الغني يا الحميد يا المبدئ يا المعيد يا الرحيم يا الودود أغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك وجودك وحلمك وحكمتك وعلمك وكرمك وقوتَك وقوَّتك ومقدرتك وعزتك إنك أنت الغني سبحانك، وأسألك يا المغني أن تغننا بالقرآن، فوالله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة، اللهم أغننا به إنك الغني الحميد.

اللهم يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا، وطهِّر قلوبنا من الغل والحسد والبغض والنميمة والتكبر والحقد، وامنع عنا شرور الناس، وأحفظنا منهم وأهدهم وأهدنا سبل النجاة والفلاح، اللهم يا المانع امنع عنا الاغترار بالدنيا وحبها والوقوف عند بابها والتشبث بها، ولا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم منها، اللهم امنع عنا عذابك وارحمنا إنك أنت الرحمن، اللهم امنع عنا نار جهنم وامنع عنا كل ما يقربنا إليها، وحبب وزين لنا كل ما يقربنا منك يا المانع يا الحفيظ يا الله.

اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطٍ لما منعت، اللهم امنع عنا شياطين الإنس والجن، وأرسل علينا حفظة يحفظوننا من كل سوء وشر، اللهم إننا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، فلا تمنع ذلك عنا، ولا تحرمنا منه، اللهم امنع عنا الظمأ والجوع والألم والحسد والضرر واجعلنا في نعيمك نعيش الرحمة، اللهم يا المانع لا تمنع عنا التواد والتراحم والإصلاح وامنع عنَّا كل فساد، اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع سخطك، اللهم أنت المانع فامنع عنا جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماتة الأعداء، اللهم أنت ربنا لا إله إلا أنت، عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم، اللهم إننا نعوذ بك من شر أنفسنا، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها فامنع عنا شرورها يا المانع إنك بنا رؤوف رحيم.

اللهم يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأهدنا فيمن هديت بجاه من رفع قواعد البيت وبجاه من طاف حوله وصلى وصليت، اللهم يا المانع أمنع عن قلوبنا وأنفسنا الغل الحسد والبغض والنميمة والحقد واجعلنا إخوة متحابين في محبتك، وامنع عنا شرور الناس، واحفظنا منهم وأهدهم وأهدنا سبل النجاة والفلاح يا ارحم الراحمين.

اللهم يا الضار أجعلنا بضرك ضارين لمن يريد إلحاق الضرر بالأرض والعباد، واجعلنا من مبطلي السحر الذي يفرق بين المرء وزوجه، وأحفظنا وأولادنا وزوجاتنا وأخوتنا من كل ضر وكيد ومكر وحسد، وأنر عقولنا بما ينفع يا النافع يا ذا الجلال والإكرام، فأنت بضرك يا ضار لما يضر ولمن يضر تُمكِّن عبادك المستخلفين فيها من الإصلاح والفلاح، اللهم اجعلنا من المصلحين ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء فيها بغير حق، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك فهب لنا القدرة والقوة التي بها نُحفظ من كل ضرر، ونتمكن من إلحاق الضر بكل مارد ضار، يا الله يا الضار يا عزيز يا غفار يا عالم الأسرار والأجهار يا خالق الليل والنهار والشجر والثمار وكل ما يعد ويحصى وكل مالا يعد ولا يحصى فبرحمتك ارحمنا بالقوة والقدرة والحكمة والعلم النافع يا نافع يا لله، وأحفظنا يا الضار من كل ضرر، ومن كل الشرور، إنك أنت النافع ولا نافع سواك سبحانك لا إله إلا أنت الضَّار جل جلالك.

اللهم يا النافع أنفعنا في الدارين نعمة ويقين، ومغفرة وجنة نعيم، وأرضى عنا اجمعين، اللهم إنك في السماء أنت ربا نافعا، وفي الأرض أنت ربا نافعا، وفي أنفسنا ربا نافعا، وفي الظاهر أنت وفي الباطن أنت ربا نافعا، أنت في سمعنا الحق، وفي بصرنا الحق، وأنت في حواسنا التامة حركة وسكون الفعل الحق، لا تشرق الشمس ضياء إلا بك، ولا يظهر القمر نورا إلا بك، وأنت النافع لا يهدأ الليل ويسكن إلا بك، فأنت جل جلالك مَالِكَ الْمُلْكِ وأنت النافع تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، وأنت النافع بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فأنت النافع الذي تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وأنت النافع تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ، سبحانك جل جلالك أنت في الدارين أنت النافع لا ملجأ منك إلا إليك، سبحانك أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم يا هادي أهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، اللهم إنك الهادي بالحق للحق أهدنا للحق بالحق واجعلنا من الراشدين، اللهم يا هادي أهدنا في من هديت، وأهدنا يا هادي لنتعاون على محبتك ونهتدي بهداك ونستقيم لأمرك، وننتهي عما نهيت، نعدل ولا نظلم، نُصلح ولا نُفسد، نصدق ولا نكذب، اللهم يا هادي

أهدنا للعلم ولا تجعلنا من الجاهلين، وأهدنا للقسط ولا تجعلنا من المطففين، وأهدنا للصلاة والزكاة وحج بيتك المحرم واجعلنا في شهرك المكرم من الصائمين، اللهم يا هادي اجعلنا من المتذكرين والمتفكرين ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم يا هادي أهدي أبناءنا لما تحبه وترضاه واجعلنا لهم من الراعين وأجعلهم لنا في غير معصيتك من الطائعين وأرضى عنا وعنهم وارحمنا إنك أنت الرحمن الرحيم.

اللهم يا البديع لا تجعلنا على بدعة واجعلنا من المبدعين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في كل حين، اللهم يا البديع للسماوات والأرض والبديع للروح والنفس والجسد قد خلقت الشيء وخلقت من الشيء أشياء، فاجعلنا من المتدبرين في آياتك وهم مطمئنون (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ)، اللهم يا البديع للجمال والأقوال والأفعال والأعمال والأزواج أجعل أقوالنا على الحق وأفعالنا على الحق وأعمالنا على الحق وأزواجنا على الحق إنك أنت البديع سبحانك محق الحق رب العالمين.

اللهم يا الباقي أجعلنا على الإيمان باقين، وبتوحيدك متمسكين ثابتين، وبالشرك كافرين، وعلى طاعتك مهتدين، اللهم أبقينا على العدل والرحمة، والصدق وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، اللهم أجعلنا يا الباقي على الإصلاح عاملين لا مفسدين، ولا تجعلنا من سافكي الدماء فيها بغير حق، ولا تجعلنا من الضالين ولا المغضوب عليهم ولا تجعلنا من الفاسقين الجاحدين لفضلك وكرمك وجودك سبحانك جل جلالك أنت ربُّ العالمين، اللهم اجعلنا من المستخلفين الوارثين في الدارين.

اللهم إنك أنت الباقي الدائم فاجعلنا على الحق باقين وعلى توحيدك وشكرك مداومين بك متصلين غير منقطعين، اللهم إنك الباقي مالك الملك الباقي وكل شيء غيرك هالك فاجعلنا على الإصلاح والفلاح ولا تجعلنا على الهلاك، اللهم يا الباقي نسألك أن تعصمنا من فتن

الدنيا وتوفقنا لما تحب وترضى، وأن تبارك لنا في الصالحات الباقيات من أعمالنا، تصلح لنا شأننا كله وتبقي علينا الصحة والعافية حتى نؤدي حق طاعتك وعبادتك علينا، ولا تضلنا وإن كنا ظلمنا أنفسنا فاغفر لنا سيئاتنا وأبقنا على الحسنات وضاعفها لنا، اللهم أنت الباقي الذي سبَّحت له السماوات بأكنافها، وسبَّحت له البحار بأمواجها، وسبَّحت له الجبال بأصدائها، وسبَّحت له الحيتان بلغاتها، وسبَّحت له النجوم في السماء بأبراجها، وسبَّحت له الأشجار بحفيفها وأصولها وثمارها، وسبَّحت له السماوات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن، وسبَّح له كل شيء من مخلوقاته، تباركت وتعاليت سبحانك، سبحانك يا الحي يا الدائم يا الباقي، كل شيء هالك إلا وجهك الكريم.

اللهم يا الوارث اجعلنا من الوارثين المستخلفين الفائزين في الدارين ولا تجعلنا من المحرومين والمغضوب عليهم ولا تجعلنا من المعذبين، اللهم اجعلنا من الذين ملكوا الشهادة لك بالوحدانية وهم طائعين لما جاء به رسولك الكريم وبه مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاتحين كل سبيل من أجل السلام، اللهم يا الوارث اجعلنا من العالمين ولا تجعلنا ولا تجعل أبناءنا من الجاهلين، اللهم اجعلهم وارثين للحُجَّة التي بها يحق الحق ويزهق الباطل، ومالكين للحكمة التي بها تصلح أحوالهم وفيها ما يحقق لهم طموحاتهم وآمالهم في طاعتك لا في معصيتك، اللهم اجعلهم الوارثين للعلم الذي ينفع والعمل الذي يرفع والقلب الذي يخشع والعين التي تدمع والدعوة التي يستجاب لها والحُجَّة التي يُنْساقُ إليها، اللهم أورثنا من ميراث النبوة العلم والنور وشفاء الصدور، واجعلنا في الآخرة من ورثة جنة النعيم مع الأنبياء والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللهم يا الرشيد يا ذا الحبل الشديد، والأمر الرشيد، نسألك الأمن يوم الوعيد، والجنة يوم الخلود، مع المقربين الشهود، والركع السجود، الموفين بالعهود، إنك الرحيم الودود، وأنت تفعل ما تريد، اللهم إن هذا اليوم من خلقك جديد، فافتحه علينا بطاعتك واختمه لنا بمغفرتك ورضوانك، وأرشدنا فيه إلى حسنة تقبلها منا، وزكها وضاعفها لنا، وما عملنا فيه من سيئة فاغفرها لنا، إنك الرشيد، والودود الكريم، اللهم أرشدنا إلى حسن دعائك الذي أمرتنا به، ووعدتنا إجابتك فقد

دعوناك كما أمرتنا، فأجبنا كما وعدتنا، اللهم بلغنا سبل الرشاد بهديك، وامنن علينا بمغفرة ليس بعدها ذنب، ورشادا ليس بعده ضلال، اللهم أرشد قلوبنا إلى طريق الصلاح، ونوّر عقولنا بسبل الهدى، واجعلنا من قوم تحبهم ويحبونك، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وهيئ لنا من أمرنا رشدا.

اللهم يا الصبور اجعلنا من الصابرين بالحق على الحق، واجعلنا من الصابرين بالعدل على العدل، واجعلنا من الصابرين على توحيدك وعبادتك واحدا أحدا، واجعلنا من الطائعين والمصلحين في الأرض ولا تجعلنا من المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق، اللهم اجعل ألسنتنا ناطقة بالحق، وقلوبنا مؤمنة به، وجوارحنا فاعلة وعاملة عليه، واجعلنا صابرين على نيل العلم وصابرين على محبة الخير وطاعة الوالدين ورضاك. اللهم اجعلنا صابرين على الكفر بالقول الباطل والفعل والعمل الباطل، بأبالسة الجن والإنس، ولا تجعلنا لهم طائعين ولا منهم خائفين، واجعلنا من الراكعين الساجدين لك ولا تجعلنا من الراكعين والساجدين لسواك.
اللهم صلي وسلم على صاحب الرسالة الخاتمة للناس كافة.
اللهم يا الصبور اجعل الصبر فينا رحمة واجعله طاعة لك بها تفرج الكرب وتمحو الخطايا وتغفر الذنوب وتستر العيوب وبها تتطهر أنفسنا وأبداننا وأرواحنا، اللهم إنك الصبور على ما يقول الكفرة والمشركين فاجعل الصبر فينا حتى يؤمنون، نسألك اللهم أن تلهمنا صبرا تحجب به طرفنا عن معصيتك، وتملأ قلبونا بخشيتك، ولا تجعلنا ممن يشتغل بغير طاعتك، وامنحنا من الصبر ما نغض به طرفنا عن النظر إلى المحرمات وتمنع به أنفسنا من تناول الشهوات في غير حق، وتجعلنا نخلو بطاعتك وعبادتك في الليالي المظلمات. اللهم ألهمنا الصبر وأعينا عليه، اللهم يا الصبور إذا ابتليتنا اجعلنا من الصابرين، واجعلنا من الشاكرين بما أنعمت علينا، اللهم يا الصبور إننا لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، ربنا آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار، واكتبنا مع الصابرين الذين يرثون الفردوس من الجنة يا الصبور يا الله.

موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ. د عقيل حسين عقيل
جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء العاشر

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

دار ابن كثير
دمشق - بيروت